

التبيين ديشيه سليمان بن ابراهيم

كتاب
الدين والادب
محمد بن عبد الله

كتاب الله
وكتابه

ترجمه
دكتور عبد الحليم محمود

دكتور محمد عبد الحليم محمود



دار المعارف

محمد رسول الله

اثنين دينيه

سليمان بن إبراهيم

مختصر سيرة النبي

ترجمة

دكتور عبد الحليم محمود

دكتور محمد عبد الحليم

الطبعة الثالثة



دار المعارف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ

تمهيد

حياة ناصر الدين دينيه وآراؤه

١

ناصر الدين والإسلام

نظرة الفنية والدينية :

ولد « ألفونس إتيين دينيه »^(١) في باريس سنة ١٨٦١ ، وعاش - رحمه الله - فناً بطبعه : كان مرهف الحس ، رقيق الشعور ، جياش العاطفة .

(١) ألفت المودة بين الأستاذ الأديب راشد رسم والمغفور له ناصر الدين ، وقد كان الأستاذ راشد أول من عرف المصريين به ، فقد ترجم رسالته : « أشعة خاصة بنور الإسلام » إلى اللغة العربية ، ونشرها في صورة حسنة . وحينما توفي ناصر الدين سنة ١٩٢٩ كتب الأستاذ راشد عنه مقالا في جريدة الأهرام . وقد استأذناه في الانتفاع بالترجمة العربية لرسالة « أشعة خاصة بنور الإسلام » عند المناسبات التي تعرض خلال عملنا هذا ، وكذلك في نشر مقاله الذي كتبه بجريدة الأهرام ، فأذن بذلك راضياً مغتبطاً ، ولا يسعنا إلا أن نسجل له الشكر الجزيل ، راجين من الله أن يجزيه أحسن الجزاء . وفيما يلي المقال المذكور : « مات هذا المستشرق النابه وقد احتشد حوله لتوديعه الدواع الأخير العدد العديد من كبار قومه الرسميين ، ومن أصدقائه وعارفى فضله من أهله ومن غير أهله من مثل الشعوب الشرقية التي أحبها وشدها . وقد وجب علينا - وإن كنا لم نقف هنالك في باريس مع الواقفين خاشعين - أن نبعث إلى روحه تحيات السلام والاعتراف بالجميل .

« أحب المسيو "دينيه" حياة العرب ، وهو ذلك الفنان الكبير ، فاتخذ له بينهم مقاماً محموداً في بلاد الجزائر ، في تلك الواحة الهادئة الجميلة "بوسعادة" ينتقل إليه ويسكنه نصف العام كاملاً ، يرتاح العرب وجريتهم ، ويروح عن نفسه بينهم ، وينعم بما في حياتهم من جلال تلك المناقب الماثورة عنهم ، وتلك المكارم المعروفة بهم ، والتي لا يميل إليها إلا عشاق الخيال السامى ، ولا ينشدها إلا أهل الفضائل العالية . وقد وضع في حياة العرب كتاباً جميلاً جليلاً ملأه باللوحات البديعة من ريشته القادرة ، ذات البلاغة في تصويرها ، والبيان في صحتها .

« والمسيو "دينيه" يبلغ من العمر سبعين عاماً ، وهو من كبار أهل الفن ورجال التصوير ، وصاحب اللوحات الكبيرة النفيسة القيمة ، تزدان بها جدران المعارض الفنية وتحفظ بها المتاحف الفرنسية الكبيرة وغيرها من متاحف العالم ، وله في متحف (لوكسمبرج) - وهو متحف كبار المصورين العصريين بباريس - عدة صور ، منها الصورة الشهيرة المعروفة باسم : (غداة رمضان) وكذلك له صورة في متحف (بو) وكذلك في متحف (سدني) بأستراليا ، وغير ذلك كثير .

وجميع صوره تدل على القدرة الفنية الكبيرة في رسم الصحراء ، كما تدل على دقة التمييز عن الحالات النفسية المختلفة . وهو ذو مركز خاص مشهود به بين إخوانه المصورين ، وامتاز عنهم بتخصصه في تصوير الحياة الإسلامية ، وبالأخص ما كان منها في بلاد الجزائر .

« وقد درس الروح العربية وفهمها الفهم الصحيح ، حتى قيل عنه : إنه المصور الفريد بين إخوانه ، الذي يستطيع تمثيلها بالريشة والألوان والأصباغ أحسن تمثيل ، وهم يقولون عنه إنه المصور " العربي " . وقد جاءت ترجمة المسيو "دينيه" وأعماله في معجم " لاروس " الكبير ، وفي معلة " هاشيت " للفنون الجميلة . وله عدة مؤلفات منها : كتاب (حياة العرب) الذي ذكرناه ، ومنها كتاب (السراب) =

وكان صاحب طبيعة متدينة أيضاً : كان كثير التفكير ، جم التأمل ، يسرح بخياله في ملكوت السموات والأرض ، يريد أن يخترق حججه ، ويكشف عن مساتيحه ويوصل . . . إلى الله .

== وكتاب (حياة الصحراء) ، وكتاب (ربيع القلوب) ، وكتاب (الشرق كما يراه الغرب) ، وكلها تشير إلى ما في طبيعته من الخلق الطيب ، وما يحمله في قلبه من الحب والتقدير للشرق والشرقيين .

« ومن أهم كتبه ما جعله تاريخاً لحياة الرسول سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - وهو السيرة النبوية في مجلد كبير جليل ، وضعه باللغة الفرنسية ، وزينه بالصور الملونة البديعة الكثيرة المتعددة ، من ريشته الخاصة ، يمثل فيها المناظر الإسلامية ، ومشاهد الدين ومعاله . وطبعه طبعاً غاية في الإتقان والعناية ، حتى إنه ليعد تحفة من تحف الطباعة .

« كل ذلك كان تقديرًا منه لموضوعه . ثم إنه قدمه لأرواح الجنود الإسلامية التي استشهدت في الحرب الكبرى وهي تحارب في صفوف الفرنسيين ، ونشره كذلك باللغة الإنجليزية بنفس الحجم الكبير والإتقان التام . والكتاب في طبيعته قد تحل بمختلف أنواع اللوحات الزخرفية الملونة ، ذات الأشكال العربية ، غاية في الدقة والإبداع ؛ وهي اللوحات التي قام بعملها خاصة لهذا الكتاب السيد محمد راسم الجزائري ، أشهر رجال الزخرفة العربية ، والذي أشار إليه المصنف « الأزار » ، الأستاذ بجامعة الجزائر ومدير متحفها ، وذلك في المحاضرة التي ألقاها في النادي الفرنسي بالقاهرة في شهر مارس سنة ١٩٢٩ . ويبلغ ثمن النسخة الواحدة من هذا الكتاب خمسة جنيهات مصرية .

« وما نظن أن العالم العربي قد قرأ للمصنف « دينيه » شيئاً بالعربية قبل تلك الرسالة التي عربناها له : (أشعة خاصة بنور الإسلام) والتي نشرت بمصر في هذا العام ، وهي التي جعلها بحثاً عصرياً في مبادئ الدين الإسلامي ، وأراد إظهار هذه المبادئ واضحة جلية ، وأنها تفضل مبادئ المدنيات الخاضرة . ولعل هذه الرسالة هي آخر ما كتب ، اللهم إلا إذا كان قد فرغ من (رحلة الحج) التي كان قد ذكر لنا أنه يشتغل بتدوينها همة ونشاط ، وذلك عقب عودته من بلاد الحجاز هذا العام ، بعد أن أدى فريضة الحج . وإذا سمحت لنا الحقيقة أن نقرر شيئاً فإنه ذكر لنا في كتابه إلينا أنه لاقى من التعب والمشاق الشيء الكثير ، رغم ما لاقاه من التكريم والعناية الخاصة ، ورغم نسيانه المشقة في سبيل الله ، وهو يدعو إلى إصلاح وسائل النقل والصحة وتنظيم الحياة لأولئك الألوف من الحجاج الذين يأتون رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق .

« والمصنف « دينيه » كاتب رقيق العبارة ، واسع الاطلاع ؛ لذلك فهو صحيح الحجة ناهض البرهان ، ثم هو شديد الهجوم شديد الدفاع ؛ ذلك لأنه غيور على مبدئه الذي لم يتخذه إلا بعد بحث وتفكير . وقد أعلن إسلامه رسمياً بالجامع الجديد بمدينة الجزائر في اجتماع حافل عام ١٩٢٧ وطلب أن يدفن في قبره مسلماً حنيفياً . وهو القبر الذي شيده لنفسه في باحة (بو سعادة) بالجزائر . وقد ذكرت الأهرام في تلغرافاتها الخصوصية أمس : أنه سيتقل إليها من فرنسا وفق وصيته ، ويقول إنه لم يسلم لمطعم أو مغن (والرجل غنى موسر الحال) وإنما أسلم لإرضاء ليقينه وضميره ، وإنه ناقش الناصرين والطاعين ، فخرج من « دينيه » إلى « ناصر الدين » .

« وله في بيان فضائل الشرقيين عامة والدفاع عنهم جولات قلمية ، ولوحات تصويرية تشهد له بإخلاصه في حب الشرق ، وتقوم دليلاً على حبه للعدل والإنصاف . وقد استفتاه بعضهم عن أمر الشرق والغرب فكتب يقول : « إن الغرب يخطئ النظر إلى الشرق ، مع أن الشرق على الغرب أفضلاً متأصلة في مدنيته ، متغلغلة في حياته ؛ ذلك من أثر الدينيات ، التي هو مدين فيها للشرق . ومن أثر المعاملات والاقتصاديات التي منشؤها اليهودية الشرقية ، ومن أثر الحياة الشريفة والحمة التقصاء التي منشؤها أفطمة الفروسية العربية ، ومن ثر علم البحار وعلم السماء وعلم الأبدان وعلم الكيمياء التي ابتدعت أصولها العقول الشرقية » .

كان فناً يمتلكه شعور ديني ، وكان دينياً يغمره ويسيطر عليه شعور فني .
وامتزج فيه الفن بالدين فكان مثلاً واضحاً للإنسان الملهم .

نشأ من أبوين مسيحيين ، وتلقن - بطبيعة الحال - العقائد المسيحية نظرياً ،
ومارسها عملياً ، وذهب به أبواه - ككل مسيحي - إلى التعميد وإلى الكنيسة ،
فشب وترعرع على عقيدة التثليث والصلب والفداء والغفران . . .

وعلى مر الزمن ، أخذت تستبين فيه طبيعته الفنية ، وأخذ يستولى عليه شعور
بالقلق والحيرة من الناحية الدينية . إن الفنان يتصور الخلود في دقة لا تتأق لغير
ذوى الشعور الفني ، ويتمنى الخلود ، ويريده ، ويعمل جاهداً لتكتب لوحاته
في سجل الخلود ، فتسمو على الزمن ، وترتفع عن حدود ما يتناهى .

وأصحاب الطوائف الدينية يفكرون في الخلود ، ويتمنونه ويريدونه ، ويعملون
جاهدين لكشف المعنى فيما يتعلق بمصيرهم الأبدي .

وكان « دينيه » يفكر في لوحاته ، ويفكر في مصيره ، ويعمل جاهداً ليبلغ
الذروة في الفن ، ويعمل جاهداً لإزالة الظلمة المتكاثفة في دائرة اللاهية .

وكانت هناك وسائل لصقل - للصقل لا للإيجاد - الطبيعة الفنية ، والاتجاه
بها نحو الكمال . وفي ذلك ما يطمئن ، نوعاً ما ، وفي ذلك علاج - بعض العلاج -
للقلق فيما يتعلق بالفن ، وقد جدد « دينيه » في استكمال وسائل الصقل ، النظرية
منها والعملية ، واتخذ لذلك الأسباب ، وأحسن من هذه الجهة ببعض الطمأنينة .

ولكن ما العلاج لطبيعته الدينية القلقة ؟ ليس لذلك من علاج سوى البحث
والتأمل وإطالة التفكير في الكون ، وفي النصوص المقدسة ، وفي العقائد التي يدين بها
الوسط المباشر والبيئة المحيطة . . . وفكر « دينيه » في المسيحية ، وفي الكنيسة ، وفي
البابا المعصوم ، وفي عقيدة التثليث والصلب والفداء والغفران . . .

== ويقول : « إن الشرق لم يضر للغرب الإساءة ، وإن الغرب يخطئ إذ يظن أن الشرق لا يستحق
العناية ، مع أن الشرق قد عرف كل دخائل الغرب ، وأنه مع ذلك لا يحمل له إلا السلامة » .
« وهكذا يقوم السيد ناصر الدين دينيه رسولاً للسلام بين الشرق والغرب ، وهو المثل الطيب لكل فرنسي
يجب بلاده الأصيلة ويجب الشرق الجميل النبيل . ومع أنه قد اعتنق الإسلام وعاش مسلماً ومات مسلماً ،
فإن ذلك لم يمنعه من أن يكون مقيماً على المهدي والإخلاص لبلاده المحبوبة ، وأن يجتمع حول نفسه رجال
فرنسا الرسميون من الوزراء ، يذكرون حسناته ، ويؤيدونه أحسن التأييد - ذلك لنيالة قصده ، وبتأنيده
إنسانيته » . (راشد رسم : الأهرام في ١٩/١٢/١٩٢٩) .

المسيح بن الله ! ! ! . . . وقد صلب ليظهر بنى البشر من اللعنة التى حلت بهم بسبب خطيئة آدم . . . ! ! إنه صلب ليفتدى البشر ، ثم هو ابن الله ، وهو الله . . . وهو بشر ، وهو إله . . . ! ! ويدور رأس دينيه فلا يكاد يرى بارقة من أمل فى أن يهتدى إلى الحق فى كل ذلك . . . وهل فى ذلك من حق ؟ ! . . وهل فى الظلمة من نور . . ؟ !

الأنجيل الحالية غير صحيحة :

ومع ذلك فلم يأس ، بل أعاد قراءة الأنجيل من جديد محاولاً جهده أن يراها تتسم بسمه الحق ، فيؤمن بابن الله ، وبالكاثوليكية . ولكنه رأى فيها ما يتنافى مع الصورة المثلى للإنسان الكامل فضلاً عن الصورة التى تريد المسيحية أن توحى بها : فمن أقوال المسيح التى فيها حطة واحتقار لأمه العذراء ما صدر منه فى عرس « قانا » : « وفى اليوم الثالث كان عرس فى قانا الجليل ، وكانت أم يسوع هناك ، ودعاً أيضاً يسوع تلاميذه إلى العرس . ولما فرغت الخمر قالت أم يسوع له : ليس لهم خمر . قال يسوع : مالى ومالك يا امرأة » (١) .

ومن أقواله التى تحمل فى طياتها اللعنة على شجرة تين لم تحمل ثمرها ، لأنه لم يكن موسم تين : « فنظر شجرة تين من بعيد ، عليها ورق ، وجاء لعله يجد فيها شيئاً ، فلما جاء إليها لم يجد شيئاً إلا ورقاً ، لأنه لم يكن وقت التين . فتعجب يسوع وقال لها : لا يأكل أحد منك ثمراً بعد إلى الأبد . وكان تلاميذه يسمعون » (٢) .

كذلك من أقواله الدالة على كرهه الغرب : « . . . وإذا امرأة كنعانية خارجة من تلك التخوم صرخت إليه قائلة : ارحمنى يا سيد يابن داوود ، ابنتى مجذونة جداً . فلم يجبها بكلمة ، فتقدم تلاميذه وطلبوا إليه قائلين : اصرفها لأنها تصيح وراءنا . فأجاب وقال : لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة » (٣) .

(١) إنجيل يوحنا ، الإصحاح الثانى عشر . هذا ما يقوله الإنجيل فيما يتعلق بصلبة المسيح بأمه . أما القرآن فإنه يقول : « فأشارت إليه ، قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبياً ؟ قال : إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً وجعلني مباركاً أينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً ، وبرراً بالحق . ولم يجعلني جباراً شقياً ، والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً » .

(٢) إنجيل مرقس : الإصحاح الحادى عشر .

(٣) إنجيل متى : الإصحاح الخامس عشر .

ومن أقواله التي توجب كراهية الأقرباء : « إن كان أحد يأتي إلى ولا يبغض أباه وأمه ، وامراته وأولاده ، وإخوته وأخواته ، حتى نفسه أيضاً ، فلا يقدر أن يكون لي تلميذاً » (١) .

ومن أقواله التي فيها اعتراف بالجهل : « . . . وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بها أحد ولا الملائكة الذين في السماء ، ولا الابن إلا الآب » (٢) .
« هذه النصوص تبعث في النفس الشك في صحة الأناجيل التي بين أيدينا » (٣) .

صحة الأناجيل :

وأداه ذلك إلى البحث في صحة الأناجيل ، وفي قيمتها من الناحية التاريخية . وكانت نتيجة بحثه : أنه لا شك أن الله قد أوحى الإنجيل إلى عيسى بلغته ولغة قومه ، ولا شك أيضاً أن هذا الإنجيل قد ضاع واندر ، ولم يبق له أثر ، أو أنه باد . أو أنه قد أبيد (٤) .

ولذا قد جعلوا مكانه « تليفات » أربعاً ، مشكوكاً في صحتها وفي نسبتها التاريخية . كما أنها مكتوبة باللغة اليونانية ، وهي لغة لا تتفق طبيعتها مع لغة عيسى الأصلية التي هي لغة سامية : لذلك كانت صلة السماء بهذه الأناجيل اليونانية أضعف بكثير من صلتها بتوراة اليهود (٥) . . . ورأى — في النهاية — في وضوح : « أن الديانة الكاثوليكية لا تتحمل البحث والمناقشة . فقد أظهرت الأدلة العديدة — سواء أكانت أخلاقية أم تاريخية أم علمية أم لغوية ، أم ببيكولوجية أم دينية — أن الكاثوليكية ملأى بالأغلاط الواضحة » . ولم يمكنه أن يقول ما قال القديس « أوغسطين » مما يعتبر شعار كل مسيحي : « إني أومن بذلك : لأن ذلك غير معقول » (٦) . . .

(١) إنجيل لوقا : الإصحاح الرابع عشر .

(٢) إنجيل مرقس : الإصحاح الثالث عشر .

(٣) عن « أشعة خاصة بنور الإسلام » .

(٤) عن « أشعة خاصة بنور الإسلام » .

(٥) عن « أشعة خاصة بنور الإسلام » .

(٦) لا شك أن « دينيه » اطلع على مؤلفات « رينان » الذي كتب عن المسيح ، عليه السلام ، كتاباً يشتهر فيه : « أن السيد المسيح لم يكن إلهاً ولا ابن إله ، وإنما هو إنسان يمتاز بالخلق السامي والروح الكريمة » . و « رينان » لم يكن متطرفاً في حكمه ، فقد أثبت على كل حال وجود المسيح وجوداً تاريخياً حقيقياً . ولكن آخرين أخذوا ينتقون في بطون الكتب ، ويتبعون الروايات ، فأنهوا إلى عدم الاطمئنان بوجود المسيح تاريخياً . من هؤلاء « بايه » ، أستاذ علم الاجتماع بجامعة « السوربون » ، الذي اشترك مع =

وثار شعوره الديني على أوضاع مبهمة ، وألفاظ غامضة ، ومشاكل لا تحل ، وانتهى به المطاف : بعد بحث وجدل ومناظرات وتأملات ، إلى رفض المسيحية ، وبلغت حيرته حيثئذ أشدها ، ولكن اليأس لم يتطرق إلى نفسه قط . وإذا لم يجد الهداية في المسيحية فليس معنى ذلك أنه لن يجدها مطلقاً . إن الحقيقة عزيزة المنال ، ولكنها موجودة : والسبيل إليها : البحث .

الالتجاء إلى العقل :

ورأى « دينيه » أن يتجه إلى العقل ، يستمد منه الهداية إلى الطريق المستقيم ؛ ولكنه انتهى إلى أن العقل عاجز في ميدان ما وراء الطبيعة ، وفي الواقع : « يسعى كثير من ذوى العقول المستنيرة - بعد أن أفاقوا من غفلتهم ، وبعد أن رأوا إخفاق مذهب استقلال العقل بالمعرفة - لتعرف طريق الهداية وأن مذهب الحلدس الذي يتهافون عليه خلف حامل لوائه المسيو « برجسون » الشهير ، هو عبارة عن رد فعل واضح لمذهب استقلال العقل بالمعرفة ، أو هو - وهو الأصح - رد فعل لعجز هذا المذهب

« فقد جلد هذا المفكر - في قلوب الناس النهمين إلى الإيمان - آمالاً كان يظهر أنها ضاعت ضياعاً نهائياً ؛ فهو يأذن لهم بأن يأملوا في خلود الروح ، ويقول لهم : إن الدنيا ليست مشتبهاً عظيماً لقوى عمياء ، وإن العقل ليس هو الطريقة الوحيدة للمعرفة » (١)

أخفقت المسيحية في إرضاء ضميره الديني ، وأخفق العقل في قيادته إلى النور ، إلام يتجه إذن ؟

المسيحيون الذين أسلموا :

وتلفت حوله ونظر : ماذا فعل أمثاله ممن شكوا في المسيحية وشكوا في العقل ؟...

= زميلين له في تأليف كتاب يهدف إلى إثبات أن المسيح أسطورة وأن انتشار المسيحية لم يكن إلا لأسباب سياسية مجتة ، أما الأستاذ « جينيير » ، أستاذ تاريخ الأديان بالسوربون إلى عهد قريب ، فقد أثبت في عدة مؤلفات ذات شهرة عالمية - أثبت بما لا يدع مجالاً للشك ، أن المسيحية الحالية ليست هي مسيحية المسيح ، بل لا تمت إلى مسيحية المسيح بصلة ، اللهم إلا الصلة الاسمية .
(١) ناصر الدين : محمد .

فرأى : « أن نفرأ من النصارى فى مختلف الأقطار الأوربية دانوا بالإسلام فى الأعوام الأخيرة . . ويكثر عددهم على مر الأيام . وفى لندن وليفربول جماعات إسلامية ذات شأن حقيقى ، منهم فريق من أعيان الإنجليز » (١)

ورأى « أن الذين يعتنقون الإسلام فى وقتنا هذا من المسيحيين وغيرهم : إنما هم من الخاصة ، سواء كانوا فى الهيئات الاجتماعية الأوربية : أو الأمريكية . كما أن إخلاصهم فى ذلك لا شك فيه . لأنهم أبعد ما يكونون عن الأغراض المادية » (٢) .
وتبين له « أنه يوجد فى جميع أنحاء أوربا وأمريكا من اعتنقوا الإسلام . وإذا كان هذا الأمر لا يزال قليل الأهمية إذا نظرنا إلى قلة عدد المعتنقين — وإن كان عددهم لا بأس به — فإنه ذو أهمية كبرى ، نظراً لمركز هؤلاء المعتنقين الذين ينتمون إلى الطبقات الراقية المتعلمة ، وتذكر منهم على سبيل المثال " اللورد هيدلى " الإنجليزى : وصديقنا المأسوف عليه المرحوم « كرستيان شرفيس » أحد تلاميذ "أغست كروم" ، وأديباً من أدباء فرنسا المحدثين ، وفيلسوفاً من فلاسفتها المشهورين » (٣) .

ومما لا ريب فيه أن هناك مفكرين منصفين — لا غربيين فحسب — بل عالميين أيضاً ، درسوا الإسلام دراسة عميقة ، فأحببه البعض وناصره ، وآمن به البعض الآخر وأعلن إسلامه وصدق فيه . ويقول أحدهم (٤) :

« إننى أعتقد أن هناك آلافاً من الرجال والنساء أيضاً ، مسلمون قلباً . ولكن خوف الانتقاد ، والرغبة فى الابتعاد عن التعب الناشئ عن التغيير ، تأمرا على منعهم من إظهار معتقداتهم » .

ونحب أن نعرض فيما يلى لأمثلة من هؤلاء المفكرين المنصفين الذين لاشك أنهم قد قرأ لهم دينيه وتتبع آراءهم .

« الكونت هنرى دى كاسترى » :

وقصة تفكيره فى دراسته للإسلام قصة طريفة :

(١) ناصر الدين : الشرق فى نظر الغرب .

(٢) أشعة خاصة بنور الإسلام .

(٣) الحج إلى بيت الله الحرام ، لناصر الدين ، ترجمة م . توفيق أحمد .

(٤) اللورد « هيدلى » .

كان من كبار الموظفين بالجزائر ، رغم سنه المبكرة ، وكان يسير ممتطياً صهوة جواده . ويسير خلفه ثلاثون من فرسان العرب الأقوياء ، فخوراً بمركزه . وكان يملؤه الغرور ، للمدح الذى يزجيه إليه هؤلاء الذين تحت إمرته .
وفجأة وجدهم يقولون له ، فى شىء من الخشونة : وفى كثير من الاعتداد بالنفس :

« لقد حان موعد صلاة العصر » .

ودون أن يستأذنيه فى الوقوف ، ترحلوا واصطفوا للصلاة متجهين إلى القبلة ، ودوت فى أرجاء الصحراء كلمة الإسلام الخالدة : « الله أكبر . . . »
شعر الكونت فى هذه اللحظة بشىء من المهانة فى نفسه ، وبكثير من الإكبار والإعجاب بهؤلاء الذين لا يبالون به ، ذلك لأنهم اتجهوا إلى الله وحده ، بكل كيانهم ، وبدأ يتساءل :

ما الإسلام ؟ أهو ذلك الدين الذى تصوره الكنيسة فى صورة بشعة . تنفر منها النفس ، ولا يطمئن إليها الوجدان . . ؟

وبدأ يدرس الإسلام ، وتغيرت فكرته عنه . ورأى من واجبه أن يعلن ما اهتدى إليه ، فكان كتاب : « الإسلام : خواطر وسوانح »^(١) .

وفى هذا الكتاب الطريف تحدث عن كثير من جوانب الإسلام ، سواء أكان ذلك فيما يتعلق بالرسول ، أم فيما يتعلق بالتعاليم الإسلامية . وقد تحدث — فضلاً عن ذلك — عن آراء مواطنيه ، وخصوصاً القدماء منهم فى صورة من السخرية : والتهكم :

« وذهبوا إلى أن محمداً وضع دينه بادعائه الألوهية .

« ومن المستغربات قولهم : إن محمداً الذى هو عدو الأصنام ومبيد الأوثان ، كان يدعو الناس لعبادته فى صورة وثن من ذهب .

« بل لقد أغرق خيالهم فى الضلال : فذهبوا إلى أبعد من ذلك .

« وذهبوا إلى أن صورة " ما هوم " (٢) كانت تصنع من أنفس الأحجار

والمعادن بأحكام صنع وأدق إتقان » .

(١) ونحن نعتمد على هذا الكتاب على الخصوص فى هذا المقال .

(٢) المقصود محمد صلى الله عليه وسلم .

وبعد أن ذكر الكثير من آرائهم قال :

« ولقد أطلنا القول في تلك الأضاليل ، لأن تاريخ إسكندر^(١) المذكور لم يزها ، ولأنها تركت أثراً في الأذهان وصل إلى أهل هذه الأيام ، وتشبعت به أفكارهم في النبي وكتابه » .

ولكن ما سر هذه الحملة الشعواء الضالة التي تهزأ بالحق والضمير ، والتي لا يقرها دين أيّاً كان ؟

« ولو سألت سائل : هل كان أولئك المفسرون يعتقدون صحة ما يقولون ؟ لأجبتاه : لا— ونعم ، إذ من المحقق أن الاختلاط بين المسيحيين والمسلمين سهل للمنشدين معرفة الدين الحمدي على حقيقته ، ولكنهم ما كانوا يقصدون الحقائق التاريخية في أناشيدهم . بل حفظ روح البغضاء في نفوس قومهم » .
هل هذه الروح التي كانت سائدة عند المسيحيين تجاه الإسلام اقتصررت على العصور الوسطى ؟ كلا . . .

« فلم يزل هذا الروح سائداً عند المسيحيين حتى أن المستشرق ” بريدو “ الإنجليزى ألف سنة ١٧٣٣ كتاباً في سيرة النبي عنوانه : ” حياة ذى البدع محمد “ ، وترجمه بعضهم إلى لغتنا ، وجعل له مقدمة بين فيها مقصد المؤلف فقال : . . .
« إن غرض واضع هذا الكتاب هو خدمة المقصد المسيحي الحكيم » .
ثم يعقب الكونت على ذلك بهذه الكلمة الحكيمة :

« أولئك كتاب ما قصدهوا التاريخ ، ولكنهم أرادوا خدمة المقصد المسيحي الحكيم كما يقولون ، وكان سلاحهم الوحيد في تأييد سواقط حججهم أن يشبعوا خصمهم سباً وشتماً ، وأن يحرفوا في النقل ما استطاعوا » .
ثم يأخذ الكونت في الرد على الافتراءات : ومن أولى هذه الافتراءات : أن الرسول . صلوات الله عليه ، كان يقرأ ويكتب ، فقرأ التوراة وقرأ الإنجيل وأخذ تعاليمه منهما .

(١) ألف القسيس : « إسكندر دويون » كتاباً عام ١٢٥٨ م عن محمد ، وكان الناس يعدونه تاريخاً صحيحاً للرسول مع أنه ليس كذلك .

وقد رد القرآن على هذه الفرية فقال : (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه يمينك . إذاً لارتاب المبطلون . . .)
ويقول الكونت في هذا المعنى :

« ما كان يقرأ ولا يكتب ، بل كان كما وصف نفسه مراراً - نبياً أميناً - وهو وصف لم يعارضه فيه أحد من معاصريه ، ولا شك أنه يستحيل على رجل في الشرق أن يتلقى العلم بحيث لا يعلمه الناس ، لأن حياة الشرقيين كلها ظاهرة للعيان ، على أن القراءة والكتابة كانت معدومة في ذلك الحين من تلك الأقطار ، ولم يكن بمكة قارئ أو كاتب سوى رجل واحد ذكره « جارسين دى تاسي » في كتابه الذي طبعه سنة ١٨٧٤ ، كذلك من الخطأ مع معرفة أخلاق الشرقيين أن يستدل على معرفة النبي للقراءة والكتابة باختيار السيدة خديجة ، رضى الله عنها ، إياه لمتاجرها في الشام ، ولم تكن لتعهد إليه أعمالها إن كان جاهلاً غير متعلم ، فإننا نشاهد بين تجار كل قوم غير العرب وكلاء لا يقرأون ولا يكتبون ، وهم في الغالب أكثرهم أمانة وصدقاً .

« أما فكرة التوحيد : فيستحيل أن يكون هذا الاعتقاد وصل إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - من مطالعته التوراة والإنجيل ، إذ لو قرأ تلك الكتب لردّها ، لاحتوائها على مذهب التثليث ، وهو مناقض لفطرته ، مخالف لوجدانه منذ خلقه ، فظهور هذا الاعتقاد بواسطته دفعة واحدة هو أعظم مظهر في حياته ، وهو بذاته أكبر دليل على صدقه في رسالته وأمانته في نبوته » .

أما صدق الرسول وسمو رسالته ، فقد أخذ كثير من رجال الكنيسة ومن رجال الاستعمار يشككون فيهما ، ورغم الوضوح الواضح في صدق الرسول وفي سمو الرسالة الإسلامية ، فإن رجال الدين من المسيحيين ورجال الاستعمار لا يزالون يبدئون ويعيدون في ترداد التشكيك . إلى هؤلاء وأولئك يقول الكونت :

« والعقل يحار كيف يتأتى أن تصدر تلك الآيات عن رجل أمي ، وقد اعترف الشرق قاطبة بأنها آيات يعجز فكر بني الإنسان عن الإتيان بمثلها لفظاً ومعنى ، آيات لما سمعها عقبة بن ربيعة حار في جمالها ، وكفى رفيع عبارتها لإقناع عمر بن الخطاب ، فأمن برب قائلها ، وفاضت عين نجاشي الحبشة بالدموع لما تلا عليه

جعفر بن أبى طالب سورة مريم وما جاء فى ولادة يحيى

« فلما كان اليوم الثانى طلب النجاشى جعفرأ ، وأشار إليه بتلاوة ما فى القرآن عن المسيح ، ففعل ، واستغرب الملك لما سمع أن المسيح عبد الله ورسوله ، وروح منه ، ونزل فى أمه مريم ، وأعجب أشد الإعجاب بهذه المعانى ، وحمى المسلمين ، ولم يسلمهم إلى رسل قريش ، ولم ينقهم من بلاده . »

أما هؤلاء الذين بلغ بهم التعسف مداه ، فظنوا أن هذه الفترات التى يغيب فيها الرسول عن هذا العالم ليكون بكليته مستغرقاً فى الملائ الأعل . إنما هى فترات مرضية ، أو هى الصرع ، ورغم تكذيب الطب لمزاعمهم مستنداً إلى الاختلاف الكلى بين أعراض الصرع وأعراض الوحى ، فقد أعماههم التعصب عن رؤية الحقيقة .
وللهم يقول الكونيت :

« ومن ذلك الحين — أى البعثة — أخذت شفتاه تنطق بالألفاظ بعضها أشد قوة وأبعد مرمى من بعض ، والأفكار تندفق من فمه على الدوام إلى أن يقف لسانه ولا يطيعه الصوت ، ولا يجد من الألفاظ ما يعبر به عن فكر قد ارتفع عن مدارك الإنسان ، وسما عن أن يترجمه قلم أو لسان . وكانت تلك الانفعالات تظهر على وجهه بادية ، فظن بعضهم أن به جنة ، وهو رأى باطل ، لأنه بدأ رسالته بعد الأربعين ، ولم يشاهد عليه قبل ذلك أى اعتلال فى الجسم أو اضطراب فى القوة المادية ، وليس من الناس من عرف الناس جميعاً أحواله فى حياته كلها مثل النبى ، صلى الله عليه وسلم ، فلقد وصل المحدثون عنه إلى أنهم كانوا يعدون الشعر الأبيض فى لحيته ولو أنه كان مريضاً لما أخفى مرضه لأن المرض فى مثل تلك الأحوال يعتبر أمراً سماوياً عند الشرقيين . »

« وليست حالة محمد صلى الله عليه وسلم فى انفعالاته وتأثيراته بحالة ذى جنة . بل كانت مثل التى قال نبي بنى إسرائيل فى وصفها : لقد شعرت بأن قلبى انكسر بين أضلعى . وارتعشت منى العظام . فصرت كالنشوان ، لما قام بى من الشعور عند سماع صوت الله وأقواله المقدسة . »

ونختم الحديث عن آراء الكونت بهذا الوصف الرائع لتلك الساعة الأليمة ،
التي فارق فيها الرسول عالمنا الدنيوي ، ليلحق بالرفيق الأعلى ، ولينعم برضوان الله ،
إذ يقول :

« ولما أحس بقرب الأجل ذكر الفقراء . فإنه لم يرغب طول حياته في المال ،
بل كان كلما جمع إليه شيء منه أنفقه في الصدقات ، وكان قد أعطى عائشة
يسيراً لتحفظه ، فلما حضره المرض أمر بإنفاقه على المعززين لساعته ، وغاب في
سنة . ولما أفاق سألها إن كانت أنفذت أمره ، فأجابته : كلا ، فأمر بالنقود وأشار
إلى العائلات المعوزات ، فوزع عليهم ، وقال :
« الآن استراح قلبي ، فإنني كنت أخشى أن ألاقى ربي وأنا أملك هذا
المال . »

« وكان في مرضه يخرج كل يوم ليصلي الظهر بالناس ، وآخر يوم خرج فيه
هو الثامن من شهر يونية سنة ٦٣٢ . وكانت مشيته مضطربة ، فتوكأ على الفضل بن
العباس وعلى بن أبي طالب . وقصد منبر الخطابة الذي كان يعظ الناس عليه قبل
الصلاة وحمد الله وأثنى عليه ، ثم خطب في المسلمين بصوت رفيع سمعه من كان
خارج المسجد فقال ما معناه :

« أيها الذين تسمعون قولي ، إن كنت ضربت أحدكم على ظهره فدونه ظهري
فليضربه . وإن كنت أسأت سمعة أحد فليستقم من سمعتي ، وإن كنت سلبت
أحداً ماله فأليه مالى يقتص منه وهو في حل من غضبي ، فإن الغل بعيد عن
قلبي !

« ثم نزل من على المنبر وصلى بالجماعة ، ولما أراد الانصراف أمسك به رجل من
إزاره وطلب منه ثلاثة دراهم ديناً له . فأداها على الفور قائلاً :
« نخزي الدنيا أهون من نخزي الآخرة . »

« ثم دعا لمن حارب معه في أحد وسأل الله لهم الرحمة والغفران . »

« وكان مشهد النبي بين المؤمنين في ذلك اليوم مشهد جلال ووقار ، والناس
يلمحون على وجهه تأثير السم الذي شربه من يد يهودية خبير ، وقلوبهم متفطرة من
الوجد عليه . ذلك أنه لما كان في واقعة خبير ، قدمت إليه يهودية اسمها ، زينب ،

شاة مشوية أضافت إليها سمّاً . فأخذ منه النبي قطعة واحدة بين شفتيه وأحس بأنها مسمومة ، فألقاها . ثم لما حضرته الوفاة بعد حين ، كان يقول : ما « زالت تعاودني أكلة خبير » .

« وكان أبو بكر نفسه يبكي ويقول للرسول : ” هلا افتدينا روحك بأرواحنا ؟ ” ثم أوصله الصحابة إلى بيت عائشة واضطجع تعباً مهزولاً وصار المرض يشتد عليه ، فتخلف عن الصلاة بالمسلمين ، وقيل له : قد جاء وقت الظهر ، فأشار إلى أبي بكر ليصلي بالناس . فكان من وراء هذه الإشارة خلافة أبي بكر بعد النبي .

« وأخبرت عائشة رضى الله عنها عن حالة الاحتضار فقالت : ” كان رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مسنداً إلى صدرى ، وبقربه قدر ماء ، وكان يقوم ليضع فيها يده ويمسح جبينه ، ويقول : ” رب أعنى على تحمل سكرات الموت ، اذن منى يا جبريل ، رب اغفرلى واجمع بين أصدقائى فى السماء ” . ثم نقلت رأسه ومال ثانية إلى صدرى ” . »

« كارلايل » :

وكارلايل أحد كبار كتاب الإنجليز ، شاعرى النزعة والفطرة ، متحرر من الرياء والخبث ، يتبع البطولة ، فيكتب عنها ويمتدحها . ويحب الناس فى السموم بأنفسهم إلى منازل الأبطال ، أو على الأقل إلى التشبه بهم ، وقد أثار كتابه ، « الأبطال » إعجاباً فى ميدان الفكر العالمى ، وترجم إلى كل اللغات الحية ، وحينما ترجمه المرحوم محمد السباعى إلى اللغة العربية ، أثار الكثير من الإعجاب . وقد كان لأسلوب الأستاذ السباعى البارع أثر فى انتشار الكتاب ، ومن لم يقرأه لمعانيه قرأه لأسلوبه ، وفى هذا الكتاب فصل مستفيض عن حياة الرسول صلوات الله عليه ، نفتطف منه ما يلى :

« من العار أن يصغى أى إنسان متمدين من أبناء هذا الجيل إلى وهم القائلين : إن دين الإسلام كذب ، وإن محمداً لم يكن على حق .

« لقد آن لنا أن نحارب هذه الادعاءات السخيفة المخجلة ، فالرسالة التى دعا إليها هذا النبي . ظلت سراجاً منيراً أربعة عشر قرناً من الزمان . للملايين كثيرة من الناس . فهل من المعقول أن تكون هذه الرسالة التى عاشت عليها هذه الملايين ،

وماتت ، أكذوبة كاذب ، أو خديعة مخادع ؟ ولو أن الكذب والتضليل يروجان عند الخلق هذا الرواج الكبير لأصبحت الحياة سخفاً وعبثاً ، وكان الأجدر بها ألا توجد .

« هل رأيتم رجلاً كاذباً ، يستطيع أن يخلق ديناً ، ويتعهده بالنشر بهذه الصورة ؟ إن الرجل الكاذب لا يستطيع أن يبني بيتاً من الطوب ، لجهله بخصائص مراد البناء . وإذا بناه فما ذلك الذى يبنيه إلا كومة من أخلاط هذه المواد ، فما بالك بالذى يبنى بيتاً دعائمه هذه القرون ، العديدة وتسكنه هذه الملايين الكثيرة من الناس ؟ ! وعلى ذلك فمن الخطأ أن نعد محمداً رجلاً كاذباً متصنعاً . متذرعاً بالحيل والوسائل لغاية أو مطمع . . . وما الرسالة التى أداها إلا الصدق والحق .

« وما كلمته إلا صوت حق صادق صادر من العالم المجهول . . . وما هو إلا شهاب أضاء العالم أجمع ، ذلك أمر الله . . . وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

« أحب محمداً ، لبراء طبعه من الرياء والتصنع . ولقد كان ابن الصحراء مستقل الرأى ، لا يعتمد إلا على نفسه ، ولا يدعى ما ليس فيه ، ولم يكن متكبراً ولا ذليلاً ، فهو قائم فى ثوبه المرقع ، كما أوجده الله ، يخاطب بقوله الحر المبين أكاسرة العجم وقياصرة الروم ، يرشدهم إلى ما يجب عليهم لهذه الحياة ، والحياة الآخرة .

« وما كان محمد يعاشق قط ، ولا شاب قوله شائبة لعب وطهو ، فكانت المسائل عنده مسألة فناء وبقاء ، أما التلاعب بالأقوال والعبث بالحقائق ، فما كان من عادته قط .

« ويزعم المتعصبون أن محمداً لم يكن يريد بدعوته غير الشهرة الشخصية والحياة والسلطان . . . كلا واسم الله . لقد انطلقت من فؤاد ذلك الرجل الكبير النفس ، المملوء رحمة وبراً وحناناً ، وخيراً ونوراً وحكمة ، أفكار غير الطمع الدنيوى ، وأهداف سامية غير طلب الجاه والسلطان .

« ويزعم الكاذبون أن الطمع وحب الدنيا هو الذى أقام محمداً وأثاره . حمق وسخافة وهوس إن رأينا رأيهم . أية فائدة لرجل على هذه الصورة فى جميع بلاد العرب ، وفى تاج قيصر وصوبلحان كسرى جميع ما بالأرض من تيجان . . . !

« لم يكن كغيره ، يرضى بالأوضاع الكاذبة ، ويسير تبعاً للاعتبارات الباطلة ، ولم يقبل أن يتشع بالأكاذيب والأباطيل .

« لقد كان منفرداً بنفسه العظيمة ، وبحقائق الكون والكائنات ، لقد كان سر الوجود يسطع أمام عينه بأهواله ومحاسنه ومخاوفه .

« لهذا جاء صوت هذا الرجل منبعثاً من قلب الطبيعة ذاتها . . . لهذا وجدنا الأذان إليه مصغية ، والقلوب لما يقول واعية .

« لقد كان زاهداً متقدماً في مسكنه ومأكله ومشربه وملبسه ، وسائر أموره وأحواله ، فكان طعامه ، عادة ، الخبز والماء . وكثيراً ما تنابعت الشهور ولم توقد بداره نار .

« فهل بعد ذلك مكربة ومفخرة ؟ فحبذا محمد من رجل متكشف خشن الملبس والمأكل ، مجتهد في الله ، دائب في نشر دين الله ، غير طامع إلى ما يطمح إليه غيره من رتبة أو دولة أو سلطان .

« ولو كان غير ذلك لما استطاع أن يلاقى من العرب الغلاظ احتراماً وإجلالاً ولا كباراً ، ولما استطاع أن يقودهم ويعاشرهم معظم وقته ، ثلاثاً وعشرين حجة وهم ملتفون حوله ، يقاتلون بين يديه ويجاهدون معه . . . لقد كان في قلوب العرب جفاء وغلاظة ، وكان من الصعب قيادتهم وتوجيههم . لهذا كان من يقدر على ترويضهم وتذليلهم بطلا . وإيم الله .

« ولولا ما وجدوا فيه من آيات النبيل والفضل لما خضعوا لإرادته ، ولما انقادوا لمشيئته .

« وفي ظني أنه لو وضع قيصر بتاجه وصوبلجانه وسط هؤلاء القوم بدل هذا النبي ، لما استطاع قيصر أن يجبرهم على طاعته ، كما استطاع هذا النبي في ثوبه المرقع . . . !

« هكذا تكون العظمة . . . !

« وهكذا تكون البطولة . . . !

« وهكذا تكون العبقرية . . . ! »

« تولستوى » :

ولعلنا لسنا بحاجة إلى الحديث عن « تولستوى » أديب وكاتب روسيا الأعظم . لقد كان من هؤلاء الذين سمى نفوسهم إلى درجة لا نكاد نجد لها مثيلاً في التاريخ إلا نادراً . كانت سعادة الإنسانية همه الملازم في كل آونة . كان باستمرار يفكر في تخفيف ويلات بنى الإنسانية ، في معالجة مرضاهم ، في تسلية بائسهم ، في إطعام جائعهم ، في التخفيف عن منكوبهم وكل العباقة الذين تسمو بهم عبقريتهم عن المستوى العادى ، صادف في حياته العقبات والآلام ، وبغض الحاقدين ، وكراهية الذين لا يحبون الحق .

ومن مآثره الكريمة : أنه حينما رأى الحملة الظالمة على الإسلام ، وعلى رسول الإسلام ، كتب رأيه في هذا الدين الذى أعجب به وتحدث عن رسوله الذى نال إكباره ، وكان جزاؤه على ذلك ، أى على كلمة الحق التى يدين بها : أن حرمه البابا من رحمة الله ، فكان ذلك كما يقول الشيخ محمد عبده مخاطباً الأديب الكبير : « فليس ما حصل لك من رؤساء الدين سوى اعتراف منهم أعلنوه للناس : أنك لست من القوم الضالين » .

ونحن ننشر هنا كلمة صغيرة جداً من رأيه ، ثم ننشر خطاب الشيخ محمد عبده الذى وجهه إليه :

يقول « تولستوى » :

« لا ريب أن هذا النبي من كبار الرجال المصلحين الذين خدموا الهيئة الاجتماعية خدمة جليلة . ويكفيه فخراً : أنه هدى أمة برمتها إلى نور الحق ، وجعلها تنجح للسلام ، وتكف عن سفك الدماء وتقديم الضحايا »
« ويكفيه فخراً : أنه فتح طريق الرقى والتقدم ، وهذا عمل عظيم لا يفوز به إلا شخص أوفى قوة وحكمة وعلماً ، ورجل مثله جدير بالاحترام والإجلال »

أما خطاب الشيخ محمد عبده فهو التالى (١) :

« أيها الحكيم الجليل مسيو تولستوى .

« لم نحظ بمعرفة شخصك ، ولكننا لم نحرم التعارف مع روحك . سطع علينا

(١) وقد نشره الشيخ رشيد رضا في كتابه عن الشيخ محمد عبده .

نور من أفكارك ، وأشرق في آفاقنا شمس من آرائك ألقت بين نفوس العقلاء ونفسك ، هداك الله إلى معرفة سر الفطرة التي فطر الناس عليها ، ووفقك إلى الغاية التي هدى البشر إليها ، فأدركت أن الإنسان جاء هذا الوجود لينبت بالعلم ، ويشمر بالعمل ، ولأن تكون ثمرته تعباً ترتاح به نفسه ، وسعيّاً يبقو ويربى جنسه ، وشعرت بالشقاء الذي نزل بالناس ، لما انحرفوا عن سنة الفطرة ، وبما استعملوا قواهم التي لم يمنحوها إلا ليسعدوا بها ، فيما كدر راحتهم ، وزعزع طمأنينتهم . . .

« ونظرت نظرة في الدين مزقت حجب التقاليد ، ووصلت بها إلى حقيقة التوحيد ، ورفعت صوتك تدعو الناس إلى ما هداك الله إليه ، وتقدمت أمامهم بالعمل لتحمل نفوسهم عليه ، فكما كنت بقولك هادياً للعقول ، كنت بعملك حاثاً للعزائم والهمم . وكما كانت آراؤك ضياء يهتدى بها الضالون كان مثالك في العمل إماماً يقتدى به المسترشدون .

« وكما كان وجودك توبيخاً من الله للأغنياء ، كان مدداً من عنايته للضعفاء والفقراء . وإن أرفع مجد بلغته ، وأكبر جزاء نلته على متاعبك ، في النصيح والإرشاد ، هو هذا الذي سماه الغافلون بالحرمان والإبعاد ، فليس ما حصل لك من رؤساء الدين سوى اعتراف منهم أعلنوه للناس أنك لست من القوم الضالين . فاحمد الله على أن فارتوك في أقوالهم . . . كما كنت فارقتهم في عقائدهم .

« هذا وإن نفوسنا لشيقة إلى ما يتجدد من آثار قلبك . فيما تستقبل من أيام عمرك .

« وإنا نسأل الله أن يمد في حياتك ، ويحفظ عليك قواك . ويفتح أبواب القلوب لفهم قواك ، ويسوق النفوس إلى التأسي بك في عملك . والسلام . . . »

« اللورد هيدلي » :

كان لإسلام اللورد هيدلي ضجة كبيرة ، لمركزه ولما يعلمه فيه عارفوه من نضج في التفكير ، وترو في الأمور .

كيف أسلم اللورد هيدلي ؟

ما هي العوامل التي دعت إلى اعتناق الإسلام ؟ !

إننا في الصفحات التالية سنذكر جملة من النصوص ترشد القارئ إلى سبب رفضه المسيحية وإلى سبب إسلامه . وإلى تصويره لكثير من وجهات النظر الإسلامية .

وهو يقول :

« عندما كنت أفضى - أنا نفسى - الزمن الطويل من حياتى الأولى في جو المسيحية ، كنت أشعر دائماً أن الدين الإسلامى به الحسن ، والسهولة ، وأنه خلو من عقائد الرومان والبروتستانت . . !

« وثبتنى في هذا الاعتقاد زيارتى للشرق التى أعقبت ذلك ، ودراسى القرآن المجيد . . . »

له الله . . . لكم تألم وقاسى في سبيل وصوله إلى الحق . . استمع إليه يقول :

« فكرت وصليت أربعين سنة ، كى أصل إلى حل صحيح .
« ويجب على أن أعترف أيضاً أن زيارتى للشرق ملائتني احتراماً عظيماً للدين المحمدى السلس الذى يجعل الإنسان يعبد الله حقيقة طول مدة الحياة ، لا في أيام الآحاد فقط . »

ويرى أن الإسلام هو الدين العالمى حقاً :

« أيمكن إذن ، أن يوجد دين يمكن العالم الإنسانى من أن يجمع أمره على عبادة الله الواحد الحقيقى ، الذى هو فوق الجميع ، وأمام الجميع ، بطريقة سهلة خالية من الحشو ؟ . . . »

« فكر لحظة - وذلك تفكير لازم لكمال البشر في الحقيقة - أنه لو أصبح كل فرد في الإمبراطورية الإنجليزية محمدياً حقيقياً بقلبه وروحه لأصبحت إدارة الأحكام أسهل من ذلك ، لأن الناس سيعملون بدين حقيقى . »

وها هو ذا يعبر عن الشكر حينها هداه الله :

« روح الشكر هى خلاصة الدين الإسلامى ، والابتهاال أصل في طلب القيادة والإرشاد من الله . »

« إنه وإن كان شكرى لله على كرمه وعنايته كان متأصلاً في من صغرى وأيام حدثتى ، إلا أننى لا أستطيع أن أشاهد ذلك من خلال السنين القليلة الماضية

التي قرع فيها الدين الإسلامي لبي حقاً وتملك رشدى صدقاً ، وأقننى نقاؤه ، وأصبح حقيقة راسخة في عقلى وفؤادى ، إلا التقيت بسعادة وطمأنينة ما رأيتهما قط من قبل ، كما أستنشق هواء البحر الخالص النقي ويتحققى من سلاسة وضياء وعظمة الإسلام ومجده ، أصبحت كرجل فر من سرداب مظلم إلى فسيح من الأرض تضيئه شمس النهار » .

ومما يذكر من تعاليم الإسلام مشيداً به :

« ليس هناك في الإسلام إلا إله واحد نعبده ونتبعه ، إنه أمام الجميع وفوق الجميع ، وليس هناك قدوس آخر نشركه معه ، إنه لمن المدهش حقاً أن تكون المخلوقات البشرية ذوات العقول والألباب على هذا القدر من الغباوة فيسمحن للمعتقدات والحيل الكهنوتية أن تحجب عن نظرهم رؤية السماء ، رؤية أبيهم القهار المتصل دوماً بكل مخلوقاته ، سواء كانوا عاديين أم أولياء مقدسين .
« مفتاح السماء موجود دائماً في مكانه ، ويمكن إدارته لأذل وأقل المخلوقات دون أية مساعدة من نبي أو كاهن أو ملك . إنه كالهواء الذي نستشقه مجاناً لكل خلق الله .

« أما هؤلاء الذين يجعلون الناس يفهمون غير ذلك ، فما دعاهم إلى هذا العمل إلا حب الفائدة .

« ليس غرضى الرئيسى أن أهاجم أى فرع معين من فروع الديانة ، لأبين جلال وسلاسة الديانة الإسلامية ، التي هي خالية في نظر الكاتب المنصف من العوائق الظاهرة جلياً في كثير من الديانات الأخرى »

ولقد افترى كثير على الإسلام وهاهو ذا يرد على افتراءاتهم .

« ليس في وسع الإنسان ، في الحقيقة ، إلا أن يعتقد أن مديحى وناسجى هذه الافتراءات ، لم يتعلموا ، حتى ولا أول مبادئ دينهم ، وإلا لما استطاعوا أن ينشروا في جميع أنحاء العالم ، تقارير معروفاً لديهم أنها محض كذب واختلاق .

« إن تعاليم القرآن الكريم قد نفذت ومورست في خلال حياة محمد الذى - سواء في أيام تحمله الألم والاضطهاد ، أو في زمن انتصاره ونجاحه - أظهر أشرف الصفات الخلقية التي لا يتسنى لمخلوق آخر إظهارها .

« فكل صفات الصبر والثبات في عصره كانت ترى أثناء الثلاث عشرة سنة التي تألمها في مجاهداته الأولى بمكة . ولم يشعر في كل زمن هذا الجهاد بأى تزعزع في الثقة بالله ، وأتم كل واجباته بشمم وحمية .

« كان ، صلى الله عليه وسلم ، مثابراً ، ولا يخشى أعداءه لأنه كان يعلم بأنه مكلف بهذه المأمورية من قبل الله . ومن كلفه بهذا العمل لن يتخلى عنه . .

« وقد أثارت تلك الشجاعة التي لا تعرف الجفول — تلك الشجاعة التي كانت حقاً لإحدى مميزاته وأوصافه العظيمة — إعجاب واحترام الكافرين وأولئك الذين كانوا يشتمون قتله . . . ومع ذلك فقد انتهت مشاعرنا ، وازداد إعجابنا به بعد ذلك في حياته الأخيرة ، أيام انتصاره بالمدينة ، عندما كانت له القوة والقدرة على الانتقام ، واستطاعته الأخذ بالتأثر ولم يفعل ، بل عفا عن كل أعدائه .

« العفو والإحسان والشجاعة ، ومثل هاتيك الصفات ، كانت ترى منه في كل تلك المدة ، حتى إن عدداً عظيماً من الكافرين اهتدوا إلى الإسلام عند رؤية ذلك .

« عفا بلا قيد ولا شرط عن كل هؤلاء الذين اضطهدوه وعذبوه ، آوى إليه كل الذين كانوا قد نفوه من مكة ، وأغنى فقراءهم وعفا عن ألد أعدائه ، عندما كانت حياتهم في قبضة يده تحت رحمته . . . !

« تلك الأخلاق الربانية التي أظهرها النبي الكريم ، أقنعت العرب بأن حائزها يجب أن لا يكون إلا من عند الله ، وأن يكون رجلاً على الصراط المستقيم حقاً . وكرهيتهم المتأصلة في نفوسهم ، حولتها تلك الأخلاق الشريفة إلى محبة وصدقة متينة .

« محمد المثل الكامل . . .

« نحن نعتبر أن نبي بلاد العرب الكريم ، ذو أخلاق متينة ، وشخصية حقيقية ، وزنت واختبرت في كل خطوة من خطا حياته ، ولم ير فيها أقل نقص قط .

« وبما أننا في احتياج إلى نموذج كامل نبني بحاجتنا في خطوات الحياة ، فحياة النبي المقدس تسد تلك الحاجة .

حياة محمد كمرآة أمامنا تعكس علينا التعقل الراقى ، والسخاء والكرم ،
والشجاعة والإقدام ، والصبر والحلم ، والوداعة والعفو ، وباقي الأخلاق الجوهرية
التي تكون الإنسانية .

« ونرى ذلك فيها بألوان وضاعة . . . خذ أى وجه من وجوه الآداب وأنت تتأكد
بأنك تجده موضحاً في إحدى حوادث حياته .

« ومحمد وصل إلى أعظم قوة ، وأتى إليه مقاوموه وجدوا منه شفقة لا تجارى ،
وكان ذلك سبباً في هدايتهم . . . ! »

رحم الله اللورد هيدلى وجزاه عن الإسلام خير الجزاء . . .

« الشيخ عبد الواحد يحى : »

ولعل « دينيه » قد اتصل في أواخر حياته بمفكر آخر من أعلام المفكرين ،
هو العالم الفيلسوف الحكيم ، الصبرى « ريتيه جينو » الذى يدعى اسمه في أوروبا
قاطية وفي أمريكا ، والذى يعرفه كل هؤلاء الذين يتصلون بالدراسات الفلسفية
والدينية . وقد كان إسلامه ثورة كبرى هزت ضمائر الكثيرين من ذوى البصائر
الطاهرة ، فافتدوا به ، واعتنقوا الإسلام ، وكونوا جماعات مؤمنة مخلصه ، تعبد
الله على يقين في معاول الكاثوليكية في الغرب .

وكان سبب إسلامه بسيطاً منطقياً في آن واحد :

لقد أراد أن يعتصم بنص مقدس ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ،
فلم يجد — بعد دراسة عميقة — سوى القرآن ، فهو الكتاب الوحيد الذى لم ينله
التحريف ولا التبديل ، لأن الله تكفل بحفظه ، وحفظه حقيقة : « إنا نحن نزلنا
الذكر وإنا له لحافظون » .

لم يجد سوى القرآن نصاً مقدساً صحيحاً ، فاعتصم به ، وسار تحت لوائه ،
فغمره الأمن النفساني في رحاب الفرقان .

ومؤلفاته كثيرة مشهورة ، من بينها كتاب « أزمة العالم الحديث » ، يتن فيه
الانحراف الذى تسير فيه أوروبا الآن ، والضلال المبين الذى أعمى الغرب عن
سواء السبيل .

أما كتابه : « الشرق والغرب » فهو من الكتب الخالدة ، التى تجعل كل

شرق يفخر بشريته . وقد رد فيه إلى الشرق اعتباره . مبيناً أصالته في الحضارة ، وسموه في التفكير ، وإنسانيته التي لا تقاس بها مادية الغرب وفساده وامتصاصه للدماء ، وعدوانه الذي لا يقف عند حد ، وظلمه المؤسس على المادية والاستغلال ، ومظهراً في كل صفحة من صفحاته نبل الشرقيين وعمقهم ، وفهمهم للأمور فهماً يتفق مع الفضيلة ومع أسمی المبادئ الإنسانية . . . !

وقد كتبنا عنه تقريراً لإحدى جامعاتنا المصرية ، للتعريف به ، ننشره فيما يلي :

«رينيه جينو : من الشخصيات التي أخذت مكانها في التاريخ ، يضعه المسلمون بجوار الإمام الغزالي وأمثاله ، ويضعه غير المسلمين بجوار أفلاطون ، صاحب الأفلاطونية الحديثة ، وأمثاله .

« وإذا كان الشخص ، في بيئتنا الحالية ، لا يقدر التقدير الذي يستحقه إلا بعد وفاته ، فقد كان من حسن حظ ”رينيه جينو“ أنه قدر أثناء حياته ، وقدر بعد وفاته . أما في أثناء حياته ، فكان أول تقدير له : أن حرمت الكنيسة قراءة كتبه ، والكنيسة لا تفعل هذا إلا مع كبار المفكرين الذين تخشى خطرهم ، وقد وضعته بذلك بجوار عباقرة الفكر ، الذين اتخذت تجاههم نفس المسلك ، ولكنها رأت في ”رينيه جينو“ خطراً يكبر كل خطر سابق ، فحرمت حتى الحديث عنه .

« وإذا كان هذا تقديراً سلبياً له قيمته ، فهناك التقدير الإيجابي ، الذي لا يقل في أهميته عن التقدير السلبي ، فهناك هؤلاء الذين استجابوا للدعوة ”رينيه جينو“ فألفوا جمعيات في جميع العواصم الكبرى في العالم ، وعلى الخصوص في سويسرا وفي فرنسا . والمكونون لهذه الجمعيات احتذوا حذو ”رينيه جينو“ ، فاتخذوا الإسلام ديناً ، والطهارة والإخلاص وطاعة الله ، شعاراً وديناً . ويكونون ، وسط هذه المادية السابغة ، وهذه الشهوات المتغلبة ، واحات جميلة يلجأ إليها كل من أراد الطهر والطمأنينة .

« ومن التقدير الإيجابي أيضاً ، أن كتبه ، رغم تحريم الكنيسة لقراءتها ، قد انتشرت في جميع أرجاء العالم ، وطبعت المرة بعد الأخرى ، وترجم الكثير منها إلى جميع اللغات الحية الناهضة ، ما عدا العربية ، للأسف الشديد .

« ومن الطريف : أن بعض الكتب ترجم إلى لغة الهند الصينية ، ووضعت

كشرح للوصية الأخيرة من وصايا "الدالاي لاما". ولم يكن يوجد في الغرب شخص متخصص في تاريخ الأديان ، إلا وهو على علم بأراء "رينيه جينو".

« كل هذا التقدير كان في حياته .

» أما بعد مماته ، فقد زاد هذا التقدير : لقد كتب عنه جميع صحف العالم ، ومنها بعض الصحف المصرية العربية .

» وقد خصصت له مجلة : " فرنسا - آسيا " ، وهي مجلة محترمة ، عدداً ضخماً ، كتب فيه كبار الكتاب الشرقيين والغربيين ، وافتتحته بتقدير كاتب فرنسا الأكبر " أندريه جيد " وقوله في صراحة لا لبس فيها : إن آراء " رينيه جينو " لا تنقض .

» وخصصت مجلة " إيتودترا ديسيونيل " ، وهي المجلة التي تعتبر في الغرب كله لسان التصوف الصحيح ، عدداً ضخماً من أعدادها ، كتب فيه أيضاً كبار الكتاب الشرقيين والغربيين .

» ثم خصص له الكاتب الصحفي الشهير ، " بول سيران " ، كتاباً ضخماً تحدث فيه عن حياته وعن آرائه ، ووضعه ، كما وضعه الآخرون الذين كتبوا عنه ، في المكان اللائق به ، بجوار الإمام الغزالي أو الحكيم أفلوطين .

» نشأ " رينيه جينو " في فرنسا من أسرة كاثوليكية ، ثرية محافظة ، نشأ مرهف الحس ، مرهف الشعور ، مرهف الوجدان ، متجهاً بطبيعته ، إلى التفكير العميق والأبحاث الدقيقة ، وهاله ، حينما فضج تفكيره ، ما عليه قومه من ضلال ، فأخذ يبحث ، في جد عن الحقيقة ، ولكن أين هي ؟ أفى الشرق أم في الغرب ؟ وهل هي في السماء أو في الأرض .

» أين الحقيقة ؟ سؤال . وجهه " رينيه جينو " إلى نفسه ، كما وجهه من قبل إلى نفسه الإمام المحاسبي ، والإمام الغزالي ، والإمام محيي الدين بن عربي ، وكما وجهه من قبلهم عشرات من المفكرين الذين أبوا أن يستقيموا للتقليد الأعمى . . . وتأق فترة الشك والحيرة والألم الممض ، ثم يأتي عون الله . وكان عون الله ، بالنسبة إلى " رينيه جينو " : أن بهرته أشعة الإسلام الخالدة . وغمره ضياؤه الباهر ، فاعتنقه

وتسمى باسم الشيخ عبد الواحد يحجي ، وأصبح جندياً من جنوده يدافع عنه ويدعو إليه .

« ومن أمثلة ذلك ما كتبه في كتابه ”رمزية الصليب“ تفنيدياً للفرية التي تقول : إن الإسلام انتشر بالسيف . ومن أمثلة ذلك أيضاً ما كتبه في مجلة ”كاييه دى سود“ في عددها الخاص بالإسلام والغرب دفاعاً عن الروحانية الإسلامية : لقد أنكر الغربيون روحانية الإسلام أو قللوا من شأنها ، وأشادوا بروحانية المسيحية وأكبروا من شأنها ، ووضعوا التصوف المسيحي في أسنى مكانة وقللوا من شأن التصوف الإسلامي . فكتب الشيخ عبد الواحد يحجي ، مبيناً سمو التصوف الإسلامي وروعته ؛ وقارن بينه وبين ما يسمونه بالتصوف المسيحي ، أو ”المستيزم“ ، وانتهى بأن هذا المستيزم لا يمكنه أن يبلغ ، ولا عن بعد ، ما بلغه التصوف الإسلامي من سمو ومن جلال .

« على أن الشيخ عبد الواحد يحجي لم يشد بالإسلام فحسب ، وإنما أشاد في جميع كتبه ، وفي مواضع لا يأتي عليها الحصر ، بالشرق .

« لقد دأب الاستعمار على أن يغرس في نفوس الشرقيين : أنهم أقل حضارة ، بل أقل إنسانية من الغربيين . . . وأتى الشيخ عبد الواحد ، فقلب الأوضاع رأساً على عقب ، وبين للشرقيين قيمتهم وأنهم منبع النور والهداية ، ومشرق الوحي والإلهام » .

« الدكتور جرينيه » :

قال الرحالة السيد محمود سالم ، في مقال له ، نشر في مجلة المنار ، مجلد ١٤ ص ٥١٨ : قصدت ، في سياحاتي ، مدينة ”بونتارليه“ لمقابلة الدكتور ”جرينيه“ المسلم الف نساوى الشهير ، الذى كان فى السابق عضواً فى مجلس النواب . قابلته لأجل أن أسأله عن سبب إسلامه . فقال : « لى تتبعت كل الآيات القرآنية التى لها ارتباط بالعلوم الطبية والصحية والطبيعية ، والى درستها من صغرى ، وأعلمها جيداً . فوجدت هذه الآيات منطبقة كل الانطباق على معارفنا الحديثة . فأسلمت لأنى تيقنت أن محمداً ، صلى الله عليه وسلم ، أتى بالحق الصراح من قبل ألف سنة ، من قبل أن يكون معلم أو مدرس من البشر . ولو أن كل صاحب فن من الفنون ،

أو علم من العلوم ، قارن كل الآيات القرآنية المرتبطة بما تعلم جيداً ، كما قارنت أنا . . . لأسلم بلا شك ، إن كان عاقلاً خالياً من الأغراض .

لماذا أسلم « دينيه » ؟

ولنعد إلى « دينيه » ، فنتساءل : كيف ولماذا أسلم ؟ وما الميزات والخصائص التي جعلته يمنح الإسلام من الثقة ما لم يمنحه للمسيحية ؟
لقد كانت الشكوك الكثيرة تدور في نفسه ، عندما وقعت في يده نسخة من مجلة إنجليزية ، فإذا به يجد فيها جواباً عن أسئلته ، إذ قرأ فيها :

« لماذا صار بعض الإنجليز وغيرهم من الأوروبيين مسلمين ؟

« ذلك لأنهم كانوا يتلمسون عقيدة سهلة معقولة ، عملية في جوهرها — لأننا معاشر الإنجليز نتبجح بأننا أكثر أهل الأرض تشبهاً بالعمل — عقيدة تكون ملائمة لأحوال جميع الشعوب وعاداتهم وأعمالهم ، عقيدة دينية صحيحة يقف بها المخلق أمام الخالق بدون أن يكون بينهما وسيط » .

أحق هذا ؟

إن « دينيه » لا يأخذ الأشياء قضية مسلمة . وإذا كان العقل يعجز عن اختراق الحجب ليصل إلى ما وراء الطبيعة ، فإنه مع ذلك الأداة التي ترشدنا إلى وجه الحق فيما يعرض لنا من أمور . فأخذ يزن الأمور . . . وأخذ يبحث . . .
أحق أن الإسلام « هو العقيدة الدينية الصحيحة »

صلاحية العقيدة الإسلامية لكل زمان ومكان :

وكان من التوفيق أن سافر « دينيه » إذ ذاك إلى الجزائر ، وتنقل في بلاد المغرب ، فخالط المسلمين وعاشرهم ، وسمع منهم ، وسألمهم وناقشهم ، وفكر وتأمل ، فرأى ، كما يذكر في رسالته « أشعة خاصة بنور الإسلام » :

« أن العقيدة المحمدية لا تقف عقبة في سبيل التفكير ؛ فقد يكون المرء صحيح الإسلام ، وفي الوقت نفسه حر التفكير .

« وكما أن الإسلام قد صلح — منذ نشأته — لجميع الشعوب والأجناس ، فهو صالح كذلك لكل أنواع العقليات وجميع درجات المذنيات ، وأن تعاليم المعتزلة ، ذات القرابة المستترة والصلة الخفية بتعاليم الصوفية ، تجد مكاناً رجباً وقبولاً

حسناً ورضاء سهلاً ، سواء عند العالم الأوربي ، أو عند الزنجي الإفريقي وهو الذى يصعب على المرء تخليصه من معتقداته الخرافية ومن معبوداته وأصنامة .

« وبينما تجد الإسلام يهيج من نفس الرجل العملى فى أسواق لندن ، حيث مبدأ القوم ” الوقت من ذهب “ إذ هو يأخذ بلب ذلك الفيلسوف الرومانى .

» وكما يتقبله — عن رضا — ذلك الشرق ذو التأملات ورب الخيال ، إذ يهواه ذلك الغربى الذى أفناه الفن وتملكه الشعر »^(١) .

لقد وقرت هذه الفكرة فى نفس « دينيه » حتى إنه ليردها فى الكثير من كتبه فيما بعد . يقول فى آخر كتبه « الحج إلى بيت الله الحرام » : « لو كان الإسلام الحقيقى معروفاً فى أوربا لكان من المحتمل أن ينال — أكثر من أى دين آخر — من العطف والتأييد من جراء روح التدين التى نجمت عن الحرب الكبرى ، فإنه — والحق يقال — يلائم جميع ميول معتنقيه على اختلاف مشاربهم ، فهو ببساطته المتناهية — كما يذهب إليه المعتزلة — وباشمالة على روح التصوف — كما يذهب إليه الصوفية — يهدى علماء أوربا وآسيا إلى الطريق المستقيم ، ويجدون فيه تعزية وسلوى من غير أن يحول بينهم وبين حريتهم التامة فى آرائهم وأفكارهم .

» كما أنه تعزية وهدى لزوج السودان الذين ينتزعهم من أحضان أوهامهم الوثنية . . .

« ويرقى بروح ذلك التاجر الإنجليزى ، رجل العمل الذى يعتبر الوقت من ذهب ، كما يرقى بروح الفيلسوف المتدين ، ويسمو بنفس الغربى الشغوف بالفن والشعر ، بل هو يسحر لب الطبيب العصرى بما قرره من الوضوء المتكرر كل يوم ، وبما فى الصلاة من حركات منتظمة تفيد الجسم والروح معاً . وفى وسع حر الفكر — وهو ليس ملحداً حتماً — أن يعتبر الوحي الإسلامى عملاً من أعمال تلك القوة الخفية التى نسميها ” الإلهام “ ، وأن يعتقد به من غير أية صعوبة بما أنه لا يحتوى على أسرار خفية لا يسيغها العقل »^(٢) .

ويردد الفكرة نفسها فى كتابه عن حياة سيدنا محمد . لقد رسخت هذه الفكرة

(١) عن « أشعة خاصة بنور الإسلام » .

(٢) من كتاب « الحج إلى بيت الله الحرام » .

في نفسه من أول وهلة واستمرت معه إلى نهاية حياته : لقد وقر في ذهنه أن الإسلام دين عام خالد .

الموازنة بين الإسلام والمسيحية :

ولكنه لأجل أن يتبين - في وضوح - الفروق الجوهرية بين الإسلام والمسيحية ، ولأجل أن يصل إلى الحد الأسمى فيما يتعلق بالإخلاص لضميره الديني ، أخذ يوازن موازنة قيمة بين الإسلام والمسيحية فرأى :

(أ) فيما يتعلق بالإله :

« الدين الإسلامي هو الدين الوحيد الذي لم يتخذ فيه الإله شكلاً بشرياً ، أو ما إلى ذلك من الأشكال . أما في المسيحية فإن لفظ " الله " تحيطها تلك الصورة الآدمية لرجل شيخ طاعن في السن قد بانث عليه جميع دلائل الكبر والشيخوخة والانحلال ، فمن تعاجيد بالوجه غائرة ، إلى لحية بيضاء مرسله مهملة تثير في النفس ذكرى الموت والفناء . ونسمع القوم يصيحون " ليحيا الله " فلا نرى للغرابة محلاً ، ولا نعجب لصيحتهم وهم ينظرون إلى رمز الأبدية الدائمة وقد تمثل أمامهم شيخاً هرمًا قد بلغ أُرذل العمر . فكيف لا ينجشون عليه من الهلاك والفناء ؟ وكيف لا يطلبون له الحياة ؟ ! ! »

« كذلك " ياهو " الذي يمثلون به طهارة التوحيد اليهودي ، فهم يجعلونه في مثل تلك المظاهر المتهالكة ، وكذلك تراه في متحف " الفاتيكان " ، وفي نسخ الأناجيل المصورة القديمة .

« أما " الله " في دين الإسلام الذي حدث عنه القرآن ، فلم يجرؤ مصور أو نحّات أن تجرى به ريشته ، أو ينحته لإزميله ؛ ذلك لأن " الله " لم يخلق الخلق على صورته . وتعالى سبحانه فلم تكن له صورة ، ولا حدود محصورة ، وهو الواحد الأحد الفرد الصمد ، لم يكن له كفواً أحد » (١) .

(ب) فيما يتعلق بالصلاة والنظافة :

« إن الحركات والإشارات في الصلاة الإسلامية هي ذات بساطة ولطافة ونبالة لم يسبق لها مثيل من نوعها في صلاة غيرها .

(١) أشعة خاصة بنور الإسلام .

« كما أنها لا تدعو الوجوه بالتظاهر والتكلف ، ولا العيون بالشخص إلى السماء واستنزال الدموع الذى تذكرنا بالدموع الجليسيرينية التى يصطنعها ممثلو "السينما" فى عصرنا الحاضر . حقاً إن الصورة الإسلامية خالية من تلك الأمور الشائنة التى خصها المسيحيون بالصلاة المسيحية ، مما جعلها فى غير جمال ولا جلال ولا وقار . والأقوال والحركات التى فى الصلاة الإسلامية هى ذات دلالة على الرزانة والهدوء والاطمئنان ، وهى خالية من مبالغات الورع وتكلفات الخضوع ، والتظاهر بذلك مما هو غريب فى العبادات ، لأن الله سبحانه وتعالى عليم بما فى الصدور وهو الغنى الحميد .

« ثم إن من الأمور الغريبة تخصيص وجود الإله فى السماء عند دعوته ؛ وهذه الحال تحمل فى طياتها إلحاداً ؛ إذ تجعل السماء مبنى الإله ، وتنفى بذلك عنه صفة الوجود فى كل مكان .

« وحركات الصلاة الإسلامية ، فوق تعبيرها التام عما تحمل نفوس المؤمنين من العاطفة النبيلة نحو المولى الكريم ، تقوم للجسم بأعظم مزايا الحركات الرياضية ؛ فهى مفروضة الأداء خمس مرات فى اليوم الواحد ، وكفى من شيخ كبير وبدين سمين ، يستطيع كلاهما السجود والركوع والوقوف دون كبير عناء ولا مشقة ، مما لا يستطيعه المسيحي فى مثل هذه السن ، أو فى مثل هذا الحال ما لم يكن قد رُوض على ذلك من قبل . أضف إلى ذلك حكمة الوضوء الذى يسبق كل صلاة ؛ ففيها للبدن انتعاش وصحة ونظافة ، والنظافة من الإيمان»^(١) .

(ج) فى التسامح :

يقول القس « ميشون » فى كتابه « سياحة دينية فى الشرق » : « إنه لمن المحزن أن يتلقى المسيحيون عن المسلمين روح التسامح وفضائل حسن المعاملة ، وهما أقدس قواعد الرحمة والإحسان عند الشعوب والأمم » .

(د) فى العلم :

رفع النبى محمد قدر العلم إلى أعظم الدرجات وأعلى المراتب^(٢) ، وجعله من أول

(١) أشعة خاصة بنور الإسلام .

(٢) يقول فضيلة الشيخ محمد الحضر حسين : « نهض الإسلام بالعقول من وهدة الحمل ، وأذن لها =

واجبات المسلم . وفي ذلك يقول : « اطلبوا العلم ولو بالصين » ، و « يوزن يوم القيامة مداد العلماء بدم الشهداء » ، و « شرار العلماء الذين يأتون الأمراء » ، وخيار الأمراء الذين يأتون العلماء » ، و « فضل العلم خير من فضل العبادة ^(١) » .

وقد نظر المسيو « كازانوف » أحد كبار أساتذة الكوليج دى فرانس بباريس في هذه الكلمات الغاليات ، وكيف يقولها أحد أصحاب الديانات ، فعلق على ذلك بقوله :

« يعتقد الكثيرون منا أن المسلمين لا يستطيعون تمثيل آرائنا وهضم أفكارنا . . . يعتقدون ذلك وينسون أن نبي الإسلام هو القائل بأن فضل العلم خير من فضل العبادة ! ! فأى رئيس ديني كبير ، أو أى قس من القساوسة العظام كانت له الجرأة أن يقول مثل هذا القول القوي الفاصل المتين ؟ ! هذا القول الذى هو نفسه عنوان حياتنا الفكرية الحاضرة . نعم إن هذا هو مبدؤنا اليوم ، ولكن أليس العهد بقريب

« أن تبحث في كل علم ، وتذهب في البحث كل مذهب ، فوجدت الأمم من العرب وغير العرب في هذه الساحة ما أثار نشاطهم للبحث في كل ناحية من نواحي العلم ، فلم يلبثوا أن جمعوا القرآن الكريم في مصحف ، ودونوا الحديث النبوي بعد أن كان محفوظاً في الصدور ، وكتبوا في تفسير القرآن ، وشرح السنة النبوية ، وحققوا النظر في تقرير أصول الدين وأصول الفقه ، وحجروا وجوه استنباط الأحكام العملية ، ووضعوا إزامها العلوم العربية ، من النحو ، والصرف ، والبيان ، وفقه اللغة . ودرسوا العلوم النظرية المعربة عن الكتب اليونانية وغيرها ، فأصبحت بلاد الإسلام - ولا سيما عواصم الممالك كبغداد ، وقرطبة ، وبصر ، ودمشق ، وتونس - موارد العلوم الإسلامية والأدبية والكوفية . ومن هذه الموارد استحدثت الأمم الأوروبية معارفها وفنونها ، وقد اعترف بهذا كثير من علماء أوروبا المنصفين . قال الأستاذ بريفوت الإنجليزى في كتابه « تكوين الإنسانية » : « في القرن التاسع تعلم كثير من المسيحيين عند علماء الإسلام » ، وقال : « إن رئيس دير كلوكي يأسف على أنه رأى أثناء إقامته بالأندلس الطلبة من فرنسا وألمانيا وإنجلترا يردون أفواجاً أفواجاً إلى المراكز العلمية العربية » ، وقال : « فالعلم هبة عظيمة الشأن جاءت بها الحضارة العربية على العالم الحاضر » .

« ولم يكن فضل الإسلام على أوروبا من ناحية العلم فقط ، بل كان له الفضل في نهضتها المدنية ، قال الأستاذ بريفوت في الكتاب المذكور : « لم تكن إيطاليا مهداً لحياة أوروبا الجديدة ، بل إسبانيا (الأندلس) لأن أوروبا كانت بلغت أشد أعماق الجهل والفساد ظلمة ، بينما العالم العربي ، بغداد ، والقاهرة ، وقرطبة ، وطليلة كان مركز الحضارة والنشاط العقلى ، ومن ثم ظهرت الحياة الجديدة التي نمت في شكل ارتقاء إنسانى جديد » .

« وخلاصة الفصل : أن دعوة خاتم النبيين - صلى الله عليه وسلم - قد آتت العالم بضروب خطيرة من الإصلاح لم تأت بها دعوة سبقتها أو تأخرت عنها . فإ يوجد في العالم من هداية صادقة ، أو علوم نافعة ، أو مدنية فاضلة ، فإنما يرجع الفضل فيه لدعوة هذا الدين القويم .

« فليرفع الفتي المسلم رأسه معتزلاً بدين رفع الإنسانية من حضيض الجهل إلى أوج العلم ، وهداها سبل السعادة الباقية ، والمدنية الملهبة : (ومن أحسن قولاً من دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إننى من المسلمين ؟) (من رسالة عن سيدنا محمد) .

(١) الجزء الأول من كتاب الإحياء للقرالى .

يوم كانت الكافة عندنا من أهل العقول تنظر إلى مثل هذا الشعار كأنه رمز العار ومجلبة الشنار ؟ !

« كما أنه سوف يقال : إن أوضح مبادئ الحرية الفكرية قد كسفت أمثال « لوثير » و « كالفين » وعاد الفضل فيها إلى رجل عربي من رجال القرن السابع ، ذلك هو صاحب شريعة الإسلام » (١) .

(هـ) في الفروسية :

وينظر المسيحيون إلى « سان لويس » وكأنه النموذج الأعلى للثمرة المسيحية الناضجة . غير أن الوثائق التاريخية تثبت في وضوح وسهولة — أن خصمه صلاح الدين الأيوبي كان أرفع منه قدرًا في الحضارة وفي الشجاعة وفي معاملة الخصوم . والفروسية ونبالة قصدها ، لم يكن يعرفها الأقدمون من اليونان والرومان ، ولكنها كانت معروفة عند العرب أمام جاهليتهم ، ثم هذبها الإسلام وطهرها تطهيراً . وعلى إثره دخلت أوروبا ووصلت إلينا نحن الغربيين ولم يبق أحد اليوم ينكر نسبتها إلى العرب .

وقد ذكر العالم المسيحي المتدين « بارتلمى سان هيلار » في سياق حديثه عن القرآن :

« إن العرب هم الذين يرجع إليهم الفضل على سادات أوروبا ، وفرساتها ، في القرون الوسطى ، في تعديل عاداتهم الخشنة وتلطيفها ، ثم تعليمهم رقة العاطفة ، وتهذيب نفوسهم ، والرفعة بها إلى حيث الإنسانية والنبالة . وكل ذلك دون أن يصيبهم ضعف يفقد من فروسيتهم وشجاعتهم شيئاً » .

ويخطئ من يظن أن هذا راجع إلى المسيحية وحدها رغم ما فيها من المزايا والفضائل . وقد حفظ لنا التاريخ في سجلاته عن فروسية العرب وروحها العالية جميع أدلة العظمة الموشاة بالركة والتهذيب . وقد ذكر منها الكثير وأصف بطرس غالى في كتابه « فروسية العرب » :

« كان محمد يحب النساء ويفهمهن ، وقد عمل جهده طاقته لتحريرهن . وربما كان ذلك بالقدوة الحسنة التي استنها وبالقواعد والتعاليم التي وضعها . وهو يعد بحق من أكبر أنصار المرأة العاملين إن لم يكن أولهم . فلقد كان بهن رحيماً

(١) عن « أشعة خاصة بنور الاسلام » .

وعليهن حليماً . وكان لين الجانب كثير العطف عليهن ، عظيم الاحترام والتكريم
لهن ، لم يكن ذلك خاصاً منه بزوجاته ، بل ذلك كان شأنه مع جميع النساء على
السواء .

(و) في العبقریات العلمية :

ثم إنهم يفخرون بالعالم « باستور » الفرنسى ويجعلونه درة في تاج الحضارات
الحديثة ، ولكن فاتهم أن « جابراً » و « الرازى » ، لا يقلان عنه في مرتبة العلماء
والمفكرين ؛ فهما المؤسسان الحقيقيان لعلم « الكيمياء » بفضل ما كشفاه من طرق
التقطير ومن الكحول ومن « حمض النتريك » و « حمض الكبريتيك »^(١) .

إسلامه :

واستمر صاحبنا في الموازنة والمقارنة والتأمل والتفكير ، وأطال النقاش ثم أراد
الله له أن يسلم .

وأسلم إثنين دينيه واختار اسم « ناصر الدين » . وإن هذا الاختيار لهو الذى
يحدد اتجاهه بعد ذلك خير تحديد . . . ناصر الدين : إنه حقاً خصص حياته
لنصرة الدين الإسلامى ، ورأى أن نصرته إنما تكون عن طريقين :

(أ) نصرته سياسياً .

(ب) نصرته دينياً .

أعداء الإسلام :

إن عنصرين من عناصر الشر يتألبان على الإسلام ويهاجمانه في عرينه ، وهما :
رجال السياسة الاستعماريون ، رجال الدين المتعصبون . ولا بد - لتكون نصرته
الإسلام كاملة - من أن يتجه الدفاع نحو المهدفين . وتطلع ناصر الدين نحو
الغاية التى يريد أن يسعى إليها ، فهاله الأمر ، وكتب معبراً عن الواقع يقول :
« إن أهل السوء من أهل الكتاب لا ينفكّون يهاجموننا نحن المسلمين بالأباطيل
ويحاربوننا بالمفتریات . . . وإذا نحن شئنا أن نحصى أكاذيبهم علينا كانت

(١) المصدر السابق .

فيها صفحة هي أسود الصفحات في سجل التعصب ، يشترك في تسويدها أعداء الإسلام قديمهم وحديثهم ، سواء منهم العلماء ، والرواد ، والقساوسة ، ورجال الحكومات ، والكتاب ، أمثال يرون وبلجراف وجلادستون ، ومرجليوس ، وقسيس كانتربري ، والأب لامنس ، والكاتب لوى برتران سرفيه . . . وغيرهم»^(١) .

الانتصار للإسلام سياسياً :

أما ، والأمر كذلك ، فلا بد من التشمير عن ساعد الجدد ، والنهوض حقيقة في وجه عوامل هدم الإسلام هذه . ولكن كيف السبيل ؟
أما من جهة السياسة فإن ناصر الدين ليس من الساسة المحترفين ، ولذلك كانت مهمته في هذه الناحية التحدث إلى كل من يجد فيه روح الإنصاف من الغربيين ذوي النفوذ ، والعمل على إذاعة كل ما يمكنه إذاعته من آراء المنصفين منهم ، وتبني قضية الشرق المظلوم .

ومن أمثلة ما كان يذيعه مثلاً ، ما يلي :

« ونشر أخيراً المسيو "أوجين يونج" ، وكيل حكومة التونسيين الفرنسية سابقاً كتاباً عنوانه "استعباد الإسلام- الحرب الصليبية الجديدة" . وهذا الكاتب معروف بأنه من الكاثوليك المتمسكين بدينهم ، ولكنه معروف كذلك بأنه فرنسي من خيرة الفرنسيين ، وقد أنكر في كتابه هذا ، في كبير شجاعة وصراحة ، تلك الحروب الصليبية الجديدة التي يقوم بها اليوم " الفاتيكان " ، ذلك المركز الرئيسي المقدس ، حيث البابا الحبر الأعظم للمسيحية . وقد أظهر أنهم يقومون بذلك دون أن يفت في عضدهم ملل أو كلل ، أو أن ينال منهم أى تهاون أو كسل ، وإنما يقومون به من وراء ستار المداينة ، وفي ثوب من الرياء يشف عما تحته .

« وما جاء في كتاب المسيو "يونس" قوله : "إننا نهيئ من اليوم مقدمات حرب دينية شديدة الفزع والهول" . ثم أظهر أن مصالح فرنسا الحيوية إنما هي في التفاهم والاتفاق الودي مع الإسلام ، وإننا نلتم أن يكون لكلام هذا الفرنسي الكبير صدى بعيد وأثر محمود في مصلحة فرنسا والإسلام على السواء »^(٢) .

(١) عن : « أشعة خاصة بنور الإسلام » . (٢) أشعة خاصة بنور الإسلام .

ومن جهة أخرى ، أخذ ينشر ما يصحح فكرة الأوروبيين عن الشعوب الإسلامية ، ويبين أنها شعوب بعيدة كل البعد عن الممجية والتوحش ، وأنها تمتاز بالوفاء وعرفان الجميل والكرم والشجاعة والفضائل المحمودة ، ويبين أن ماضيها المجيد خير نبراس يرسل أشعته على الفكرة الخاطئة الموجودة عند الغربيين ، فيزيل ما غشى عليها من ظلمة .

ويلفت نظر الفرنسيين ، في قوة ، إلى ما أداه لهم المسلمون من أياد جلييلة في ميدان الحروب ضد أعداء فرنسا .

ومن ألدع توجيهاته للفرنسيين في هذا الميدان : أنه ، حينما ألف كتابه في السيرة النبوية ، أهده « لأرواح الجنود الإسلامية التي استشهدت في الحرب الكبرى وهي تحارب في صفوف الفرنسيين » .

الانتصار للإسلام علمياً :

ومع ذلك فإن ميدانه الفسيح إنما كان الدفاع عن الإسلام ، باعتباره ديناً سماوياً ، لقد استمات في الدفاع عن عقيدته التي يؤمن بها في يقين حار مطمئن . وما زاد من قيمة دفاعه هذه الموازنات الكثيرة الدقيقة بين الإسلام والمسيحية في كثير من الأصول وفي كثير من الفروع . لقد درس الإسلام في عمق ، ودرس المسيحية في عمق ، ورأى أن هجوم رجال الكنيسة لا يفتر ، وتزييفهم بالباطل لكل ميزة للإسلام لا ينقطع . فدافع واشتد في دفاعه ، وهاجم - وكان لا بد من الهجوم - واشتد في هجومه ، وتوالت ضرباته للمسيحية ممثلة في رجال الكنيسة . . . ولكنه كان يعلن دائماً - كما هو الشأن في كل مسلم - احترامه للمسيح : لأنه رسول الله ، واحترامه للمسيحية الصحيحة التي يتحدث عنها القرآن ، لا تلك التي ابتدعها رجال من بنى البشر . كان يعلن دائماً أن دين الله واحد ، وأن الإسلام أتى مصداقاً لما سبقه مصححاً لما ناله من تحريف ، مهيمناً عليه . وقد وعد الله بحفظ كتابه المقدس : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » . فالقرآن في العصر الحاضر هو الكتاب السماوي الوحيد الذي لم ينله - ولن يناله - تحريف أو تبديل .

يقول الأستاذ راشد رستم - بحق - عن ناصر الدين :

« وإنك لتجد الكاتب واسع الاطلاع ، لذلك هو صحيح الحججة ، ناهض البرهان . هو شديد الهجوم ، شديد الدفاع : ذلك لأنه غيور على دينه الذي لم

يتخذها إلا بعد أن بحث وفكر . وهكذا كان في عقيدته مكيناً ، وفي إسلامه كاملاً» (١) .

كان يصصح الأخطاء ، ويرد الهجوم ، ويهاجم ، ويوازن بين الإسلام والمسيحية . وكان ، قبل كل ذلك وبعد كل ذلك ، يبين الإسلام ويوضحه ويشيد به .

وكانت وسيلته إلى ذلك المقالات والمحاضرات والرسائل والكتب ، فضلاً عن الأحاديث الشفهية .

التعريف ببعض كتبه :

ومن كتبه في ذلك :

١ - الرسالة القيمة « أشعة خاصة بنور الإسلام » وقد ترجمها ترجمة أدبية ممتازة الأستاذ راشد رستم ، وهي رد على الفكرة التي يذيعها القساوسة القائلة : إن الإسلام لم يأت بجديد . وقد انتفعنا بها انتفاعاً عظيماً وكانت لنا خير عون في عملنا الحالي .

٢ - وآخر ما ألفه هو كتاب « الحج إلى بيت الله الحرام » وقد تُرجمت خاتمة ونُشرت في مجلة جمعية الشبان المسلمين ، بقلم الأستاذ : م . توفيق أحمد ، وقد نقلنا بعضاً من نصوصها في ثنايا الكتاب الحاضر .

٣ - « الشرق كما يراه الغرب » وقد ترجمه الأستاذ عمر فاخوري ، ونشر بدمشق مع رسائل أخرى تحت عنوان « آراء غربية في مسائل شرقية » وقد استفدنا منه كثيراً في البحث الراهن .

٤ - ومن أهم كتبه ما جعله تاريخاً لحياة الرسول عليه السلام - وهو السيرة النبوية - في مجلد كبير جليل ، وضعه باللغة الفرنسية مع صديقه الجزائري الحميم السيد الفاضل سليمان بن إبراهيم . وزينه بالصور الملونة البديعة الكثيرة المتعددة من ريشته الخاصة ، يمثل فيها المناظر الإسلامية في بلاد الجزائر ومعالم الدين فيها . وطبعه طبعاً غاية في الإتقان والعناية ، وقدمه لأرواح الجنود الإسلامية التي استشهدت

(١) أشعة خاصة بنور الإسلام .

في الحرب الكبرى ، وهي تحارب في صفوف الفرنسيين^(١) ، ونشره كذلك باللغة الإنجليزية بنفس الحجم الكبير والإتقان التام . والكتاب في طبعته : قد تحلى بمختلف أنواع اللوحات الزخرفية الملونة ذات الأشكال العربية ، غاية في الدقة والإبداع ، وهي اللوحات التي قام بعملها خاصة السيد « محمد راسم » الجزائري أشهر رجال الزخرفة العربية ببلاد الجزائر^(٢) ، ويبلغ ثمن النسخة الواحدة من هذا الكتاب خمسة جنيهات مصرية . وإنها لخدمة جليلة للإسلام والمسلمين وبنى الإسلام مشكورة مذكورة^(٣) .

وفاته :

استمر ناصر الدين طيلة حياته يناضل عن الإسلام كدين ، ويناضل عن المسلمين كشعب ، ويضع روحه ، وشعوره ، وجدانه في هذا الدفاع المجيد حتى ليكاد الإخلاص يتجسد خلال ما يسطره من عبارات .

وفي سنة ١٩٢٨ م قام السيد ناصر الدين بأداء فريضة الحج ، ووضع كتابه « الحج إلى بيت الله الحرام » .

« وفي ديسمبر سنة ١٩٢٩ ، توفي ببافيس ، وصلى عليه بمسجدها الكبير . بحضور كبار الشخصيات الإسلامية وغيرها ، ووزير المعارف بالنيابة عن الحكومة الفرنسية . ثم نقل جثمانه إلى بلاد الجزائر حيث دفن في المقبرة التي بناها لنفسه ببلدة " بوسعادة " تنفيذاً لوصيته »^(٤) .

رحمه الله رحمة واسعة وجزاه عن الإسلام والمسلمين خيراً .

(١) ولكن مما يوصف له أن فرنسا جازت المسلمين على ذلك جزاء سنار .
 (٢) وقد أشار إلى ذلك المسيو أليزار بجامعة الجزائر ومدير متحف الجزائر ، وذلك في المحاضرة التي ألقاها في النادي الفرنسي بالقاهرة يوم ١١ مارس سنة ١٩٢٩ وهي المحاضرة الخاصة بالهضة الفنية الجزائرية .
 (٣) « أشعة خاصة بنور الإسلام » .
 (٤) راشد رسم ، في مقدمته لكتاب « أشعة خاصة بنور الإسلام » .

ناصر الدين والمستشرقون

حينما ألف السيد ناصر الدين كتابه عن حياة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، ثارت ثورة النقد متجهة ، على الخصوص ، إلى الشكل ، لا إلى الجوهر : لقد زعموا أن الأبحاث العلمية الحديثة قد وضحت جوانب من سيرة الرسول ، وأن المستشرقين في مختلف الأقطار قد كتبوا عن سيرة سيدنا محمد كتابة تعتمد على الأبحاث العلمية الدقيقة ؛ ورأوا أن الأستاذ ناصر الدين لم يعبأ بشيء من ذلك ، وأخذوا عليه أنه لم يقيم وزناً لإنتاج المستشرقين في السيرة النبوية وأن اعتماده إنما كان على السيرة القديمة ، كسيرة ابن هشام وابن سعد .

المستشرقون لا يفهمون السيرة النبوية :

والواقع أنه فعل ذلك ، وفعله متعمداً ، فقد كتب السيرة معتمداً على المنقول من الأخبار الإسلامية الصحيحة ، ولكنه فعل ذلك بعد أن قرأ ما كتبه المستشرقون عن سيرة الرسول فوجد أنه لا يساوى شروى تقير . لقد رأى أنه من المتعذر ، إن لم يكن من المستحيل ، أن يتجرد المستشرقون من عواطفهم وببشهم ، ونزعاتهم المختلفة ، وأنه لذلك قد بلغ تحريفهم لسيرة النبي والصحابة مبلغاً يغشى على صورتهم الحقيقية ، من شدة التحريف فيها ، ورغم ما يزعمون من اتباعهم لأساليب النقد الحديثة ، ولقوانين البحث العلمى الجاد . فلما نلمس من خلال كتابتهم :

محمدأ يتحدث بلهجة ألمانية ، إذا كان المؤلف ألمانياً .

ومحمدأ يتحدث بلهجة إيطالية ، إذا كان الكاتب إيطالياً .

وهكذا تتغير صورة محمد بتغير جنسية الكاتب . وإذا بحثنا في هذه السير عن

الصورة الصحيحة فلما لا نكاد نجد لها من أثر !

إن المستشرقين يقدمون إلينا صوراً خيالية ، هي أبعد ما تكون عن الحقيقة !

إنها أبعد عن الحقيقة من أشخاص القصص التاريخية التي يؤلفها أمثال « ولتر سكوت » و « إسكندر ديماس ». وذلك أن هؤلاء يصورون أشخاصاً من أبناء قومهم ، فليس عليهم إلا أن يحسبوا حساب اختلاف الأزمنة . أما المستشرقون فلم يمكنهم أن يلبسوا الصورة الحقيقية لأشخاص السيرة ، فصورهم حسب منطقهم الغربي ، وخيالهم العصري .

وإن الدكتور « سنوك هير غرنجة » ليقول بحق ، في نهاية نقده لكتاب المستشرق « جريم » :

« إننا نرى أن الأستاذ " جريم " لو اقتصر على درس السير النبوية القديمة وبحبها في عمق لكان أفضل ، وإن الثمار التي كان يمكن أن يجنيها من مثل هذا الدرس لمي أجدر ببلوغ الغاية التي توخاها ، ولكنه ظن أن هذا عمل ليست له أهمية كبيرة ، وأراد أن يطرف الناس بنياً جديداً ، ففشل في وضع السيرة النبوية التي حاول فيها أن يطبع محمداً بطابع الروح الاشتراكي ، وفي جعل محمد اشتراكياً ، وفي أن تقود الاشتراكية نفسها محمداً لأن يضع الدين الذي أتى به » .

إن الاشتراكية الإسلامية — لا الاشتراكية الحديثة ، كما يتصورها « جريم » — ثمرة من ثمار الرسالة الإسلامية ، وليست الرسالة الإسلامية ثمرة الاشتراكية .

تخطيط المستشرقين :

ولنضرب الآن بعض الأمثلة ، للنتائج التي توصل إليها المستشرقون في أبحاثهم التي يزعمونها علمية صحيحة ، وسنضرب بعضها ببعض لنهار ، ولو كانت علمية حقة لما اختلفت ، ولما تعارضت ، ولما كان مصيرها التلاشي :

١ — كيف كان خلق محمد؟ وما هو السر في تأثيره العظيم على أبناء وطنه؟

عن هذا السؤال يجيب « دوزي » : « لعل رسول الله — كما كان يلقب نفسه — لم يكن أسمى من مواطنيه ، ولكن من المؤكد لم يكن يشبههم . »
« كان صاحب خيال في حين أن العرب مجردون عن الخيال ، وكان ذا طبيعة دينية ولم يكن العرب كذلك »^(١).

(١) دوزي : مسلمو الأندلس ، ج ١ ، ص ١٨ .

ولا يرضى القسيس لامانس بهذا فيصرخ متأثراً بحقده الجارف ضد الإسلام ويقول :

« كان محمد — رغم معاييه — (مباذ الله) يفتن البدوي الذي كان يرى ذاته في شخص النبي العربي ، كما يدعوه القرآن ، وفي هذا التفاعل ، أو في هذه المطابقة العامة بين محمد وبيئته ، نجد أولاً وقبل كل شيء السر في هذا السلطان الضخم الذي كان لمحمد على مواطنيه »^(١).

٢ — سؤال آخر : ماذا كانت ميول محمد قبل البعثة ؟ يرى « دوزي » أن محمداً كان سوداوي المزاج يلتزم الصمت ، ويميل إلى التزهات الطويلة فريداً ، وإلى التأملات المستغرقة في شباب مكة الموحشة . ويرد القسيس لامانس — ضارباً بكل حقيقة عرض الحائط — : « كلا ، ليس هناك ما يثبت اعتكاف محمد وعزله ؛ فذلك لا يتفق مع نفرة محمد من الوحدة وكراهيته المشهورة للنسك »^(٢).

٣ — وسؤال ثالث : ما هي العوامل في بعثة محمد ورسالته ؟ لأنها نوبات الصرع كما يفترى « نللكه » . وكيف تكون نوبات الصرع عاملاً في البعثة ؟ سلوا عن ذلك « نللكه » . ولكن المستشرق « دوغويه » يعتقد : أن هذا بعيد الاحتمال ، ويعلل ذلك بأن الحافظة في المصروعين تكون معطلة ، على حين أن حافظة محمد كانت غاية في الجودة كلما هبط عليه الوحي^(٣) .

(١) لامانس : مهد الإسلام ، ص ٤ ، ٥ .

(٢) لامانس : هل كان محمد صادقاً ، ص ١ .

(٣) « دوغويه » : مباحث شرقية ص ١ . يقول الدكتور هيكال في كتابه « حياة محمد » ، ص ٤٠ : « ونعود إلى تفنيد النقطة الأخيرة من رسالة ذلك المصري المسلم ، فهو يذكر أن مباحث المستشرقين دلهم على أن النبي كان يصاب بالصرع ، وأن أعراضه كانت تبدو عليه ؛ إذ كان يغيب عن صوابه ، ويسيل منه العرق ، وتتمترية التشنجات ، وتخرج من فمه الرغوة ، حتى إذا أفاق من ذوبته تلا على المؤمنين به ما يقول : إنه وحى الله إليه ، في حين أنه لم يكن هذا الوحي إلا أثراً من نوبات الصرع . »

ولا نكاد ننهي من هدم « نوبات الصرع » ، حتى يؤكد « إسبرنغر » أنها نوبات هيستريا اشتهرت باسم شوتلاين^(١) .
ولكن « سنوك هرغرنجه » يرى أن هذه الأسس التي يراد أن تقام عليها البعثة أسس واهية ، ويقول :

« يجب أن نقر بأن قيمة محمد إنما هي ما يميزه عن سائر الهستيريين » .
ويدلى المستشرق « جريم » بدلوه هو الآخر ، فيرى أن الآراء الاشتراكية لا الآراء الدينية هي التي قادت محمداً إلى الرسالة .

أما مستنده في ذلك : فهو تشديد محمد في الزكاة التي يسميها « جريم » ضريبة ، ولما كان القول بذلك في مكة أسهل من التنفيذ فقد حاول النبي - فيما يرى

= « وتصوير ما كان يبدو على محمد في ساعات الوحي على هذا النحو : خاطيء من الناحية العلمية أفش الخطأ ؛ فنوبة الصرع لا تذر عند من تصيبه أي ذكر لما مر به أثناءها ، بل هو ينسى هذه الفترة من حياته بعد إفاقته من نوبته نسياناً تاماً ، ولا يذكر شيئاً مما صنع أو حل به خلالها ؛ ذلك لأن حركة الشعور والتفكير تتمطل فيه تمام التمعط . هذه أعراض الصرع كما يشبها العلم ؛ ولم يكن ذلك ما يصيب النبي العربي أثناء الوحي ، بل كانت تتنبه حواسه المدركة في تلك الأثناء تنبهاً لا عهد للناس به ، وكان يذكر بدقة غاية الدقة ما يتلقاه وما يتلوه بعد ذلك على أصحابه . هذا ثم إن نزول الوحي لم يكن يقتصر حتماً بالغيوبة الجسمية مع تنبه الإدراك الروحي غاية التنبه ، بل كان كثيراً ما يحدث والنبي في تمام يقظته العادية ، وحسبنا أن نشير إلى ما أوردنا في هذا الكتاب عن نزول سورة الفتح عند قفول المسلمين من مكة إلى يثرب بعد عهد الحديبية .

« يننى العلم إذن أن الصرع كان يعترى محمداً ؛ ولذلك لم يقل به إلا الأقلون من المستشرقين الذين افتروا على القرآن أنه حرف . وهم لم يقولوا به حرصاً على حقيقة يلتمسونها ، وإنما قالوا به ظناً منهم أنهم يحطون من قدر النبي في نظر طائفة من المسلمين . أم حسبوا أنهم يلحقون بأقوالهم هذه ظلاً من الريبة على الوحي الذي نزل عليه ، لأنه نزل عليه - فيها يزعمون - أثناء هذه النوبات ؛ إن يكن ذلك فهو الخطأ البين كما قلنا وهو ما ينكره العلم عليهم أشد الإنكار .

« ولو أن نزاهة القصد كانت رائد هؤلاء المستشرقين لما حملوا العلم ما ينكره . وهم إنما فعلوا ذلك ليخدعوا به أولئك الذين لا يهديهم علمهم إلى معرفة أعراض الصرع ، والذين تمسكهم طمأنينتهم الساذجة إلى أقوال هؤلاء المستشرقين عن سؤال أهل العلم من رجال الطب ، وعن الرجوع إلى كتبه . ولو أنهم فعلوا لما تعذر عليهم أن يكشفوا عن خطأ هؤلاء المستشرقين خطأ مقصوداً أو غير مقصود ، ولتبينوا أن النشاط الروحي والعقل للإنسان يخفى تمام الاختفاء أثناء نوبات الصرع ، ويذر صاحبه في حالة آلية مخمضة ، يتحرك مثل حركته قبل نوبته ، أو يشور إذا اشتدت به النوبة ، فيصيب غيره بالأذى ، وهو أثناء ذلك غائب عن صوابه ، لا يدرك ما يصدر عنه ولا ما يحل به ، شأنه شأن النائم الذي لا يشعر بحركاته أثناء نومه ؛ فإذا انقضى ما به لم يذكر منه شيئاً . وشتان ما بين هذا وبين نشاط روي قوي قاهر يصل صاحبه بالمال الأعلى عن شعور تام وإدراك يقيني ، ليبلغ من بعد ما أوحى إليه .

« فالصرع : يعطل الإدراك الإنساني وينزل بالإنسان إلى مرتبة آلية يفقد أثناءها الشعور والحس . أما الوحي فمسرورحي اختص الله به أنبياءه ليلقى إليهم بحقائق الكون اليقينية العليا ، كي يبلغوها للناس .

« جريم » - أن يؤثر على المكيين بتخويفهم من يوم الحساب متخذاً الإكراه الروحاني وسيلة للبذل والسخاء^(١).

ولكن « سنوك هرغرنبجة » يرد على « جريم » ، ويرى أن رأى « جريم » واستشهاد ، كل ذلك غريب ، سواء نظرنا إلى المنقول في السيرة ، أو نظرنا إلى ظروف البيئة العربية إذ ذاك . وينهار - تحت قلم « سنوك » - الرأي القائل بأن الإسلام ، في الأصل ، أقرب إلى أن يكون اشتراكية نشأت عن بؤس ذلك الزمن وفقر بنيته من أن يكون ديناً .

بيد أن « سنوك » يزعم - ولا بد له من الزعم ، لأنه لا بد له من التعليل - أن الباعث على رسالة محمد إنما هو : فزعه العظيم من يوم القيامة والحساب ، وتفكيره المتواصل في مصيره ، وفي الجنة وفي النار .

ولإرادة الإغراب في المستشرقين قوية جامحة ، وقد بلغ القمة في الإغراب المستشرق « مرجليوث » : لقد خطأ كل الآراء التي ذكرناها ، وأراد أن يأتي ببدع من القول يتناسب مع القرن العشرين ، فرأى أن الباعث على بعثة الرسول إنما هي أعمال الشعوذة^(٢) . لقد عرف محمد خدع الحواة ، وحيل الروحانيين ، ومارسها في دقة وفي لباقة . وقد كان يعقد في دار الأرقم جلسات روحانية . وكان المحيطون به يؤلفون جمعية سرية ، تشبه الماسونية ، ولهم إشارات تعارف مثل : « السلام عليكم » ، وعلامات يتميزون بها كإرسال طرف العمامة بين الكتفين .

أرأيت المدي الذي يصل إليه المستشرقون في تخطيهم ، واضطرابهم ، وتعصبهم ، وإرادتهم الإغراب . . ؟

إن فيما مر ما يكفي لتصوير حالة المستشرقين ، ومع ذلك فستحدث عن آرائهم في مسألة رابعة محددة أبعد ما تكون عن الفروض والتخمينات :

٤ - ما هي الأسباب في مرض الرسول وموته ؟

(١) جريم : محمد ، ص ١٥ .

(٢) كتب المستشرق « مرجليوث » كتاباً عن سيدنا محمد أتى فيه بكل غريب وبكل باطل ، وظهرت كراهيته للإسلام من خلال هذا الكتاب ظهوراً بشعاً ، ومن مزاعمه المضحكة مثلاً : أن محمداً صل الله عليه وسلم سافر إلى مصر لأن كلامه عن مصر يدل على معرفة تامة بها . ويرد عليه المستشرق « تولدكه » ، فيقول : إن محمداً لم يكن يعلم أن المطر قليل في مصر قلة مطلقة ولو كان سافر إليها لعل تلك الحقيقة التي لا تخفى على أحد .

يعتصر القسيس «لامانس» خياله حتى يخرج برأى يشفى شيئاً من غليله ضد الإسلام ، ضارباً بالمعقول وبالتاريخ وبالحققة عرض الحائط ، فيقول :
« كان لمحمد شهوة قوية جيدة ؛ وقد كثفت جسمه الملذات ونخدرت أعضائه فأصبح مهدداً بداء السكنة » .

وعلى الضد من ذلك تماماً يرى المستشرق « بينيه سنغاة » : « أن رؤى محمد كانت في بعض الأحيان أثراً لضعفه الشديد من الجوع ؛ ولقد كان يسمع أثناء صومه ما يشبه مواء القطط أو أصوات الأرانب . . . ولقد مات بحمى هاذية استمرت يومين » .

ويعارض هذا وذلك المستشرق « كليمان هيار » فيرى أن قد ظهرت على محمد أعراض التهاب رئوى فخارت قواه بسرعة عظيمة ، وتوفى في الثالث عشر من شهر ربيع الأول سنة ١١ هجرية^(١) .

أما القسيس « باردو » فإنه يرى أن محمداً مات مسموماً بيد امرأة يهودية^(٢) . هل نستطيع — بعد أن رأينا ما سبق — أن نعتمد على آراء المستشرقين مع أن ذكرناه من اختلافهم إنما هو قليل من كثير ، ويهدم بعضه بعضاً ، ومن اليسير أن نحقق فيه المثل العربي : « لا تكسر الجوزة إلا على جوزة » فنبتل تراث المستشرقين كله في السيرة النبوية ، ضاربين بعضه ببعض فإذا هو زاهق .

المنهج الذي يجب أن يتبع في دراسة السيرة :

إن الصرح الذي شيده المستشرقون في سيرة الرسول إنما هو صرح من الورق قد أقيم على شفا جرف هار ؛ والسبب في ذلك واضح . ذلك أن المستشرقين لم يتبعوا الخطة المثل فيما ينبغي أن يعتمدوا عليه في السيرة النبوية . إن كاتب السيرة النبوية يجب عليه أولاً : أن يتجرد عن الشهوة والهوى والعصية ، ويبدأ في دراسة الموضوع نافضاً عن رأسه كل ما أوحته إليه الكنيسة من أباطيل عن الإسلام ، وكل ما غرسته في نفسه من ترهات خاصة بمؤسس الدين الإسلامى . . . وإذا لم يفعل ذلك فإن ما يكتبه سيكون لا محالة وهماً وباطلاً .

(١) كليمان هيار ، تاريخ العرب ، ج ١ ، ص ١٨١ .

(٢) الأب باردو ، علامات محمد : ما هي وما قيمتها ؟ ص ١٧١ .

ويجب عليه ثانياً : أن يعتمد على الأخبار الصحيحة التي رواها المسلمون أول عهدهم بالتدوين ، يجب عليه أن يعتمد على سيرة ابن هشام ، وطبقات ابن سعد ، وعلى البخارى ومسلم ، وعلى تاريخ الطبرى ، وقبل ذلك وبعده على القرآن .

ويجب عليه ثالثاً : أن يدرس البيئة العربية في مهدى الأصل ، مكة ، والمدينة ، والطائف ، وغيرها حتى يتجلى له الغامض ويتضح له المبهم وتستقيم له الفكرة .

إن البيئة العربية الحالية تكاد ترينا رأى العين أشخاص الأخبار التي رويت في سيرة ابن هشام وطبقات ابن سعد ، بل إننا نكاد نتعرف فيها على هذه الشخصيات في أصغر إشارات وأبسط أفكارها .

أما إذا قرأنا عن هذه الشخصيات في كتب المستشرقين ، فإننا لا نكاد نعرفها لشدة التحريف في تصويرها ، وكثيراً ما نلقى — لولا الأسماء العربية — صعوبة في فهم أن هؤلاء المسلمين الذين يتحدث عنهم المستشرقون رجال من العرب ، وذلك لبعده العقلية التي نسبت إليهم عن العقلية التي كانوا عليها .

وبعد ، فإن « رينان » في كتابه « حياة المسيح » يقول :
« حقاً إن لسير محمد العربية ، مثل سيرة ابن هشام ، ميزة تاريخية أكبر من الأناجيل »^(١) .

وهذا يكفيننا رداً على المستشرقين ، الذين يبتعدون عن الصورة الواقعية التي رسمتها كتب السيرة القديمة .

(١) رينان : « حياة المسيح » ، ط ١٣ ، ص ٩ .

القسيس لامانس

والآن نريد أن نتخذ من أحد المستشرقين مثالا واضحاً لموقفهم من الإسلام : وذلك هو القسيس « لامانس » ؛ ذلك أن تصنيفه من أضخم التصانيف ، وقد كتب عن بدء الإسلام أكثر من عشرة مؤلفات ، وتعمق في دراسة صدر الإسلام ، لغرض في نفسه لا يخفى على أحد مهما كان ساذجاً ، ذلك الغرض هو هدم الإسلام . ولكن الله غالب على أمره ، وهو يقول : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » . إن « لامانس » قسيس يقطن لبنان ، ومن هناك — وهو هادئ مطمئن غير عاجئ بشعور المسلمين ، ولا بحقيق الحوار ، ولا بالأخوة الوطنية — يرسل نقده ، ويقوم بهجومه في غير هودة ولا ترفق .

لقد ضاق ذرعاً برؤية الإسلام ينتشر شيئاً فشيئاً ، ويبسط ظله يوماً فيوماً ، على إفريقيا وآسيا . ويضيق صدر القسيس « لامانس » ، فإذا به يسخط على القدر نفسه ، ويقول : « لماذا جاء القرآن فجأة ، ليقضي على التأثير اللطيف ، الذي كان الإنجيل قد أخذ يحدثه في ابن البادية ؟ ! ! »

والحق أن مثل « لامانس » في الاستشراق كمثل بطرس الناسك في الحروب الصليبية ، وإنه ليقوم في الناحية العلمية بما كان يقوم به ذلك الناسك في ناحية الدعاية الحربية ، وكالناسك يتخذ من الوسائل ما يؤديه إلى الهدف غير عاجئ بعدالة الوسيلة . وإن نزعة كهذه لا يمكن أن تؤدى بمؤرخ إلى الإنصاف العلمى .

والحق أننا قد اخترنا هذا المستشرق بالذات ، لأن شهرته العلمية قد خدعت الكثيرين ، فأحسنوا الثقة به ، مع أن إسناداته الكثيرة التي يشبها في آخر كل صحيفة إنما هي من قبيل التلمويه على القارئ ، والحقيقة أنها لا قيمة لها . واخترناه أيضاً لأن هواه المتحكم واضح كل الوضوح . بيد أن غيره من العلماء

من كان هواهم إنما هو التدليل على أن محمداً إنما كان مصروعاً أو هستيرياً، أو اشتراكياً قاداته الاشتراكية إلى الدين . . . هؤلاء العلماء - هم أيضاً - لا تدع لهم أهواؤهم سبيلاً إلى الإنصاف ، ولا إلى حرية لا تخضع إلاً للوثائق التاريخية . إن القسيس «لامانس» ذو هوى جامع عنيف ثائر . وغيره من المستشرقين ذو هوى أيضاً يحاول إخفاءه مكرراً ودهاء ، فلا يكاد يستقيم لهم أمر .

ومنهج «لامانس» ساذج كل السذاجة : إنه منهج العكس . أتدري ما منهج

العكس ؟

إنه ذلك المنهج الذى يأتى إلى أوثق الأخبار وأصدق الأنباء فيقلبها - متعمداً - إلى عكسها ، وكلما كان الخبر أوثق كلما بدت - قوية جامحة - الرغبة فى البراعة من ذلك الذى يتبع هذا المنهج . ولما كان ينبغى أن يستند إلى دعامة ما ، فقد تبنى الفكرة التى تقول : « إن البشر يعملون غالباً على كتمان عيوبهم والظهور بنقيضها » . وهذه فكرة لا يمكن أن تتخذ كمبدأ عام ، وإلا كنا مضطرين إلى كتابة التاريخ بأجمعه من جديد ، وعكس صورة الطبيعة كلها عكساً تاماً : إن جميع القديسين إذن أشرار ، وجميع الأنبياء طالحون ، وجميع الشجعان جبناء ، وجميع الأديان تهريج . وقد شاع هذا المنهج عند بعض المتحذلقين حتى أصبح « موضة » . وقد أراد أحد الظرفاء أن يسخر من أتباعه ، فألف رسالة دلل فيها ، فى براعة بارعة ، على أن نابليون لم يوجد قط ، وأن تاريخه أسطورة ملفقة ابتدعتها فرنسا ، تريد بها التغطية على ما يشاع من ضعفها الحربى .

وقد ذكرت مختلف السير الإسلامية أنباء موثقاً بصحتها ، إذا وزنا هذه الأنباء بميزان العقل الصحيح والمنطق المستقيم ، وإذا ما نظرنا إليها على ضوء دراستنا للبيئة العربية الإسلامية لم يخجلنا شك فى صحتها . ولكن «لامانس» لا يبالي - متتبعاً منهج العكس - فلا يقيم لهذه الأنباء وزناً ولا يقدر لها قيمة .

نتائج لهذا المنهج صارخة بالخطأ :

١ - وإننا لو نظرنا فى الأناجيل من هذه الوجهة واتبعنا هذه السنته لوجب أن نتناول كل حسنة فيها ونعكسها . . . وإذن لما بقى جديراً بمودة «القسيس» واحترامه إلا «هيرود» ، و «يهوذا» اللذان يجب أن يرفعا إلى مصاف القديسين الأخيار .

٢- إن مما لاشك فيه أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان شجاعاً: لقد كان يقود الجيوش في الغزوات ، ولم تطر نفسه شعاعاً في أية واحدة منها ، ولا يوم أحد - وقد ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً - ولم تهله كثرة الجيوش المعادية في غزوة الخندق ، يوم أن زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر^(١) ؛ ولم ترعه النبأ كالمطر ، يوم حنين . . . ومع ذلك ، فإن « لمانس » يصفه بعدم الشجاعة ، ثم يحاول أن يعمم الحكم على العرب قاطبة ، يقول :

« زعموا أن العربي يتسم بالشجاعة ، بل لقد عللوا النجاح في الفتوح الإسلامية الأولى بما يمتاز به العربي من صفات ومزايا . ولكني أتردد كل التردد في قبول هذا الرأي المبالغ فيه كل المبالغة . . . إن شجاعة العرب إنما هي من نوع غير سام » .

والرد على التفسير اللبناني بسيط ، ويكفي أن نسدى إليه هذه النصيحة ، وهي أن يقرأ آلاف الشهادات التي نالها من قيادة جيوش الحلفاء الجنود المسلمون الشجعان ، الذين حاربوا دفاعاً عما اعتقدوه حقاً ، فكانوا من عوامل النصر في الحرب الكبرى . لقد أثارت فرق الهجوم منهم إعجاب العالم أجمع ، وإن هذه الشهادات في أسلوبها العسكري الموجز صرح شامخ مجيد ، يسجل روح التضحية ، والبطولة لدى العرب المغاوير .

وإن سهام النقد ، مهما بلغت من العنف ، لا يمكن أن تنال من هذا الكتاب الذهبي النفيس ؛ ذلك أنه مكتوب بخط قواد منصفين ، لا يمتنون إلى الأمة العربية بصلة الجنس أو الدين .

٣- ومن المعروف أن الرسول كان يتحنث في غار حراء ، ينفرد بنفسه

(١) قال عل كرم الله وجهه : « إنا كنا إذا حمى البأس ، واحمرت الحلق ، اتقينا برسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه » .
ويعلق فضيلة الشيخ محمد الحضر حسين ، شيخ الأزهر السابق ، على هذا فيقول : « وكذلك الداعي إلى الحق ، ولا مرجأ للمعهود إليه بإبلاغه وتنفيذه : لا بد من أن يكون شجاعاً ، رابط الجأش ، على قدر شدة المدعويين وصعوبة مراسيمهم ؛ وعلى قدر عظم الحق ومخالفتهم للملهم ، وعاداتهم وأهوائهم ، فإذا أودع الله تعالى قلب سيدنا محمد ، صلى الله عليه وسلم ، شجاعة وسكينة في مواضع الخطوب ، فلا جرم أن يكون نصيبه من هذه المزية أعظم نصيب ؛ إذ لا أشد من مراس الأمة التي ابتدأ بإبلاغها ، وهي الأمة العربية ، وفي دعوة الإسلام قضاء على ملهمهم ، وذم لمعبوداتهم ، وإبطال كثير من عاداتهم ، وصرف لهم عن أهوائهم .

يستجمع ذهنه وشعوره ، منصرفاً كل 'لأنصرف عن هذا العالم المادى ، مستغرقاً فى التفكير فى الله . ولكن ، « لآمانس » يؤكد أنه كان يكبره الوحدة ! !

٤ - ومن المعروف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج من الدنيا ولم يشيع من خبز الشعير ، وكان يأتى على آل محمد الشهر والشهران لا يوقد فى بيت من بيوتهم نار . وكثيراً ما كان قوته التمر والماء . وكان رسول الله ، عليه السلام ، يعصب على بطنه الحجر من الجوع ، ومع ذلك فإن « لآمانس » يصفه بأنه أكل ، قد كثفت جسمه الملذات ، ولا يذكر شيئاً عن صوم الرسول لشهر رمضان ، وأنه كان أكثر ما يصوم الاثنين والخميس . وكان يصوم حتى يظن أنه لا يفطر . . .
إن صوم المسيحيين يعد ملهاة بالنسبة لصوم المسلمين ، وقد كان الرسول من أكثر المسلمين صوماً . ولكن القسيس « لآمانس » يثبت على عناده !

٥ - ويقول الله تعالى : « إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِّ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ » ، وقد نقلت الأخبار: أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقوم الليل حتى تتورم قدماه ، لطول وقوفه فى الصلاة^(١) ، ومع ذلك فيقول « لآمانس » : كان محمد نوماً . . . وهو لا شك يجهل أو يتجاهل أن روح النقد عند العرب تبأخ حد الإفراط ، وأن هؤلاء لو رأوا

(١) تحدثنا الروايات الصحيحة : أنه كان صلى الله عليه وسلم مسلماً وجهه إلى الله تعالى ، ملؤه القلب بخشيته ، وموصول الهمة بعبادته ، فكان ، عليه الصلاة والسلام ، يقوم بالدعوة ، ويضيف إلى هذا العمل العظيم التقرب إلى الله ، تعالى ، بالذكر والصلاة والصيام وتلاوة القرآن . وكان يتهدد بالليل على وفق قوله تعالى : « ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يمتلك ربك مقاماً محموداً » .

روى الإمام البخارى فى جامعه الصحيح عن المغيرة بن شعبه أنه قال : « إن كان النبي صلى الله عليه وسلم ليقوم ليصلى حتى ترم ، أى تنتفخ قدماه ، فيقال له ، فيقول : أفلا أكون عبداً شكوراً » .
وكان يخص رمضان من العبادة بما لا يخص غيره من الشهور : فيكثر فيه من تلاوة القرآن ، والصلاة والذكر ، والاعتكاف ، وما كان يخرج عنه شهر حتى يصوم منه ، وربما صام أياماً متتابة ، حتى يقال : لا يفطر . وكان يواصل الصوم فى رمضان ، أى يصل الليل بالنهار فى الصوم يومين أو أياماً ، ليوفر ساعات ليله ونهاره على العبادة وكان ينهى أصحابه عن الوصال ، فيقال له : إنك تواصل ، فيقول : « لست كهيئتكم ، إني أبيت عند ربي فيطعمني ويسقيني » . والمراد من إطعام الله وسقيه ما يغذيه به من المعارف ، وما يفيضه على قلبه من لذة المناجاة . وورد فى السيرة أنه كان لا يجلس ولا يقوم إلا عن ذكر الله .
وكان روح عبادته الإخلاص ، يصل فى حجرته نافلة كما يصل فى المسجد ، ويذكر الله خالياً كما يذكره فى جماعة ، ويعمل له فى السر كما يعمل له فى العلانية .
(من رسالة عن سيدنا محمد ، لفضيلة الشيخ محمد الحضر حسين)

ما يكذب خبر القرآن من أن الرسول كان يقضى جزءاً كبيراً من الليل في العبادة ،
لما استمروا على متابعتة وتصديقه ، ولما احتفظ هو بثقتهم .

٦ - وإنه لمن المعروف أن العالم لم ينجب من أمثال سيدنا عمر إلا أفراداً
يعدون على الأصابع : إن عمر من أعظم الفاتحين المصلحين الذين عرفهم التاريخ ،
وإن عدالته الرحيمة الصارمة ، وسياسته الحكيمة النافذة ، وإدارته الدقيقة الساهرة ..
كل ذلك ، يجعله من هؤلاء الذين لا يظفر التاريخ بأمثالهم إلا في دهور دهيرة ،
وإننا حقاً لا نكاد نجد من يشابهه في التاريخ ، اللهم إلا إذا كان الإسكندر
الأكبر .

ومع ذلك فقد كان عمر في نظر القسيس جندياً مسكيناً ، أدنى مرتبة من
الوسط . ولكنه في كراهيته البالغة للإسلام : ينسى أو يتناسى هذا الوصف
حينما يريد أن ينقص - معاذ الله - من شأن الرسول صلى الله عليه وسلم ، فيذكر
أن عمر سيطر عليه هو وأبو بكر .

وليس عمر وحده هو الذي نال من قلم القسيس ، فقد أخذ القسيس يحطم
- كعاصفة هوجاء - كل أختار المسلمين : الرسول ، أبا بكر ، عمر ، عثمان ، علياً ،
فاطمة ، عائشة ، حفصة ، وغيرهم ، وغيرهم . . .

٦ - أما إذا تحدث عن أعداء الإسلام ، كأبي جهل وأبي لهب ألد أعداء
النبي ، أما إذا ما تحدث عن المنافقين خونة الإسلام ، أما إذا ما تحدث عن يزيد
قاتل الحسين ، أو عن بني أمية - على وجه العموم - فإنه يشيد ما شاء له هواه ،
ويمدح ما أمكنه المدح ، ويطرى كلما أتيح له الإطراء ، ويلبسهم من الفضلة ثوباً
لامعاً خلاباً .

ولقد بلغت به الحماسة في كتابه عن بني أمية ، حداً أثار نفور المسيو
« كازانوف » الأستاذ في « كليج دي فرانس » فقال :

« كانت نفسية الأمويين في مجموعها مركبة من الطمع في الغنى إلى حد الجشع ،
ومن حب الفتح من أجل النهب ، ومن الحرص على السلطان من أجل التمتع بملذات
الدنيا ؛ لذلك يحق لنا أن نعجب أشد العجب من كاهن كاثوليكي مثل الأب

«لامانس» ، يتطوع للدفاع عن أولئك الشاكين الطغاة ، ساخرًا من سذاجة «على» الذى مكروا به وخدعوه .

« وإنها لغريبة حقًا هذه المباحث التى يبدى فيها هذا المؤلف - المطلع على تاريخ ذلك العصر اطلاعاً حريصاً بالإعجاب - تشيعة للأمويين ضد بنى هاشم ، والتى تتوالى فيها المرافعات الدفاعية ، والاتهامات الادعائية ، آخذاً بعضها برقاب بعض»^(١) .

٧ - أما المنافقون فهم أبطال الوطنية ، عند القسيس . وإذا تساءلت : من هو هذا الدخيل الذى لم تنبته الجزيرة العربية ، والذى يقف أمامه «أبطال الوطنية القومية» ، فإنك لا تجد من القسيس إلا صمتاً !! أكان محمد «فارسيًا» غازیاً للجزيرة العربية ؟ أم كان «روميًا» يهاجمها ؟ أم هو عربى يحب وطنه ويعمل على جمع شتاته فى وحدة تكون قدوة ومثلاً أعلى لكل من يشرب بصره نحو الكمال ؟ وإذا أردنا أن نعد أخطاء «لامانس» فإننا لا نقف عند حد : إنه مثلاً يعتمد أن يعطى الألفاظ معنى آخر غير المعنى الذى تعطيه لغويًا أو اصطلاحياً ، وكأنه فى ذلك موكل بقلب الحقائق .

إن «الردة» فى نظره معناها «الانفصال» ، و«المرتدون» هم «الانفصاليون» ، و«المنافقون» هم «المشككون» ، وهم : أبطال الوطنية القومية . وإذا قرأت فى القرآن الآية القرآنية الكريمة : «إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ» فسترى أن «لامانس» يشرحها شرحاً أبعد ما يكون عن السمو وعن المكانة العليا التى هى لله فى الإسلام لأنه يفسرها : إن الله مع الساكتين على سياسة محمد المتناقضة .

ويتحدث عن أبى بكر وعمر فقط ، فيقول : الثالث . إنه يقول «حكومة الثالث : أبو بكر وعمر» ، بل يطلق كلمة الثالث على سيدتين ، فيقول : «حزب الثالث المؤلف من عائشة وحفصة الدساسيتين المخوفتين» ، ولا عجب بعد ذلك أن نرى هذا القسيس يأخذ على التوحيد الإسلامى أنه «ضيق» ؛ لأنه لا يقول . . . بأن الله ثالث ثلاثة وبأن الثلاثة واحد ، ولا يقول بأن الآب غير الابن ، ومع ذلك ، الابن هو الآب !

(١) كازافوفا «محمد وانتهاء العالم» ص ٥٨ .

« إن توحيد الإسلام ضيق — في نظره — لأنه لا ينطوى على ما تنطوى عليه المسيحية من تلك المتناقضات ، ويقول كتابه الكريم :
 « قُلْ : هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ ، لَمْ يَلِدْ . وَلَمْ يُولَدْ . وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ » .

وهذا القسيس يفسد — متعمداً — الصور التاريخية . إنه يحدثنا عن مكة والمدينة . في عهد الرسول فيعطينا صورة أوربية حديثة ، وكأنه يحدثنا عن باريس ، ولندن ، حينما يتحدث ، في جزيرة العرب ، عن الحملة الصحافية ، عن المالين ، بنك مكة ، مليار الثقابة القرشية ، الضريبة على الدخل ، طبقة العمال ، لإبلاغ الرسالة إلى محل الإقامة ، ديوان ذى الجلال ، وزارة الله ، إلى آخر هذه التعبيرات الحديثة التي تفسد الصورة ولا تصور الحقيقة .

ومع ذلك فلأمانس جرىء ، إنه جرىء جرأة نادرة ، وتتمثل هذه الجرأة في أنه إذا لم يعثر خلال أبحاثه الطويلة ، على خبر واحد يؤيد به زعمه ، وهواه ، استغنى عن الخبر وثبت على مزاعمه الباطلة التي يسوقها إلى القراء برشاقة بالغة ، وأحياناً يقول :
 « إن هذا أمر عني رجال الحديث والأخبار بكتمانه ^(١) » .

وبينما يحترم المسلمون انسيد المسيح ويحجلونه ، نجد « لآمانس » يصف مؤسس الإسلام بأبشع ما يمكن أن يظهره الحق والكراهية ، حتى لكأننا نسمع أسلوب رهبان القرون الوسطى الذين لم يكن في جعبتهم إلا السباب والشتم .

الافتتان بالمستشرقين لا أساس له :

إنه لمن الغرب حقا — والأمر كذلك — أن يفتتن بعض الشبان المسلمين بالمستشرقين مع ما يرون من كراهيتهم للإسلام وتعصبهم ضده ، وجهلهم أو تجاهلهم من أجل حاجات في أنفسهم . إنهم يشككون ، ويخطئون جاهلين أو متجاهلين . لقد وصل بهم الأمر إلى تجريد الرسول صلى الله عليه وسلم من اسمه ، زاعين أنه لم يدع محمداً قط وأن حقيقة اسمه ستظل من الألفاظ التي لا حل لها . وجمعتهم : أن كلمة محمد نعت ذو معنى خاص ، لذلك يؤكدون أنه لقب ليس ^(٢) .

(١) لآمانس : « هل كان محمد صادقاً ؟ »

(٢) هوار : تاريخ العرب ، ج ١ ، ص ٩٠ .

كذلك يزعم بعض المستشرقين أن « الرحمن » اسم علم لله !! ويترجمون البسملة ترجمة تدل على هذا الرأي السقيم : باسم الإله « الرحمن » الرحيم .
ولما كانت ثلاثة أرباع أسماء الأعلام العربية نعوتاً . فأنت ترى ما في دراسة الأعلام من منابع غزيرة تصدر عنها مخيلة المستشرقين ^(١) .
أما أبو بكر - رضى الله عنه - فقد سمي « أبا بكر » لأنه أبو البنت البكر !
والصعيد معناها : السعيد كما في دائرة المعارف البريطانية .
ولعل في ما ذكرناه ما يخفف من غلواء الإعجاب الذى يبديه بعض متفرنجى الشبيبة الإسلامية نحو المستشرقين .

٤

نصائح للمستشرقين

ويختتم ناصر الدين كتابه القيم : « الشرق كما يراه الغرب » بهذه الآراء النفيسة التى نورد بعضاً منها فيما يلى :
« لقد أصاب الدكتور ” سنوك هرغرنجة “ فى قوله : ” إن سير محمد الحديثة تدل على أن البحوث التاريخية مقضى عليها بالعقم إذا سخرت لأية نظرية أو رأى سابق “ .
« هذه حقيقة يجمل بمستشرق العصر جميعاً أن يضعوها نصب أعينهم ، فإنها تشفيهم من داء الأحكام السابقة التى تكلفهم من الجهود ما يجاوز حد الطاقة فيصلون إلى نتائج لا شك خاطئة .
« فقد يحتاجون فى تأييد رأى من الآراء إلى هدم بعض الأخبار ، وليس هذا

(١) « الشرق فى نظر الغرب » ، تعريب عمر فاخورى .

بالأمر الهين ، ثم إلى بناء أخبار تقوم مقام ما هدموا ، وهذا أمر لا ريب مستحيل . . .

« يحتاج العالم ، في القرن العشرين ، إلى معرفة كثير من العوادل الجوهرية ، كالزمن ، والبيئة ، والإقليم ، والعادات ، والحاجات ، والمطامح ، والميول ، والأحقاد إلخ . . . لا سيما إدراك تلك القوى الباطنة التي لا تقع تحت مقاييس المعقول ، والتي يعمل بتأثيرها الأفراد والجماعات .

« لنضرب مثلاً عكسياً : ما رأى الأوروبيون في عالم من أقصى الصين يتناول المتناقضات التي تكثر عند مؤرخي الفرنسيين ، ويمحصها بمنطقة الشرق البعيد ، ثم يهدم قصة الكردينال ريشياو كما نعرفها ، ليعيد إلينا ريشليو آخر له عقلية كاهن من كهنة بكين وسماته وطباعه ؟

« إن مستشرق العصر الحاضر قد انتهوا إلى مثل هذه النتيجة فيما يتعاق برسمهم الحديث لصورة الرسول . ويخيل إلينا أنا نسمع محمداً يتحدث في مؤلفاتهم : إما باللهجة الألمانية ، وإما باللهجة البريطانية ، وإما باللهجة الفرنسية ، ولا نتمثله قط بهذه العقلية والطباع التي ألصقت به ” يتحدث عرباً باللغة العربية .

« إن صورة نبينا الجليلة التي خلفها المنقول الإسلامي : تبدو أجل وأسمى إذا قيست بهذه الصور المصطنعة الضئيلة التي صبغت في ظلال المكاتب بجهد جهيد . ونرجو أن يعرف العلماء ضلالهم ، فيعدلوا عن النيل من هذه الصروح المعجزة التي رفعها التاريخ إقراراً بفضل أنبياء العرب وبنى إسرائيل والهنود على الإنسانية ، فإن أساس هذه الصروح أصلب من أن تخدشه تلك المعاول ،

« وإذا شاء المستشرقون أن تكون جهودهم مثمرة فلينصرفوا عن إضاعتها في محاربة المنقول الذي هو أسمى من أن يوازيه شيء ، إلى شرح هذا المنقول وإحيائه بدراسة نفسية العرب درساً عملياً غير سطحي .

« كان أخرى بالاستشراق الذي يبني بحوثه على الجثث — كما هو شأن طلاب الطب — في تلك القاعات التي تدعى مكاتب ، أن يقتصر على مباحث التحقيق والعلم النقي الصافي . وهو في هذه الدائرة ، دائرة الإخراج العامي ، قد أنهز عملاً

مجيئاً ، نحن على رأس المقرين بحسنه ونفعه ؛ ولكن لم يبق له فيما يتعاق بشأن الإسلام إلا أن يخلى المجال ، ولعله أدرك هذه الحقيقة فأخذ يتوسل بمختلف الوسائل إلى تجديد شبابه آخذاً بأشد أساليب التاريخ الحديثة عمقاً ، جاداً في طلب أغرب الآراء وأبعدها عن المعقول . وغاية ما في الأمر أنه زاد وجهه تنجعدات لم تكن من قبل فيه ، ما أشبه نظرياته ، رغم جدتها الظاهرة ، بكتابات للطلاب في مباراة الشهادات ، التي لا تكاد تولد حتى يمسهما الكبر ، لأنها غير قائمة على درس الحياة ، وإذن غير جديرة بها !

عبد الحليم محمود

مارس سنة ١٩٦٥

محمد رسول الله
صلى الله عليه وسلم

مقدمة

إن حدود هذا السفر لن تسمح لنا بأن نقدم جميع التفاصيل ، وجميع النواحي ، لحياة حافلة بالعظائم إلى هذا الحد ، كما هو الشأن في حياة النبي محمد ، صلى الله عليه وسلم ؛ ولذا نجد لزماً علينا : أن نتخير للعرض أهم الحوادث لكي نعطيها العناية التي نراها ضرورية . وإذن فعملنا هذا إنما هو سلسلة من اللوحات التصويرية ، وليس تاريخاً كاملاً نقدمه للقراء .

وقد اعتمدنا في استمداد عناصرها على أقدم المؤلفين : كابن هشام ، وابن سعد ، وسواهما ، ثم على مؤرخ من المحدثين هو : « علي برهان الدين الحلبي » الذي حشد في كتابه المسمى : « السيرة الحلبية » مختلف الروايات لأشهر المؤرخين . وإن التوافق الكامل بين تلك النصوص التي يرجع بعضها إلى مستهل اثني عشر قرناً ، وبين عوائد وميول ولهجات المسلمين من سكان الصحراء الذين نراهم في عصرنا هذا أقرب الناس شَبْهاً بعرب الحجاز الذين أكمل محمد رسالته بين ظهرانيهم ، هو دليل على مكانة تلك النصوص من الحق .

ولعل في هذه الملاحظة ما يكفي لتنبيه القراء إلى أنهم لن يجدوا بين دفتي هذا السفر شيئاً من تلك المذاهب الغريبة المتغالية ، التي تعمل على هدم السنة ، والتي شغف بها حبباً أولئك المستشرقون المحدثون بما لهم من غرام وشهوة بكل ما هو باغ من الرأي أو غريب .

على أن دراسة المبتدعات التي دخلت عن هذا الطريق في تاريخ النبي قد أتاحت لنا أن نكشف عن أنها كانت ، أحياناً ، وليدة كراهية شديدة^(١) للإسلام يصعب التوفيق بينها وبين العلم ، ولا تليق بعصرنا هذا ؛ كما أنها ، على العموم — مع ما فيها من إحاطة نظرية بحتة — تسجل على مؤلفيها جهلاً عجيبيّاً بعبادات العرب ؛ ولأنه ليكن في إظهار زيفها أن نقارن بعضها ببعض ، لأنها على

(١) كما هو الشأن في كل ما كتب القسيس « لامنس » أو القس « زويمر » .

تناقض بحيث ينسخ بعضها بعضاً^(١) . وأخيراً فإن غلوها في الخيال - فيما يتعاق بالظواهر النفسية الشرقية - ليظهر ، بأجلى بيان ، صدق تلك الآثار المأخوذ بها في العالم الإسلامى .

وتلك الآثار هى التى تهدى خطانا . وقد اقتصرنا على أن نختار من الروايات ما يبدو لنا أنها الأكثر دلالة ، لكى نضعها في موضعها المناسب ، مستعينين في ذلك بالأخبار التى جمعناها من محادثاتنا الطويلة مع الحجاج في أماكن الحجاز المقدسة ، وبالنظر إليها من خلال تجارب الحياة الإسلامية الصحراوية التى كان أحدنا حليفها منذ فجر حياته ، والآخر يمارسها منذ أكثر من ثلاثين عاماً .

ولقد آثرنا ، بالاتفاق مع نصوص القرآن - وهو الكتاب الوحيد الذى لم يعارض ولا يقبل المعارضة - وبالاتفاق مع علماء الإسلام للصبر الأول ، ومع أصحاب الفكر الحر من المعاصرين كالشيخ محمد عبده الذائع الصيت ، أن نضرب صفحاً عن جميع الخوارق التى نسبت إلى النبي العربى بعد زمن طويل من وفاته ، والتى يبدو أن فى نسبتها إليه ما يسلبه سيماه الحقيقية .

والحق أننا نرى ، من بين جميع الأنبياء الذين أسسوا ديانات ، أن محمداً هو الوحيد الذى استطاع أن يستغنى عن مدد الخوارق والمعجزات المادية ، معتمداً فقط على بدهة رسالته ووضوحها ، وعلى بلاغة القرآن الإلهية . وإن فى استغناء محمد عن مدد الخوارق والمعجزات لأكبر معجزة على الإطلاق ، وقد نسى « ريتان » ذلك - بالنسبة للرسول - فوصفه بأنه ضرب من المحال ، وقال فى معرض حديثه عن المسيح : « إن أعظم معجزاته أنه لم يأت بمعجزة . وإن قوانين التاريخ والقواعد المستمدة من نفسية الشعوب ما كانت لتشهد قط انتفاضاً لها أعظم من هذا^(٢) » .

(١) وقد عارض المؤلف بعضها ببعض فى كتابه : « الشرق كما يراه الغرب » وكانت النتيجة أن تهافتت هذه الآراء وانهارت .

(٢) لتوضيح هذه الفكرة ننقل النص الآتى من : « أشعة خاصة بنور الإسلام » ، تأليف المؤلف ، وترجمة الأستاذ راشد رستم :

« إن نبي الإسلام هو الوحيد من أصحاب الديانات الذى لم يعتمد فى تمام رسالته على المعجزات . وليس عمدته الكبرى إلا بلاغة التنزيل الحكيم . وفى ذلك يقول تعالى : (وما متعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون) » .

ويقول « ريتان » الكاتب الفرنسى الشهير ، فى صدد كلامه عن عيسى ومعجزاته :

إننا مع ذلك : قد التزمنا أن لا نطرح جانباً تلك القصص التي تحمل طابع الأساطير الخيالية ؛ فالأساطير ، وعلى الخصوص الشرق منها ، وسيلة من وسائل التعبير لا تضارع ؛ لأنها تصبغ الأشياء والحوادث بألوان قوية لا تمحى ، وتضفى على الحديث حيوية شديدة التأثير ، والمؤرخ العصري لا يمكن أن يسمو بتحقيقاته الجادة - التي يقولون عنها : إنها تزن كل شيء حق وزنه - إلى تلك الألوان وهذه الحيوية .

لذلك يجب على قرائنا ، في المستقبل ، أن يحترسوا كل الاحتراس من مقارفة الأغلاط البشعة ، التي اقترفتها الثقافات اليونانية ، واللاتينية ، والمدرسية ، أثناء شروحيها الحرفية لكتب الشرق المقدسة . وإذا ما عرضت لكم هنا أمثال رمزية تبدو ، أحياناً ، في شكل معجزات ، فسيكون من السهل عليكم أن تدركوا ما فيها من الحقائق ، التي - وإن كانت مفرغة في قالب شعري - ليست أصلاً مما تناوله الخيال العربي بالتشويه .

وإن القرآن هو أولى أن يفهم بهذه الكيفية ، وقد جاء فيه : « ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون » (سورة ١٤ آية ٢٥) .

== « لعل أكبر معجزات عيسى أنه لم يفعل منها شيئاً » . ثم هو يقول باستحالة أمثال هذه المعجزات ، لمخالفتها لقواعد التاريخ وأصول علم النفس .
وقد نسي « رينان » أن محمداً صلى الله عليه وسلم مع عدم اعتماده على مثل هذه المعجزات التي ينكرها ، قد جاء بأكبر المعجزات : مما هو شاذ في تاريخ الديانات كلها .
جاء بذلك الدين الخفيف الذي لم ينفك يزداد أنصاراً كل يوم ، منذ ثلاثة عشر قرناً ، حتى بلغوا اليوم ثلاثمائة مليون من النفوس ، دون أن يكون له دعاة ومبشرون .
على أن المعجزات التي تنسب إلى محمد ليست من نصوص القرآن ، وإنما قد نسبها إليه مؤرخو العصور المتأخرة تقليداً للمعجزات التي تنسب إلى المسيح ؛ فهي ليست من الدين في شيء .
وأما تلك الخرافات ، والمعتقدات الغريبة التي نشاهدها في بلدان الإسلام المختلفة ، فهي غريبة عن القرآن ودخيلة على الدين ، ولا تتفق مع شيء مما عرف عن رسول الله ذاته صلى الله عليه وسلم . فقد جاء في الأثر : لما مات إبراهيم حزن عليه محمد حزناً عظيماً . وحدث أنه ساعة دفنه كسفت الشمس فقال الذين من حوله :

إنها لمعجزة يا محمد ، فقد شاركك الشمس في حزنك على ولدك .
ومع أن النبي كان مأخوذاً بالحزن الشديد ، فقد أنب القائل ، وقال : « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينخسفان لموت أحد ولا لحياته » .

وأخيراً ، ربما يبدو غريباً ألا توجد في كتابنا هذا ، بين اللوحات المرفقة للنصوص ، أية صورة للنبي ، ولا أى رسم يعرض الحوادث التى كان هو بطلها .

وعلة ذلك أننا — كمسلمين مخلصين — لم نرد أن نتعدى مبادئ الإسلام الصحيحة ؛ تلك المبادئ التى هى أقل عداوة مما يعتقد عادة لتصوير الوجه الإنسانى ، ولكنها تمنع صراحة أن تتخذ صوراً للآلهة ، لأن ذلك عمل فيه نوع من الوثنية المثنكرة ، وتأتى أن نرسم صوراً للأنبياء فتكون خرقاً لقدسياتهم لا بد أن ينتقصهم .

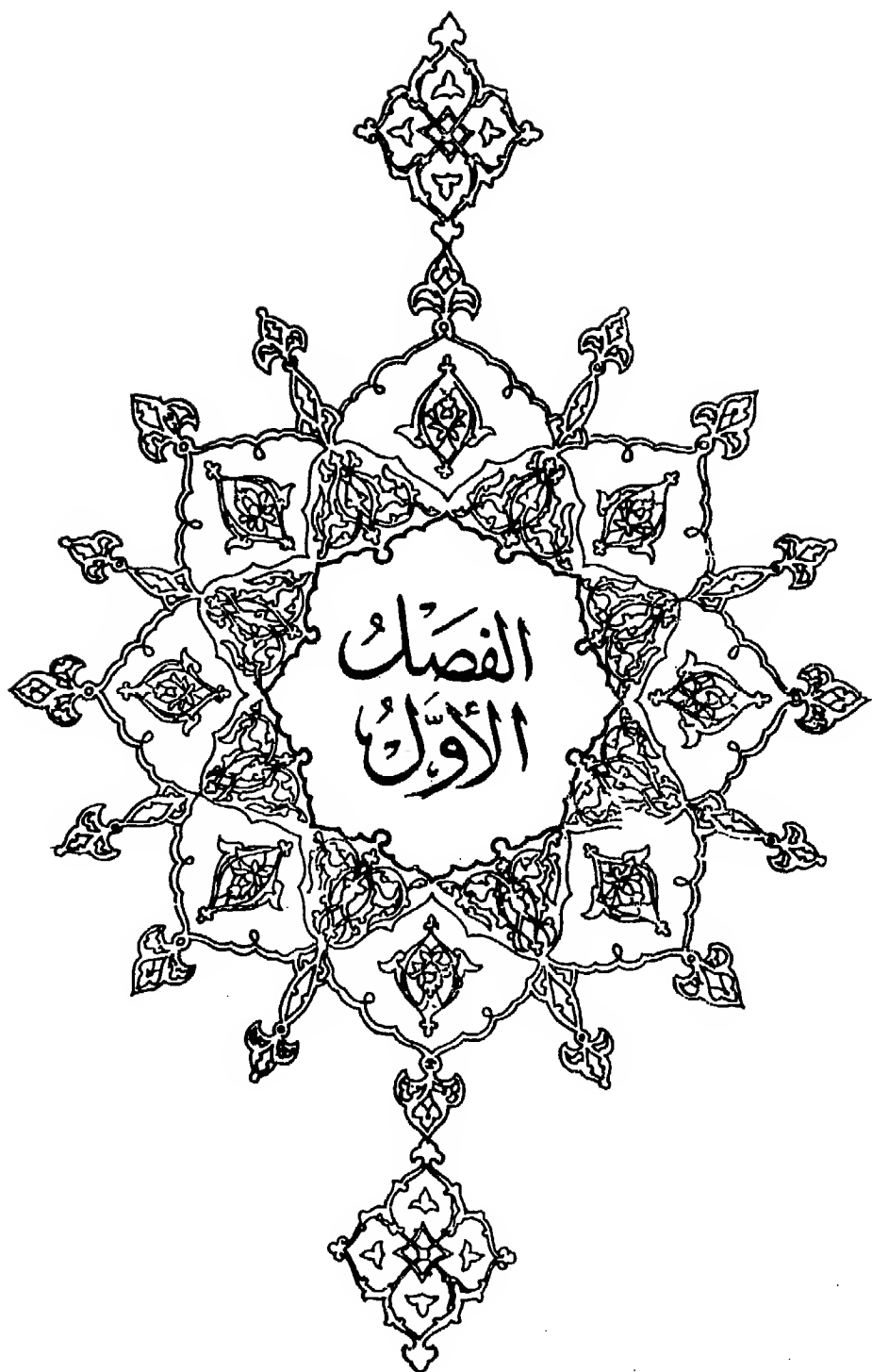
وفى الحقيقة ماذا تستطيع أن تبدو به لعينى مؤمن صورة جامدة لنبي مرسل من الله ، مهما كان من دقة رسمها ، إذا ما قورنت بمثاله الرائع الذى يرسمه له خيال ذلك المؤمن فى حميا إيمانه ؟ . . . لقد فهم ذلك بعض الرسامين من الفرس الذين عرضوا لتصوير محمد فى مختلف مراحل ليلة المعراج . فأخفوا تماماً صورة وجهه لعجزهم عن تصويرها ، ولخوفهم أن يشوهوا قسماته الشريفة المحوطة بالجلال . وما يزيد فى توضيح غرضهم من هذا الإخفاء ، ما نلمسه من عنايتهم البالغة ، فى نفس هذه الرسوم ، بتصوير كل ملامح الوجوه الأخرى ، كوجه البراق — وهى ركوبة النبي المجنحة ذات الوجه الإنسانى ، ووجوه الملائكة الذين يتألف منهم الموكب السماوى .

ولكى نضع بديلاً لهذه الصورة الخيالية التى لا مفر فيها من الكذب ، اخترنا طريقة للتصوير أقل مباشرة للصميم ، ولكننا نأمل بوساطتها أن نستعيد بعض انعكاسات من لألاء تلك الشخصية السامية التى لحت أول بارقة من نور الحياة فى مكة .

إن ملامحه المعروفة لنا من أوصاف مؤرخيه فقط ، إنما تبدو لنا من خلال نقاب خفيف كضباب الحلم ، ذلك النقاب الذى لن نسعى فى أن نمزقه ، إذ من وراء هذا النقاب الخفى تستمر تلك الأوصاف ، فى أندر وأثمن بيان ، تبرهن به على أنها لم يصبها من التشويه ما أصاب سواها كثيراً ، بسبب محاولات فاشلة لتكوين صور لا يمكن تحقيقها . أما سنته الغراء فإنها على الضد من ذلك ، باقية إلى يومنا هذا ، يجلوها أعظم إخلاص دينى تفيض به نفوس ثلاثمائة مليون من أتباع سنته منتشرين على سطح الكرة .

إننا ، فى الحقيقة : نجد الاهتمام الدائم من جميع المسلمين ، مهما تباينت أجناسهم ، اهتماماً يتجلى فى أن يحدوا فى كل صغيرة وكبيرة حذو نبهم الذى توجد صورته منقوشة فى قلوبهم . وهكذا لا نجد ما هو أعظم تمييزاً للمسلم من الطريقة التى يمارس بها طهاراته من غسل ووضوء : تلك الطهارات التى بها نستطيع أن نميز عربياً مسلماً من عربى مسيحى .

إن فى رأى المؤمنين وفى أعمالهم لصورة نلمحها منعكسة من مآثر محمد ، وإذا ما كانت بالطبع باهتة بالقياس إلى كمالاته العليا ، فإنها : لا جدال فى صحتها . هذا ، على حين أننا نجد قياصرة روما ، مع دقة تماثيلهم ، لا يطاتلنا منهم سوى قناع مزيف لوجوههم الجامدة تحت صورة من الخيلاء . إن صورهم تظل ميتة يعجز خيالنا عن أن يلمح لها شيئاً من الحياة وإنه لبوحى هذه الحقيقة المقررة أن قامت برعوسنا فكرة نشر لوحات فى تاريخ محمد هذا ، تمثل المآثر الدينية لأتباعه ، وبعض صور من حياة العرب ، وبعض مدن الحجاز الذى هو موطنه .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الأذان :

ألح الآن شعاعاً وردياً ، يتدفق في الأفق ، والنجوم يبهت لونها ، ويطرق مسمعى لحن موسيقى ، يتردد صدها في هدأة الفجر : « الله أكبر ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمداً رسول الله ، حي على الصلاة ، حي على الفلاح » . (١)

والألحان الأخيرة من هذا النداء الذي يردده المؤذن تنتشر من المنارات السامقة ، فوق أعالي البيوت وذوائب نخيل الواحة ، ذاهبة إلى حيث تدوب ، في جنبات الصحراء اللانهائية . . . وعندئذ يهب المسلمون من أعقاب نومهم ، مزملين في أرديتهم البيضاء (الشبيهة بكفان الموتى) وقد عرتهم رجفة هذا النداء ، فكأنما يهبون من رجفة يوم النشور . وهناك يتقاطرون نحو العيون (٢) فيتطهرون أتم الطهارة . ثم — على طهر من أجسامهم وأرواحهم — ينتظمون صفوفاً طويلة ، متحاذين بمرافقتهم ، متوجهين وجهة واحدة نحو كعبة مكة المقدسة .

أداء الصلاة :

هناك يقومون ، وأجسامهم منتصبية ، ورؤوسهم في انحناء يسير ، وعيونهم حاسرة ، ساكنين في تلايف أرديتهم الطويلة ، وكأنما تحولوا إلى حشد من التماثيل ،

(١) يتميز الإسلام في الدعوة إلى الصلاة بأن الإنسان هو الذي يدعو إخوانه إلى تأدية هذه الفريضة . وإن صوت الإنسان هو صوت طبيعي أقدر على حمل العاطفة الإنسانية الصادرة من قلب المؤمن إلى إخوانه المؤمنين ، للقيام بأهم فروض الإسلام ، من أية آلة صناعية ، ومن القلب إلى القلب رسول (من : أشعة خاصة بنور الإسلام) .

(٢) يعطينا المؤلف هنا صورة دقيقة عن الجزائريين في صلاتهم . وهذه الصورة — مع اختلاف بسيط في ألوانها — هي صورة للمسلمين في جميع بقاع العالم عند ما يدعون في الفجر إلى الصلاة .

وعلى قلوة بالإمام الواقف أمامهم بنفس الهيئة ، ولنفس القصد ، معلناً كل وضع جديد من الصلاة بالتكبير « الله أكبر » يرفعون كذلك أيديهم مفتوحة حتى تحاذى أفوادهم ، مظهرين بذلك روعتهم أمام القدرة اللانهاية لرب العالمين . ثم ، في حركة واحدة ، يحنون جميعاً ظهورهم ، ويركعون أمام جلال الألوهية .

ولكن هذه الصورة لا تكفى لإظهار ما تحوى نفوسهم من خضوع ، ولذا يحزنون للأذقان سجداً ، وعلى سطح الأرض يلصقون جباههم وأنوفهم ، ويسكنون لحظات على تلك الهيئة الضارعة ، كأنما ينوءون تحت عبء السماء بكل ما فيها ، وكأنما السماء معهم ساجدة . . . وأخيراً يرفعون صدورهم ثانية ، ويبقون جالسين والركب على الأرض ، والرؤوس مثقلة بوقر من حرارة الإيمان . ثم التسليم بعد ذلك ، مصحوباً بالتفات الوجه مرة إلى اليمين ، وأخرى إلى اليسار ، مخاطبين فيهما الملكين اللذين يلزمان كل مؤمن ؛ وبذا تنتهى الصلاة .

ومع ذلك ، فالمسلمون عادة ، وهم لا يسألون الله شيئاً لأنفسهم ، بل لا يسألونه خبزهم اليوم ، يبقون على هذه الصورة ، بعد انتهاء الصلاة ، فترة من الزمن وهم رافعون أكفهم إلى أعلى من صدورهم ، وأيديهم مفتوحة أمام عيونهم كأنما يقرعون فيها كتاباً ، ضارعين إلى الرحمة الإلهية من أجل الإسلام ، ومن أجل أقاربهم ، ومن أجل سعادتهم الآخروية .

إن بعض أعمال الصلاة هي وحدها التى يجهر بها الإمام ، كالتكبير ، والفتاحة والتسليم الختامى . أما الحاضرون فإنهم لا يقرعون أثناء الصلاة إلا فى قرارة أنفسهم ، ونفوسهم لا تردد سوى التكبير ، فى غمغمة لا تكاد تلج آذانهم .

وإن نصف السكوت هذا ليزيد فى عظمة هذه الحركات الجامعة بين البساطة وسمو الدلالة ، التى تتحد فيها الأهلية الكاملة بالتواضع ، ويخلوها من الرياء تماماً ، تعطى مشهداً رائعاً لعبادة تأثيرها أعظم من أن يتصوره خيال .

أوقات الصلاة :

فى كل يوم ، كلما غابت الشمس من ألوان ضوئها : فى فجرها الأرجوانى ، وفى ظهيرتها الملتهبة ، وفى عصرها المذهب ، وفى مغربها المخضوب بصفرة الحزن على فراقها ، وفى تكفئها أخيراً بأوشحة من الشفق الأزرق القاتم فى المساء ، يرى

المسلمون جميعاً من المحتوم عليهم أن يتجردوا من أعمالهم وشواغلهم : بل من أفكارهم ، ليتفرغوا للصلاة يؤدونها ليس فقط في المساجد ، بل أيضاً في البيوت ، وفي الشوارع ، وفي المقاهي ، وفي الأسواق ، وفي الحقول ، وفي الصحارى ، وفي أى مكان يوجدون فيه ، ولو بدون مؤذن أو إمام ، الكى يمجّدوا — على تلك الصورة — مفيض الخير جل سناه .

ومنذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً ، من الشواطئ* الأفريقية للمحيط الأطلنطى إلى الشواطئ* الصينية للمحيط الهادى ، يستدير أكثر من مائتى مليون من المسلمين خمس مرات فى كل يوم إلى ناحية الكعبة المقدسة فى مكة حيث تتجمع الملايين من صلواتهم متناسقة لتصعد إلى الملأ الأعلى ، كى تشهد الله على ما للروح الإسلامية نحوه من ولاء لا يمكن أن يتحول .

وصف مكة :

ما هى إذن تلك المدينة العجيبة التى كانت — على التقريب — غير معروفة فى العصور البعيدة القدم ، والتى تهوى نحوها آمال خلائق يصل عددها إلى هذا الحد ؟

أهى إحدى تلك المدن الجميلة الموقع التى أقام فيها أغنياء الملوك قصوراً زاهرة ، وجمعوا فيها كنوز الفن المبتكر ؟

أهى إحدى تلك المدن الكبرى التجارية التى تشرف على طرق البر والبحر ، وتتدفق عليها الحاصلات والثروات العالمية ؟ أم هى عاصمة إمبراطورية قوية أخضع جنودها الشجعان لها جميع الشعوب المجاورة ؟

لا شىء من ذلك قط . إن مكة واقعة فى أجذب بقاع العالم وأشدها حرماناً ؛ وتجارها قديماً كانت مقصورة على قوافل الصحراء . لأنها لم تكن ذات غنى ولا ذات قوة ، ولكن كم عدد المدن التى تحسدها على مجدها الباذخ باحتضانها الكعبة المقدسة ، وبأنها شرفت ، دون سواها ، بمولد محمد سيد المرسلين .

وحتى فى عصرنا هذا أيضاً ، بالرغم من الهدايا التى يحملها إليها من جميع نواحي الأرض آلاف الحجاج ، يأتون كل عام للسجود فى معبدها المقدس ، فإن مكة أم القرى : لا تستطيع أن تباهى كبريات المدن فى ترف قصورها ، وفخامة

مساجدها ، أما في نظر المؤمنين فإن كنوزها تتأق بسناء لا يعادله سناء . بيد أن كنوزها تلك ليست قط من هذا العالم .

إن منظر مكة المكرمة لا يختلف عن غيرها من مدن الصحراء العربية . إنها لتفوقها جميعاً بأنها تحوى من البيوت : ما هو أكثر عدداً ، وأرفع سمّاً ، وأبهى زينة ، ومع كل هذا فإن منظر مكة العام لا يرى قط ذا ميزة خاصة .

من أعلى جبل أبي قبيس الذى يشرف عليها من الشرق : تكشف العين عن شكلها المستطيل من الشمال إلى الجنوب في بطن واد ضيق . وعندما ينظر إليها المرء ، لأول وهلة ، فإنه لا يكاد يميزها عن الأديم الذى تقوم عليه . إن الجبال الجرداء الصخرية التى تكتنفها غير مفصولة عنها بأية واحة ، وليس بينها وبين مكة أية بقعة خضراء ، وإن سطوح منازلها لتختلط بمنهار الصخور التى تحدرت على سفوح تلك الجبال . أما بعد أن تراض العين شيئاً فشيئاً فإنها تميز البيوت والدور ، وتكتشف المداخل الخفية ، ونقوش المنارات الضاربة في الفضاء صعداً ، ويثنيه الإنسان بغته لمنظر مفاجئ لمدينة كبيرة ، لم يكن يظن وجودها في هذا المكان ، فإن العين تراها تكبر دون حد حتى ليكاد الإنسان يعزو اتساعها المفاجئ إلى سحر ساحر ، وتبدو الصخور بدورها وكأنها تحولت إلى منازل ، وتبدو الآكام أشبه بضواح واسعة لا يدرك الطرف لها نهاية . لكن إذا ما كانت العين ، وسط هذا الخليلط : من أشكال محلبة القمم ، لا تكاد تميز المساكن الإنسانية من الصخور الوعرة ، فإنها على العكس تفاجأ مباشرة بمنظر ضخم من البناء ، قائم وسط فناء مربع الجوانب ، يكسوه نسيج من حرير أسود ، يغطى لمعانه الرائع على ما حوله من ألوان باهتة ، كأن لحرارة الشمس القوية دخلاً في شحوبها القاتم .

ذلك المكعب الأسود هو الكعبة المقدسة ، إنها قلب الإسلام النابض .

وكما تحمل الشرايين إلى القلب الدم الذى تعيا به الأجسام ، كذلك جميع صلوات الإسلام تتجه نحو هذا الهيكل ، لتذكى في الأرواح الحياة والنشاط ، وتلك هى النقطة الوحيدة في العالم كله ، التى يستطيع المسلمون فيها أن يقف بعضهم أمام بعض وجهاً لوجه حينما يؤدون الصلاة .



الكعبة والحجر الأسود :

إن هذه الكعبة^(١) ليست قبر النبي ، ولا هي مقصودة بالعبادة — كما يتوهم بعض الغربيين — إنما ليست إلا معبداً يحمل اسم « بيت الله الحرام » وأصلها يرجع إلى أقدم العصور .

إنها — حسب المأثور عند العرب — من بناء آدم أبى البشر . ولا اجتاحتها الطوفان جدد بناءها النبي إبراهيم ، على نفس الأساس الأول ، بمساعدة ولده إسماعيل الذى هو أصل الأمة العربية . ومن ذلك الحين جددت مرات كثيرة على نفس القواعد ، وعلى نفس الصورة ، وكانت — منذ ذلك العهد — غاية يقصد إليها العرب لعبادة الله الفرد الصمد ، ويدورون حولها سبعة أشواط من العبادة ، رسمها لهم جداهم الأعلى إبراهيم عليه السلام ، تسمى « الطواف » .

وعلى خطى الزمن الوثيدة تحولت — فى أذهان الحجاج — فكرة عبادة الله الواحد ، ففقرنوا بها عبادة الأصنام . حتى لقد بلغ عدد هذه الأصنام ثلثمائة وستين صنماً ، عندها أرسل محمد للقضاء عليها .

وفى الزاوية الشمالية الشرقية من بناء الكعبة ، ثبت الحجر الأسود ، موضوعاً فى دائرة من الفضة . أنزل هذا الحجر من الجنة ، مع جبريل ، إلى إبراهيم وولده وقتما كانا يشيدان الكعبة ؛ وبأيديهما وضع فى مكانه الذى لا يزال فيه حتى اليوم ، لكى يعين مبدأ أشواط الطواف . وقد كان هذا الحجر فى الأصل ، أبيض كاللبن . أما لونه الأسود الذى هو عليه الآن فإنه من تلونه^(٢) بخطايا الحجاج الذين يلمسونه ويقبلونه ، طالبين المغفرة من مولاهم الرحيم .

(١) كل شئ عـلا وارتفع فهو كعب ، ومن ثم قيل للكعبة كعبة .
(٢) يقول المؤلف « إن الإسلام منذ البداية قد أخذ فى محاربة الخرافات والبدع ، وهذا هو ما يقوم به العلم حتى يومنا الحاضر ، ولكنه يرى أيضاً أن الشرق يصور ما يريد من معان فى أسلوب أسطورى ليبن ، فى أوضح بيان ، ما يريد أن يوحى به من معنى ، ولذلك لا يريد المؤلف أن يضرب صفحاً عن هذه القصص التى صيغت فى أسلوب الأساطير . والقصة التى نحن بصددها الآن تريد أن تبين أن البشر مخلوقون ، وأن خطاهم كثير ، وأن معاصيهم الهائلة وصل بها الأمر أن أثرت فى الحجر الجماد فغيرته من أبيض ناصع إلى أسود قاتم . وهذه القصة توجه بذلك نظر الإنسان إلى الكثرة المفرطة من المعاصى التى يرتكبها بنو البشر . فلعله يروعى .

عين زمزم :

وعن كذب من الكعبة . حفرت عين زمزم ، ذات المياه العجيبة التي انبجست من الثرى ، لتخليص إسماعيل من آلام العطش . عندما كان هو وأمه هاجر وحيدين في هذا القفر أشبه بمفقودين ، وفي العصر الجاهلي طمست عين زمزم بالرمال بسبب إهمالها . ولكن عبد المطلب جدد حفرها قبل ولادة النبي بسنين قلائل .

ومنذ ذلك الحين صار ماء زمزم موضع التشريف من الحجاج الذين يتخذون منه للشرب والتطهير كي يظفروا بالقداسة في جو من ذكرى جدهم . وكانت سقاية الحاج وحجاجة الكعبة من الوظائف المرغوب فيها ؛ لما يتعلق بها من الشرف والكرامة ، وكاننا - يومذاك - مجموعتين في يد عبد المطلب بن هاشم القرشي جد النبي الذي سيحيى به المستقبل .

زواج عبد الله أبي النبي :

كان عبد المطلب ، سادن الكعبة ، خارجاً يوماً ممسكاً بيد ابنه عبد الله أحب أولاده إلى قلبه . وكان على باب الكعبة امرأة من بنى أسد تسمى « قتيلة » ، ما كادت ترى عبد الله حتى انتهضت من جلوسها مبدية شديد دهشة ، ثم نظرت إليه بإلحاح عجيب - وقد بهرها النور السماوي الذي يرف على جبينه - فتعلقت عيناها به وراحت تسأله :

— أين تذهب في ساعتك هذه ؟

فقال لها : هناك إلى حيث يقودني أبي .

فقالت له : قف واسمع ! إنى أهبك مائة من الإبل وهي التي وجب على أبيك التضحية بها لإنقاذ حياتك ، إذا أنت قبلت أن تكون لى في هذه اللحظة .

فأجابها عبد الله مبهوئاً لقله حياء تبلغ هذا الحد ، وعلى الخصوص في حضرة شخصية لها مقامها كعبد المطلب : إنى في صحبة أبي الذي لا أستطيع له خلافاً ولا مفارقة .

وانصرف عبد الله وقد ملئ اضطراباً وبلبله ، ولحق بوالده عبد المطلب الذي

قاده من فوره إلى بيت وهب بن عبد مناف ، حيث الفتاة التي كان قد اعتزم أن يزوجه منها .

كان وهب سيداً من سادات بني زهرة ، كما كان عبد المطلب^(١) أميراً من أمراء قريش التي هي من أنبل قبائل العرب . وبين بيتين أصيلين في الشرف غير متنازع ، كان الاتفاق على المصاهرة سهلاً ، ولذا تم القران بين عبد الله بن عبد المطلب وأمنة بنت وهب فوراً .

وقاد عبد الله زوجه إلى منزل أخيه أبي طالب لإتمام الزواج . وقضى بالمنزل ثلاثة أيام وثلاث ليال . ولما خرج من المنزل لقي « قتيلة » مرة أخرى ، تلك المرأة التي كانت قد توسلت إليه في قليل من التحفظ ، ودهش لما رآه عليها هذه المرة من عدم الاهتمام حين مر بها .

وكان عبد الله مشهوراً بأنه أجمل شباب مكة . وكانت رجولته الرائعة قد حركت نحوه هوى الكثير من فتيات مكة ، إلى حد أنهم حين علمن خبر قرانه سقطن مريضات بفعل الحقد والغيرة .

أما « قتيلة » فإنها لم تكن من النساء العابثات ، لأنها كانت أخت ورقة بن نوفل ذلك الحبر المشهور في كل جزيرة العرب لمعرفته التامة بالكتب المقدسة . وكانت تعرف — عن طريقه — أن نبياً سيولد في هذه الأرض ، وأن والده يعرف بنور يتلأأ في جبينه بمثل لألاء الماس أو النجوم . وكانت قد أدركت هذه السمة في

(١) كان عبد المطلب ممن حرم الخمر على نفسه في الجاهلية . وكان محاب الدعوة ، وكان يقال له الفياض لجوده ، ومطعم طير السماء ، لأنه كان يرفع من مائدته الطير والوحوش في رهوس الجبال . وكان من حكماء قريش وحلمائها .

وكان نديمه حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف والد أبي سفيان ، وكان في جوار عبد المطلب يهودي ، فأغلظ القول على حرب في سوق من أسواق تهامة ، فأغرى عليه حرب من قتله ؛ فلما علم بذلك عبد المطلب ترك مناداة حرب ، ولم يفارقه حتى أخذ منه مائة ناقة ، دفعها لابن عم اليهودي حفظاً لجواره . وكان عبد المطلب يأمر أولاده بترك الظلم والبني ، ويحثهم على مكارم الأخلاق ، وينهاهم عن ذنوبات الأمور ؛ وكان يقول : لن يخرج من الدنيا ظلوم حتى ينتقم منه وتصيبه عقوبة ، إلى أن هلك رجل ظلوم من أهل الشام لم تصبه عقوبة ؛ فقبل لعبد المطلب في ذلك ، ففكر وقال : والله إن وراء هذه الدار داراً يمجى فيها المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته .

ورفض في آخر عمره عبادة الأصنام ، ووجد الله ، سبحانه وتعالى . وتوثر عنه سنن جاء القرآن بأكثرها وجاءت السنة بها ، منها : الوفاء بالنذر ، والمنع من نكاح المحارم ، وقطع يد السارق ، والتبى عن قتل الموودة ، وتحريم الخمر والزنا ، وأن لا يطوف بالبيت عريان (كذا في كلام سبط بن الجوزي) .

جبين عبد الله ، فوفر في نفسها حلم طموح في أن تكون يوماً أم هذا النبي المنتظر .
ولقد كان إخفاقها في هذا المطمح البعيد سبباً في أنها لم تبد أية رغبة في عبد الله ،
مهما كان أمر جماله .

أما عبد الله الذي كان يجهل صراح الأمر ولبابه ، فقد تأثر أمام برود قتيلة
المفاجئ* ، بعد شغف ثائر كالذي كان منها ، فقال لها :

— مالك لا تعرضين على اليوم ما كنت عرضت بالأمس ؟

فقالت له : من أنت ؟

قال : أنا عبد الله بن عبد المطلب .

قالت : آه ، أأنت ذاك الذي كان جبينه يلوح لي تحت لإكليل من النور
وقد اختفى الآن منه ؟ ما الذي حدث بعد أن تلاقينا ؟

فقص عليها عبد الله خبر زواجه ، وأدركت هي أن النور الذي كان يحمله
أبو نبي المستقبل قد مر من جبهة عبد الله إلى أمانة زوجه .

وقالت له : والله ما أخطأت فيما كان مني . لقد كشفت على جبينك نوراً ،
ورغبت أن أمتلكه ولكنه الآن أصبح في حيازة امرأة أخرى وستلد أفضل الخلائق ؛
ولم يبق فيك الآن ما يجذبني نحوك .

هكذا عرف عبد الله من هذه المرأة ما كان من حمل زوجه ، ومن أمر
المستقبل المدخر لولده . ذلك الولد الذي كتب على عبد الله ألا يحظى برؤيته ،
إذ وافاه الأجل المحتوم في يثرب ، قبل ولادة محمد بشهرين .

أما أمانة أم المصطفى فقد قالت :

« منذ اليوم الذي حملت فيه ولدي حتى الساعة التي وضعت فيه لم أشعر بأقل
ألم ، وإني لم أشعر حتى بمجرد ثقله ، بل ما شعرت أني قد حملت به حتى أتاني
أت وأنا بين النائم واليقظان ، فقال : هل شعرت أنك حملت ؟ فكأنني أقول :
ما أدري . فقال : إنك قد حملت بسيد هذه الأمة ونبيها ، اعلمى ذلك .

« وفي نفس اللحظة خرج من أحشائي خيط من النور ، وترامى ناحية المشرق
حتى بلغ أرض الشام . وعندما دنا موعد ولادتي ظهر لي الملك من جديد ، وأوصاني
قائلاً : عندما تضعين ولدك قولي (أعينه بالواحد الصمد من شر الحاسدين) وسميه محمداً

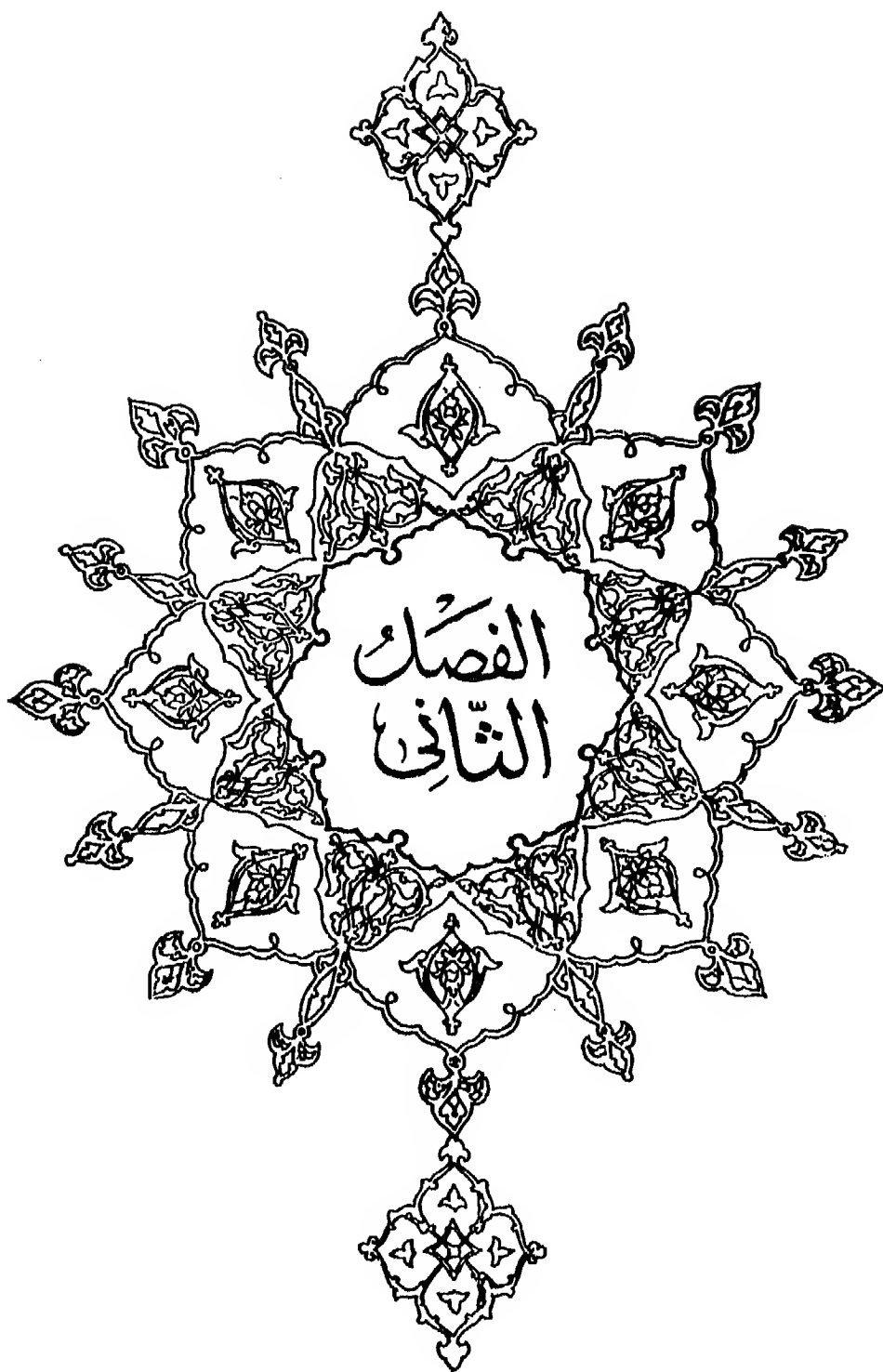
فهذا هو الاسم الذى بشر به فى التوراة والإنجيل ، ولأنه سوف يحمى من جميع سكان السماء والأرض . . . »

وعند ما مر كوكب المشتري ، رأت آمنة هالة من النور تخرج منها مرة أخرى متجهة نحو الشام ، حتى أضاءت قصور بصرى .

وظهر فى نفس الزمن معجزات أخرى أدهشت العالم ، إذ غاضت مياه بحيرة ساوى . واهتز قصر كسرى أنوشروان ، فتصدعت أربعة عشر من أبراجه ، وخمدت - رغم جهود عبادها - نار الفرس المقدسة ، بعد أن ظلت مضطربة أكثر من ألف عام . وشوهدت الأصنام فى جميع بقاع العالم منكسة الرؤوس .

ولقد أفزعت هذه الظواهر جميع الذين رأوها . وبالرغم من تنبؤات الموبدان ، خادم النار الكبير عند الفرس والذى كان قد رأى رؤيا تدل على قيام انقلاب فى العالم بسبب حادث يقع فى جزيرة العرب ، بالرغم من تنبؤاته مرّ الحادث دون أن يشعر به أحد . . . ذلك الحادث هو : ميلاد طفل قرشى فى مكة ، تلك المدينة التائهة فى وسط القفار ، تلك المدينة المجهولة أو المحترقة لدى أكابر الملوك والأمراء فى الشرق والغرب .

فَإِذَا قُضِيَتْ الصَّلَاةُ فَادْكُرُوا اللَّهَ
قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ تَشْحَ لَكَ صَدْرَكَ وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ

مولد النبي :

ولد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم قبل إشراف نجمة الصباح باحظات يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول عام الفيل (٢٩ أغسطس سنة ٥٨٠ م) .

ولد نظيفاً مخترناً وقام جبريل بقطع سرته .

كان هواء البلدة غير ملائم لصحة الأطفال الصغار ، فكان من عادة أشرف قريش اتخاذ المراضع اللاتي يقطن البادية ، فينشأ الطفل في جو البادية الصافي .

وبعد مولد محمد بقليل ، حضر إلى مكة عشر من نساء بني سعد يضرب لونهن إلى السمرة ، ويلوح عليهن أثر إقاليمنهن الصمحي ، حضرن ياتمنس الأطفال عند الأشرف ، فنالت من بينهن حليلة شرف استرضاعه .

طفولته في بادية بني سعد :

لنستمع الآن إلى حليلة تفصل قصة الرضاع :

« كانت سنة جدباء ، لم تبق لنا شيئاً ، فصيرتني وزوجي في فقر مدقع . فعزمنا على الخروج إلى مكة في رفقة نسوة من بني سعد ، نلتمس جميعاً الرضعاء ، ليساعدنا آباؤهم على الحياة وضرورياتها . كانت الأتان التي أركبها من الخزال ومن الضعيف الذي سببه عدم وجود القوت — بحيث خشينا أن تقع في الطريق فاقدة الحياة ، ولم نم ليلنا أجمع من صبينا الذي معنا ، والذي يبكي لما يجده من ألم الجوع ولم يكن في ثديي ولا في أخلاف الناقة التي يقودها زوجي ، قطرة من لبن ، نهدي

بها من جوعه . . . لقد استولى على أثناء الليل اليأس ، وتساءلت كيف يمكنني ، وأنا في تلك الحالة ، الزعم بأن في مقدوري القيام على تنشئة طفل ؟

« وصلنا أخيراً إلى مكة ، وقد سبقنا إليها النسوة ، فأخذن الأطفال ، ما عدا محمداً . كان والد محمد قد مات ، وكانت أسرته في يسر قليل رغم مكانتها العليا بين سادة قريش ، لذلك أبت النسوة احتضانه .

« وامتنعت ، أنا وزوجي ، من أخذه لنفس السبب : أغنى اليم ، وعدم الثراء . غير أني في النهاية خجلت أن أرجع ولم آخذاً رضيعاً فأكون - فضلاً عن الفشل - موضع السخرية ، ثم إنني شعرت بعطف متوقد نحو ذلك الطفل البارح الجمال ، الذي سيؤذيه هواء البلدة الفاسد .

« ملأت العاطفة جوانحي ، وشعرت - يا للمعجزة - باللبن يعود إلى ثديي متحفزاً لأن يسيل في فم محمد . فقلت لزوجي :

- والله إنني لأجد رغبة ملتهبة في أن آخذ هذا اليتيم ؛ مهما كان الأمل في الخير الذي يعود علينا من أسرته ضعيفاً .

- لا عليك أن تفعل ؛ عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة .

« لم أملك نفسي ، فأسرعت مهرولة نحو الطفل الوسيم ، فوجدته وسان ، فوضعت يدي على صدره اللطيف ، فابتسم ، وفتح عينيه اللتين تشعان نوراً ، فقبلته بينهما ، وأخذته ، ورجعت به إلى رجلي ، ثم وضعت في حجرى ، وألقمته ثديي الأيمن ليتغذى منه بما شاء الله من تغذية ، فوجد فيه - على دهشة منى - ما يشبعه ، ثم منحته ثديي الأيسر ، فرفضه ، تاركاً إياه لأخيه من الرضاعة ، وتابع ذلك دائماً .

« وما هو أعجب من ذلك : أن زوجي قام إلى الناقة ليهدي* نائرة الجوع التي تلهب بين أحشائه ، فإذا أنخلاها حافلة باللبن ، مع أنها ما كانت تبض بقطرة . فحلب منها ، وشرب ، وشربت معه حتى انتهينا ربيعاً وشبعاً ، فبتنا بخير ليلة ، وما كنا ننام من قبل .

« وقال صاحبي ، حين أصبحنا : تعلمين والله يا حليلة ، لقد أخذت نسمة مباركة . : . ثم خرجنا ، وركبت أتاني ، وحماته عليها معي ، فوالله لقطعت بالركب

ما يقدر عليها شيء من حرمهم ، حتى إن صواحبي ليقطن لي :
 « يابنة أبي ذؤيب ويحك ! اعطني علينا بالرزق في السير ، أليست هذه أتانك
 التي كنت خرجت عليها ، تخفضك طوراً وترفعك طوراً آخر ؟ فأقول لمن : بلى !
 والله إنها لي هي : فيقلن : والله إن لها لشأناً !

« ثم قدمنا منازلنا ، من بلاد بني سعد . وما أعلم أرضاً من أرض الله أجذب
 منها ، فكانت غنمي تروح — على حين قدمنا به معنا — شباعاً لبناً ، فنحلب
 ونشرب ، وما يحلب لإنسان قطرة لبن ولا يجدها في ضرع ، حتى كان قومنا يقولون
 لرعيانهم : ويلكم أيها الحمقى ! اسرحوا حيث يسرح راعي بنت أبي ذؤيب :
 « كان الرعاة يطيعون ساداتهم ، ولكن أغنامهم كانت مع ذلك تروح جيعاً ،
 ما تبض بقطرة لبن ، إذ كان النبات الذي يترعرع لمقدم أغنامي يذبل عقب
 مرورهم به مباشرة . فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير^(١) حتى مضت سنتاه
 وفطمته .

« كان يشب شباباً لا يشبه الغلمان ، فلم يبلغ تسعة أشهر إلا وكان يتكلم
 بسحر ولهجة بصلان إلى حبات القلوب : كان بعيداً عن الأقدار ، وكان لا يبكي ،
 ولا يصرخ قط ، إلا إذا ترك عرياناً فتعرض لأنظار الآخرين . أما إذا قلق أثناء
 الليل ولم يمْ فكنت أخرج به من الخيمة فلا يلبث أن ينظر في إعجاب إلى النجوم
 فيستولي عليه السرور ، حتى إذا شبت عيناه من هذا المنظر أطبقهما ، وأخذ النوم
 بمعاقد أجفانه . »

اضطرت حليلة بعد الفطام ، أن تعود بمحمد إلى أمه التي أرادت أخذه .
 غير أن حليلة — والحزن يلهب جوانحها — لم يمكنها أن تستسلم لهذا الانفصال
 القاسي ، فما إن رأت أمه ، حتى ألقت بنفسها عند قدميها وأخذت في تقبيلهما

(١) كانت حياة الرسول صل الله عليه وسلم مباركة في جميع مراحلها ، وإذا كان قد أصبح
 — في سن الأربعين — المنارة الهادية ، والأمل الوضاء ، لهداية البشر ، فإن حياته قبل ذلك كانت خيراً
 وبركة بالنسبة لكل الذين اتصلوا به ، وليس غريباً أن تبعث الطفولة الباسمة الأمل والرجاء ، فيفتادل
 الإنسان ، ويحفره التفاؤل ، فيعمل ويتخطى العقبات ، ويحني ثمار ذلك شهية لذيذة ، فيشعر براحة
 وطمأنينة ، ويمزج ذلك — محققاً — إلى العامل الجديد الذي دخل حياته : الطفولة الباسمة .
 وتأثير الأشخاص ، صغاراً كانوا أم كباراً ، في بيتاتهم وأوساطهم معروف لا مبالاة فيه ، ولعلنا إذا
 نظرنا إلى ما روى المؤلف هنا بهذا المنظار لا نجد فيه من الغرابة ما يحملنا على التردد في قبوله .

وانفجرت مستعطفة : « ألا ترين الأثر الناجع الذى تركه هواء البادية الصحى على ابنتك ؟ إن هذا الهواء سيكون أجلى عليه الآن وقد بدأ يمشى . إن جو مكة وباء ، وستريه يبدل أمام عينيك ، حين لا يجدى الندم » .

رقت الأم لهذا الاستعطف ، ورأت أن الخير لصحة الطفل فيما قالت حليلة ، فضغطت على عواطفها ، وقبلت أن يعود محمد مع مرضعته إلى البادية ، وحملته عند ذلك مرضعته الطيبة ، وعادت به إلى الركب سعيدة بما نالها من توفيق .

عاد محمد إلى بادية بنى سعد ، وبدأ يطبع بقدميه على البساط المتزوج من الرمال الطاهرة ، وأخذ يتنشق ملء رئتيه الهواء المعطر برائحة النباتات التى ترعرع على الكثبان ، وكان ينام تحت القبة الزرقاء المرصعة بالنجوم ، يغمره نسيم الصحراء الليلي الصافي . فتفتح صدره واشتد . وكان غذاء العرب الصحى المرتكز على القنائة له فضل كبير فى تقوية الرسول . وهذا الغذاء يتكون من مختلف الألبان ومنتجاتها ، وبن الأقراص التى أنضجت تحت الرماد ، وأحياناً من لحم الجمال أو الأغنام الحالية من النضج الحبيث الذى ينبعث من لحوم تلك التى ربيت فى الحظائر . هذه الصبغة الأخلاقية والجسمية التى يدين بها إلى البادية ، ساعدته كثيراً على تحمل ما ابتلى به بعد من محن .

كان محمد يحب إعادة ذكريات تلك الفترة ، وكثيراً ما كان يقول : « إن من نعم الله على التى لا تقدر ، أنى ولدت فى قريش أشرف القبائل ، وأنى نشئت فى بادية بنى سعد ، أصبح المواطن بالحجاز » . وقد بقيت منطبعة فى نفسه صور البادية التى كانت أول الأشياء تأثيراً فى حسه عندما كان يسرح فيها مع الرعاة فيتساقى شرفاً ليلاحظ القطعان فى مراعيها .

على أن استعداده للتأمل والرحمة لم يكن لينسجم مع أخلاق أقرانه الصاخبة ، فكان يفضل اعتزالهم فى ألعابهم ، ليذهب وحيداً حيث الهدوء والسكون .

محمد والمكان :

خرج الرسول — كمعاده — ذات صباح مع أخيه من الرضاع يقودان القطيع إلى المرعى ، فلما انتصف النهار أتى أخره يعدو ، فزعاً باكياً ، ينادى : « يا أم ،

ويا أبت ! أدركا أخى القرشى ، فإنه ابتعد عنا كعادته ، فأخذه رجلان عليهما ثياب بيض ، فأضجعا فشقا صدره .

جن جنون حليلة ، فعدت — بكل ما تملك من قوة — يتبعها زوجها ، فى الاتجاه الذى أرشد إليه الصبي ، فوجدا محمداً جالساً على شرف ، وكان هادئاً ، غير أن وجهه كان ممتعاً ، فقبلاه فى رقة وعطف وأخذوا يسألانه : « ما حالك يا بنى ؟ وماذا حدث ؟ »

قال : « بينما كنت ألاحظ الأغنام ترعى ، إذا بصورتين ناصعتى البياض ظننتهما أولاً طائرين كبيرين ، ثم عرفت خطئى ، وإذا بالصورتين ليستا إلا شخصين يلبسان لباساً ناصع البياض ! وقال أحدهما لصاحبه مشيراً إلى :

— أهذا هو ؟

قال : نعم .

« جمدت من الفرع ، وأخذاني فأضجعاني وشقا صدرى ، والتسا فى صدرى شيئاً أسود ، فوجداه وأخذه وطرحاه بعيداً ؛ ثم التأم ما شقاه ، واختفيا كأنهما شبحان » :

سجل القرآن هذه الحادثة فى قوله : « ألم نشرح لك صدرك ، ووضعنا عنك وزرك ، الذى أنقض ظهرك . . . »

هذه القصة ككل القصص التى من نوعها ، التى يجدها القارئ أثناء قراءته لهذا الكتاب ، يجب أن تؤول تأويلاً رمزياً . والقصة التى نحن بصددتها تعنى : أن الله شرح صدر محمد إلى الفرح بحقيقة التوحيد ، إذ أزال عنه منذ الطفولة وزر الوثنية .

قلقت حليلة وزوجها وأمهما ما حدث ، فقال الرجل :

« يا حليلة ، إني أخشى أن يكون هذا الغلام قد أصيب ، وما أصيب إلا حسداً من جيراننا ، غير أنهم لما يرون من عظيم بركته علينا ، وسواء أكان قد أصابه مس من الشيطان ، فأوهمه ما حدث ، أم كانت رؤيته صحيحة ومنبئة بمستقبل مجيد ، فإن مسئوليتنا فى كلتا الحالتين خطيرة . ألحقه بأهله قبل أن يظهر ذلك به ، واخرجى من أمانتك » :

ورأت حليلة - على مضض - أن الحكمة فيما قال زوجها ، فأخذت محمداً واتجهت به إلى مكة .

سار الطفل - وقد بلغ من العمر أربع سنوات - إلى جانبها ، فلما اقتربا من البلدة اختلطا بكثير من السائرين في الطريق الذاهبين إلى السوق ، أو إلى الحج بالكعبة ، وكان الليل قد ضرب بجمرانه ، فلم تشعر حليلة وسط الناس إلا وهي وحدها ، ولم تسمح لها ظلمة الليل بالعثور عليه ، ورغم بحثها يجد وندائها الحار المتكرر .

فأسرعت تعدو إلى عبد المطلب ، فأمكنه ، بماله من جواه ، أن يبعث في أثر محمد مهرة الباحثين ، وامتنع هو صهوة جواده ليسوس البحث .
وما لبث أحد متعقب الأثر أن وجد في وادي تهامة صبيئاً جالساً تحت شجرة يجذب غصناً من أغصانها .

فقال له : « من أنت يا غلام ؟ »

قال : « أنا محمد بن عبد الله » . . .

فسر الرجل بالعثور على ضالته ، وأخذ الغلام فوضعه بين يدي عبد المطلب الذي جاء على الأثر .

قبل عبد المطلب الغلام في حنان ، ثم رجع إلى مكة ومحمد أمامه على قربوس فرسه ، فنحر الشاء ، وأطعم أهل مكة الفقراء ، ثم حمل الغلام على كتفيه ، وطاق به الكعبة شاكرًا لله تفضله ولطفه ، ثم قاد محمداً في رفقة حليلة البائسة إلى أمه آمنة . فقالت حليلة بعد أن قبلته وعانقته :

— ما أقدمك به ، وقد كنت حريصة عليه ، وعلى مكثه عندك ؟

— قد بلغ الله بابي ، وقضيت الذي على ، وتخوفت الأحداث فأديته إليك كما تحيين .

غير أن الاضطراب والخوف كانا يقرآن في وضوح على وجه المرضع ، فلم تصدق آمنة حديثها وقالت :

— إنك تخفين عني الحقيقة ، فأصدقيني الخبر .

لم تدعها حتى أخبرتها ، وأعادت ما قال زوجها . فأساء هذا الرأي الأم ، فقالت في شيء من الحدة :

— أفتخوفت عليه الشيطان ؟

— نعم .

— كلا والله ما للشيطان عليه من سبيل ، وإن لابني هذا لشأناً . ثم أخبرتها بما حدث من ظواهر عجيبة أثناء حملها ووضعها ، ثم بعد أن شكرت حليلة المخلصة ، وكافأتها على حسن صنعها ، احتفظت بابنها ، وقد أصبحت صحتته من القوة ، بحيث لم تعد تخشى عليه هواء مكة الفاسد .

موت آمنة (سنة ٥٧٦ م) :

ترعرع محمد تحت رعاية آمنة ، أكثر الأمهات حباً . وفي ظل عنايتها أخذ يزداد كل يوم جمالاً وحكمة . غير أنه لم ينعم بالحنان الأموي الذي لا يعوض غير قليل : فقد ماتت أمه فجأة : « الأبواء » عند عودتها من سفر إلى يثرب رافقها فيه محمد .

وكان لآمنة جارية حبشية تدعى « أم أيمن » ، تحب محمداً ، وتخلص له الإخلاص التام ، اصططحبتها آمنة في السفر فعادت باليتيم البائس إلى مكة ، وكانت هي وخمس من الإبل كل ما له من ميراث .

فكفله جده عبد المطلب ، الذي كان يعزه دائماً ، ويزداد حباً له بتوالي الأيام ، ذلك أن شبه لولده عبد الله كان يأخذ في الازدياد شيئاً فشيئاً . ولعل الحكاية الآتية تعطي فكرة عن عاطفة عبد المطلب التي لا تحد نحو محمد :

كانت مكة — ككل مدن الصحراء — ذات شوارع ضيقة كثيرة التعاريج ، ولم يكن فيها مكان فسيح نوعاً ما ، إلا الميدان الذي يحيط بالكعبة ، وفي هذا المكان كان يجتمع سكان المدينة في الصباح وفي المساء للراحة والحديث في شئونهم ، ولأداء الشعائر والطقوس ، وكان خدام عبد المطلب يضعون له فراشاً في ظل الكعبة ، يجلس حوله بنوه وأحفاده وسادة المدينة في انتظار قدومه . وكان احترام سادن بيت الله : « عبد المطلب » عظيماً إلى درجة لا يجرؤ أحد حتى على الاقتراب من طرف الفراش .

وفي ذات يوم ، جلس محمد وسط هذا الفراش المحترم ، فما كان من أعمامه

— وقد ساءهم ذلك — إلا أن أبعدوه عنه . غير أن عبد المطلب كان قادماً ، ورأى
— عن بعد — ما حدث فصاح :

— أرجعوا ابني إلى حيث كان يجلس ، إنه قرّة عيني في شيخوختي ، وإن جرّأته
آتية من حدسه بما سيصير إليه ، وسيبلغ مكانة لم يبلغها عربى قط .

ثم يجلسه معه ويمسح خديه وظهره بيده ، ويسره ما يراه يصنع .
بيد أن القدر أراد أن يحرمه هذه العاطفة الحنون ، فقد مات عبد المطلب
بعد أن بلغ خمسة وتسعين عاماً ، وذهب تشيعه إلى مقره الأخير عبرات الناس
أجمع .

أما هذا اليتيم المسكين ، فقد كفله عمه أبو طالب ، كفله بناء على وصية
عبد المطلب ، لأنه من بين أعمامه شقيق والده الوحيد .

أول سفر إلى سوريا (سنة ٥٨٢ م) :

كان أبو طالب يعمل أسرة كبيرة ، وكان قليل الثراء ، رغم أنه ورث سداثة
الكعبة ، فاضطر إلى الاشتغال بالتجارة مع اليمن وسوريا .

ولم يلبث محمد غير قليل عند عمه ، حتى أخذ أبو طالب في تنظيم قافلة
تجارية لقريش ، يقودها هو إلى سوريا . فلما تهيأ الركب للرحيل ، وأجمع على
المسير ، أثار منظره في نفس محمد ذكريات البادية المحبة إلى قلبه ، تمر بها القوافل
الكثيرة الشبيهة بهذه التي توشك أن ترحل .

القافلة على أهبة الرحيل ، ومحمد إذن على وشك الافتراق عن عمه الذي
شغف به ، وعلى وشك أن ينغمس في وحدة مؤلمة محزنة . . . كل هذا جعل من محمد
بائساً ، لا ينبس ببنت شفة . وزاد البؤس ، وكاد قلبه أن يتفطر عند اقتراب
الافتراق ، فعدا نحو عمه وألقى بنفسه في حجره ، وأحاطه بلراعيه الصغيرتين ،
ثم أخنى وجهه بين ثنايا ملابس أبي طالب حتى لا ترى عبراته ، تلك التي امتزجت
فيها الرغبة بالياس .

ورق أبو طالب لما أبداه محمد من حب غير متكلف ، وأحس برغبة ابن أخيه
القوية في مرافقته ، فقال :

« والله لأخرجن به معي ، ولا أفارقه ولا يفارقني أبداً » .

فسح محمد دموعه ، واستولى عليه الفرح ، ونشط في استكمال التأهب للسفر ، ثم قفز خلف عمه على الناقة .

سار الركب وترك جو مكة الفاسد الذي كان يقبض صدر محمد ، فلما غمر القافلة هواء البادية النقي الصافي الذي ألفه محمد من قبل ، تفتحت نفسه وأخذ يملأ منه رثتيه في لذة وممتعة ؛ لقد ساعدته ألفته للحياة البدوية أثناء إقامته مع حليلة ، على تحمله قسوة الحرمان وشدة التعب طيلة هذا السفر الشاق في صحراوات الحجاز التي لا تكاد تجد .

رمال وصخور ، ثم رمال وصخور . . . تلك هي صحراوات الحجاز التي تتشابه إلى درجة أن السائر فيها لا يشعر بأنه يترك مكاناً ليحل في آخر ، وإنما يشعر بأنه يدور عوداً على بدء ، في مكان واحد ، تلك هي صحراوات الحجاز الجافة ، التي مكثت فيها القافلة شهراً كاملاً لا ترى أثراً لحياة ، اللهم إلا الشعور بوجود الأحد الخالد ، الذي لا يخلو منه مكان ، والذي يرى ولا يُرى .

محمد والراهب :

وقف العالم الراهب « بحيرى » على مقدمة دير يعلو جبل « حوران » يسرح الطرف في انتباه إلى سهول سوريا الشاسعة المنبسطة نحو جزيرة العرب . وفجأة استرعى نظره قطعة من السحاب بيضاء مستطيلة ، تعترض — على خلاف العادة — زرقة السماء الصافية ، وكأن هذا السحاب الذي يشبه طائراً أبيض هائلاً يحلق فوق قافلة صغيرة تتجه نحو الشمال ، يغمرها بظله الأزرق ، ويسير معها أنى سارت .

وأناخت القافلة أسفل الدير بجانب شجرة ضخمة ترعرعت على حافة واد ذهب نضرتة ، وما لبث السحاب أن ذاب في فضاء الله الراسع ، بينما انحنى أغصان الشجرة — كما لو كانت متأثرة بالنسيم — ومالت نحو واحد من الركب لتظله من قيظ الشمس . فلما شهد ذلك « بحيرى » علم أن قد وصل في تلك القافلة من كان ينتظره منذ زمن بعيد : ذلك هو الرسول الذي بشرت به الكتب المقدسة^(١) .

(١) تلك سنة الله تعالى في تأييد الرسل بمفهم لبعض وتصديق بعضهم لبعض ، فالسابق يمهّد لللاحق ويشرح به ، واللاحق يؤيد السابق ويكمل ما جاء به ، والمعاصر يجاهد معه ويناصره ويدافع عنه : =

ترك بحيرى ، فى سرعة ، مقدمة الدير ؛ وذهب يأمر بإعداد طعام كثير ، ثم أرسل رسولا إلى القافلة يدعوها — الشباب منها والشيوخ ، والشرفاء فيها والعبيد — إلى تناول الطعام . فلما عاد الرسول يرافقه المكبرون إلى حيث كان ينتظرهم « بحيرى » ، قال أحدهم : « بحق اللات والعزى ، إن لك يا بحيرى لشأناً اليوم ؛ ما كنت تصنع هذا بنا وقد كنا نمر بك كثيراً ، فما شأنك اليوم ؟ »

— صدقت ، قد كان ما تقول ، وما ذلك إلا لأسباب أعلمها ، ولكنكم اليوم ضيف ، وقد أحببت أن أكرمكم وأصنع لكم طعاماً ، فتأكلوا منه كلكم .
وأخذ المدعون فى تناول الطعام بشهوة قوية ، لما لاقوه أثناء سفرهم الطويل من حرمان . وأخذ بحيرى يفحص بعينه واحداً فواحداً ، ليميز من بينهم ذلك الذى تتفق صفاته مع ما أخبرت به الكتب المقدسة . غير أنهم جميعاً أخلفوا ظنه ، إذ لم يجد فيهم طلبته ، فقال فى نفسه : إن ما رأيته من ظواهر خارقة للعادة لا يفسر إلا بوجود من اصطفاه الله بين هؤلاء ثم سألم : « يا معشر قريش ، هل تخلف منكم أحد فى الرجال ؟ »

— نعم تخلف منا واحد فقط ، تركناه لحدائث سنه .

— لا تفعلوا ، ادعوه ، فليحضر هذا الطعام .

فقال رجل من قريش مع القوم : « واللات والعزى إن كان اللوم بنا أن يتخلف ابن عبد الله بن عبد المطلب عن طعام من بيننا » . ثم قام إليه فأحضره وأجلسه مع القوم . فلما رآه بحيرى جعل يلحظه لحظاً شديداً ، وينظر إلى أشياء من جسده ، وقد كان يجدها عنده من صفته ، حتى إذا فرغ القوم من طعامهم وتفرقوا ، قام إليه « بحيرى » فقال : يا غلام ، أسألك بحق اللات والعزى إلا ما أخبرتنى عما أسألك عنه . ولم يرد « بحيرى » بقسمه عليه باللات والعزى — بعد أن سمع القوم

== والقرآن الكريم أفاض فى هذا المعنى فى آيات وسور كثيرة :

فى التأييد والتمهيد والتصديق والمناصرة ، قال تعالى فى سورة آل عمران فى الآية رقم (٨١) « وإذ أخذ الله ميثاق النبيين ، لما آتيتكم من كتاب وحكمة ، ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم ، لتؤمنن به ولتنصرنه ، قال : أقررتم وأخذتم على ذلكم إصري ، قالوا : أقررنا ، قال : فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين » . ويقول سبحانه وتعالى فى نهاية سورة البقرة :

« آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون : كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لا نفرق بين أحد من رسله . . . »

يخلفون بهما — إلا امتحانه فقال محمد : « لا تسألني باللات والعزى شيئاً ، فوالله ما أبغضت شيئاً قط بغضهما » :
 — فبالله إلا ما أخبرتنى عما أسألك عنه .
 — سلني عما بدا لك .

فأخذ بحيرى في الاستفهام عن كل ما يهمه ، عن أسرته ، عن مكانته ، عن أحلامه ، إلى غير ذلك من أمور كثيرة . وكانت الإجابة توافق ما عند بحيرى من صفته . وأخيراً نظر بحيرى بين كتفيه ، فرأى « خاتم النبوة » على موضعه من صفته التي عنده ، فزال من نفسه كل شك ، وأيقن أن الواقف أمامه إنما هو الرسول الذي بشرت به الكتب المقدسة ، فأقبل على أبي طالب وقال له : ما هذا الغلام منك ؟

— إنه ابني !

— ما هو بابنك .

— صدقت ، إنه ابن أخي .

— فما فعل أبوه ؟

— مات وأمه حامل به .

— صدقت ، فأصغ لما أقول : ارجع بابن أخيك إلى بلده ، واحذر عليه يهود . فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت ليبغونه شراً . فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم .

وتأثر أبو طالب لهذه الوصايا الصادرة عن رجل ذاعت شهرته العلمية ، فخرج بابن أخيه سريعاً حتى أقدمه مكة حين فرغ من تجارته بالشام .

شب محمد والله تعالى يكلؤه ، وعناية أبي طالب تحوطه ، حتى صار فتى مكتملاً . ولقد كان حياً بالغ الحياء ، وما يروى في ذلك : أن أبا طالب كان ذات مرة يقوم بإصلاح بئر زمزم . وكان غلمان قريش ، ومن بينهم محمد ، ينقلون له ما يلزمه من حجارة . ولتحاشي المشاق أخذ كل منهم لزاره ، فجعله على رقبته يحمل عليه الحجارة حتى لا تضره خشونتها ، فأبان ذلك عن عورتهم ، وما إن رأى محمد نفسه على ذلك الوضع وشعر بأنه معرض للأعين ، حتى استولى عليه انقباض

شديد في الصدر ، وسال على جبهته العرق وأخذته رعشة الحجل ، فسقط مغشياً عليه^(١) . . .

هذا الحياء وتلك الرعاية اللتان يمنحهما الله لمن اصطفاهم ، جعلاه بمعزل عما يتعرض له أحياناً من هم في دور المراهقة من حدة واندفاع . وكان بين أقرانه أحسنهم خلقاً ، وأكرمهم وأحسنهم جواراً وعشرة ، وأصدقهم حديثاً ، وأبعدهم من الفحش والأخلاق التي تدنس الرجال ، وأرعاهم لمقتضيات الصداقة ، حتى لقد سمي بين قومه بالأمين .

الرحلة الثانية إلى سوريا (سنة ٩٥٤ م) :

كانت حالة أغلب المكيين - كآبي طالب - تضطربهم إلى التجارة ، فإقليمهم من أشد الأقاليم جدباً ، ولذلك لم يكن من الممكن لقاطنيه أن يعيشوا إلا بالتعامل مع اليمن وسوريا ، اللذين تربط بينهما مكة ، فكانت قوافلها تذهب إلى اليمن الذي أطلق عليه « الإقليم العربي السعيد » للبحث عن منتجاته والمنتجات التي تصل إليه عن طريق البحر ، فيبتاعون مما تنتج الحبشة والهند والصين ، من التوابل ، والعطر ، والبخور ، والتبر ، والحرير ، وفي عودتهم إلى الحجاز يضيفون إلى ذلك تمر يثرب أو الطائف . ثم يذهبون بعد ذلك إلى سوريا ، ليستبدلوا ببضائعهم منتجاتها الزراعية :

(١) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (على ما يروى ابن هشام) :
« لقد رأيته في غلمان قریش ننقل حجارة لبعض ما يلعب به الغلمان ، كلنا قد تمرى وأخذ إزاره فجعله على رقبته ، يحمل عليه الحجارة ؛ فإني لأقبل معهم كذلك وأدبر ، إذ لکنی لاکم ما أراه ، لكفة وجيعة ، ثم قال : شد عليك إزارك . فأخذته وشددته على ، ثم جمعت أحمل الحجارة على رقبتي وإزاري على من بين أصحابي » (عن : سيرة ابن هشام) .

قال السهيلي في التعليق على هذه القصة : « وهذه القصة إنما وردت في الحديث الصحيح في حين بنيان الكعبة ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينقل الحجارة مع قومه إليها ، وكانوا يحملون أزرهم على عاتقهم لتقيهم الحجارة ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحملها على عاتقه وإزاره مشدود عليه ، فقال له العباس رضى الله عنه :

يا بن أخى لو جمعت إزارك على عاتقك . ففعل ، فسقط مغشياً عليه ، ثم قال : إزاري إزارى ، فشد عليه إزاره وقام يحمل الحجارة .

وفي حديث آخر : أنه لما سقط ضمه العباس إلى نفسه رساله عن شأنه ، فأخبره أنه نودي من السماء أن اشدد عليك إزارك يا محمد . قال : وإنه لأول ما نودي .

وحديث ابن إسحاق ، إن صبح أن ذلك كان في صغره إذ كان يلعب مع الغلمان ، فجعله على أن هذا الأمر كان مرتين : مرة في حال صغره . ومرة في أول اكتهاله عند بنيان الكعبة .

كالقمح ، والشعير ، والأرز ، والتين ، والزبيب ، يضاف إليها ما يوجد في سوريا مما يصدره إليها اليرنان والرومان .

ولم تكن النساء بمعزل عن هذا النوع من التجارة : فقد كن يخرجن من يئخرج في مالهن للتجار في مقابل جزء من الربح . هكذا كانت تفعل خديجة بنت خويلد ذات الثراء الواسع ، والحسب النبيل . وفي ذات يوم أرسلت إلى محمد — وقد كانت تسمع بما له من عقل متزن ، وأمانة وإخلاص — فعرضت عليه أن يسير على رأس تجارتها إلى الشام ، وأن تمنحه في مقابل ذلك ضعف ما كانت تمنح عادة لغيره .

قبل محمد العرض . غير أن أبا طالب تذكر ما قاله الراهب « بحيرى » فأهمه الأمر ، وأحس بالاضطراب حينما تأهبت القافلة للسفر ، فاجل يوصى أهل القافلة — كلا على انفراد — بمحمد ، وأوصى على الأخص ميسرة عبد خديجة الذى تثق به ، والذى رافق محمداً فى تلك الرحلة .

كان ميسرة خادماً أميناً ، طيب القلب مخلصاً . لشد ما أثرت فى نفسه وصية أبى طالب صاحب المكانة الاجتماعية العظيمة . . . على أن تأثير محمد الساحر فىمن حوله ، وسموه عليهم أذهلاه حتى عن نفسه ، فأخلص له الإخلاص كله ، وجعله موضع التقديس : وكان ميسرة يرى فى كل ما يحدث أثناء السفر معجزة تبرهن على أن طبيعة محمد ليست من هذا العالم . وكانت الحوادث — على ما يبدو — تؤيده ؛ فهذا الطريق الذى سلكه غير مرة ، والذى يعرف مشاقه ، وأخطاره ، هذا الطريق الذى لا يكاد ينتهى ، والذى تلهب فيه الشمس فتجفف الأسقية ، وتوحى إلى سالكيه بأنه طريق جهنم ، هذا الطريق الذى انتشرت على جانبيه عظام البشر والحيوانات التى آتى عليها الظمأ ، هذا الطريق طواه ميسرة فى دعة وسرور .

كل يوم — حينما تعلو الشمس رموس المسافرين ، وتندهرم بشعاعها الملهب — يرى ميسرة فى القبة الزرقاء سحاباً خفيفاً يشبه ريش الطائر يتألف شيئاً فشيئاً ، ويزداد ويتجمع ، ثم يستطيل فيشبه جناحى طائر عظيم ينشرهما ليحتسى محمد بظلهما . حتى إذا أخذت الشمس تميل نحو الأفق وتفقده قوة حرارتها الخفيفة ،

أخذ الريش يتناثر ، واحدة فواحدة ، ليزوب في ثنايا آخر شعاع ذهبي يقذف الكوكب المتأرجح قبل أن يختفي ؛ وحينئذ يطوى الجناحين ويفسح المكان للنجم التي لا تتلألأ في أى مكان ، كما تتلألأ فوق الصحراء .

أما لابل القافلة فقد عمها هي أيضاً — فيما يبدو — نشوة من فرح : فأتسرع خطاها ، وبدا الطريق من تحتها كأنه ينطوى من نفسه ، ولم يصب واحد م بسوء يتركه جثة هامدة بين العظام ، ذات المنظر البشع ، التي هي بقايا ما اند من القوافل السابقة .

سارت القافلة في سلام ، غير أنه حدث ذات يوم أن تأخر جملان من جم سارت القافلة ، وبدت عليهما علامات التعب الشديد ، ولم يصل ميسرة ، ر خديجة عن القافلة ، وإلى إلحاقهما بالقافلة ، فقد غمر العرق ج ما صبه عليهما من لعنات ولطمات ، تلك علامة مؤكدة على اقتراب أجلهما .

وقع ميسرة — وهو الخادم المخلص الحريص على مصلحة سيدته — في بلد واضطراب ، ولم تسمح نفسه بترك الحملين . وبينما هو كذلك تذكر ما ق أبو طالب عن محمد ، فعدا إلى رأس القافلة ليقص عليه الأمر .

عاد محمد إلى الحملين ، فوجدهما قد استلقيا على الأرض ، فلما أحسهما - القيام أخرجاً صوتاً تتمثل فيه الشكوى والألم العميق ، فأنحنى عليهما ، ولم يديه المباركتين أخفافهما التي قطعتهما أحجار الطريق الحادة ؛ فقاما بعد أن لا يبديان حراكاً ، ونشطا في السير ، حتى أدركا — في ثوب الجملان — مقف القافلة .

وصلت القافلة إلى بصرى من أعمال سوريا ، واستمر التوقي يرافق محمد فباع جميع ما أتى به من بضاعة بربح لم يكن منتظراً ، واشترى جميع ما ير من سلع بثمان زهيد ، كل هذا بدون أن يلجأ إلى طرق المساومة التي لا تكاد تنتهى والتي يستعملها ، عادة ، الشرقيون

كان ظرفه الطبيعي وصراحته ، وما يبدو عليه من نبل ، وعلى الأخص ه الإشعاعات التي فيها من المساتير ما فيها ، والتي تنبثق دائماً عن اصطفاهم الة هذه الإشعاعات التي ترجمها المصدرون — فيما مضى — بإكليل من ذهب

ويصفها علماء اليوم - عاجزين عن شرح طبيعتها - بالمغناطيسية . . . كل هذا كان يجعل الناس يقبلون عليه في مودة وثقة .

في هذا القطر الذى شغف بالمسائل الدينية ، والذى تجدد فيه على قمة كل شرف ديراً ، وتوحى إليك كل صخرة فيه بذكريات رسول أو نبي ، والذى تبدو الطبيعة نفسها فيه كأنها تنحنى أمام محمد ، في هذا القطر أثار المصطفى ، في قوة ، اهتمام كل الرهبان - حفظة الكتب المقدسة - وقد كانوا ينتظرون رسولا جديداً من قبل الله . . . جاءوا جميعاً إذن يسألون ميسرة الذى عرفه كثير منهم من قبل أثناء رحلاته السابقة ، والذى يحسدون أنه موضع سر محمد . فلما أرضوا حب الاستطلاع ، صرح أحدهم - وهو راهب نسطورى ، يسمى « جريج » إلى خادم محمد المخلص بمثل ما صرح به « بحيرى » لأبى طالب .

انتهى التعامل وتمت الصفقات ، فأخذت القافلة طريق العودة ، وأخذ السحاب الذى بدا كأنه ينتظر الركب مكانه فوق رأس محمد ، واستمر كذلك إلى نهاية السفر . فلما وصلت القافلة إلى بطن مر ، بالقرب من مكة ، أقنع ميسرة محمداً بأن يسبق القافلة ليحمل بشرى العودة إلى خديجة .

كانت خديجة قد تعودت أن تصعد مع خادوماتها إلى سطح المنزل ، حيث ترى في وضوح طريق سوريا متجهماً بين الجبال إلى الشمال الغربى ، ولم تكن - بطبيعة الحال - قلقة على ثروتها ، غير أن من أرسلته قد أهمها أمره ، وإن كانت لم تتبين ، أو لا تريد أن تتبين ، ذلك بعد في وضوح . على أنه مما لا شك فيه أن ما رآته في وجه محمد من نبل ، وفي أخلاقه من طهارة ، أثر في نفسها تأثيراً كبيراً ، حتى لقد شق غيابها عليها ، وبدا لها أن هذا السفر يوشك أن يستمر فلا ينتهى .

وفي ذات يوم صعدت خديجة إلى مرصدها المعتاد . وكانت الشمس إذ ذاك تلقى بشواظ من نار على البلدة ، وتمنع القاطنين من المجازفة بالخروج إلى الشارع أو الصعود إلى سطوح المنازل ، ومكثت خديجة تنظر ، وتنظر في أعماق الأفق الشاسع ، عليها ترى القافلة التى لم تعد تصبر على بعدها . . . فلما يئست أغمضت عينيهما الملتهبتي . وما لبثت أن شعرت فجأة بنسيم عليل رطب يتخالل جنبات المنزل ، بينما سحابة رقيقة ضاربة إلى اللون البنفسجى قد خففت من حدة الضوء

الذى تقذفه الشمس على السطوح ، وعلى الصخور . . . فى تلك الآونة فتح الباب ودخل محمد بيت خديجة .

أخذ محمد ، كوكيل دقيق ، يعرض عليها نتيجة رحلته ، ويعرفها بما كان لها من ربح عظيم ، فشكرته ، وهنأته فى حراوة ، غير أنها لم تدهش من نجاحه ، فقد بدأت تعتقد أنه من المصطفين الأخيار .

ولاحظت خديجة السحاب ذا الظل المفعش ، ساعة وصول محمد ، فحدثت ارتباطاً وصلة ، وأرادت أن تثبت فسألت : أين ميسرة ؟ .
— إنه مع القافلة .

— عجل إليه ليعجّل بالإقبال ، فإننى فى أشد الشوق إلى التمتع برؤية ماحوت القافلة .

فعاد محمد ، وفارق السحاب المنزل ، وتابعه على طريق سوريا ... لقد أصبح حدّسٌ خديجة يقيناً .

ولم يلبث ميسرة أن وصل فأعلن ، مؤكداً رأيها :

« إن هذا السحاب الذى لاحظته لم يتخلف قط عن مرافقتنا منذ أن غادرنا مكة إلى أن عدنا إليها ، ومنذ أن تركنا بُصرى . وقد عرفنى رهبان (حوران) العلماء من هو محمد : فعرفت أن هذا السحاب ليس إلا أجنحة ملكين مكلفين بوقاية سيدى من قىظ الشمس المهلك » . ثم قص ميسرة على سيدته كل ما حدث أثناء الطريق من حوادث استدل منها على أن محمداً شخص قد بارك الله فيه . وأصغت خديجة فى انتباه ؛ وكلما سكت خادمها استزادته . . .

زواج محمد بخديجة (سنة ٥٩٥ م) :

ضاعفت السيدة الفاضلة لمحمد ما كانت قد وعدته به من أجر . ولم تعد تفكر إلا فى جعله المشرف الأعلى على ثروتها . فرأت أن خير طريقة لذلك هى أن تتزوج به ، خصوصاً وأن عواطفها القلبية نحوه لم يكن من شأنها أن تصرفها عن الإقدام على مثل ذلك . نعم ولكن ما العمل فى مسألة اختلاف السن ؟

لقد بدأ محمد عامه الخامس والعشرين فى حين اقتربت هى من الأربعين : أفيقف ذلك عقبة ؟ إن سن خديجة لم تمنعها من أن تكون محط أنظار الكثيرين ،

لا لأنها - حسبما يبدو لأول وهلة - ثرية (فالتقاليد العربية تقضى بأن المهر يدفعه الرجل وليس له أى حق على ثروة زوجته) ، ولكن لما تحلت به من صفات شخصية ، ومن سحر ، ومن وجاهة ، ومن فضائل ؛ ثم لحسبها النبيل . أليست هى بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب ؟ ! . . .

كانت خديجة ، لكل ذلك ، محاطة بحاشية من الطامحين إلى زواجها ، يعتمد بعضهم على شرف حسبه ، والبعض الآخر على ثروته ، بيد أنهم حاولوا عبثاً ؛ إذ أنه بعد موت أبى هالة زوجها الثانى ، عازمت ، فيما يبدو ، أن تقضى بقية حياتها بدون زواج . هذا العزم لم تجد له ما يبرره عندما رأت محمداً ، وعلمت - عن تجربة - الشيء الكثير مما تحلى به من مكارم الأخلاق ، فغيرت اتجاه حياتها . وكان كل يوم يمر يزيد لها ميلاً على ميل نحو محمد ، فعزمت على أن تعرف ما انطوى عليه قلبه .

قال ميسرة : « أرسلتنى سيدتى ، بعد شهرين وعشرين يوماً من عودتنا من الشام إلى محمد فقلت له :

- يا محمد ، ما يمنعك أن تتزوج ؟
- ما بيدى ما أتزوج به .
- فإذا كان ما تملك ، على قلته ، يكفى ، ودعيت إلى الجمال والمال والشرف والكفاءة ، ألا تجيب ؟
- فمن هى ؟
- إنها خديجة .
- إنك لهازل . كيف أجرؤ على أن أقدم لطلب يدها بما أملك من مهر ؟
- لا عليك ، وأنا بحل تلك العقدة كفيل .

« كانت نعمة سيدى فى حديثه كافية لمعرفة عواطفه نحو سيدتى ، فأسرعت فى العودة لأبشرها ، فغمرها السرور ، وأخذت فى الاستعداد للزواج » .

وكان أول ما فكرت فيه أن تحصل على موافقة أبيها خويلد الذى كان يرفض - دون ما رحمة - كل الطامحين ، إما لأنهم ليسوا من ناحية الشرف أكفاء ، وإما

لأن ثراءهم أقل مما ينبغي . لهذا استعملت ابنته للوصول إلى ما تريد ، طريقة التحايل الآتية :

صنعت طعاماً وشراباً ودعت أباهما ونقرأ من سادات قریش ومحمداً وأعمامه ، وكان خويلد يحب النبيذ حباً جماً ، فشرب منه - حسب عادته - أكثر مما ينبغي فانتهزت ابنته الفرصة وقالت : « أباي ، إن محمد بن عبد الله طلبني للزواج وأرجوك الموافقة على ذلك » .

كان خويلد تحت تأثير الخمر ، يأخذ الحياة من جوانبها السارة ، فقبل عرض ابنته بدون تفكير ، وما إن حصلت على رضا أبيها حتى قامت - حسب عادتهم - إلى تعطير أبيها وألبسته حلة نفيسة .

وصحبا خويلد من سكره ، فسأل ابنته : ما هذا ؟

قالت : إنك يا أبت به عليم ؛ فقد قبلت زواجي بمحمد بن عبد الله .

- أنا ؟ أزوجك اليتيم الذي كفله أبو طالب ! كلا ! إن هذا لا يحدث ما دمت على قيد الحياة .

- ألا تستحي ، تريد أن تسفه نفسك عند قریش ، تخبرهم أنك كنت

سكران ؟

وضربت خديجة على تلك النعمة طويلاً ، حتى إن خويلداً ارتبك واضطر إلى القبول النهائي ، حينئذ قام أبو طالب وقال : « الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم ، وزرع إسماعيل ، وجعلنا حضنة بيته وسوأس حرمه ، وجعل لنا بيتاً محجوجاً ، وحرماً آمناً ، وجعلنا سادة العرب . ثم إن ابن أخي هذا محمد بن عبد الله لا يوزن بربل إلا ربح به شرفاً ونبلًا وفضلاً وعقلاً . وإن كان في المال قل ، فإن المال ظل زائل ، وعرض حائل ، وعارية مستردة . وقد خطب إليكم رغبة في كريمتكم خديجة ولها فيه مثل ذلك ، وقد بذل لها من الصداق ما عاجله وآجله عشرون بكرة ، وإنني يا معشر قریش ، أشهدكم على ذلك » .

تم الزواج ، واحتفلت به خديجة ؛ فأمرت الشابات الرشيقات من جواريهما أن يرقصن ويضربن الدفوف أمام المدعوين الذين سروا لهذا الرباط بين عائلتين كريمتين شريفتين .

كانت خديجة أول زوجة بنى بها الرسول . وبقيت - طيلة حياتها - زوجته الوحيدة المحبة التي لا يجد غيرها إلى قلبه سييلا . وقد أنجبت له سبعة أولاد ، ثلاثة ذكور، هم : القاسم ، والطاهر ، والطيب ، وأربع إناث : رقية ، وزينب ، وأم كلثوم ، وفاطمة . وبعد مولد القاسم الذى كان أول من أنجب الرسول من الذكور كنى محمد بأبى القاسم . لَكَمْ سَعِدَ محمد بأن منحه الله طفلا ذكراً !! ولكم أعز محمد هذا الطفل وأحبه ، ولكم حزن حين أصابته فيه المقادير ، وهو ما يزال بعد في دور الطفولة !! وأراد الله أن يكون مصير الطاهر والطيب مصير القاسم ، فأتى الجميع قبل بعثة الرسول . أما البنات فقد عشن إلى ظهور الإسلام وكن من أوليات من أسلمن ، وساعدن ، جاهدات ، فى سبيل الله ورسوله .

حديث بنیان الکعبة ووضع الحجر (سنة ٦٠٥ م) :

تهلّمت الکعبة فى بعض أجزائها ، بسبب حريق حدث بها ، فلم تُصلح كما ينبغي . وتصعد سقفاها ، فدخل اللصوص من هذه الفجوات ، وسرقوا بعض كنوزها التى تكونت من هبات الحجيج . كانت الحاجة ماسة إذن إلى إصلاحها من جديد ، غير أن حيطانها كانت ، هى أيضاً ، بحالة لا تحتل أى ثقل عليها ، فاستلزم الأمر هدمها ، ولقد حدث هذا الهدم بعد كثير من التردد : فما من شك فى أنه إذا كان إصلاح بيت مقدس كالکعبة لا يثير اعتراضاً ، فإن هدمها يلوح ، دينياً ، من الخطورة بمكان .

وأخيراً ، بعد أن بدت لأهل مكة علامات استدلوها منها على رضا الله ، أجمعوا أمرهم على هدمها وإقامتها على أساسها القديم ، ذلك الأساس الذى كان مؤلفاً من كتل من الأحجار ، تتركز فى تماسكها على تداخل بعضها فى بعض ، بطريقة هى غاية فى المهارة والإحكام . ثم جزأت قريش الکعبة ، وخصص لكل عشيرة قسم تبنيه . بدأ القرشيون البناء ، فى تحمس يوجده دائماً التنافس ، فأقاموه بسرعة ، حتى بلغ البنيان موضع الركن ، حيث يوضع الحجر الأسود . . . من يضع الحجر الأسود؟ من الأجدد بنيل هذا الشرف الجليل ؟ هنا ثار الخلاف وأخذت كل قبيلة تذكر شرفها الأصيل ، أو جنداؤها التى لا تنكر . واحتدم النزاع والحوار ، وتحالفوا وأعدوا للقتال . وقربت بنو عبد الدار بفضة مملوءة دمًا ،

ثم تعاقدوا هم وبنو عدي بن كعب على الموت وأدخلوا أيديهم في ذلك الدم ،
عازمين على وضع الحجر أو الموت .

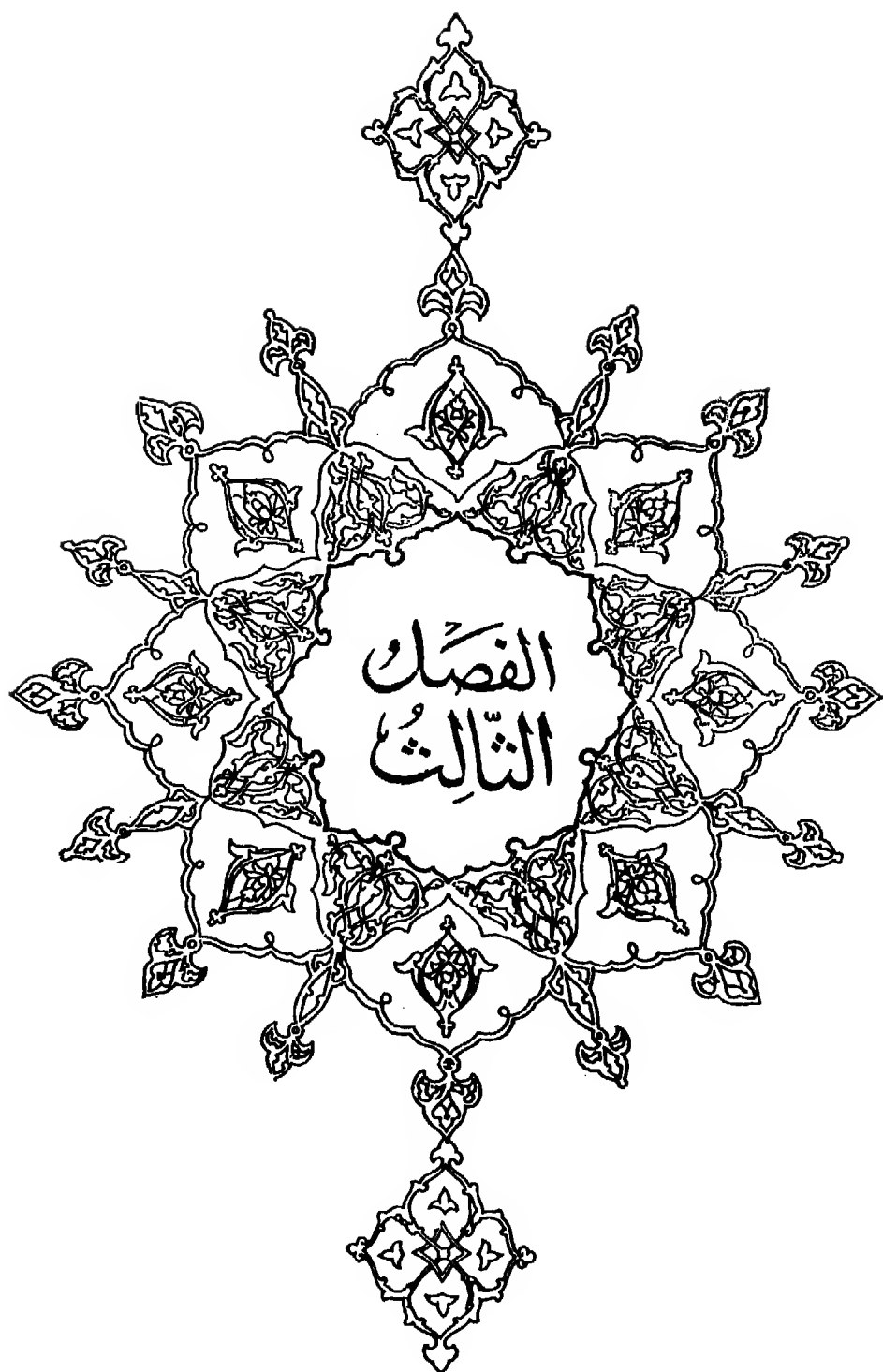
ومكثت قريش على ذلك أربعة أيام . يتهدد بعضها البعض ، ويتوعد وينذر ،
ويراقب حركات الآخرين . وأخيراً ، قال لهم أبو أمية - وكان عامئذ أسن قريش :
« يا معشر قريش ، اجعلوا بينكم ، فيما تختلفون فيه ، أول من يدخل من باب هذا
المسجد ، يقضى بينكم فيه » .

أخذ المتخاصمون في النهاية بهذا الرأي . وما لبثوا حتى رأوا شاباً في نحو
الثلاثين قادمًا ، فلما عرفوه قالوا : « هذا الأمين ، رضينا ، هذا محمد » . فلما
انتهى إليهم ، وأخبروه الخبر ، لم يأخذ في الإصغاء إلى حجة كل فريق ، وإنما قال
في بساطة : « هلم إلى بثوب وانثروه على الأرض » . فلما أجابوه إلى ما طلب
أخذ الحجر الأسود بين يديه فوضعه على الثوب ثم قال : ليأخذ رئيس كل قبيلة
بطرف الثوب ، الذي يوجد تجاهه . فلما أخذوا بأطراف الثوب قال لهم : « ارفعوا
جميعاً » . ففعلوا حتى إذا بلغوا به موضعه ، وضعه هو بيده . وزال الخلاف
بفضل بديهة محمد الحاضرة : فقد أرضاهم جميعاً دون أن يفضل أحدهم على
الآخر . ووفق - لأول مرة في تاريخ العرب - بين كبرياء رؤساء القبائل ، ففنعهم
من إسالة الدماء ، واحتفظ لنفسه بجانب من شرف وضع الحجر الأسود . ولم
ينازعه فيه منازع .

انتهى البناء بعد وضع الحجر الأسود بسرعة . وكان البحر قد رمى بسفينة
إلى جدة فتحطمت ، فأخذوا خشبها وأعدوه لتسقيف الكعبة ، ولما كمل الأمر
غطوها بقماش من الكتان الدقيق الصنع قام بعمله المصريون .

وفيما بعد كانت تغطي الكعبة بنسيج مقلّم ، من صنع اليمن ، ثم كساها
الحجاج بن يوسف بالحرير الأسود الذي لا تزال تكسى به إلى الآن ، والذي
يُجَدَّد كل عام .

وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ

عزلة محمد :

كان القرشيون على استعداد لأن يمنحوا من لقبوه بالأمين من مراتب الشرف ، ما تطمح إليه النفوس وما تعزز به ؛ وأن يمكنوه من مركز اجتماعي سام . غير أن نفسه — وهي بمعزل عن العجب والطمع — كانت ترفض ، في ازدراء ، كل عرض من هذا النوع . لذلك كان تدخله العرضي ، فيما نشأ من خلاف ، بسبب وضع الحجر الأسود ، هو الحادثة الاجتماعية الوحيدة ، التي ساهم فيها طيلة الخمسة عشر عاماً التي تلت زواجه .

بم كان يشغل محمد نفسه إذن ؟ لقد غرس الله في قلبه حب الوحدة ؛ ثم إنه كان شغوفاً بفضاء الله الواسع يسبح فيه ، فريداً ، أنى شاء . ما سبب ميله هذا ؟ لا شك أن تلك الوحدة الكالحة التي تحيط بمكة كانت تحيي فيه ذكريات طفولته السعيدة ، في أثناء إقامته بالبادية . نعم ، غير أن روحه التي اصطفاها الله كانت تجد متعة أسمى وأروع ، في الهرب من الانحلال الأخلاقي والضلال الديني اللذين سادا العرب إذ ذاك .

حقيقة إن العرب وصلوا من الاعتداد بالنفس ، ومن النبيل والشجاعة والاستقلال إلى أعلى الدرجات ؛ وبلغ كرمهم إلى مرتبة ، هي من السمو بحيث لم يتأت للآخرين تخليها ؛ وإن حاتم الطائي ليعتبر أمير الكرماء بلا منازع . حقيقة إن بلاغتهم وشعرهم لا يخشيان التخلف ، في مضمار السباق ، عما ينتجه أعظم الخطباء ، وفحول الشعراء العالمين . وما من شك في أن الشعر ، الذي كان يمكنهم من الإشادة بمظاهر البطولة وآيات الكرم ، ومن التغنى بنعيم

الحب والاستغاثة من جحيمه ، كان بالنسبة إلى هؤلاء القوم ، ذوى العواطف الملتهبة ، شعيرة دينية تحيطها القداسة ، وتخدمها ، فى انسجام ، أجمل اللغات نغمًا وموسيقى .

ولقد كان سوق عكاظ مسرحًا لتبارى الشعراء ، يصفق فيه الناس ، متحمسين مأخوذِينَ ، للمنتصر ، ثم تكتب قصيدته بحروف من ذهب وتعلق بالكعبة . ولقد وصل إلينا من هذه القصائد سبع سميت بالمعلقات ، وهى تُرى فى وضوح إلى أى حد من السمو وصلت العبقرية العربية فى الشعر .

أجل ، ولكن بجانب هذه الصفات المزهرة ، الفطرية فى العرب ، كم من ضلال يرثى له ؟ لقد نسوا نسيانًا تامًا دين التوحيد ، الذى نشره فيهم جدهم إبراهيم ، وإن كانوا قد استمروا فى تقديس الكعبة التى بناها بيديه ، فقد اتخذوا لله شركاء ، بزعمهم ، من أصنام تحظى عادة ، بتفضيلهم . وكان لكل قبيلة ، بل لكل أسرة ، صنم تؤثره عما عداه . وأصبحت الكعبة مباءة لثلاثمائة وستين صنمًا ، من خشب أو من حجارة ، تعبد من دون الله .

أنصاب ، وأزلام ، وسكر ، واستعمال للسحر والرقى . . . كل هذا كان يهوى بعقلية هؤلاء القوم الذين وهبهم الله استعدادًا فطريًا رائعًا . لقد تركوا لأنفسهم الحبل على الغارب ، وأسرفوا فى فهم الحرية ، فكان الرجل منهم يتزوج من النساء أكبر عدد يمكنه تغذيته ، وكان من تقاليدهم : أن النساء تورث كما يورث العقار ، فقد كان الابن بعد موت أبيه يتصل اتصالًا جنسيًا بمن ورثهن من زوجات والده .

ذلك ، لا شك ، بشع مخجل ؛ بيد أن البشاعة قد بلغت أقصى مراتبها فى وأد البنات . لقد تغالى العرب وأسرفوا فى كل ما يتصل بالشرف ، وذهب بهم هذا الإسراف إلى تخيل احتمال أن يؤذى شرفهم بسبب سوء سلوك فتاة أو بسبب اغتصابها ، وجسم الخيال ذلك لبعض الآباء الذين أفسدت المغالاة طبائعهم ، فتوهموا ، ثم ظنوا ، وتخيّلوا ، ثم نخالوا ؛ وخافوا ففضلوا القضاء على بناتهم منذ أن يتنسمن الحياة^(١) .

(١) قال تمال فى الزجر عن ذلك : « وإذا المودة سئلت ؛ بأى ذنب قتلت . . . »

ولقد كان ميل العرب إلى التباهي ، وحساسيتهم المرفهة فيما يتعلق بالكرامة وكبرياؤهم ، من أكبر العقبات التي تمنعهم من الخضوع للنظام ، لذلك كان كل ارتباط ، أو تقدم أو تنظيم اجتماعي ، مستحيل التحقيق . وكان من الطبيعي أن تستمر الحرب فلا تنقطع ، وأن يحل الثأر ، الذي لا هوادة فيه ولا رحمة ، محل التقاضي ، فتسيل الدماء في كل بقاع الجزيرة العربية .

ذلك هو الضلال الذي أحزن محمداً وأرقه ، وجعله لا يستطيع الصبر على رؤيته ، وهو ضلال ليس في طوقه إزالته ، لأنه متأصل عميق ، ولأنه عام شامل ، وهو جالب ، لا محالة ، على مواطنيه عقاب السماء الرهيب ، يعصف بهم كما عصف بعاد وثمود . لهذا كان يلبجاً إلى الأماكن الحالية من بني البشر ، حتى لا يختلط بهم ، وحتى يزيل من ذاكرته شبح ما هم فيه من ضلال بشع أليم . كان يستسلم إذن لرغبة قوية عنيفة تسيطر على نفسه ، وتنبه به نحو الوحدة والعبادة ، فيسير في الشعاب الرملية ، حسب منحنيات الوديان وتعاريجها ، أو يصعد الجبال الصخرية ليجلس على قممتها ويترك بصره وخياله يضلان في الفضاء الجلب القاحل الذي يبدأ عند قدميه ثم يسترسل ، ويسترسل ، حتى يختفي في لا نهائية الأفق .

وسط هذا الفضاء الشاسع المؤثر ، وهذا السكون الرهيب ، وهذا الضوء المتألق ، كان يجلس محمد ساكناً لا حراك به ، تمر عليه الساعات تلو الساعات وهو غارق في تأمل وجداني عميق صامت . أجل لشد ما كان يروعه ويملاً نفسه هيبه ، هذا المنظر الرائع المتغير الفريد ، لعناصر الأرض ، والسماء الخاضعة لقوة خفية مجهولة ، هي أقوى من أن تقهر وأسمى من أن تحدد وأعلى من أن تتصور ، واحدة لا تعدد فيها ، عالمية ، شاملة . . .

ها هي تلك التلال والصخور ، أمامه ، تتزين في الصباح الباكر بالخلل الوردية الشفافة . وها هي تلك الشمس ، ترسل أول أشعتها على الحصى المشثور هنا وهناك ، فتصيره جواهر تتلألأ ، ثم ها هي تلك في كبد السماء ، جبارة طاغية ، ترسل بالأكفان البراقة ، فتنتشرها على الأرض ، وها هي ذى الأرض هامة ساكنة مستسلمة ، كهجنة لا حياة فيها ، وها هي تلك أمواج الذهب ترسلها الشمس على

الكون عند غروبها ، فى سخاء ، كأنها تريد أن توحى إليه بالأسف لمغربها . ثم
ها هو ذا طوق القمر الباهر ، يشبه طوق الحمامة ، تنسجم فيه ألوان الطيف السبعة ،
ويتألقى فى وسط القمر الذى يزهو بما يصدر عنه من شرر يتحول إلى الآلاف
المؤلفة من النجوم والكواكب .

ها هى تلك الأعمدة المختالة تتلهى الرمال ، عند هدوء الجو ، بإقامتها رانية
نحو القبة الزرقاء ، حتى إذا ما ثارت الأعاصير بعثت بالأتربة من بطون الوديان
قاذفة بها فى هجوم عنيف على الغيوم السوداء المفعمة بالبرق . وها هى ذى قوافل
السحاب ، تشبه الخراف البيض ، تطاردها الرياح حتى تبعدها عن قمم الجبال التى
فوقها نشأت ، فتضطر إلى الهجرة دون أن تسيل عبراتها على مسقط رأسها . وها هى
تلك العواصف الممطرة تنفجر شأبيبها الهطالة ، فتصب على الجبال العريانة أنهاراً
من المياه ، عنيفة جارفة ، لها دوى ولها زئير .

أمام هذه العناصر الهائلة العاتية التى لم تجرؤ قط — رغم جبروتها — على
عدم الخضوع ، ولو شروى نقيير ، للقوانين التى تسيرها ، والتى فرضتها عليها
القوة السامية العليا . . . لشد ما بدا لمحمد من ضعف الإنسانية وغرورها . . . أجل ،
وكم من سخريه فى أن تثق هذه الإنسانية بالمحسبات فيقدم لها السراب صورة
براقة من موجات الأثير الفائر ليشهد لها على غرورها المطلق !

كانت الخلوة ، لمحمد ، أعظم مرب ؛ فقد صفت قلبه من كل مشاغل هذا
العالم ؛ لذلك أطلقت عليه الآثار « صفاء الصفاء » ، وتشربت روحه — رويداً
رويداً — روح الصحراء التى لا تحد ، فبصرته بعظمة الله اللانهائية . وفى الصحراء
اتصلت أسرار الطبيعة بأعماق نفسه ، وغمرته فى قوة ، حتى لقد أوشكت أن
تخرج من فوه تلك الحقائق الخالدة التى انتزعت من «كارلايل» المفكر الإنجليزى
المشهور صيحة الإعجاب التى يقول فيها :

« حقاً إن أحاديث هذا الرجل قد صدرت مباشرة عن قلب الطبيعة ، ومن
الطبيعى أن تجتذب أفئدة بنى البشر فيستمعوا إليها ، ويجب أن يستمعوا إليها
أكثر مما يستمعون إلى غيرها ، فكل ما عداها هباء إذا قورن بها » (١) .

محمد لم يؤلف القرآن :

حقاً إنه ليدهشني أن يرى بعض المستشرقين : أن محمداً قد انتهر فرصة الخلوة هذه فروى ورتب عمله المستقبل . بل لقد ذهب بعضهم إلى أبعد من ذلك ، فوسوس بأن محمداً ألف في تلك الفترة القرآن كله . أحقاً لم يلاحظوا أن هذا الكتاب الإلهي خال من أية خطة سابقة على وجوده ، مرسومة على نسق المناهج الإنسانية ، وأن كل سورة من سوره منفصلة عن غيرها ، وخاصة بمجادثة وقعت ، بعد الرسالة ، طيلة فترة تزيد على عشرين عاماً ، وأنه كان من المستحيل على محمد أن يتوقع ذلك ويتنبأ به ؟ ولكنهم في جهلهم بالعقلية العربية لم يجدوا غير ذلك تعليلاً لهذا التحنث الطويل .

سبحانك ربى ! إنهم لو أتيتهم الإقامة وسط البدو في الصحراء فترة تكفى لأن يفهموا حالة التأمل التي يفنى فيها هؤلاء البدو ، جاثين على قمة أكمة ، تاركين نظرهم يضل في فضاء الله الواسع ، لعرفوا أنها ليست هي حالة البلادة والبلاهة التي يصفها بعض السائحين الذين يغلب عليهم طابع التسلية أكثر من طابع الدقة في الملاحظة ؛ ولو أتيتهم لهم ، على الأخص ، أن يتذوقوا بأنفسهم سحر هذا الوجد الذي لا يوصف ، والذي لا يثيره حقاً إلا لانهائية الصحراء ، وأن يشاهدوا الفوائد الروحية الرائعة التي يكتسبها الإنسان من ذلك . . . لو أتيتهم لهم كل هذا لما وقعوا في ذلك الضلال المبين .

إن هذا التأمل : ليس إلا بوتقة تصهر فيها العواطف والأفكار الناشئة لتخرج منها صافية ؛ إنه مصنع تكتيل القوى الروحية ، رغم أنها خفية وأنها لاشعورية . هذه القوى الكامنة التي تتكتل بالمراقبة والتأمل : تمكث مستترة مجهولة ، حتى من هؤلاء الذين تنطوى عليها جوانحهم ؛ وما مثلها في ذلك إلا كمثل النار الكائنة في أشجار الغابات ، فإذا ما أثارتها شرارة واحدة اشتعلت ملتهمبة جارفة صاعدة إلى عنان السماء فتبهر العالم .

لا شك أن محمداً لم يدر بخلوده أثناء تلك الفترة شيء مما يزعمه المستشرقون ، ولم يرو في نفسه أية خطة أو منهج . حقيقة إنه ، في خلوته ، كان يتأمل ، ولكنه

لم يكن يقدّر ؛ ولقد استمر كذلك إلى أن حان الموعد الذى حددته العناية الإلهية للتجلى ، عن طريق من اختارته رسولا .

الرؤيا الصادقة :

أخذ محمد يرى الرؤيا الصادقة الوضاعة ، ويسمع النداء الذى لا يعلم له مصدراً .

قال رسول الله : « طيلة العشرة شهور التى تقدمت الوحي ، كان يتخلل نوى نور باهر يشبه فلق الصبح ، وكنت حينما أبتعد عن الديار أسمع أصواتاً تنادى : يا محمد ! يا محمد ! فكنت أنظر يمنة ، ويسرة ، ومن خلف ، فلا أرى إلا شجيرات وصخوراً ، فيأخذنى القلق والحيرة . إننى ما أبغضت شيئاً بغضى للكهان والسحرة ، وقد خشيت أن أكون قد أصبحت - على غير علم منى - واحداً منهم ، فيكون الذى ينادىنى - خفياً مستوراً - تابعاً من الجن الذين يتحدثون إلى السحرة والكهان بخبر السماء ، فيساعدونهم بذلك على القيام بمهنتهم الآثمة » (١) .

الوحي (سنة ٦١١ م) :

يقع غار حراء فى جانب من جبل النور ، ذلك الجبل الذى يقع على بعد ثلاثة أميال تقريباً من مكة شمال طريق عرفة . وقد اختار محمد هذا الغار ، الذى هيأته الطبيعة داخل حجر الصوان الأحمر ، ليتحدث فيه شهراً كل عام مراعيّاً ، ليلاً ونهاراً ، الخلوة التامة . وكان يحمل معه الزاد المكون فى جوهره من الكحل ، وذلك لئلا يضطر إلى العودة لمكة . فإذا اتفق وفرغ زاده فإنه يضطر إلى العودة للبحث عن غيره ، ثم يسرع فى الرجوع إلى الغار ، إذ أن كل انقطاع عن التأمل العميق فى فترة التحدث هذه كان بالنسبة له عذاباً أليماً .

وبلغ محمد صلى الله عليه وسلم الأربعين من حياته الكريمة . وكان خلال الخمس عشرة سنة الأخيرة يتحرى فى عباداته (٢) ، حائراً قلقاً ، استخلاص الدين

(١) يقول الله تعالى فى الزجر عن ذلك : فى نهاية سورة الشعراء فى الآية رقم (٢٢١) : « هل أنبئكم على من تنزل الشياطين ؟ تنزل على كل أفكأثيم ، يلقون السمع وأكثرهم كاذبون » .

(٢) « قيل : كان تعبه صلى الله عليه وسلم التفكير مع الانقطاع عن الناس . وقيل تمبده صلى الله عليه وسلم »

الحنيف ، دين التوحيد ، دين جده إبراهيم ، من بين الأباطيل التي أدخلها عليه مواطنوه .

وهناك ، في غار حراء ، في اليوم الخامس والعشرين ، أو السابع والعشرين ، أو التاسع والعشرين من شهر رمضان (١٥ - ١٧ - ١٩ - يناير سنة ٦١١ م) ، حدثت الحادثة الخالدة ، إذ تجلت رافة الرحمن بعباده فأنزل إليهم الوحي عن طريق الرسول ، صلوات الله عليه وسلامه .

قال الرسول : « أتاني جبريل في غار حراء وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب ، فقال : اقرأ . فقلت : ما اقرأ . فغطني به ^(١) حتى ظننت أنه الموت ، ثم أرسلني ، فقال : اقرأ . قلت : ما اقرأ . فغطني حتى ظننت أنه الموت . ثم أرسلني ، فقال : اقرأ . فقلت : ماذا اقرأ ؟ ما أقول ذلك إلا افتداء منه أن يعود لي بمثل ما صنع بي . فقال : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ . . ﴾ فقراءتها ، ثم انتهت فانصرف عني ، وهببت من نومي فكأنما كتبت في قلبي كتاباً ، فخرجت . حتى إذا كنت في وسط الجبل سمعت صوتاً من السماء يقول : يا محمد ، أنت رسول الله وأنا جبريل . فوقفت أنظر إليه فما أتقدم وما أتأخر ، وجعلت أصرف وجهي عنه في آفاق السماء ، فلا أنظر في ناحية منها إلا رأيت . ثم قال ثانية : يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل . وانصرف ، فانصرفت راجعاً إلى أهلي . . . »

ولم يكذ الرسول يغشي داره حتى هرع إلى خديجة ونجا رأسه في حجرها وقال — وقد أخذته رعدة المحموم — : « دثروني ، دثروني » . فأسرع الخدم

== الله عليه وسلم كان بالذكر . . . وقيل : كان يعتمد قبل نبوته بشرع إبراهيم . وقيل : بشرية موسى غير ما نسخ منها ، في شرعنا . وقيل : بكل ما صح أنه شريعة لمن قبله غير ما نسخ من ذلك في شرعنا « (السيرة الحلبية ، ج ١ ، ص ٢٢٧) . وسياق القرآن في عمومته يرشد إلى أنه صلى الله عليه وسلم كان على دين إبراهيم مثل قوله تعالى :

« إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا . . . » فأثبت الإتيان في صيغة الماضي وعطفه على المتبعين اهتمام به وتخصيص له وبيان لقدرة صلى الله عليه وسلم .
(١) فغطني أو فغطني ، بالتاء بدل الطاء ، غمطي بذلك النمط : بأن جملة على فنه وأنفه .

إليه يزمّلونه ويدثرونه حتى هدأ روعه . وسألته خديجة ، وقد تملكها فزع عظيم :

« يا أبا القاسم حدثني بالله ، أين كنت ، وماذا حدث لك ؟ لقد بعثت رسلي في طلبك حتى بلغوا حراء ووصلوا إلى ضواحي مكة ، ورجعوا إلى دون أن يلقوك » :

فحدثها بالذي رأى ، ثم قال « حَسِبْتُ ، والله ، من شدته أني أموت » فقالت خديجة ، وقد رجع إليها اطمئنانها :

« والله لا يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدم ، وتعين على نوائب الدهر . أبشر يا بن عمي واثبت ، فالذي نفس خديجة بيده إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة » .

فمنذ أن أيد حديث ميسرة العجيب لخديجة ملاحظاتها الشخصية بالنسبة لحمد ، وخديجة مقتنعة بأن مصيراً سامياً قد قدر له ، ولذلك لم تدهش لما علمت من أمر الوحي . بيد أنها أرادت أن ترى الأمر في وضوح فتحيات للخروج ، وانطلقت مسرعة إلى ابن عمها ورقة بن نوفل ، وألقت إليه الخبر كما سمعته .

كان ورقة من هؤلاء الذين اعتنقوا النصرانية ، وكان يعد أعلم رجال مكة بالنصوص المقدسة . ولقد عاش ، مثلما عاش رهبان الشام ، في انتظار الرسول العربي . فما إن سمع الخبر الذي ألقته إليه خديجة حتى تحدثت عبراته من الفرح وصاح : « قدوس قدوس . والذي نفس ورقة بيده لأن كنت صدقتني يا خديجة فلقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى . وإنه لنبي هذه الأمة ، فقولي له فليثبت » .

وبينما الرسول يطوف بالكعبة — وقد كانت تلك عادته عقب كل فترة من فترات التحنث — إذ سارع إليه ورقة ، رغم شيخوخته وضعفه ، ورغم ما سببته له كثرة اطلاعه من كف البصر ، وطلب منه أن يقص عليه قصته بنفسه .

وقص الرسول عليه ما حدث ، وتبين ورقة صحة كلامه ، فأعاد على سمعه التنبؤات التي أخبر بها خديجة من قبل وأضاف : « يا ليتني أكون حياً حين يخرجك قومك »

قال : أو مخرجى هم ؟

— نعم ، لم يأت رجل بما أتيت به إلا عودى . ولئن أدركنى يومك لأنصرتك نصراً مؤزراً .

ولكن المنايا لم تمهل ورقة حتى تتحقق أمنيته .

نزل الوحي كجذوة وهاجة بددت من نفس محمد كل شك ، وأشعلت فيها تلك الآمال اللاشعورية ، وتلك القوى الكامنة التي كدسها في نفسه خمس عشرة سنة تقضت في التأمل والتحنث . لقد فتح الوحي عينيه على آفاق شاسعة ، وأظهره على ما يجب أن يقوم به نحو تلك الرسالة من جهود جبارة خطيرة .

لم يدر بخلد محمد يوماً ما أنه سيعمل هذا العبء الهائل ، ولئن كان بعض الرهبان قد تنبأ له بشيء منه ، فإنه لم يعر تنبؤاتهم أى اهتمام ، بل لقد نسيها . وإن اضطرابه وخوفه ، حينما فوجئ بالوحي ، من أن يكون فريسة لتخيلات شيطانية ، ليؤكدان لنا صحة ما نقول .

وهذا محمد الذى كان يفر من الاختلاط ببني جنسه ، والذى كان يأبى أية وظيفة من تلك الوظائف العامة ، التي كان مواطنوه على استعداد لأن يمنحوها إياه ، وقد أصبح — تحت تأثير الوحي — مستعداً لأن يواجه الحياة الصاخبة الجارفة ، وقد امتلأ قلبه إيماناً مكيناً ، وأفعمت نفسه بشجاعة لا تلين ، وتأهب للقيام بالرسالة ، بل تأهب للقيام بأعظم رسالة أوثمن عليها إنسان . ولقد تأهب ، في غير ما خوف أو إشفاق من تلك الامتحانات الهائلة التي لا مفر من أن يبتلى بها أمثاله من الهداة المرسلين .

في تلك الليلة الخالدة ، ليلة القدر ، نزل القرآن كله من السماء العليا حيث كان محفوظاً بها إلى السماء الدنيا ، التي تنتشر مباشرة فوق كرتنا الأرضية . وفي هذه السماء الدنيا وضع القرآن في بيت العزة ، ذلك البيت الذى على سمت بيت الله : الكعبة المقدسة .

بسم الله الرحمن الرحيم

« إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ * لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ * تَنْزَلُ الْمَلَائِكَةُ . وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ * سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ » .

من هذه السماء الدنيا نزلت أولى الآيات الكريمة على محمد ، كما نزلت التعاليم العامة للدين الإسلامى ، وتوالى الوحي طيلة ثلاث وعشرين سنة ، مرشداً وهادياً ، وموجهاً للرسول فى كل أعماله . توالى الوحي مثبتاً لقواعد الدين ، ومبيناً لقوانينه ، وموضحاً طريق انتصار الإسلام .

وإلى قصة الوحي هذه التى يرويها مؤرخو العرب ، نضيف البيان الآتى الذى نحسبه مفيداً لقارئنا من الأوربيين :

إن الملك جبريل الذى رآه الرسول صلى الله عليه وسلم فى غار حراء إنما هو الملك جبريل الذى ظهر للنبي دانيال ، ولريم أم عيسى عليه السلام ، ولكنه عند المسلمين المتبعين للإسلام حقاً لا يمت بصلة من شبه إلى الملك الذى تصوره لتاروسم الكنيسة الأوربية فى شكل غلام بأجنحة مختلف ألوانها، ذى خدود وردية، وشعر ذهبي متموج . إن جبريل فى نظر المسلمين هو الروح أو التاموس ، وقد كان يأتى إلى الرسول فى صور متعددة : فأحياناً يأتيه فى مثل صلصلة الجرس أو طنين النحل — وذلك أشد طرق الوحي على نفس الرسول — فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً ، حتى فى اليوم الشديد البرد ، ثم يهدأ روعه ، وقد وعى ما أوحى إليه ؛ وأحياناً يتمثل له فى صورة رجل يشبه كل الشبه دحية الكلبي ، أحد الصحابة فيكلمه فيعي عنه ما يقول .

أما الوحي — وهذا الملك هو الوسيط الرمزي له — فإنما هو التجلي الإلهي ، ويجب أن نعتبره أسمى درجة تصل إليها تلك القوة الخفية التى نسميها بالإلهام ، وهى بالبداية خارجة عن محيط الفرد ، لأنها مستقلة عن إرادته تمام الاستقلال .

المسلمون الأول :

كانت الصلاة — والطهارة شرط يتقدمها — أول واجب تلقنه النبي من فم رسول السماء .

وحينما عاد إلى مهبط الوحي ، ظهر له « جبريل » من جديد في صورة رجل ، فقال :

« يا محمد إن الله تعالى أمرني أن أقرأ عليك منه السلام ، ويقول لك ، أنت رسول الله إلى الجن والإنس ، فادعهم إلى قول : لا إله إلا الله . »

ثم أخذه في ناحية الوادي ، حيث ضرب برجله الأرض فتفجرت عين من الماء ، فتوضأ جبريل ورسول الله صلى الله عليه وسلم ينظر ، ليريه كيف الطهور الذي يتقدم الصلاة ، ثم قام « جبريل » ، فصلى بالنبي صلى الله عليه وسلم ركعتين ، وكان النبي يقتدى به في حركاته ، من ركوع وسجود ، وفيما يقوله أثناء ذلك .

شعر محمد براحة ونشاط عظيمين . شعر براحة في جسمه من أثر الطهور ، وشعر براحة في نفسه من أثر الصلاة ، فعاد — مملأ الإيمان عليه جميع أقطاره — إلى زوجه ، فظهر له « جبريل » ، وقال له : أقرأ على « خديجة » السلام من ربها . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا « خديجة » ، هذا « جبريل » يقرأ عليك السلام . فقالت « خديجة » : الله السلام ، ومنه السلام ، وعلى « جبريل » السلام .

وهكذا كانت « خديجة » أول من أسلم من بني البشر ، فقادها الرسول إلى النبع الذي تفجر تحت قدم « جبريل » فتوضأ لها ليريه كيف الطهور للصلاة كما أراه جبريل ، فتوضأت كما توضأ لها رسول الله عليه السلام : ثم صلى بها رسول الله كما صلى به « جبريل » ، فصلت بصلاته .

آمنت « خديجة » ، فخفف الله بذلك عن نبيه صلى الله عليه وسلم ، فكان لا يسمع شيئاً مما يكرهه ، من رد عليه وتكذيب له ، فيحزنه ذلك ، إلا فرج الله عنه بها إذا رجع إليها ، تخفف عنه وتصدقته وتهون عليه أمر الناس .

كانت تضحية « خديجة » ، تلك السيدة المثالية ، توحى إلى محمد باحتقار

لا أحد له لخبث الناس وشروهم ، وكان إيمانها الذي لا تزغره الأعاصير يقوى في نفسه الثقة حينما كان المشركون يصفونه بأنه متقول على الله .

وكان أول من آمن برسالته من الرجال « على بن أبي طالب » ، وكان يومئذ ابن عشر سنين . وكان الرسول قد كفله في عام من أعوام القحط ليخفف عن عمه « أبي طالب » الذي كان كثير العيال .

وحينما رأى « على » محمداً وخديجة منتحيين جانباً ، ومستغرقين في الصلاة تملكته دهشة عظيمة ، ذلك أنه لا يرى بعينه ما يعبدانه ، وسأل الرسول : « ماذا كنتم تؤديان من الشعائر آنفاً ؟ » .

فأجاب الرسول : « كنا نقيم صلاة الدين القويم ، الذي اصطفاه الله واختارني له مبلغاً ورسولاً ، وإني أدعوك إليه يا على ؛ أدعوك إلى عبادة الله الواحد ، الذي لا شريك له ، وأدعوك إلى نبذ الأصنام من أمثال « اللات » و « العزى » التي لا تملك ضرراً ولا نفعاً » . ثم تلا الرسول :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« قُلْ: هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ »^(١) .

« هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ »^(٢) .

« إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ : كُنْ فَيَكُونُ »^(٣) .

« اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ »^(٤) .

« لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ ، وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ، وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ »^(٥) .

(٢) نهاية سورة الحشر .

(٤) البقرة : ٢٥٥ .

(١) سورة الإخلاص .

(٣) يس : ٨٢ .

(٥) الأنعام : ١٠٣ .

«وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى * وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ^(١) * »
 «يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ، وَيُخْفِي الْأَرْضَ
 بَعْدَ مَوْتِهَا ، وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ^(٢) * »

«وَاللَّهُ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ، فَأَيْنَمَا تُولَّوْا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ
 عَلِيمٌ * ^(٣) »

«وَالِلَّهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ ^(٤) * »
 «ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ، وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ
 قِطْمِيرٍ ^(٥) * »

فقال علي : « هذا أمر لم أسمع به قبل اليوم ، فلست بقاض أمر آخى أحدث
 أبا طالب . وكره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يفشى سره قبل أن يجهر بالدعوة ؛
 فقال : « يا علي ، إذ لم تسلم فاكم هذا » .

قضى « علي » ليلة مضطربة يفكر في الأمر ، ولكن الله ، تبارك وتعالى ،
 هداه للإسلام ، فأصبح غادياً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم مطمئناً
 مغتبطاً .

ومنذ ذلك اليوم وعلى بتبع الرسول — إذا حان موعد الصلاة — إلى شعاب مكة
 ليؤدي الفريضة ، مستخفياً من أبيه « أبي طالب » ، ومن جميع أعمامه ،
 فيصليان .

ثم إن « أبا طالب » عثر عليهما فجأة يوماً وهما يصليان بنخلة ، فقال لرسول
 الله صلى الله عليه وسلم : « يا بن أخي ، ما هذا الذي أراك تدين به ؟ » فقال :
 « هذا دين الله ، ودين ملائكته ورسله ، ودين أبينا " إبراهيم " بعثني الله به رسولا
 إلى العباد ، وأنت أحق من بذلت له النصيحة ودعوته إلى الهدى ، وأحق من أجباني

(٢) الروم : ١٦ .

(٤) هود : ١٢٢ .

(١) النجم : ٤٣ - ٤٤ .

(٣) البقرة : ١١٥ .

(٥) فاطر : ١٣ .

إلى الله ، تعالى ، وأعانني عليه . فقال « أبو طالب » : « إني لا أستطيع أن أفارق دين آبائي وما كانوا عليه ، ومع ذلك فإني أعلم من صدقك ما يجعلني أؤمن بحقيقة ما تدعو إليه ، ووالله لا يصل إليك أحد بشيء تكرهه ما بقيت » . والتفت إلى ابنه فقال له : « أما إنه لم يدعك إلا إلى خير فالزمه » .

وأسلم بعد ذلك « زيد بن حارثة » وهو رقيق كان قد أعتقه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتبناه ؛ وكان يحب الرسول إلى درجة أنه رفض العودة إلى أبيه ، حينما جاء أهله في طلب ليفدوه .

وبعد ذلك اعتنق الإسلام شخصية من كبار الشخصيات المرموقة في مكة ، ونعني به « عبد الكعبة بن أبي قحافة » الذي أطلق عليه فيما بعد اسم : « أبي بكر » . كان « أبو بكر »^(١) مع « حكيم بن حزام » يوماً ، إذ جاءت جارية « لحكيم » وقالت له : « إن عمك خديجة تزعم في هذا اليوم أن زوجها نبي مرسل مثل موسى » .

سمع « أبو بكر » ذلك ؛ وكان يؤمن بصدق « محمد » وإخلاصه ، وكان قد سمع قول « ورقة » من قبل « للرسول » صلى الله عليه وسلم وتنبؤاته له ، فأسرع تحذوه عاطفة قوية — حتى أتى الرسول ، فسأله عن حقيقة الخبر ، فقص عليه قصته المتضمنة لحجى الوحي له بالرسالة ، فأخذ التحمس من نفس « أبي بكر » كل مأخذ ، فصاح قائلاً : « صدقت ، بأبي أنت وأمي ، وأهل الصدق أنت ، أنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنتك رسول الله » .

ولما سمعت « خديجة » ، وكانت في غرفة مجاورة ، ما قاله « أبو بكر » ، خرجت وعليها خمار أحمر ، فقالت : « الحمد لله الذي هدانا لهذا الذي كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله » .

أشاع إسلام « أبي بكر » في نفس الرسول سروراً عظيماً . وكان « أبو بكر » صدرًا معظمًا في « قريش » على سعة من المال وحسن الوجه ، وصاحب منظر أنيق ، وكان أنسب « قريش » « لقريش »^(٢) وأعلم « قريش » بها وبما كان فيها من

(١) ذكره القرآن حين قوله تعالى : في سورة التوبة « لا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الفار إذ يقول لصاحبه : لا تحزن إن الله معنا » وفي سورة النور : « ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤثروا أولو القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله وليصفوا ولا يصفوا ولا تعبدون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم » .
(٢) علمهم بأنسابهم .

خير وشر ، وكان من أعلم الناس بتعبير الرؤيا ، صادقاً في حديثه ، حسن المجالسة وقد اختاره قومه قاضياً في المغارم والديات وحكماً في المفاخرات .

في إيمان حار ، أخذ « أبو بكر » يدعو إلى الله وإلى الإسلام من وثق به من قومه ، ويكرس جهده في نشر الإسلام ، ويقود أصدقاءه إلى الرسول ليعلمهم الإسلام . وكان النعاج حليف « أبي بكر » وكانت ثقة الناس به توحى إليهم بأن يتقبلوا بقبول حسن — ما يدعو إليه . وكان مظهر الدين الجديد ، في بساطته وفي عظمته ، وفي انسجامه مع ما تتطلع إليه الفطر السليمة ، يجعلهم يشعرون بنفور شديد من عبادة الأصنام التي عاشوا عليها طيلة ماضيهم . ومع كل ، فهذا الدين الجديد إنما هو دين جددهم « إبراهيم » الذي يحملون أثره — بطريقة لاشعورية — في قلوبهم ، وكان من السهل عليهم لذلك أن يدينوا به من جديد^(١) .

وكانت لهجة الداعي إليه ، تلك اللهجة التي تسمو فوق حدود الإنسانية ، وكانت نظرتة التي يشع منها الضياء ، تخرجهم من الظلمات إلى النور ، فيسرعون إلى اعتناق الإسلام بين يديه .

تشرف بالإسلام بهذه الطريقة خمسة عشر رجلاً من أشرف « قريش » منهم « عثمان بن عفان » ، و « عبد الرحمن بن عوف » ، و « سعد بن أبي وقاص » ، و « الزبير ابن العوام » ، و « طلحة بن عبيد الله » ، و « عبيد بن الحارث » ، و « جعفر بن عبد المطلب » .

بجانب إيمان هؤلاء وإسلامهم — الذي كانت له أهمية كبيرة بسبب مركزهم الاجتماعي — يجب أن لا ننسى حالة متواضعة مؤثرة ، تلك هي حالة « حليلة » مرضعة الرسول ، فبمجرد أن سمعت الناس يتحدثون عن دعوة ابنها من الرضاع — وكانت تؤمن دائماً بأن لابنها هذا شأنًا — بادرت بسرعة ، يرافقتها زوجها ، لينتظما في سلك المؤمنين . ومن قبل أسلم كل من كان يعيش مع الرسول تحت سقف واحد ، ومن بينهم بناته ، وكن في سن الحداثة ، وجاريتته « أم أيمن » .

هذه المجموعة الصغيرة من المؤمنين كانت تحيا حياة مليئة بالانفعالات والعواطف . حقاً ما أجمل اجتماعهم في عبادة الله مستخفين عن أعين الناس . لشدة ما كانوا يأخذون

(١) وفي ذلك يقول الله تعالى في سورة الروم في الآية رقم (٣٠) : « فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

حذرهم حتى لا يثيروا انتباه المشركين . لقد كان الرسول حتى في منزله نفسه ، مضطراً للتستر من جيرانه ، وحينما كان يعلن التكبير يضع فيه فوق آنية مغروسة في الأرض ليخفف من رنين صوته .

الجهر بالدعوة :

في هذه الظروف لا يمكن للدعوة الإسلامية أن تنتشر إلا سراً ، وبين الأصدقاء ، ولهذا كان تقدم الإسلام في سنواته الثلاث الأولى تقدماً بطيئاً . ومع ذلك في أثنائها انقطع الوحي فجأة ، وشعر « محمد » بأنه لم يعد معضداً بإلهام الله القدير ، فشق ذلك عليه وأحزنه .

وبينما كان يسير حائراً مطرقاً ، قلقاً ، وحيداً ، في شعاب « مكة » ، إذ سمع نداءً سماوياً جعله يرفع بصره إلى أعلى ، فيرى - في حالة من النور - الملاك الذي ظهر له في غار حراء . ولم يسعه أن يتحمل سنا برقه الذي يذهب بالابصار ، فأسرع إلى بيته وطلب أن يالف بعباءته حتى يذهب عن جسمه الرعدة وعن عينه الإعياء . وحينئذ نزلت الآيات التالية :

بسم الله الرحمن الرحيم

« يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ ^(١) »

« وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ * وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ : إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ » وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ^(٢) »

قام الرسول ، وفي عينيه بريق النشاط الرائع . إنه إلى ذلك اليوم لم يجرؤ على الجهر برسالته ، لما كان يتوقعه من حقد ستثيره في نفوس مواطنيه المشركين . ولكنه تلقى من ربه الأعلى الأمر بالجهر ، وكان هذا أعز أمانيه . لذلك ترك الانكماش

(١) المدثر : ١ - ٢ .
(٢) الشعراء : ٢١٤ - ٢١٧ .

الذى طالما ضاق به ذرعاً . وعزم على أن يعلنها مدوية لا لبس فيها ولا خفاء ، فأمر « عليّاً » أن يعد مادبة يدعو إليها بنى المطلب ، فصنع طعاماً مكوناً من فخذ شاة ومد^(١) من بر ، وصاع^(٢) من لبن .

وجاء « بنو المطلب » ، وكانت عدتهم أربعين ، وكان من بينهم « أبو طالب » و « حمزة » و « العباس » و « أبو لهب » .

فقدم لهم « الجفنة » وقال : « كلوا باسم الله » . فأكلوا كلهم من الجفنة حتى شبعوا ، وشربوا كلهم من الصاع حتى نهلوا ، مع أن الواحد منهم يأكل الشاة بأكملها ، ويشرب وحده جرة من لبن . ولكن « الجفنة » على صغرها أشبعتهم ، واللبن على قلته رواهم ، فأخذهم من العجب من ذلك ما أخذهم .

فلما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتكلم ، كان « أبو لهب » قد فطن إلى ما يدور بخلد ابن أخيه من آراء ، وكان لا يقرها ، فبدره بالكلام وقال : « ما رأينا سحراً كسحر اليوم ، فلنبادر بالانصراف » ، وكان لكلام « أبي لهب » صدى في نفوسهم بعد ما رأوا من تلك الجفنة الصغيرة التي أشبعت أربعين رجلاً . . . وتفرقوا .

حزن الرسول لموقف « أبي لهب » منه ، ذلك الموقف الذى خلا من كل مجاملة فقال لعل : « أرأيت ما وصلت إليه فظاظة عمى الذى حال بينى وبين تبليغ الرسالة ؟ ومع ذلك فالفرصة لم تفلت . أصنع لنا مثل ما صنعت من الطعام والشراب ، وادع نفس القوم » .

وفي الغد ، حينما تكامل القوم ، بادر الرسول بالحديث قائلاً : « ما أعلم لإنساناً في العرب جاء قومه بأفضل مما جئتمكم به ، قد جئتمكم بخير الدنيا والآخرة ، وقد أمرنى ربى أن أدعوكم إليه ، فأياكم يمينى إلى هذا الأمر ويؤازرنى عليه ، فيكون وصيى ووزيرى ويكون أخى ؟ » .

ولم تكن الدعوة — على هذا الوجه — متوقعة ، فأخذ المدعوون ينظر بعضهم إلى بعض في دهشة عقدت ألسنتهم ، ولكن كراهية شديدة كانت ترسم على وجوههم وتقوم مقام الإجابة . أما « على » فقد كان يتوقع منهم فرحاً غامراً يسودهم

(١) مكيال ، وهو رطل وثلاث عند أهل الحجاز ورطلان عند أهل العراق .

(٢) والصاع : أربعة أمداد .

بمجرد سماعهم للنبأ العظيم ، وكان يتوقع منافسة حارة في التشرف بالانضواء تحت لواء هذه الدعوة ، فلما رأى ما رأى لم يمكنه أن يكظم غيظه ، فاندفع واقفياً — ناسياً ما تفرضه عليه التقاليد لصغر سنه بين هؤلاء الأشراف — وصاح ، وقد ملأه الحماس : « أنا يا رسول الله وزيرك » .

ولم يبتسم الرسول لهذه الآمال التي فاه بها هذا الغلام ، وإنما وضع يده على كتفه في حنان ، وأعلن : ها هو ذا وصي ووزيرى ، ها هو ذا أخى .

وحينئذ ، لم يعد لدهشة المدعوين حد تقفا عنده . بيد أنهم كتموا غضبهم ، واستقبلوا هذا الإعلام بعاصفة من الضحك ، وصاح أبو لبب بأبى طالب ساخراً : « أسمع ما قال ابن أخيك ؟ إنه يأمر بك بأن تسمع لابنك وتطيع » . . وخرج الجميع ساخرين حافقين ، عدا أبا طالب ، فقد خرج يملأ الحزن جوانحه .

لا شك أن هذه الهزيمة التامة آلمت الرسول . ولكنها لم تثبط — لا ، ولا قلامة ظفر — من عزيمته ؛ إذ أن الوحي من يومئذ لم يفتر عن تعصيده وإرشاده .

القيامة :

بدأ محمد يبشر برسالته ، وأخذ الوحي يتتابع في سرعة ، ويلبس أسلوباً رهيماً معلناً قرب الساعة ، حاثاً بذلك على العمل ودافعاً إليه :

بسم الله الرحمن الرحيم

« الْقَارِعَةُ ^(١) ، مَا الْقَارِعَةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ؟ * يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ * وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ^(٢) * »

أما موعد هذه القارعة التي سيجازى فيها المسىء على إساءته ، فقد كان محمد يعتقد أنه وشيك الوقوع ، ولذلك ضاعف من نصائحه ووعظه لمواطنيه ليخرجهم

(١) « القارعة » : أى القيامة التي تفرع القلوب بأهوالها ، « ما القارعة » : تهويل لشأنها ، « الفرائش المبتوث » : غوغاء الجراد المنتشر . « العهن المنفوش » : الصوف المتدوف .
(٢) القارعة : ١ - ٤ .

— قبل قيام الساعة — من الظلمات إلى النور ؛ ولكنهم كانوا يحييونه : « لا تأتينا الساعة ^(١) » .

وبأمر الله أعلن محمد :

« إِنَّ السَّاعَةَ لَأَتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا ^(٢) » .

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ^(٣) »

« إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا * وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا * يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بَأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا * يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ * فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ^(٤) » .

هذه الأنباء المفزعة التي كان يعلنها الرسول — في يقين بجازم — كانت تبعث في قلوب الكفار القلق والاضطراب ، لكنهم لما لم يروا أنها قد تحققت ، ولما لم يروا علامات تدل على قرب وقوعها ، أخلدوا إلى ما كانوا فيه من ضلال ^(٥) .

وكان الرسول يجهل موعد قيام الساعة : إذ « عَلِمَهَا عِنْدَ اللَّهِ ^(٦) »

ولكنه كان على يقين من عذاب ما لهم منه من محيص في هذا العالم ، أو في العالم الآخر : « وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ ، فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ^(٧) » .

(١) سبأ : ٣ . (٢) غافر : ٥٩ .

(٣) الحج : ١ . (٤) سورة الزلزلة .

(٥) يصور ذلك قوله تعالى في أول سورة البقرة : « مثلهم كمثل الذي استوقد نارا ، فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون ، صم بكم عى فهم لا يرجعون ، أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق ، يحملون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين . يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شيء قدير » والله محيط بالكافرين . ويصور إصرارهم على الكفر وإعراضهم البالغ عن الإيمان قوله تعالى في أول سورة فصلت : « وقالوا : قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه ، وفي آذاننا وقر ، ومن بيننا وبينك حجاب ، فاعمل إننا عاملون » .

(٦) الأعراف : ١٨٧ .

(٧) الرعد : ٤٠ .

وكان الرسول يضيق ذرعاً عندما يتخيل أن مصير مواطنيه الكفار ، ربما كان أسوأ عاقبة من عاد وثمود .

المناوشات الأولى :

أصبح المؤمنون — منذ أن جاهر الرسول بالدعوة — لا يخفون إيمانهم ، ولكنهم — ليتجنبوا الاحتكاك الذى لا فائدة فيه بالمشركين — كانوا يذهبون إلى شعاب مكة المقفرة سرّاً ليؤدوا صلاتهم .

وحدث يوماً : أن تجسس عليهم جماعة من المشركين ، وعرفوا مكان اجتماعهم ، فأخذوا يكيلون لهم السباب والشتم ، ولم يصبر المسلمون على إهانة دينهم ، فغضبوا له ، وثار القتال بين الفريقين ؛ فأخذ سعد بن أبى وقاص لـسحىّ جمل كان ملقاً فى الصحراء ، ورى به فى وجه أحد المشركين بقوة وشدة فأسال دمه ، وكان هذا أول دم أهرق فى الإسلام .

وأراد الرسول أن يتفادى مثل هذه الحوادث ، فقرر أن يتخذ من بيت الأرقم — لبعده — مصلًى . وكان بيت الأرقم يقع على رأس الصفا ، ومع ذلك فقد كان الغيظ يزداد فى قلوب المشركين ؛ لقد كانوا فيما مضى يهزون أكتافهم استهتاراً أو سخرية ، حينما كان محمد يقتصر على دعوتهم إلى الإسلام ، حتى ولو كان يستعمل معهم التأنيب والتهديد بعذاب من السماء ينزل بهم ، ولكنه حينما تعرض ، بدوره ، يهزأ بأصنامهم التى صنعت من خشب أو من حجر ، والتى لا تسمع ولا تبصر ولا تنطق ولا تغنى عن أحد شيئاً ، بلغ بهم الغضب منتهاه ؛ ذلك أن محمداً — بفعله هذا — لم يكن يجرحهم فى معتقداتهم فحسب ، وإنما كان يؤذيهم فى مصالحهم المادية إيذاء خطيراً ، إذ أن تلك الأصنام كانت فى يد الأشراف مصدر ربح عظيم ، وكانت أداة فعالة فى السيطرة على الشعب الجاهل .

وكان أبو طالب ، من بين القوم الذين مكثوا على إشراكهم ، هو الوحيد الذى بقى على حبه لمحمد ، رغم سخرية القرشيين الآخرين . ولما رأوا منه ذلك بعثوا إليه بوفد من أكبر الإشراف ، بينهم عتبة بن ربيعة ، وأبو سفيان بن حرب ، وأبو جهل ، وكثير غيرهم ممن لا يقلون عنهم مكانة . فقالوا لأبى طالب :

« يا أبا طالب ، إن ابن أخيك قد سب آلهتنا ، وعاب ديننا ، وسفه أحلامنا وضلل آباءنا ؛ فإما أن تكف عنا ، وإما أن تخلى بيننا وبينه ، وإلنك على مثل ما نحن عليه من خلافه ، فنكفيكه » .

فقال لهم أبو طالب قولاً رقيقاً ، وردهم رداً جميلاً ، فانصرفوا عنه . ولم يفتر نشاط محمد في الدعوة إلى الإسلام ، ولكن عداوة القرشيين ازدادت ، واتخذت وجهاً أخطر وأعظم ، فرجع الوفد إلى أبي طالب ليقولوا له : « يا أبا طالب إن لك سنناً وشرفاً ومنزلة فينا ، وإنا قد استهينناك من ابن أخيك فلم تنته عنا ، وإنا والله ، لا نصبر على هذا : من شتم آبائنا ، وتسفيه أحلامنا . وعيب آلهتنا ، حتى تكفه عنا ، أو ننازله وإياك ، حتى يهلك أحد القرينين » . فعظم عليه فراق قومه ، ولم يطب نفساً بإسلام رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، لم ولا خذلانه .

وبعث أبو طالب ، وهو في حالته النفسية هذه ، إلى رسول الله يستدعيه ، فلما حضر قص عليه رسالة قريش ، ثم قال :

« تدبر الأمر ، وأبني علىّ وعلى نفسك ، ولا تحملي من الأمر ما لا أطيق » . فأجابه الرسول : « يا عم ، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري ، على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ، ما تركته » .

وظن أن أبا طالب يريد أن يظهره على ما هو فيه من استحالة مناصرته ، ووجوب تركه ، فاستعبر باكيًا ثم قام . فلما ولي ، ثارت عواطف أبي طالب ، ونادى محمداً ، وقال له في حنان : « اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت ، فوالله لا أسلمك لمكروه أبداً » .

ورأت قريش أن التهديد لا ينال من حب أبي طالب لابن أخيه ، فأوفدوا إليه وفدهم مرة أخرى ومعه عمارة بن الوليد ، وقالوا له :

« يا أبا طالب ، هذا عمارة بن الوليد : أنه قد فتي في قريش وأجمله ، فخذنه فلك عقله ، ونصره » ، واتخذوه ولداً ، فهو لك ، وأسلم إلينا ابن أخيك ، هذا الذي خالف دينك ودين آبائك ، وفرق جماعة قومك ، وسفه أحلامهم فنقتله ، فإنما هو رجل برجل » .

فأجابهم أبو طالب قائلاً :

« والله لبئس ما تسومونني ! أتعطوني ابنكم أغذوه لكم ، وأعطيكُم ابني تقتلونه ؟ ! هذا ، والله ، ما لا يكون أبداً » .

أنصرف الوفد والغيط يملأ قلوبهم . واقترب موسم الحج ، فاجتمع مشركو قريش في دار الوليد بن المغيرة ليتشاوروا في أمر النبي ، فقال الوليد :

« يا معشر قريش ، إنه قد حضر هذا الموسم ، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه ؛ وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا ، فأجمعوا فيه رأياً واحداً ، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً . ويرد قولكم بعضه بعضاً » . قالوا :

— فأنت يا أبا عبد شمس . فقل . وأقم لنا رأياً نقل به .

— بل أنتم فقولوا أسمع .

— نقول : كاهن .

— لا ، والله ، ما هو بكاهن ، لقد رأينا الكهان فما هو بزمزة^(١) الكاهن ،

ولا سبجعه .

— فنقول مجنون .

— ما هو بمجنون . لقد رأينا لجنون وعرفناه فما هو بخنقه ، ولا تخالجه ولا وسوسته .

— فنقول : شاعر .

— ما هو بشاعر ، لقد عرفنا جميع أنواع الشعر فما هو بالشعر .

— فنقول : ساحر .

— ما هو بساحر لقد رأينا السحار وسحرهم فما هو بنفثهم ولا عقدهم^(٢) .

واعترف المشركون في دخيلة نفوسهم بصحة تلك الملاحظات ، فكلهم قد أحسوا ، في قليل أو كثير ، أن قد غزا قلوبهم ذلك الكلام العجيب الصادر من أعماق قلب الرسول الملهم ، وكلهم كثيراً ما كانوا على وشك الخضوع لتلك الألفاظ الأخاذة التي ألهمها إيمان سماوي ، ولم يمنعهم عن الإسلام إلا قوة جهم لأعراض الدنيا ، وللاذم وميولهم التي حاربها الدين الجديد حرباً شعواء .

غير أنه كان يتحتم عليهم أن يتخذوا قراراً سريعاً ليمنعوا — بأي ثمن كان —

(١) الزمزة : الكلام الخفي الذي لا يسمع .

(٢) إشارة إلى ما كان يفعل الساحر بأن يعقد خيطاً ثم ينفث فيه .

العرب الغرباء من الإيمان به . فاتفقوا على أن يدعوا أن محمداً ساحر جاء بقول هو سحر يفرق بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه . وبين المرء وزوجه ، وبين المرء وعشيرته . ولما بدأت وفود الحاج تأتي من كل فج عميق ، تعرض لهم الوليد وأعوانه في الطريق المؤدية إلى مكة ، ولم يمر بهم أحد إلا حذروه من محمد وسحره . بيد أن الذين تأثروا بتلك التحذيرات ، وتخوفوا من السحر العظيم ، كانوا قلة بالنسبة للذين أحسوا برغبة قوية في التعرف على هذا الرجل العجيب الذى أقص كلامه مضاجع أشراف مكة . لذا لم يكادوا يرجعون إلى بلادهم حتى جعلوا يقصون ما سمعوا وما شاهدوا . ولما رأى القرشيون أنهم بحملتهم هذه قد أذاعوا أمره بين أرجاء الجزيرة : فأخذت شهرته تزداد ، ويتنبه الناس له ، اشتعلت جذوة غضبهم . وأخذوا ينتهزون كل فرصة لإيذائه . وتجمعوا يوماً في حرم الكعبة . واستحث بعضهم بعضاً قائلين : « لم نصبر أبداً على أحد مثل ما صبرنا على هذا الرجل » .

وفى هذه الآونة أقبل محمد يطوف بالكعبة ، فوثبوا عليه وثبة رجل واحد ، أحاطوا به يقولون : « أأنت الذى تقول كذا وكذا فى آلهتنا وآبائنا ؟ » . فأجاب بكل هدوء ورياسة : « نعم ، أنا الذى أقول ذلك » . فارتدى عليه أحدهم وأخذ بمجمع رداءه محاولاً أن يقتله خنقاً ؛ فقام أبو بكر رضى الله عنه دونه وهو يبكى ويقول : « أقتلوا رجلاً أن يقول ربى الله » . وانتشل محمداً من يد الرجل . بيد أنه أودى هو الآخر وتساقط بعض لحيته .

ولم يمتنع الرسول — رغم الخطر الذى هددته فى تلك الحادثة — عن العودة إلى الكعبة للصلاة غير مبال بالنظرات الحانقة التى أخذ أعداؤه يرمونه بها . وذهب رجل — بأمر أبى جهل — يبحث عن أمعاء شاة ، فأتى بأمعاء دابة مضى على ذبحها أيام كثيرة ، ثم ترقب الرسول حتى سجد فى صلاته ، وإذا ذاك رعى بما فى يده على عنقه وأكتفاه ، فانتفض القوم ضاحكين ، حتى انقلبوا على قفاهم تنخبط أجسامهم . أما رسول الله فلم يظهر عليه أى أثر لتلك الإهانة الشنيعة وظل يزاوِل عبادته ، ولم يخلصه من تلك القاذورات إلا ابنته فاطمة التى أقبلت بعد ذلك بقليل ، وجعلت تسب هؤلاء الطغاة الذين لا يردهم أى وازع من شرف أو قرابة ، عن فعلة شنيعة مثل هذه .

وإذا ذكرنا أبا جهل وسلوكه المشين تجاه الرسول ، فلنذكر أيضاً أحد أعمام الرسول ، وهو أبو لهب ، فقد سجل عليهما التاريخ مواقفهما المخزية الدنيئة ٥ فبينما الرسول يوماً يعظ جماعة من أهل مكة على الصفا ، وإذا بأبي لهب يقاطعه ٥ في صفاقة وسماجة ، قائلاً : « تباً لك سائر هذا اليوم ، أثلث هذا جمعتنا ؟ » ٥ فأجاب الوحي بالسورة الكريمة :

« تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ * وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ * (١) »
وذاعت تلك السورة سريعاً ، فزدات أبا لهب غيظاً على غيظ . أما زوجه أم جميل التي أثارت الآية ذكرها بتلك الصفات التي بلغت ذلك المبلغ من الصدق ، رغم حدتها وخشونتها ، فقد كاد الغيظ يمزق صدرها تمزيقاً : إنها لم تستطع أن تتحمل ذلك النعت . ولكن أليست هي حمالة حطب التي نثرت الشوك على طريق الرسول ؟ أليس لسانها هو الذي أشعل نيران الحقد بحطب النميمة التي كانت تحملها إلى كل مكان ؟

ومنذ ذلك اليوم وهذان الزوجان لا يتراجعان أمام أقبح الأفعال ، فراحا يرميان ، كل صباح ، بأكوام القاذورات على بيت محمد وأمامه ، وكان جارهما . وأخذت الجمهرة العظمية من أهل مكة — خائفة من هؤلاء المتعصبين الطغاة أو متحمسة بهم — يصدون عن الرسول ، أو يفرون منه . وأصبح الأطفال والرجال الذين لا ضمائر عندهم ، يلاحقونه في الشوارع بسخريتهم . ولكنه تحمل الأذى صابراً غير مبال . وماذا يضيره من السخرية ؟ إنها دخان في الهواء . . لم يكن يهتم ، حتى ولا بمعرفة من هم مصدر هذا الأذى ، لم يكن يهمه إلا أمر الذين يأمل في اعتناقهم الإسلام .

الاعمى :

كان الرسول منهمكاً في إقناع بعض أشراف مكة ، وقد أوشكوا أن يقتنعوا بحججه ، فإذا بابن أم مكتوم ، ذلك المسكين الأعمى ، قد أتى يطلب — في

تواضع — بعض العلم الذى أنزله الله على رسوله . وكان الرسول منهمكاً فى حديثه مع هؤلاء الأشراف الذين كان يتمنى ، فى حرارة ، هدايتهم إلى الإسلام ، وخاف أن تفوته فرصة قد لا تعود أبداً ، فضجّر من الأعمى ولم يلتفت إليه إلا قليلاً ، فلما أكثر عليه انصرف عنه الرسول عابساً وتركه ، فانصرف الأعمى حزيناً دون أن يظفر بما يريد . ولم يكذ ينصرف حتى تملك الندم الرسول : ألم يكن فى استطاعة هذا الأعمى — وقد استنار قلبه بالإيمان — أن يفتح أبصار خلّاتق كثيرة غمرت فى ظلام الجهل الدامس ؟ ونزل الوحي لافتاً نظر الرسول :

«عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى * وَمَا يُدْرِيكَ ؟ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى * »

«أَمَّا مَنْ اسْتَغْنَى * فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى ؟ * وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى ؟ * وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى * وَهُوَ يَخْشَى * فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى ؟ * كَلَّا ! إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ^(١) * »
ومنذ ذلك الحادث والرسول لا يفرق بين غنى وفقير فى رعايته وعنايته ، ولا بين عبيد وسادة ، ولا بين سوقة وأشراف ^(٢) .

ووصل غيظ المشركين ذروته العليا حينما رأوا عبيدهم وخدمهم تغريهم بالدين الجليد ، فكرة الإخاء والمساواة ^(٣) وحينما سمعوا تلك السورة التى تهدد الأغنياء والطفاة الذين يستغلون فقراء الشعب :

«أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ * كَلَّا ، سَوْفَ تَعْلَمُونَ *

(١) «أتى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ابن أم مكتوم ، واسم أبيه عبد الله بن شريح بن مالك بن ربيعة الفهري من بنى عامر بن لؤى ، وعنده صناديد قريش : عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، وأبو جهل ابن هشام ، والعباس بن عبد المطلب ، وأمّية بن خلف ، والوليد بن المغيرة ، يدعوهم إلى الإسلام ، رجاء أن يسلم بإسلامهم غيرهم ؛ فقال : يا رسول الله ، أقرئنى وعلمنى مما علمك الله ، وكرر ذلك ، وهو لا يعلم تشاغله بالقوم ، فكرر رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قطعه لكلامه ، وعبس وأعرض عنه ، فنزلت ، فكان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يكرمه ويقول إذا رآه : مرحباً بمن عاتبنى فيه ربى ، ويقول له : هل لك من حاجة ؟ واستخلفه على المدينة مرتين » (الزنجشبرى) .

(٢) ولقد أوصاه الله بذلك حيث قال فى سورة الضحى : «فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر» .
(٣) «لقد حقق الإسلام نظرية المساواة هذه بين القبائل والشعوب ، وهى النظرية التى لم تأت أخيراً إلا على يد الثورة الفرنسية .

وهذا بلال الحبشى أقامه الرسول مؤذناً للمسلمين ، فكان العرب ، وهم من الشعوب التى تفخر بالأجداد والأنساب ، تسمع له وتسعى إلى الصلاة إذا ما أذن فيهم هذا العبد الحبشى . (من « أشعة خاصة بنور الإسلام » ترجمة الأديب النابه راشد رسم) .

ثُمَّ كَلَّا ، سَوْفَ تَعْلَمُونَ * كَلَّا ، لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ *
ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ * ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ^(١) * »

والتقى أبو جهل يوماً بالرسول على سفح الصفا ، فلم يمالك نفسه ، وأنساه حقه واجبات رجل في مثل سنه ، ورى الرسول بشتائم بلغت من القباحة حداً بحيث يخجل الإنسان من نقلها . أما الرسول فلم يحر جواباً كعادته . بيد أن مولاة لعبد الله بن جدعان شاهدت ذلك الحادث من نافذة بيت سيدها الذي يقع على مقربة من المكان ، ولم يمض كبير وقت حتى مر بها حمزة عم محمد ، فقصت عليه ما سمعته .

إسلام حمزة :

وكان حمزة شديد الشكيمة ، سريع الغضب ، عزيزاً في قومه ، فلم يكدر يسمع خبر الإهانة التي لحقت بابن أخيه حتى فار دمه غيظاً ، ولم يقف ، كعادته إذا رجع من القنص - وهو هوايته المحبوبة - ليحدث من يلاقيهم في طريقه ، بل أسرع متجهياً نحو الحرم ، ونظر إلى أبي جهل جالساً في قومه فأقبل عليه حتى إذا قام على رأسه ، رفع قوسه فضربه بها ، فشجه شجة منكرة وصاح فيه : أتشتمه ؟ فأنا على دينه ، أقول ما يقول ، فرد ذلك على إن استطعت . فقام رجال من بني مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل ، إذ كان منهم ؛ ولكن أباجهل تملكه الخزي من فعلته التي دفعه إليها الحقد ، والتي لا تليق برجل ذي نسب شريف ، فأوقف قومه قائلاً : « دعوا أبا عثمان فإني والله قد سببت ابن أخيه سباً قبيحاً » .

أما حمزة فقد مسته نفحة من عناية الله ورحمته في حال غضبه ، فألبسته بالإسلام لباس التقوى ، وأصبح من دعاة الدين الجديد الأقوياء المخلصين .
وأسلم حذيفة ، وافترق عن أبيه عتبة بن ربيعة الذي كان سيداً في قومه . فتألم أبوه لذلك ، وراوده الأمل في أن يقضى على تلك الانقسامات الداخلية التي أحدثتها تعاليم محمد ، لا في قلب قريش فحسب ، بل في قلب كل أسرة .

واعترزم أن يقوم مقام المصلح بين الطرفين ، فقال لقومه ، وقد رأى رسول الله جالساً وحده بالقرب من الكعبة .

« يا معشر قريش ألا أقوم إلى محمد فأكلمه بالنبأ عنكم ، وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ويكف عنا؟ » . وكان قد أصابهم اليأس بسبب إسلام حمزة - تلك الشخصية المهيبة التي جرت إلى الإسلام شخصيات أخرى عديدة - ففهموا أن خير وسيلة هي الملاينة والسياسة ، فقالوا لعنته : « بلى أبا الوليد ، قم إليه فكلمه » .

عروض المشركين على الرسول :

فقام عتبة حتى جلس إلى الرسول ، وقال له ، في أسلوب عاطفي رقيق : « يا بن أخي إنك منا حيث قد علمت من الشرف في العشيرة والمكان في النسب ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جماعتهم ، وسفهت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ودينهم ، وكفرت به من مضي من آبائهم ، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنتظر فيها لعلك تقبل منا بعضها » .

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قل يا أبا الوليد أسمع » .

قال : « يا بن أخي :

إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا أموالاً .

وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا ، حتى لا نقطع أمراً دونك .

وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا .

وإن كان هذا الذي يأتيك رثياً^(١) تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه .

فاختر لنفسك » .

وكان رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يصغى ، في رزانة وهدهوء ،

فقال لعنته :

« أقدر فرغت يا أبا الوليد ؟ » .

(١) الرثى ما يترامى للإنسان من الجن .

قال : « نعم » .

قال : « فاسمع مني الآن » ثم قرأ سورة « فصلت » وفيها تهديد المشركين بعذاب الجحيم الخالد ، وتبشير المؤمنين بالسعادة في جنات الله الفسيحة ، وكان عتبة ينصت إليه ملقياً يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يسمع منه ، وقد ملكت عليه نفسه تلك الآيات البينات ، الآمرة تارة ، الرحيمة تارة أخرى ، التي تفرع أذنيه بتوقيع ومقاطع غريبة عليه كل الغرابة . وعقدت الدهشة من حركات عتبة فبقى على حالته ساكناً لا يريم^(١) . ثم انتهى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، إلى

(١) تعتبر سورة فصلت من السور التي تخاطب في قوة هؤلاء الذين يرون الحق ولا يتبعونه ، وإلها تهديد هذه الطائفة في قوة تناسب مع عنادهم . وتبشر الذين رأوا الحق فاتبعوه بمكانة عند الله رفيعة وسعادة لا يعكر صفاءها ظل من شقاء . قال الله تعالى :

بسم الله الرحمن الرحيم

« حَمْدٌ * تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيرًا وَنَذِيرًا ، فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ ، فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ وَقَالُوا : قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ ، وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ ، وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ، فَأَعْمَلْ إِنَّا عَامِلُونَ * »

(الآيات من ١ إلى ٥)

« فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ : أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ * إِذْ جَاءَهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ : أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ، قَالُوا : لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً ، فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ * فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، وَقَالُوا : مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ؟ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ؟ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ * فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى ، وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ * وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى ، فَأَخَذْتَهُمْ =

السجدة منها فسجد ثم قال لعتبة .

« قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت ، فأنت وذاك » .

فقام عتبة إلى قومه حائراً مشدوهاً ، وقد تغير وجهه .

فقالوا له : « ما ورايك يا أبا الوليد » ؟ .

فقال : « ورائي : أني سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر

ولا بالسحر ، ولا بالكهانة ، يا معشر قريش ، أطيعوني ، وخلوا بين هذا الرجل

وبين ما هو فيه ، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ ، فإن تصبه العرب فقد

كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فلكم ملككم ، وعزه عزكم ، وكنتم أسعد

الناس به » .

ولكن ماذا تفيد تلك النصائح الحكيمة ، وقد تملك القوم الحقد والغيرة ؟

فصاحوا في وجهه : « سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه » فهز كتفيه وتركهم قائلاً :

« صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * وَنَجِّنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا

يُتَّقُونَ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا

شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَقَالُوا

لِجُلُودِهِمْ : لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا ؟ قَالُوا : أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ ،

وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ، وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ

عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ ، وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا

مِمَّا تَعْمَلُونَ * وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ *

فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ، وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ *

« إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا : رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ

أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا ، وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ

أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ، وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ

وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ * نَزَلْنَا مِنْ غُفُورٍ رَحِيمٍ * » .

(الآيات من ١٣ إلى ٢٤)

« هذا رأي فيه فاصنعوا ما بدا لكم » .

بيد أن كلام عتبة كان قد أثر في نفوس المشركين ، فاجتمعوا في مساء الغد - كعادتهم - في الحرم ، وقرروا أن يكلموا محمداً مباشرة . وبعثوا في طلبه ؛ فجاءهم مسرعاً ، يحسب أن قد فتحت أبصارهم لنور الله . ولكن أمله ذهب أدراج الرياح ، إذ أنهم لم يدعوه إلا ليكرروا نفس عروض الأمس ، فأشاح عنهم باشمئزاز . عندئذ غير القوم سلوكهم وقالوا له :

« إن كنت تدعى أنك رسول فإنك قد علمت أنه ليس من الناس أحد أضيق بلدأ ، ولا أقل ماء ، ولا أشد عيشاً منا ؛ فسل ربك الذي بعثك بما بعثك به فليسير عنا هذه الجبال التي ضيقت علينا ، وليبسط لنا بلادنا ، وليفجر لنا فيها أنهاراً كأنهار الشام أو العراق ، وليبعث لنا من مضي من آبائنا ، وليكن فيمن يبعث لنا منهم « قصي بن كلاب » فإنه كان شيخ صدق ، فنسألهم عما تقول : أحق هو أم باطل ؛ فإن صدقوك وصنعت ما سألناك صدقناك ، وعرفنا به منزلتك من الله ، وأنه بعثك رسولا كما تقول » .

فاكتفى محمد بأن يجيبهم قائلاً :

« ما بهذا بعثت إليكم ، إنما جئت من الله بما بعثني ، وقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم . فإن قبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردوه على أصبر لأمر الله تعالى حتى يحكم الله بيني وبينكم » .

قالوا : « فإن لم تفعل هذا لنا فخذ لنفسك » ، سل ربك أن يبعث ملكاً يصدقك بما تقول ويراجعنا عنك ، وسله فليجعل لك جنات وقصوراً وكنوزاً من ذهب وفضة يغنيك به عما نراك تبتغي ، فإنك تقوم بالأسواق كما تقوم ، وتلتمس المعاش كما تلتمسه ، حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك إن كنت رسولا كما تزعم » (١) .

(١) يقص القرآن تحت المشركين مع الرسول فيقول :

« وَقَالُوا: مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ؟ ! لَوْلَا أَنْزَلِ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ! * أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ؟ ! »

(سورة الفرقان) =

قال : « ما أنا بفاعل وما أنا بالذى يسأل ربه هذا » . وكرر لهم دعوته ثانية .

قالوا : « فأسقط علينا من السماء ، كسفًا كما زعمت أن ربك إن شاء فعل ، فإننا لا نؤمن لك إلا أن تفعل ^(١) » .

قال : « ذلك إلى الله ، إن شاء أن يفعله بكم فعل . أتطلبون منه المعجزات ؟ ليست المعجزات فيما خلق ولكنكم لا تفقهون ؟ ألا ترون أنه يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ؟

» إنه يستطيع أن يأتى بمعجزات خارقة للنظام الطبيعى المعجز الذى أوجده ، ولكن كذب ^(٢) بها الأولون . تأملوا معجزاته التى تتجدد فى هذا العالم كل لحظة واقتنعوا بها » .

== « وَقَالُوا : لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زَهْرٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ ، وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنْزَلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُوهُ » .
وفى موضع آخر :

« لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ! » .

ويصور القرآن موقفهم الحقيقى فيقول :

« وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُوا : إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا ، بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ ! » .

(١) قال عبد الله بن أبى أمية لرسول الله ، وهو ابن عمته : يا محمد ، عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم ، ثم سألوك لأنفسهم أموراً ليعرفوا بها منزلتك من الله كما تقول ، ويصدقوك ويتبعوك ، فلم تفعل ، ثم سألوك أن تأخذ نفسك ما يعرفون به فضلك عليهم ، ومنزلتك من الله فلم تفعل ، ثم سألوك أن تمجّل لهم بعض ما تخوفهم به من العذاب ، فلم تفعل ، أو كما قال له - فوالله لا أؤمن بك أبداً حتى تتخذ إلى السماء سلماً ، ثم ترقى فيه وأنا أنظر إليك حتى تأتينا ثم تأتى معك أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول ، وإيم الله ، لو فعلت ذلك ما ظننت أنى أصدقك .

(٢) قال السهيلي : « وذكر ما سأله قومه من الآيات ، وإزالة الجبال عنهم ، وإزالة الملائكة عليه ، وغير ذلك جهلا منهم بحكمة الله تعالى فى امتحانه الخلق وتعبيدهم بتصدق الرسل ، وأن يكون إيمانهم =

ولما لم يستطع المشركون إفحام محمد بلحقوا إلى النضر بن الحارث وكان كثير الأسفار ، يحفظ القصص العديدة ، فلا يرى محمداً قام يدعو إلى دينه حتى يجلس بالقرب منه ويحاول اجتذاب الناس من حوله بقص أحاديث رُسُتُم أو اسفُسُنْدِ يارا ، وقد بلغ من جرأته أن قال : « سأُنزل مثل ما أنزلَ الله على نبيه » . وبعث القرشيون بوفد إلى أحبار اليهود بالمدينة ، وإلى الأمير حبيب بن مالك ، الذي اشتهر بين سائر الناس بحكمته ، وعلمه ، وسلطانه ؛ سائلين عن وسيلة تمكنهم من إلصاق تهمة الكذب والنفاق بمحمد . ولكن تلك الجهود ذهبت هباء ، وانهارت من نفسها دون ما حاجة إلى معجزة انشقاق القمر — التي يزعمونها — مستندين إلى الآية الكريمة : « اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ » (سورة القمر) فبعضهم يدعى أن حبيباً سأل الرسول أن يأتيه بمعجزة تؤيد كلامه : فانشق القمر بأمره شقين متساويين ، وذهب أحدهما غرباً والثاني شرقاً ، أما علماء الإسلام الموثوق بهم مثل البيضاوي والرخشري فيرون أن هذا أحد رأيين . قال البيضاوي : « وقيل معناه : سينشق يوم القيامة » .

عن نظر ونكر في الأدلة ، فيقع الثواب على حسب ذلك ، ولو كشف الغطاء ، وحصل لهم العلم الضروري : بطلت الحكمة التي من أجلها يكون الثواب والعقاب ، إذ لا يؤثر الإنسان على ما ليس من كسبه ، كما لا يؤثر على ما خلق فيه من لون وشعر ونحو ذلك ، وإنما أعطاهم من الدليل ما يقتضي النظر فيه العلم الكسبي ، وذلك لا يحصل إلا بفعل من أفعال القلب ، وهو النظر في الدليل ، وفي وجه دلالة المعجزة على صدق الرسول ، وإلا فقد كان قادراً سبحانه أن يأمرهم بكلام يسمعون ، ويغنيهم عن إرسال الرسل إليهم ، ولكنه سبحانه قسم الأمر بين الدارين ، فجعل الأمر بعلم في الدنيا بنظر واستدلال وتفكر واعتبار ، لأنها دار تعبد واختبار ، وجعل الأمر بعلم في الآخرة بمعاينة واضطرار لا يستحق به ثواب ولا جزاء ، وإنما يكون الجزاء فيها على ما سبق في الدار الأولى ، حكمة دبرها وقضية أحكمها ، وقد قال الله تعالى : « وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون » ، يريد فيها قال أهل التأويل : أن التكذيب بالآيات نحو ما سألوهم من إزالة الجبال عنهم ، وإنزال الملائكة يوجب في حكم الله ألا يلبث الكافرون بها ، وأن يمازجهم بالنقمة كما فعل يقوم صالح وبآل فرعون ، فلو أعطيت قريش ما سألوهم من الآيات ، وجاءهم بما اقترحوا ، ثم كذبوا لم يلبثوا ، ولكن الله أكرم محمداً في الأمة التي أرسله إليها ، إذ قد سبق في علمه أن يكذب به من يكذب ويصدق به من يصدق ، وابتعته رحمة للعالمين من بر وفاجر ، فأما البر فرحمته إليهم من الدنيا والآخرة ، وأما الفاجر فإنهم آمنوا من الخسف والغرق وإرسال حاصب عليهم من السماء ، كذلك قال بعض أهل التفسير في قوله : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » مع أنهم لم يسألوا ما سألوهم من الآيات إلا تعتاً واستهزاء لا على جهة الاسترشاد ودفع الشك ، فقد رأوا من دلائل النبوة ما فيه شفاء لمن أنصف ، قال الله سبحانه : « أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب » الآية . وفي هذا المعنى قيل :

لو لم تكن فيه آيات مبينة كانت بداهية تنبيك بالخبر

ويؤيد هذا الرأي الآيات التي تليها مباشرة وهي :

« فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نَكُرٍ * خَشَعُوا أَبْصَارَهُمْ
يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنتَشِرٌ * »

وفي الواقع أننا لا نستطيع تصديق تلك المعجزة المزعومة ، لأنها تتنافى ،
صراحة ووضوح ، مع الكثير من آيات القرآن ؛ يقول تعالى : « وما منعنا أن
نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون » .

ما أقل تأثير المعجزات فيما مضى من التاريخ : لقد عبد بنو إسرائيل العجل
بعد أن أنقذهم موسى بمعجزته من بلعة البحر ومن طغيان فرعون. وما كان أهل مكة
المشركون ليتأثروا بالمعجزة أكثر من غيرهم من بنى البشر، فإن الطبيعة الإنسانية
واحدة .

« وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ : لَإِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا ، قُلْ
— إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ * وَنُقَلِّبُ
أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ
يَعْمَهُونَ * وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَاهُ إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ
كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لَيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ * »

معجزة القرآن :

ومع ذلك فقد أتى محمد بمعجزة . إنها المعجزة الوحيدة التي مُنِحَتْ له ،
ولكنها معجزة أَقْصَتْ مضاجع المشركين . وأعنى بها « آيات القرآن » . ولعل
القارئ يلاحظ أن معنى « آيات » : « العلامات المعجزة » .

إن معجزات الأنبياء الذين سبقوا محمداً كانت في الواقع معجزات وقتية ،
وبالتالى معرضة للنسيان السريع . بينما نستطيع أن نسمى معجزة الآيات القرآنية :
« المعجزة الخالدة » ، ذلك أن تأثيرها دائم ومفعوطا مستمر ، ومن اليسير على المؤمن
في كل زمان وفي كل مكان أن يرى هذه المعجزة بمجرد تلاوة كتاب الله . وفي هذه
المعجزة نجد التعليل الشافي للانتشار الهائل الذي أحرزه الإسلام ؛ ذلك الانتشار

الذى لا يدرك سببه الأوروبيون ، لأنهم يجهلون القرآن ، أو لأنهم لا يعرفونه إلا من خلال ترجمات لا تنبض بالحياة فضلاً عن أنها غير دقيقة .

إن الجاذبية الساحرة التى يمتاز بها هذا الكتاب ، الفريد بين أمهات الكتب العالمية ، لا تحتاج منا - نحن المسلمين - إلى تعليل ؛ ذلك أننا نؤمن بأنه كلام الله أنزله على رسوله ، ولكننا نرى من الطريف أن نورد هنا رأيين لمستشرقين ذاعت شهرتهما عن جدارة . يقول « سفيرى » وهو أول من ترجم القرآن إلى الفرنسية :

« كان محمد عليماً بلغته ، وهى لغة لا نجد على ظهر البسيطة ما يضارعها غنى وانسجاماً . إنها ، بتركيب أفعالها ، يمكنها أن تتابع الفكر فى طيرانه البعيد ، وتصفه فى دقة دقيقة . وهى بما فيها من نغم موسيقى تحاكي أصوات الحيوانات المختلفة ، وخرير المياه المناسبة ، وهزيم الرعد ، وقصف الرياح .

« كان محمد عليماً - كما قلت - بتلك اللغة الأزلية التى تزينت بروائع كثير من الشعراء ، فاجتهد محمد فى أن يحلّى تعاليمه بكل ما فى البلاغة من جمال ومن سحر . . .

« ولقد كان الشعراء فى الجزيرة العربية يتمتعون من التقدير بأسمى مكانة . ولقد علق لبيد بن ربيعة ، الشاعر المشهور ، إحدى قصائده على باب الكعبة وحالت شهرته وقدرته الشعرية دون أن ينبى له المنافسون ولم يتقدم أحد لينازعه الجائزة . . . وذات يوم علق بجانب قصيدته السورة الثانية من القرآن (وقيل السورة الخامسة والخمسين) فأعجب بها لبيد أيما إعجاب رغم أنه مشرك ، واعترف بمجرد قراءة الآيات الأولى ، بأنه قد هزم . ولم يلبث أن أسلم .

« وفى ذات يوم سأله المعجبون به عن أشعاره يريدون جمعها فى ديوان فأجاب : لم أعد أتذكر شيئاً من شعرى ، إذ أن روعة الآيات المنزلة لم تترك لغيرها مكاناً فى ذاكرتى . »

ويقول « ستانلى لين بول » : « إن أسلوب القرآن فى كل سورة من سوره لأسلوب أبى يفيض عاطفة وحياة . إن الألفاظ ألفاظ رجل خلص للدعوة وإنها لا تزال حتى الآن تحمل طابع الحماس والقوة وفى ثناياها تلك الجذوة التى أقيمت بها . . .

إنها ألفاظ قدت من قلب إنسان يستحيل أن يكون منافقاً . وهذا القلب هو قلب رجل كان له أخطر الشأن في تاريخ الإنسانية .

إن كان سحر أسلوب القرآن وجمال معانيه ، يحدث مثل هذا التأثير في نفوس مثل هؤلاء العلماء الذين لا يمتنون إلى العرب ولا إلى المسلمين بصلة ، فإذا ترى أن يكون من قوة الحماس الذي يستهوى عرب الحجاز ، وهم الذين نزلت الآيات بلغتهم الشعرية الجميلة ؟ لا يستطيع أن يكون لنفسه عن ذلك فكرة مقارنة ، وإن كانت مصغرة ، إلا أنتم أيها المسافرون حينما تتاح لكم الفرصة لمشاهدة التأثير الذي يمتلك قلوب قوم ينصتون إلى الإمام ، وهو يرتل الآيات المقدسة . لقد شاهدتم أقل الأعراب شأناً — فور وصولهم من أسفارهم المجهدة وقد كستهم رمال الصحراء حيث ذاقوا من المتاعب أشقها — يتسابقون إلى المسجد يجذبهم إليه ، كالغناطيس ، صوت الإمام ، فيفضلون الاستماع إلى ترتيله ، على الاستسلام إلى نوم هادئ مريح . وفي شهر رمضان يقضون الليل في الإنصات — الإنصات المستغرق — لآيات الله بعد يوم شاق لم يذوقوا فيه طعاماً ولا شرباً .

حقاً إن أعراب عصرنا الذين لم ينالوا أدنى قسط من العلم ، لا يدركون دائماً المعنى الحرفي للألفاظ التي يقرؤها الإمام ، بيد أن الموسيقى العذبة والتوقيع اللطيف والجرس المنسجم ، كل هاتيك الأشياء التي تلزم الآيات العجيبة ، نجد صداها في دقات قلوبهم . فتحمل إليهم شرحاً قد يكون غير دقيق ولكنه على كل حال يثير الخيال في قوة خصبة ، وإليه تطمئن القلوب . بجوار هذه الآيات التي ترتل صادرة عن تأثر عاطفي يبدو شرح النحويين والمنطقيين جثة لا حياة فيها .

أما عرب الحجاز الذين يدركون أدق معاني اللغة القرآنية التي هي لغتهم الخاصة ، والذين أخذوا السور عن مواطنهم الرسول العبقري ، فكانوا لا يسمعون القرآن إلا وتملك نفوسهم انفعالات هائلة مبالغتها ، فيظنون في مكانهم ، وكأنهم قد سمروا فيه . أهذه الآيات الخارقة تأتي من محمد ، ذلك الأُمِّي الذي لم ينل حظاً من المعرفة ، اللهم إلا ما حبته به الطبيعة وما امتاز به من رقة في الشعور ؟

كلا . . . إن هذا القرآن لمستحيل أن يصدر عن محمد ، وإنه لا مناص

من الاعتراف بأن الله العلي القدير هو الذى أملى تلك الآيات البينات . إن الرسول لم يكن مخادعاً ، حين قال : « إن الله هو الذى أنزل القرآن » .
 لقد كان يؤمن كل الإيمان بمصدره الإلهي فالنوبات الهائلة التي كانت تنتابه عند مجيء الوحي حاملاً إليه ما لم يكن يعلمه ، في لغة جديدة كل الجدة بالنسبة له تختلف كثيراً عن لغته المألوفة . . . هذا الوحي الذى يعاتبه إن أخطأ ، ويلزمه بحفظ تلك الآيات دون أن يقدر على المقاومة . . . هذا الوحي ، خلال تلك النوبات ، لم يكن ليترك لديه أدنى شك في المصدر الإلهي في القرآن .
 لهذا كله كان إعجاب الرسول بالقرآن ، أى بكلام الله ، لا حده . وقد أوحى الله إليه :

قُلْ : فَاتَّبَعُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلَهُ مُفْتَرِيَاتٍ ، وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * «

ولا عجب في أن نرى النبي الأُمي يتخلى الشعراء ، ويعترف لهم بحق نعمتهم له بالكذب إن أتوا بعشر سور من مثله ، فقد آمن بمعجزهم عن ذلك . (١)
 لقد حاول بعض المؤرخين المعاصرين أن يدعوا إلى الشك في ذلك الإخلاص العظيم المؤثر الذى امتاز به محمد ، وحاولوا أن يصوره في صورة رجل لا مؤهلات لديه للعظمة ، إلا الطمع المؤسس على المهارة . ورأيهم هذا لا يصدر إلا عن شخص أعماه التعصب ، ولا يصدر إلا في زمن يشبه الزمن الذى كانت تقوم فيه محاكم التفتيش . ولقد قضى « كارلايل » في كتابه « الأبطال » على ذلك

(١) لغة القرآن :

لقد حقق القرآن معجزة لا تستطيع أعظم المجامع العلمية أن تقوم بها ، ذلك أنه مكن اللغة العربية في الأرض بحيث لو عاد أحد أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم إلينا اليوم لكان ميسوراً له أن يفهم تمام التفاهم مع المتعلمين من أهل اللغة العربية ، بل لما وجد صعوبة تذكر للتخاطب مع الشعوب الناطقة بالفصحى ، وهذا عكس ما يجده مثلاً أحد معاصري « رابليه » من أهل القرن الخامس عشر الذى هو أقرب إلينا من عصر القرآن من الصعوبة في مخاطبة العديد الأكبر من فرنسي اليوم .
 وإن لغة القرآن وإن كانت تمت - في أصولها - إلى عصور بعيدة قديمة ، فهي مرنة طيعة ، تسع التعبير عن كل ما يجد من المستكشفات والمخترعات الحديثة ، دون أن تفقد شيئاً من رونقها وصلاحها .
 وأما ما نراه من المولدات التي تستعملها الجرائد العربية بنفس أصولها الأجنبية ، فليس ذلك عن ضرورة وإنما هو نوع من التكاسل والتهاون والتساهل ، الذى نجد مثله عندنا نحن الفرنسيين في استعارتنا الاصطلاحات الخاصة بالألعاب الرياضية عن أصولها الأنجلوسكسونية .
 (المؤلف)

التعصب الذمى ، وتلك الحماسة العمياء ، إذ يقول متحدثاً عن محمد : « أيستطيع رجل مخادع أن يؤسس ديناً ؟ كلا وربى : إن رجلاً مخادعاً لا يستطيع أن يقيم بيتاً من آجر !! إنه لو لم يكن عليمًا بخواص الطوب والمونة وسائر المواد البنائية الأخرى ، لما استطاع أن يقيم بيتاً ، ولن يقيم — إذا أقام — إلا أكواماً منقضة لا يمكن أن تقوم اثني عشر قرناً تضم بين جدرانها ما يربو على مائة وثمانين مليوناً من الناس . إن بناء المخادع ينهار لا شك لساعته » .

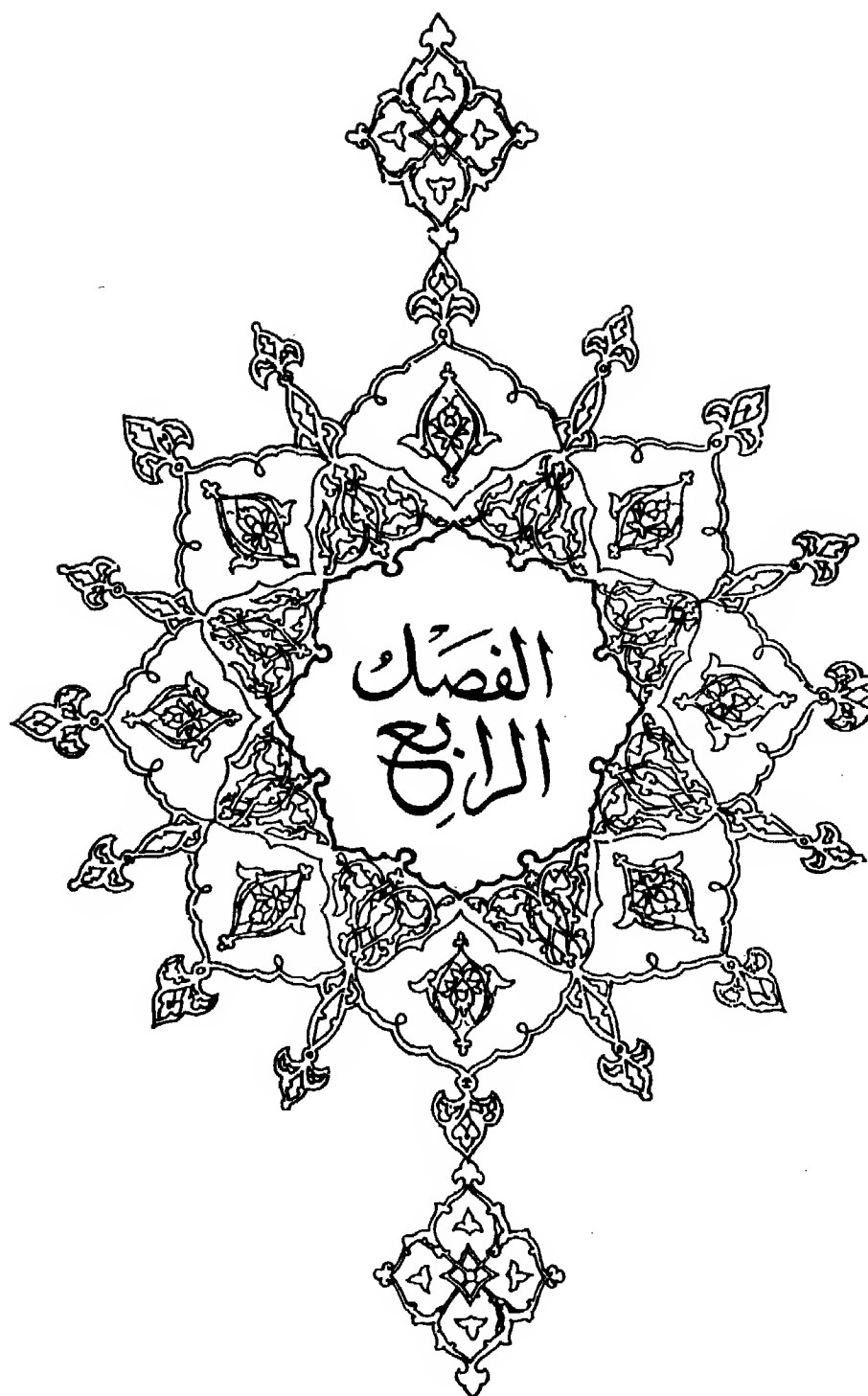
الصد عن سماع القرآن :

ورأى القرشيون المشركون أنهم عاجزون عن مقاومة الأثر القاهر الذى تحدثه تلاوة القرآن فى صفوفهم ، فقرروا أن يمنعوا الناس من الإنصات إليه . وخوفوا بتهديداتهم من حاولوا الإنصات إلى الرسول ، وهو يتلو الكتاب المنزل كعادته على باب الكعبة . . . وكانوا تارة يجعلون أصابعهم فى آذانهم لكيلا يسمعو ترتيله ، وتارة أخرى يصفرون ويصفقون ويصيحون بشعر الشعراء المشركين ليسكتوه . . . ولكن أتدرى ماذا كانت النتيجة الغربية ؟ لقد أحس هؤلاء الذين حرموا الإنصات إلى القرآن ، أحسوا بالرغبة الملحة تعمل فى نفوسهم ، تلك الرغبة التى تدفع الإنسان نحو كل ما هو محرم . وفى ذات ليلة خرج أبو سفيان وأبو جهل والأخنس من بيوتهم ليذهبوا خفية إلى بيت الرسول . وهناك ألصقوا آذانهم بالحائط وراحوا يحاولون الاستماع إلى تلاوة بعض الآيات الإلهية . وشملهم ظلام الليل ؛ فلم يلاحظ كل منهم الآخر . ولكن طريق الرجوع ، عندما أشرق الفجر ، جمعهم وجهاً فتلاوموا وقال كل منهم :

« لا تعودوا فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم فى نفسه شيئاً » .

فأخذوا على أنفسهم عهداً غليظاً ألا يقدموا مرة أخرى على مثل تلك الحماسة . ولكن ليلة الغد وليلة اليوم الذى تلاه شهدتا نفس الحادث ونفس التراجع والتلاوم .

يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَتَبْلُوَنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ

قال رسول الله : « خلق الله الجنة لمن أطاعه ، ولو كان عبداً حبشياً ، وخلق النار لمن عصاه ، ولو كان شريفاً قرشياً » .

بهذا المبدأ قرر الإسلام المساواة بين جميع الطبقات والأجناس ، وبهذا المبدأ اجتذب الإسلام إلى صدره كل متواضعى مكة ؛ أما السادة الوثنيون فإنهم كانوا يرون - فى غيظ يزداد بمر الزمن - عبيدهم يعتنقون الإسلام متحمسين طوائف وجماعات . وإذا كان هؤلاء السادة لم يمكنهم أن ينالوا ممن اعتنق الإسلام من غير الأرقاء فإنهم صبوا جام غيظهم على من دخل فى الإسلام ممن ملكت أيديهم .

هل أذاك حديث أمية بن خلف ، وقد علم بإسلام عبده بلال بن حمامة ، فلم يكن له من هم إلا التفنن الخجل فى إذاقته العذاب ألواناً ؟ لقد أحاط عنقه بحبل من ليف النخيل الخشن ، وأسلمه إلى أيدي الصبيان الذين لا سبيل للرحمة إلى قلوبهم ، فأخذوا يعبثون بحره كحيوان ، يجرونه إلى الأمام ويجرونه إلى الوراء ، يجرونه يميناً ، ويجرونه شمالاً ، والحبل يحز فى عنقه حتى حفر فيه مجرى دامياً . غير أن بلالاً ، رغم كل ذلك ، لم يبد عليه التأثير ؛ فما كان من أمية إلا أن منع عنه الطعام والشراب ، وكان يخرج به إذا حميت الظهيرة ، فيطرحه على ظهره فى بطحاء مكة ، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره . على هذا الرمل الذى يجعله حرارة الشمس كالبحر ، كان يلقي أمية بلالاً ، ويقول له :

« لا تزال هكذا ، حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى » . تجاه كل هذا كان بلال الصبور يكتفى برفع سبابته إلى السماء مكرراً : « أَعَدَّ أَحَدٌ ، يظهر بذلك احتقاره لسيده الذى بلغت به الجرأة أن جعل لله شركاء ، بزعمه ،

من خشب أو حجارة . وكان تأكيد الأحذية لله تعالى يثير في روعه أنه شهيد الإيمان ، ويبعث في نفسه بذلك عذوبة فائقة الوصف ، فلا يشعر معها باليم العذاب .

وشاءت الأقدار أن يمر أبو بكر بالرمضاء ، حيث كان يعذب بلال ، ويشهد هذا المنظر البشع ، فقال ، في اشمئزاز :

« ألا تخشى عقاب الله يا أمية حينما تذيق هذا المسكين العذاب ألواناً ؟ فأجاب ، في برود صارخ :

إنك أنت الذى أفسدته ، فأنفذه بما ترى .

قال أبو بكر : عندى غلام أسود أقوى منه وأجلد ، وهو على دينك ، أعطيكه به ؟

قال : قبلت ، هو لك .

فأعطاه أبو بكر غلامه ذلك ، وأخذ بلالا فأعتقه . ولم يقتصر كرم أبي بكر رضى الله عنه على ذلك ، بل اشترى أيضاً ستة من العبيد الذين أسلموا — ما بين رجل وامرأة — ليخلصهم من ساداتهم الوثنيين ويعتقهم . ومع ذلك ، فقد استمر التعذيب ، بل ازداد وحشية . فبنو مخزوم أخذوا عمار بن ياسر وأباه وأمه سمية إلى الرمضاء ليتفتنوا في تعذيبهم ، ويعرضوهم لكل ما توحى به غلظتهم الجاحمة .

كانوا يلبسون عماراً درعاً من الحديد في اليوم الصائف ، ويطرحونه أرضاً ، ويستبقونه كذلك معرضاً لأشعة الشمس الملهبة ، وكان جسم عمار يحترق كما لو كان معرضاً لقطعة من معدن في حالة الانصهار . بيد أن الوثنيين لم يمكنهم بالتعذيب أن يردوه ، أو يردوا أبويه عن الإسلام ، كما لم يمكنهم أن يردوا بلالا . فأعمى الغيظ أبا جهل وطعن بحربة قلب سمية وقال لها متحكماً : « إذا كنت قد آمنت بمحمد ، فما ذلك إلا لأنك عشقته لجماله » .

كانت سمية الشهيدة الأولى في الإسلام . وبلغت من الثبات والصبر مبلغاً لم يصل إلى مثله بعض المسلمين الآخرين الذين أضعفهم الحرمان والعذاب ، واشتد بهم الضعف حتى وصل بهم إلى العجز عن القيام ؛ فندت عن شفاهم — لا عن قلوبهم — ألفاظ الردة التي أنقذتهم مما هم فيه . وما إن أنقذوا حتى ناءوا تحت

عبء الحجل والحزى ، وسالت دموعهم ندمًا على ما فعلوا ، فنزلت فيهم الآية الكريمة :

«إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ، وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * (١)»

امتألت نفس الرسول حزنًا ، أمام هذه المأساة التي كان يتحملها ضعاف المسلمين الذين لا يجدون من يحميهم . حقًا إن شجاعة المعذنين والشهداء في سبيل الله برهنت على إسلامهم العميق ، بيد أنه رأى أن من الخير ألا يستمر هذا البلاء ، فنصح الضعفاء ومن لم تدعهم الضرورة إلى البقاء في مكة بالهجرة إلى الحبشة حيث المسيحيون ، وحيث التسامح والعدل اللذين اشتهر بهما ملكها النجاشي .

هجرة المسلمين إلى الحبشة (سنة ٦١٥ م) :

سافر أول من سافر من المسلمين ستة عشر ، من بينهم عثمان بن عفان وزوجته رقية - إحدى بنات رسول الله - وفي جنح من الليل ، خرج المهاجرون من مكة سيرًا على أقدامهم ، وحينما وصلوا إلى شاطئ البحر الأحمر ، استأجروا فلكا حملهم إلى الشاطئ الآخر . ومن هناك ذهبوا إلى بلاط النجاشي فرحب بهم ، وما لبثوا إن لحق بهم غيرهم ، فأصبحت الجالية الإسلامية في الحبشة مؤلفة من ثلاثة وثمانين رجلاً وثمان عشرة امرأة .

ثارت ثورة الوثنيين حينما رأوا أن ضحاياهم تفر من بين أيديهم ، واشتعل غيظهم حينما علموا أن من المهاجرين أفراداً من أسرهم ، مثل أم حبيبة بنت أبي سفيان ، فأرسلوا إلى النجاشي سفيرين هما عمرو بن العاص ، وعبد الله بن أبي ربيعة ، ومعهما هدايا نفيسة . وكانت غاية السفيرين رد اللاجئين ، فصوراهم للنجاشي في صورة ثائرين خطرين ، في مقدورهم أن يثيروا فتناً ضده .

كان النجاشي قد شاهد عكس ما قالاه ، وكانت فضائل المهاجرين قد بعثت في الناس تقديرهم وعطفهم ، فلم يكن عنده استعداد لقبول دعوى السفيرين رغم

نقاسة الهدايا . . . فرأى السفيران عند ذلك أن يثيرا النزعة الدينية عند الملك المسيحي ، وأن يحذراه من الخطر الإسلامي ، فقالا له :

« إذا أردت أن تعلم خبر هؤلاء المغررين ، فلاننا على علم بهم ، إنهم جاءوا ليردوا رعيته عن دين عيسى ، كما حاولوا أن يردوا قريشاً عن دين أجدادها ، وإذا أردت دليلاً على صدقنا فما عليك إلا أن تسألهم عن عقيدتهم في عيسى سيدكم » .

أقر النجاشي رأيهم ، وسأل أعلم المهاجرين عن عيسى ، فأجابه جعفر ابن عم النبي بالآية القرآنية :

« إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ ، أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ » ^(١) .

هذه الإجابة طمأنت النجاشي . نعم إنها لم تتضمن الاعتراف بالوهمية عيسى ، بيد أنها على الأقل برهنت على الاحترام العميق الذي تكنه صدور المسلمين نحو عيسى ، وأزالت شكوكه من ناحية غايتهم ، فصرف السفيرين ورد إليهما هديتهما ، ولم يجب لهما رجاء .

إسلام عمر بن الخطاب ^(٢) :

أقنع الكفار عمر — وكان جافاً غليظاً إذ ذاك — بأن في القضاء على محمد إنقاذاً لوطنه ، فتقلد عمر سيفه واتجه ، يتطير الشرر من عينيه ، نحو « الصفا » حيث يعتقد وجود الرسول ، وبينما هو سائر في طريقه ، إذ لقيه نعيم الذي كان يُسرُّ إسلامه فبرقاً ^(٣) من قومه ، فقال له :

— أين تريد يا عمر ؟

— أريد محمداً ، هذا الذي فترَّق أمر قريش . وحق آلهتنا سوف لا أهدأ حتى أقتله .

فقال له نعيم :

— لقد غرتك نفسك يا عمر . أتري بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض

(١) سورة النساء .

(٢) إن إسلام عمر كان فتحاً ، وإن هجرته كانت نصراً ، وإن إمارته كانت رحمة .

(٣) خوقاً .

وقد قتلت محمداً ؟ ... ثم أضاف ليحوله عن مشروعه البشع : أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم ؟

قال : وأى أهل بيتي ؟

— أختك فاطمة ، وزوجها سعيد بن زيد ، فقد أسلما .

عند هذا اتجه غضب عمر وجهة أخرى ، وعدا مسرعاً نحو مسكن أخته فاطمة . وكان فيه ، حينما وصل عمر ، المسلم المتحمس خباب ومعه صحيفة فيها سورة طه يقرئها إياها ، فلما سمع دق عمر القوى على الباب ، بلأ خباب إلى حجرة مجاورة ، وأخفت فاطمة الصحيفة تحت رداءها .

سمع عمر ، حينما دنا إلى البيت ، قراءة خباب عليهما ، فلما دخل قال في صوت خشن :

— ما هذه الهَيْئَةُ^(١) التي سمعت ؟ قال له :

— ما سمعت شيئاً . قال :

— بلى . لقد أخبرت أنكما تابعتما محمداً على دينه . ثم لم ينتظر لإجابة أو شرحاً ، بل هجم على ختته ، وطرحه أرضاً ، وجلس على صدره آخذاً بلحيته . فألقت فاطمة بنفسها على أخيها ، وقامت بمجهود يائس لتكفه عن زوجها وصاحت :

« نعم أسلمنا ، وما علمته حق » . عند ذلك طار صواب عمر ، ولم يبالك أن لطمها في غلظة على وجهها فشججه ، فانقلبت فاطمة للشجاعة غرق في دمها بيد أنها لم تهن ولم تضعف ، بل استمرت تمد إليه يديها وتكرر :

« نعم ، لقد أسلمنا يا عدو الله ، نعم آمنا بالله ورسوله ، فاصنع بنا ما تريد » .

فلما رأى عمر ما بأخته من الدم وأثرت في نفسه رجاعتها التي لا تقهر ، مع أنها ضعيفة ، خجل مما صنع ، وطلب في صوت أشرب بالوداعة :

« أعطيني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرأون آنفاً ، أنظر ما هذا الذي جاء به محمد ؟ » فقالت له أخته :

« إنا نخشاك عليها » . فقال :

(١) صوت كلام لا يفهم .

« لا تخافى » ، وحلف لها بألته ليردنها ، إذا قرأها ، إليها .
ورغم أن فاطمة طمعت فى إسلامه ، فإنها اعترضت قائلة : يا أخى إنك نجس ، على شركك ، وإنه لا يمسه إلا الطاهر .
قام عمر فى وداعة واغتسل ؛ فأعطته الصحيفة^(١) التى بها سورة طه التى تبدأ :

« بسم الله الرحمن الرحيم : طه * مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى * إِلَّا تَذَكُّرَةً لِّمَن يَخْشَى » .

وما إن قرأ عمر — الذى كان كاتباً بليغاً — الآيات الأولى حتى قال :
« ما أحسن هذا الكلام وأكرمه » . فلما سمع ذلك خباب خرج إليه فقال له :
« يا عمر والله إنى لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه ، فإنى سمعته أمس وهو يقول : اللهم أيد الإسلام بأبى الحكم بن هشام ، أو بعمر بن الخطاب ، فقال له عند ذلك عمر :
« سر بى الآن إلى محمد ، فإنى أريد أن أعتنق الإسلام ، أين هو ؟ » .
فهداه خباب مستبشراً متهللاً إلى بيت الأرقم عند الصفا .

(١) قال السهيلي عند الكلام على تطهير عمر ليمس القرآن ، وقول أخته له « لا يمسه إلا المطهرون » : والمطهرون فى هذه الآية هم الملائكة ، وهو قول مالك فى الموطأ ، واحتج بالآية الأخرى التى فى سورة عيس ، ولكنهم ، وإن كانوا الملائكة فى وصفهم بالطهارة مقروناً بذكر المس ما يقتضى ألا يمسه إلا طاهر اقتداء بالملائكة المطهرين ، فقد تعلق الحكم بصفة التطهير ، ولكنه حكم مندوب إليه ، وليس محمولا على الفرض ، وإن كان الفرض فيه أبين منه فى الآية ، لأنه جاء بلفظ النهى عن مسه على غير طهارة ، ولكن فى كتابه إلى هرقل بهذه الآية : « يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة » دليل على ما قلناه وقد ذهب داود ، وأبو ثور ، وطائفة من سلف ، منهم : الحكم بن عتيبة ، وحجاج بن أبى سليمان ، إلى إباحة مس المصحف على غير طهارة ، واحتجوا بما ذكرنا من كتابه إلى هرقل ، وقالوا : حديث عمرو بن حزم مرسل ، فلم يروه حجة ، والدارقطنى قد أسنده من طرق حسان ، أقواها رواية أبى داود الطيالسى عن الزهرى عن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن أبيه عن جده . وما يقوى أن المطهرين فى الآية هم الملائكة ، أنه لم يقل : « المتطهرون » وإنما قال : « المطهرون » . وفرق ما بين المتطهر والمطهر : أن المتطهر من فعل الطهور ، وأدخل نفسه فيه ، كالمثقف من يدخل نفسه فى الفقه ، وكذلك « المتفعل » فى أكثر الكلام ، وأنشد سيبويه :

* وقيس عيلان ومن تقيسها فالأدميون متطهرون إذا تطهروا ، والملائكة مطهرون خلقة ، والأدميون إذا تطهروا متطهرون ، وفى التنزيل : « فإذا تطهروا فأتوهن من حيث أمركم الله » والخور العين ، مطهرات . وفى التنزيل : « لهم فيها أزواج مطهرة » وهذا فرق بين ، وقوة لتأويل مالك رحمه الله ؛ والقول عندى فى الرسول عليه السلام : أنه متطهر ومطهر ؛ أما متطهر ، فلاذنه بشر آدمى ينتسل من الجناية ويتوضأ من الحدث ؛ وأما مطهر ، فلاذنه قد غسل باطنه وشق عن قلبه وملى حكمة وإيماناً ، فهو مطهر ومتطهر .

بينما أصحاب رسول الله يصغون إلى كلامه فتتشربه أرواحهم ، إذا بالباب يندق دقاً عنيقاً ، فقام رجل من أصحاب رسول الله فنظر من خلل الباب فرأى الفارس الرهيب متوشحاً سيفه ، فرجع إلى رسول الله وهو فزع يخبره الخبر ، فقال الرسول وهو هادئ مطمئن :

« إينذنه ؛ فإن كان يريد خيراً بذلنا له ، وإن كان يريد شراً قتلناه بسيفه » .
امتثل الصحابي أمره ، ودخل عمر ، فنهض إليه رسول الله حتى لقيه في الحجرة فأخذ بحجزته ، ثم جببته جببته (١) شديدة وقال :
« ما جاء بك يا ابن الخطاب ؟ فوالله ما أرى أن تنتهي حتى ينزل الله بك قارعة »
فقال عمر في تواضع ليس من عادته :

« يا رسول الله جئت لك لأؤمن بالله وبرسوله ، وبما جاء من عند الله » . فكبر رسول الله تكبيرة عرف بها أهل البيت من أصحاب الرسول أن عمر قد أسلم ، وتفرق الأصحاب شاكرين لله توفيق عمر للإسلام .

لم يكن عمر بالرجل الذي يصبر ويُسِرُّ إسلامه ، فما إن وصل إلى الطريق حتى أوقف أول مار به - وكان جميل بن مَعْمَر الجمحي - وقال له :
« أعلمت يا جميل أني أسلمت ودخلت في دين محمد ؟ » . وكان جميل ثثاراً بالطبيعة ، فما إن سمع كلام عمر حتى جر رداءه وعدا ، حتى إذا كان بباب الكعبة صرخ بأعلى صوته :
« يا معشر قريش ؛ أتيتكم نبأ مريع : إن ابن الخطاب قد صبا » . فقال عمر وكان يتبعه :

« كذبت ، ولكني قد أسلمت ، وشهدت أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله » .

عند ذلك ثار القرشيون ثورة عنيقة ، وهجموا على عمر ، فاستقبلهم ثابت الجنان ، وما برح يقاتلهم ويقاتلونه حتى قامت الشمس على رؤوسهم ، فاضطر المحاربون إلى هدنة قصيرة المدى . فقعده عمر وقام أعداؤه على رأسه ، فقال لهم في احتقار وشمم :

(١) بحجزته أي بجمع رداءه . وجلبه وجلبد بمعنى واحد .

« افعلوا ما بدا لكم ! فأحلف بالله أن لو قد كنا ثلثائة رجل فقط
لأنزلناكم عن الكعبة ؛ ولما وجدتم فيما بعد إلى استردادها من سبيل » .
فبينما هم على ذلك إذ أقبل شيخ من قريش عليه حلّة حَبْرَة^(١) ، وقميص
موشى ، حتى وقف عليهم فقال :
« ما شأنكم ؟ » قالوا :
« صباً عمر » . فقال :

« فله ؟ رجل اختار لنفسه أمراً ، فإذا تريدون ؟ أترون بنى عدى بن كعب
يسلمون لكم صاحبهم هكذا ؟ » . فتخلوا عنه خوفاً من الثأر ، لا اتباعاً لمنطق
العقل ، ولكأنهم كانوا ثوباً كشط عنه .

كان رسول الله وحده هو الذى يجرؤ على الصلاة فى الكعبة علناً . فلما أسلم
عمر ، عزم على محاكاته فى ذلك ، فكان يذهب كل يوم إلى الكعبة ويقف
كما كان يقف رسول الله ، بين الركن الذى به الحجر الأسود ، والركن الذى يتجه
نحو اليمين ، وكان يصلى متجهماً نحو بيت المقدس ، مثل الرسول . شجع ذلك
كثيراً من المسلمين فجاءوا يصلون بجواره تحت سمع المشركين وبصرهم . وحالت
هيبة عمر ، الذى استحق بجداره لقب الفاروق ، دون البطش بهم .

نفى بنى هاشم إلى الشعب (سنة ٦١٦ ميلادية) :

رغم كثرة الوثنيين من قريش ، فإنهم اضطروا إلى الاعتراف بأن حالة حزبهم
حرجية ، وأنهم ، إن لم يقوموا بعمل حاسم تجاه تلك الحركة المستمرة الجارفة التى
يتبعها كل يوم أنصار جدد ، فقد قضى على سيادتهم بين العرب .

فاجتمعوا وتناقشوا ، ثم تعاهدوا على قطع كل علاقة تربطهم ببنى هاشم وبنى
المطلب ، وإخراجهم من مكة إلى شعب أبى طالب ، حتى يسلموا إليهم محمداً .
ولأجل قطع الطريق أمام كل من تسول له نفسه الإخلال بهذا العهد ، كتبوا بذلك
صحيفة علقوها فى جوف الكعبة .

كانت خطتهم ماهرة : فقد قدروا أن من غير المعقول أن يتضامن من لم يؤمن
بمحمد من عشيرته مع من آمن ، وأن يتحمل الألم من أجل دعوة لم تصل بعد إلى

(١) ضرب من ثياب اليمن .

شغاف قلبه ؛ فإذا حدث هذا — وهو حادث لا محالة — فقد وجدت التفرقة والخلاف بين عشيرة محمد ، وهان لذلك أمرهم . أجل ! غير أن المقادير قدرت خلاف ما قدروا واقتدت أسرة محمد بأبي طالب فتضامنت . ولم يشذ منها إلا أبو لهب الذى عميت بصيرته .

ولعلنا نلاحظ من هذا الحادث سبباً من الأسباب التى حالت دون اعتناق أبى طالب للإسلام ، مع أنه ساعد — فى جهد ونشاط — على انتصاره . نعم ! إنه لم ينس تهكم أبى لهب به وقوله :

— لم يبق لك إلا الخضوع لابنك على فقد اختاره محمد وزيره .

وكانت أنفة أبى طالب تجعله يخشى تنذر قريش به .

ولقد قال يوماً :

« لو لم أصر أضحوكة فى أفواه القرشيين حينما يروني أصلى لاعتنقت الإسلام » .
غير أنه ما كان ليقم لهذه الاعتبارات وزناً ، لو لم يؤمن بأن حمايته لابن أخيه تفقد أثرها الفعال منذ الساعة التى ينكر فيها دين آبائه .

وما إن أعلن التحالف ، حتى خرجت عشيرة الرسول من مكة — المسلمون منهم والوثنيون — وتركوا منازلهم المفرقة فى مختلف أحيائها وأقاموا فى شعب أبى طالب .

ذاق الذين أخرجوا من ديارهم أشد أنواع الحرمان طيلة عامين ، إذ ما لبث زادهم أن نضب ، ولم يجدوا سبيلاً إلى تجديده .

كانت الأسواق مغلقة فى وجوههم ، فإذا ما تمكن أحدهم — خلف قافلة — من دخولها ليشتري شيئاً من الطعام ليقنات به ، فإن التجار ، خشية مراقبة أبى جهل أو خشية التبليغ عنهم ، يزدون فى السلعة أضعافاً ، حتى يرجع إلى أطفاله — وهم يتضاغون من الجوع — وليس فى يده شئ يغللهم به .

وحملت المروءة بعض الناس على تغذية المنفيين سرا ، وكان أحسنهم بلاء فى ذلك هشام بن عمرو ، فكان يأتى بالبعير ، وبنو هاشم وبنو المطلب فى الشعب ليلاً ، قد أوقره طعاماً ، حتى إذا أقبل به فم الشعب خلع خطامه من رأسه ،

ثم ضرب على جنبه فيدخل الشعب عليهم . على إن ذلك كان نادراً . وقد وصلت
الجمالة بمحمد وآله أن كانوا يتغذون من ورق الشجر .

أكل الأرضة الصحيفة :

وبينا الكفار في عنادهم رأى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، أن الله
قد ساط الأرضة على صحيفة قريش ، ومحت منها الظلم والقطيعة والبهتان ،
وتركت كل اسم هو لله . وقص الرسول رؤياه على عمه ، فصدق عمه رؤياه ،
وأخذ إخوته وذهب إلى حيث يجتمع الكفار ؛ فما إن رآه هؤلاء حتى تساءلوا
— لما رأوه على وجهه من أثر الجوع — هل سيسلم إليهم أخيراً ابن أخيه
وقد هزمه الحرمان ؟ لقد كانوا مقتنعين بذلك كل الاقتناع . فلما حدثهم
برؤية ابن أخيه وقال لهم : « هلموا إلى صحيفتكم ! فإن كانت كما قال ابن أخي
فانتهاوا عن قطيعتنا ، وانزلوا عما فيها . وإن كانت كذباً دفعت إليكم ابن أخي »
قبلوا هذا العرض وهم على يقين من أن ذلك إنما كان تخلصاً ماهراً من حمايته
لابن أخيه .

كانت الصحيفة مختومة بثلاثة أختام ، وهند أودعت بالكعبة لم يرها إنسان ،
ولم تمسها يد بشر ، فبدأ لأعداء الله أنه من المستحيل أن يكون ما قاله الرسول
صواباً ، ولاحت عليهم علامات الانتصار وهم ذاهبون مع أبي طالب إلى
الكعبة لرؤية ما وصلت إليه الصحيفة ، ثم نظروا ، فإذا هي كما قال الرسول ! كل
ما هو ظالم وشر أكلته الأرضة ولم يبق إلا « باسمك اللهم » .

سقط في أيدي الوثنيين وتولاهم الدهول ، وكان أول من خرج منهم أبو جهل
محاولاً للتخلص من قبول قريش لعرض أبي طالب ، فقام في وجهه هشام بن عمرو ،
وزهير بن أبي أمية ، وهطعم بن عدى وغيرهم ممن أضرت بهم في مصالحهم
وعلاقاتهم تلك الصحيفة المشهورة ، التي لم يعضوها إلا مرغمين ، وقالوا محتجين
الواحد تلو الآخر :

« إن هذا العمل الشاذ الذي لم نوافق عليه إلا عن غير رغبة منا ، لم يعد له
وجود ، وما تضمنه إذن من عهد فهو مردول يجب أن يلغى » .

أمام هذه الاحتجاجات الصارخة اضطر أبو جهل للخضوع .
ألغى العهد إذن ، ورجع بنو هاشم وبنو عبد المطلب إلى مساكنهم .

وفاة أبي طالب وخديجة :

يبدو أن نمو الإسلام أصبح بعد ذلك مأموناً . غير أن حادثتين جاءتا فجأة فعرقلتا ما كان في الحسبان ، أما أولاهما فهي : موت أبي طالب حامى الرسول ، الذى كان لا يعمل ولا يسأم . وكان قد تجاوز الثمانين .

لقد رأينا أنه ، رغم ما كانت تشتمل عليه جوانح أبي طالب نحو الإسلام من ودٍّ ، فإنه لم يعتنقه ، وعند موته قال : « يا معشر بنى هاشم ! أطيعوا محمداً وصدقوه ، تفلحوا وترشدوا » . فانتهاز الرسول الفرصة وقال : « يا عم تأمرهم بالنصيحة لأنفسهم وتدعها لنفسك ؟ » . قال : « فإريد يا بنى أخى ؟ » قال : « أريد أن تقول فقط : لا إله إلا الله » . فقال : « يا بنى أخى ، قد علمت أنك صادق ، غير أنني أخشى أن أتهم بالخوف عند ما حان حيتى ! ولولا ذلك لاتبعت نصيحتك لأقر عينيك اللتين أرى فيهما مبلغ حزنك » .

وذكر أنه لما تقارب من أبي طالب الموت ، نظر العباس إليه ، يحرك شفقيه ، فأصغى إليه بأذنه ثم قال : « يا بنى أخى ! لقد قال عمك الكلمة التى نصحت به » . غير أن مؤرخى السيرة المعتمدين يرفضون هذا النص . ولا يعلم الحقيقة إلا الله .
بعد هذه الكارثة الفادحة بأيام ثلاثة ، أصيب الرسول بكارثة أخرى أدهى وأمر : ماتت خديجة وفقد الرسول رفيقته المثالية ، التى وهبت نفسها له وهو فقير ، وآمنت به فى حين أعلن الآخرون أنه ساحر ، والتى كان يسر إليها بأماله وأمانيه فتشجعه ، والتى واسته فى رفق ومودة فى ساعات الشدة .

ماتت خديجة أم المؤمنين ، أولى النساء إسلاماً ، فى سن الخامسة والستين رضى الله عنها .

كان لخديجة فى نفس الرسول جاذبية قوية لطيفة ، فلم يشرك معها غيرها طيلة حياتها ، ورغم أنه كان فى ريعان شبابه فإنه لم يقبل الزواج بأخرى ، أو اتخاذ صديقة ، مع أن التقاليد كانت تسمح بذلك ، ومع أن الأسباب من كل جانب كانت تمهد له وتغرى به . وإذا كانت قد فارقتة فإن ذكرها دائماً كانت على لسانه ،

وكانت عائشة ، التي صارت زوج الرسول المفضلة ، تعجد لذع الغيرة وتحس به في قسوة ، وتقول :

« لم تستول على قلبي الغيرة من أية واحدة من زوجات الرسول سوى خديجة ، رغم أني لم أعرفها ، ورغم أنها ماتت قبل زواجي بزمان طويل ، إلا أن الرسول يردد دائماً ذكراها ، ويحتفظ ، حيناً ينسحر خروفاً ، بجزء كبير لصديقات خديجة .

وقلت له مرة : يظهر أنه لم يوجد في العالم من النساء غير خديجة . فأخذ مباشرة في تعداد فضائلها ، وأعلن أن لها في الجنة بيتاً من اللؤلؤ تنعم فيه بما تريد .

« ودخلت عليه هالة بنت خويلد ، ذات يوم ، فعرف في لهجتها وحديثها لهجة خديجة وحديثها ، فأثار ذلك في نفسه الشجن ، فلم أتمالك نفسي من الغيرة وقلت حانقة : مالك تثير دائماً ذكريات عجائز قريش ذوات الأنياب الحمراء ، والأسنان الساقطة ، والوجه الذي ذهبت بنصارتة السنون ؟ ألم يعوضك الله خيراً منهن ؟ ! » .

رغم كل هذا ، ورغم جمال عائشة وذكائها ، وما تحلت به زوجاته الأخريات من جمال وفطنة ، فإنه كان دائماً يفضل عليهن خديجة ، ويعدها واحدة من أربع نساء ، هن أكمل من وجد على ظهر البسيطة ، أما الثلاثة الأخريات فهن : آسيا امرأة فرعون التي أنقذت موسى ، ووريم أم عيسى ، وفاطمة الزهراء بنت محمد من خديجة .

خروج الرسول إلى الطائف :

ناء كاهل الرسول بالكارتين المتتابعتين ، وأضحت قريش بعد موت حاميه النبيل تعلن ما كانت تسرُّ من أغراض وأحداث ، فعزم الرسول على نشر الدعوة خارج مكة ، ورأى أنه لو وفق في حمل بعض العرب من خارج مكة على اعتناق دعوته ، فإن تعصيدهم لأنصاره المكين الذين بلغوا عدداً لا بأس به يجعل للإسلام حزباً يفرض نفسه على المناوئين .

توجهت أولى محاولات للرسول من هذا النوع إلى الطائف - وهي بلدة صغيرة شرقي مكة ، وعلى بعد اثنين وسبعين ميلاً منها تقريباً ، وهي مشهورة بعنيتها ،

وتينها ، ورماتها ، وتمرها ، وأزهارها وحدائقها الفيحاء . ولما وصل الرسول إليها ، ومعه زيد بن حارثة ، عمداً إلى حيث يجتمع سادة ثقيف ، فجلس إليهم ، وكلمهم فيما جاء له من نصرته الإسلام ، والقيام معه على ما خالفه .

بدأ حديثه يأخذ بأفتدة أغلب الحاضرين ، ويؤثر - كعادته - في من يصغون إليه ، وإذا بثلاثة إخوة من أشرف ثقيف ، ممن لهم الرأي المسموع فيها ، يقطعون عليه فجأة حديثه ، فقال أحدهم مكذباً :

« إني أقطع ثياب الكعبة إن كان الله قد أرسلك ! » . وقال الثاني : « أما وجد الله أحداً يرسله غيرك ؟ » . وقال الثالث : « والله لا أكلمك أبداً ، لأن كنت رسول الله كما تقول ، لأنك أعظم قدراً من أن أرد عليك ، ولأن كنت تكذب على الله ما ينبغي لي أن أكلمك » .

هدمت هذه المعارضة جاذبية حديث رسول الله وسحره ، فأخذت الدهماء تصيح به وتسبه ، فرأى الرسول ألا رجاء في هذه البلدة الآن ، وقام ليعود من حيث أتى .

ولم تتركه ثقيف وشأنه ، بل أرادت أن تؤثمه منها ، فلا يكرر محاولته مرة أخرى ؛ لذلك أثارت عليه سفهاءا وعبيدها ، واجتمع عليه الناس وقعدوا له صفيين في طريقه ، فلما مر بين الصفيين جعل لا يرفع رجله ولا يضعهما إلا أرضخوها بالحجارة ، وكان إذا وجد ألم الحجارة قعد على الأرض ليحتمى رجله الداميتين فيأخذون بعضديه وقيمونه ، فإذا مشى عادوا إلى عبثهم الممقوت . كل ذلك وزيد بن حارثة يقيه بنفسه حتى لقد شج وجهه بحجر كانت قوة صدمته بحيث طرحته أرضاً . هكذا سار الرسول في طريقه : يسقط مرة ويقوم أخرى ، ويجر نفسه جراً ثقيلاً أليماً بين سخرية الدهماء وعبثهم . وكذلك كان زيد ، حتى وصلا في النهاية إلى حائط بستان ، وجدا وراءه مأماً ، وهناك سقطا من الإعياء مستظلين بشجرة كرم ، ثم دعا الرسول فقال :

« اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ؛ وأنت ربي ؛ إلى من تكلني ؟ إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي » .

لم يجزؤ سفهاء ثقيف على دخول البستان خلف ضحيتيهم ؛ فقد كان يملكه قوم كرماء ، ساءهم المنظر الذي شهدهوه ؛ فأمرؤا عبدهم عداساً أن يقتطف من العنب ويحمله في سلة إلى ضيفيهم العابرين .

فلما هدأت حدة آلامهما بسبب الراحة في الظل الوارف ، وهذا الظماً بالارتشاف من عصارة عنب الطائف السكرية ، قاما وأخذوا الطريق إلى مكة .
فكّر الرسول في موقف أهل مكة منه عند وصوله ، ورأى أن لا مناص من أن يستجير بأحد أصحاب النفوذ ؛ فصار إلى حراء ، ثم بعث زيدا إلى الأخنس فلم يجره ، وبعثه إلى سهيل فأبى ، فبعثه إلى المطعم بن عدى فأجابه إلى ما أراد ، ثم تسلم المطعم وأهل بيته ، وخرجوا حتى أتوا المسجد ، وأتى زيد برسول الله فدخل المسجد وطاف بالبيت سبعة قبل أن يذهب إلى مثواه .

الإسراء والمعراج :

أثار الإسراء والمعراج كثيراً من المناقشات بين علماء الإسلام ؛ فبعضهم يرى أن ذلك معجزة حصلت فعلاً بالروح والجسد في اللحظة ، بينما الآخرون يعمدون على أصح الآثار ، من بينها حديث عائشة زوج الرسول المفضلة وبنت أبي بكر ، ويرون أن الروح وحدها هي التي أسرى بها وعرج إلى السماء^(١) ، وليس ذلك إلا رؤيا

(١) إن الرأي المشهور ، فيما يتعلق بالإسراء والمعراج ، أنهما كانا بالروح والجسد ، وهو رأي يستلون عليه بمختلف الأدلة ، ويعرفه كل من له أدنى إلمام بالسيرة النبوية ؛ ولكن المؤلف اختار رأياً آخر أقل شهرة ، وهو مع ذلك قد قيل به .
يقول السهيلي :

« وقد ذكر ابن إسحاق عن عائشة ومعاوية أنها (أى مسألة الإسراء) كانت رؤيا حق ، وأن عائشة قالت : لم تفقد بدنه ، وإنما عرج بروحه تلك الليلة . ويحتج قائل هذا القول بقوله " وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس " ولم يقل الرؤية وإنما يسمى رؤيا ما كان في النوم في عرف اللغة . ويحتجون أيضاً بحديث البخاري عن أنس بن مالك قال : « ليلة أسرى برسول الله - صلى الله عليه وسلم - من مسجد الكعبة ، أنه جاءه ثلاثة نفر ، قبل أن يوحى إليه ، وهو قائم في المسجد الحرام فقال أولهم : أيهم هو ؟ فقال أوسطهم : هو هذا ، وهو خيرهم ، فقال آخرهم : خذوا خيرهم ، فكان تلك الليلة فلم يرم ، حتى أتوه ليلة أخرى ، فيها يرى قلبه ، وتنام عينه ولا ينام قلبه ، وكذلك الأنبياء عليهم السلام تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم ، فلم يكلموه ، حتى احتملوه ، فوضعوه عند بئر زمزم ، فتولاه منهم جبريل . الحديث بطوله ، وقال في آخره : واستيقظ وهو في المسجد الحرام . وهذا نص لا إشكال فيه ، أنها كانت رؤيا صادقة .

ثم يذكر السهيلي الرأي المشهور وأدلته ، وبعد ذلك يذكر رأياً ثالثاً يراه هو وطائفة معه . ويرجمه ،
يقول :

صادقة ، كما كان يحصل كثيراً للرسول أثناء نومه .

وفي الليلة السابعة والعشرين من شهر ربيع الأول تلقى جبريل — وهو الموكل بكواكب النور — الأمر من الله تعالى أن يأخذ من ضوء الشمس ليزيد في ضوء القمر ، وأن يأخذ من ضوء القمر ليزيد في ضوء النجوم ، لتزدهر القبة الزرقاء ، وتتألاً سناء وإشراقاً ، ثم ينزل إلى محمد فيوقظه من النوم ، ويرفعه إليه تعالى محترقاً طبقات السماء السبع ، وفي ذلك يقول الرسول : « بينا أنا نائم إذ أتاني جبريل بالبراق^(١) — وهي الدابة التي كانت تحمل عليها الأنبياء — لا يماثلها حيوان من حيوانات الأرض ، فهو بين البغل والحمار ، أبيض من البرد^(٢) ، له وجه إنسان ، بيد أنه لا يتكلم ، وله جناحان كبيران يرتفع بهما في الهواء ، ويشق بهما طبقات الفضاء ، أما ذؤابته وذيله وأبانه وشعره فقد كانت محلاة بأنفس الجواهر التي بلغ لألأؤها من السناء بحيث يضارع لألاء آلاف النجوم وركبته فحملني — مثل لمح البصر — من الحرم المكي إلى بيت المقدس ، فلما نزلت ربطته حيث كان يربطه الأنبياء . وجاءني رجل يحمل إلى إناءين ، في أحدهما خمر ، وفي الآخر لبن ، فشربت اللبن وتركتم الخمر ، فقال لي جبريل — الذي رافقني ، وحاذاني طيلة رحلتي — ” هديت إلى الفطرة ، ولو اخترت الخمر ، وفضلته على اللبن ، لفضلت أمتك الضلال على الهدى “ .

وبعد أن طاف الرسول بالمسجد الأقصى ، صعد على الصخرة التي انحنى تشريعاً له ، وتمكيناً من أن يمتطي البراق ، وتابع الرسول — يقوده جبريل مبعوث السماء — رحلته خلال طبقات القبة الزرقاء .

ولا يمكننا أن نعرض هنا لكل ما ذكر من وصف المعراج ، غير أننا نلاحظ أن بعض المؤلفين ، وعلى الأخص الفرس ، قد أطلقوا لحياهم العنان ، وبعضهم ،

= « ذهبت طائفة ثالثة ، منهم شيخنا القاضي أبو بكر ، رحمه الله ، إلى تصديق المقالين ، وتصحيح الحديثين ، وأن الإسراء كان مرتين ، إحداها كانت في نومه ، وتوطئة له وتيسيراً عليه والثانية في اليقظة ثم قال : وهذا القول هو الذي يصح ، وبه تتفق معاني الأخبار . وابن إسحاق ، بعد أن ذكر رأى عائشة ومعاوية من جانب ، ورأى الجمهرة من جانب آخر ، قال : « الله أعلم أي ذلك كان قد جاءه وعين فيه ما عاين من أمر الله ، على أي حاله كان ، نائماً أو يقظان . كل ذلك حق وصدق » (الروض الأنف ط الجمالية ١٩١٤ ج ١ ص ٢٤٣ وما يليها) .
(١) في هذا الحديث الصريح اعتراف بأنها كانت يقظة بالروح والجسد وخاصة ذكر البراق الذي لا يحمل عليه إلا الجسد والروح .
(٢) كرات الثلج الصغيرة المتساقطة من السماء أثناء المطر .

مثل ابن هشام ، وابن سعد ، وأبى الفداء ، اتخذ خطة حكيمة فاقصروا على رواية هي غاية في البساطة . وسنقتصر نحن هنا على ذكر مقابلة محمد مع الرسل الذين سبقوه ، وهم : إبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ثم طوافه بالجنة التي أعدت للمتقين ، والتي تعطرت رياضها تشريعاً له وتعظيماً ، ثم رؤيته للنار التي أعدت للكافرين والتي خمد لهيبها عند مروره بها .

فما إن اخترق الرسول السموات السبع حتى سمع صرير الأقلام تكتب في « لوح القدر » ، وسمع تسبيح الملائكة وتقديسهم لله تعالى . ثم وصل إلى « سدرة المنتهى » وهنا تركه جبريل قائلاً : « هنا حدود المعرفة ، وهنا يجب أن أقف ، أما أنت يا خير الرسل ، وحبيب رب العالمين ، فتابع معراجك المبارك ، واصعد محاطاً بنور من أنوارك » .

وتابع المصطفى اختراق الحجب التي تحول دون رؤية المساكين ، إلى أن وصل إلى حجاب الوحدة ، فرأى ما لا تراه الأعين ولا يخطر على قلب بشر . لم تكن حاسة بصره الجسمانية تتحمل هذا البريق الذي يخطف الأبصار^(١) ، ففتح الله عينى قلبه ليمنحه القدرة على مشاهدة هذا الجمال « اللانهائى » . ثم قربته الله من عرشه حتى أصبح « قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى »^(٢) . وبعد أن أخبره الله بما سبق أن أخبر به ، أعنى اصطفاؤه لتبليغ الرسالة .. إلخ حدد الصلاة بخمسين مرة في اليوم والليلة ، يؤديها المؤمن اعترافاً بفضل مانع النعم . ولما نزل المصطفى تقابل مع موسى الذى سأله قائلاً : « يا رسول الله ، كم فرض الله على أمتك من الصلوات ؟ » .

— خمسون صلاة في اليوم والليلة .

— عد يا خير الخلق إلى إلهنا وسيدنا ، فاطلب منه التخفيف ؛ لأن أمتك لا تطيق . ذلك حمل ثقيل على الضعفاء والكسالى من بنى الإنسان ، فلإني قد بلوت بنى إسرائيل وخبرتهم .

(١) في هذا أيضاً اعتراف آخر بأنها كانت يقظة بالروح والجسد وعلاوة على ذلك ذكر النبي صلى الله عليه وسلم بأنه ركب وشرب ونزل . . . كل ذلك صريح في أنها كانت بالروح والجسد ، وذكرت بعض الأحاديث أنه صلى الله عليه وسلم كان نائماً ، وأفادت بعض الأحاديث الأخرى أنه أيقظته الملائكة فاستيقظ فلم يكن هناك تعارض .

(٢) سورة النجم .

وعاد محمد إلى رب العالمين ، وتكررت عودته إلى أن فرض الله على أمته خمس صلوات فقط في اليوم والليلة .

هذا الرمز الذي كان من شأنه تحديد عدد الصلاة نهائياً يدل أيضاً على أن المغالاة في العبادة ليست إلا ابتعاداً عن روح الإسلام :

« يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ ، وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفاً » ^(١)

(سورة النساء ، آية ٢٨) .

وما حاجة الله إلى صلاة البشر ؟

« لَا نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَحْنُ نَرْزُقُكَ »

(سورة طه ، آية ١٣٢) .

كتب الله الصلاة على عبده ، واقتضت حكمته أن تكون أنفع وأصح ما منحهم من خير ؛ نعم ؛ خمس صلوات في اليوم ، تمكن بني البشر من الراحة التامة خمس مرات يومياً ، فتحول بينهم وبين الانفعالات والعواطف المثيرة التي تؤدي تارة إلى المغالاة في الفرح ، وذلك طريق يؤدي إلى الرذائل ، وتارة إلى المغالاة في الحزن ، وذلك طريق قد يؤدي إلى جنون اليأس . خمس صلوات يومياً ، بما هن من مقدمات في الطهارة ، يلزم الإنسان العمل على نظافة بدنه وصفاء روحه .

أصبح رسول الله ، غداة الرؤية ، مشرق الوجه من الفرح ، وراه أبو جهل عدوه المبين ، فسأله في سخرية :

— يا محمد ، هل من نبأ جديد من أنباءك المدهشة التي عودتنا إليها ؟

— نعم ، لقد أسرى بي ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، ثم عدت إلى مكة .

فصاح أبو جهل : « يا معشر قريش ، أسرعوا ، هيا أسرعوا ، لتسمعوا نبأ محمد العجيب ، نبأ رحلته الليلية » .

تراكم الناس وتجمعوا ، وأخذ رسول الله يعرض عليهم قصة إسرائه .

(١) يقول الله تعالى : « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » البقرة (١٨٥) ، و : « ما جعل عليكم في الدين من حرج » الحج (٧٨) .

كان أغلب المجتمعين وثنيين ، فحاكوا رئيسهم أبا جهل ، وقابلوا القصة
ساخرين هازئين ، وأخذ البعض يصفق ، والبعض يضغط على فؤديه بيديه كما لو كان
يعشى انفجاراً في رأسه من غرابة ما سمع ^(١) .

أما المؤمنون ، فقد تردد بعضهم في التصديق بالخبر ، ولم يجرؤ البعض الآخر
— أمام ما أظهره العامة من سخرية — أن يعلن ثقته بما رأى .

وبينما القوم في ضجيجهم واضطرابهم ، إذ بأبي جهل يذهب مسرعاً إلى
أبي بكر ويقول :

« هل أتاك نبا صاحبك ؟ : يزعم أنه أسرى به الليلة إلى بيت المقدس وصلى
فيه ورجع إلى مكة ! » . ثم صمت أبو جهل — سعيداً بما يتوقع أن يراه على وجه
محدثه من اضطراب وغيره .

بيد أن أبا بكر أخلف ظنه وقال ، في بساطة : « لئن قال ذلك لقد صدق
وأنا به مؤمن ، ولئن زعم أنه صعد إلى السماء السابعة ، وعاد في ساعة من ليل أو نهار
لأمنت بما يقول » . هذا الإيجاء وضع حداً لسخرية أبي جهل فلم يدر ما يقول .
وُمِنَحَ أبو بكر لقب الصديق من أجل ذلك .

هذه الثقة من أبي بكر — وهو من هو — شجعت المسلمين . وعبثاً حاول
أبو جهل ، بعد هذا ، أن يبعث الإنكار في نفوسهم ؛ بل لم تؤد محاولته إلا إلى
تقوية اعتقادهم ؛ فأوحى إليه شيطانه بفكرة لإظهار كذب الرسول ، فسأله عن
وصف بيت المقدس ، ولم يكن محمد قد رآه قبل ليلة الإسراء فأخذ رسول الله في
وصفه وصفاً دقيقاً محددًا ؛ ووافق على صدق وصفه من شهد بيت المقدس من
الحاضرين ؛ فخاب فأل أبي جهل ، وبدا عليه الاضطراب .

وما لبث المسلمون — وقد قوّى إيمانهم — أن أسرعوا إلى ارتداء ملابس الطهارة
الخمسة ، أعنى أداء الصلوات التي حملها إليهم الرسول من السماء .

وفي أواخر سنة الإسراء عاد عثمان بن عفان وزوجته رقية من الحبشة مع بعض
المهاجرين ، وكان من بينهم مهاجر اسمه سكران ، مات عند وصوله إلى مكة ،
فتزوج الرسول أرملة سودة بنت زمعة ، ليكافئها بذلك على تحمسها للإسلام ، وعلى

(١) أما والله إن هذا لصريح في أنها كانت بالروح والجسد ، وإلا لما تعجب أحد ، فضلاً عن
هذا التجمهر والدهشة البالغة . وصدق الله إذ قال : « وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس »
الإسراء (٦٠) .

صبرها على إيلاام المشركين لها ، وتحملها مشاق الهجرة في سبيل دينها . وكانت من أوليات المسلمات .

وكذلك رغب رسول الله في الاعتراف لأبي بكر الصديق بتضحيته التي لا تحد في سبيل الدين ، وأراد أن يزيد فيما بينهما من صلة ، فتزوج بابنته عائشة ، في الفترة التي بنى بها بسودة تقريباً ، ولم تكن عائشة إذ ذاك في سن الزواج ، فقد كانت تبلغ من العمر عشر سنين تقريباً ، ولذلك لم يدخل بها الرسول إلا بعد سنوات عدة ، بعد أن هاجر وأقام بالمدينة .

إسلام ستة من أهل يثرب (سنة ٦٢٠ م) :

رغم تصديق أبي بكر البالغ بالإسراء والمعراج ، ورغم ما أحدثته الصلوات الخمس في نفوس المسلمين من حرارة وتحمس ، فإن أثر قصة الإسراء والمعراج لم يفد الإسلام — من حيث انتشاره — إلا قليلاً ، بل لقد قدم إلى أعدائه شبه انتصار مكنهم من أن يضاعفوا سخريتهم وتعذيبهم للمسلمين .

أمام هذه الحالة ييأس عظماء الرجال ، ولكن محمداً لا يعرف اليأس وإنما يعرف أن الله القادر سوف لا يخذل قط رسوله الذي أوحى إليه :

« قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ * مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ * الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ * مِنَ الْغِيَةِ وَالنَّاسِ * »

غير أن الرسول انصرف عن دعوة أهل مكة — مؤقتاً — إلى الإيمان ، متجهاً إلى العرب الخارجين عن مكة ، الذين كانوا يأتون فرادى وجماعات في موسم الحج ، وفي الأسواق التي كانت تقام . كان الرسول ينتقل ، لا يكل ، بين مختلف الجماعات ومن ورائه — لا يكل أيضاً — عمه أبو لهب الذي لا يلبث حينما يرى القوم يحيطون بمحمد أن يصيح : « لا تصغوا لهذا الرجل ، فإنه إنما يدعوكم إلى أن تطرحوا عبادة اللات والعزى وراء ظهوركم ، ليخدعكم بما أتى به من عقيدة غير معقولة يزعم أنه أرسل لنسرها » .

هذه الكلمات كانت تثير الريبة والحذر في نفوس العرب ، فابتعدون عن محمد قائلين مثلاً : « إن واطنيك أعلم بك منا ، فابدأ بإقناعهم » ، أو : « إذا منحك

الله النصر ، فإن ثمة انتصارك لا تعود علينا، وإنما تعود على عشيرتك . فلا فائدة ترجى إذا من التحالف معك » .

لم ينهه مثل هذا اللقاء الجاف من عزم الرسول ، وما من شخصية عظيمة وصلت إلى مكة إلا وكان الرسول من أسرع الناس إلى لقائها .
وبينا رسول الله عند العقبة ، إذ لقي رهطاً من العرب وصل حديثاً ، عدته ستة نفر ، فتقدم إليهم في رفته المعتادة سائلاً :

— من أنتم أيها السادة ؟

— نفر من الخزرج .

— أمن موالي يهود يثرب ؟

— نعم .

— أفلا تجلسون ؟

— بلى .

جلس القوم بجواره ، فدعاهم إلى الله ، عز وجل ، وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن .

سحروهم القرآن ببلاغته وجدة أسلوبه ، فأصغوا في انتباه ، وأخذوا يفكرون .
كان يهود يثرب تحت سيطرة العرب فيها ، وكان اليهود أهل كتاب وعلم ، فإذا كان بينهم وبين العرب شيء قالوا : « إن نبياً مبعوثاً الآن ، قد أظلم زمانه ، نتبعه ، وبفضل عونه سننتصر . عليكم ، ونصير به سادتكم » . فلما كلم الرسول أولئك النفر ، نظر بعضهم إلى بعض قائلين : « ها هو ذا والله النبي الذي تهددنا به اليهود ، وسوف لا نتركهم يسبقونا إليه » .

وأجابوا دعوته قائلين :

« إنا تركنا قومنا ، الأوس والخزرج ، وبينهم من العداوة والشر ما بينهم ، وعسى أن يجمعهم الله بك ، فسنقدم عليهم وندعوهم إلى أمرك ، ونعرض عليهم الذي أجبتك إليه من هذا الدين . فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك » .

بيعتا العقبة (سنة ٦٢١ م) :

برَّ المسلمون الجدد بوعدهم ، فبشروا بالإسلام ، وأذاعوه . حتى إذا كان

، وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلاً ، عشرة من الخزرج واثنا
 ؛ ولقوا رسول الله بالعقبة ، فبايعوه ، ولما انصرفوا ، بعث الرسول معهم
 ، عمير ، وقد كان فقيهاً في الدين ، ليرشدهم إلى ما لا يعلمون من

الإسلام من العقبات في يثرب مثل ما وجد في مكة ، حيث المنافع
 ستغلال عبادة الأوثان التي كانت حجر عثرة في سبيل انتشاره ، لذلك
 ب أن عمله في يثرب سهل ميسور ، وأن ما كان يتلوه من القرآن — تلك
 آية — يؤثر في الناس بسرعة لا تكاد تتصور . وكان مثلاً الإسلام في
 غيث أصاب أرضاً جذباء من قلة الماء ، فبعث فيها الحياة ، وأثبت
 ل زوج بهيج . كذلك غمر الإسلام بروحه الصافية الندية كل أحياء
 يقضى على عوامل التفرقة وغرس في قلوب سكانها الفضائل الضرورية
 بسيادته .

بث مصعب غير قليل ، حتى لم يعد بيت من بيوت الأوس أو الخزرج
 أفراداً من المؤمنين . وعاد مصعب — فخوراً بشمرة بعثته — إلى مكة ،
 نالة على محمد . حتى إذا كان موسم الحج حضر إلى مكة مع من حضر
 مل الشرك ، خمسة وسبعون مسلماً من بينهم امرأتان .

هؤلاء المسلمون ، وكلهم تحمس ، فتواعدوا مع رسول الله — صلى الله
 — عند العقبة ليلة ثانی أيام التشريق ، ليعرضوا عليه الإقامة — هو
 ببلدتهم ، ويضمنوا له الأمن بها والطمأنينة .

الآن أحد هؤلاء الحجاج ، وهو كعب بن مالك ، يقص علينا

قمتنا على ألا نخبر المشركين منا بشيء ، فنمنا تلك الليلة مع قومنا في
 حتى إذا مضى ثلث الليل ، خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله ، نتسلل
 ، مستخفين ، حتى اجتمعنا في الشعب عند العقبة ننتظر الرسول
 ث أن حضر ومعه العباس بن عبد المطلب ، وهو يومئذ على دين قومه إلا
 ، لعاطفته القوية نحو ابن أخيه ، أن يحضر أمره ويتوثق له ، ويحفظه ، كما

كان يفعل أبو طالب ، من كل شر . فلما جلس الرسول ، كان أول متكلم العباس ابن عبد المطلب فقال :

” معشر الأوس والخزرج ، إن محمداً منا حيث قد علمتم ، وقد منعناه من قومنا ، ممن هو على مثل رأينا فيه ، فهو في عز من قومه ، ومنعة في بلده ، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم ، والحق بكم ، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتوه إليه ومانعوه ممن خالفه ، فأنتم وما تحملتم ، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم فمن الآن فدعوه ، فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده “ فقلنا بدون تردد :

” إنا والله لو كان من أنفسنا غير ما ننطق به لقلنا ، ولكننا نريد الوفاء والصدق “ . ثم التفتنا إلى الرسول قائلين : ” تكلم يا رسول الله ، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت “ فتلا رسول الله القرآن وذكر أسس الإسلام ، ثم أضاف :

” أبايعكم على أن تمنعوني وأتباعي مما تمنعون منه نساءكم وأبنائكم “ . فبايعناه في تحمّس عام قائلين :

” ونحن والله أهل الحرب وأهل الحلقة ^(١) ، ورثناها كابراً عن كابر “ . وقال أبو الهيثم :

” يا رسول الله ، بيننا وبين الرجال — يعني اليهود — حبّالا ، وإنا قاطعوها . فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك ، وتدعنا ؟ “ . فتبسم رسول الله وقال محتجاً : ” إن دمكم دمي ، وشرفكم شرفي ، أنا منكم وأنتم مني ، أحارب من حاربتم ، وأسالم من سالمتم “ . ثم قال رسول الله : ” أخرجوا إلى منكم اثني عشر نقيباً ليكونوا على قومهم بما فيهم “ . وبعد مشورة أخرجنا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس ، فلما عرضناهم على رسول الله خاطبهم قائلاً : ” أنتم كفلائي على قومكم ، ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم على قومهم “ .

قالوا : نعم .

وقبيل البيعة وأخذ العهد ، قام العباس بن عباد ، وقال :

يا معشر الأوس والخزرج ، هل تدرون علام تباعون هذا الرجل ؟

قالوا : نعم .

قال : إنكم تباعون على حرب الأسود والأحمر من الناس ، فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة ، وأشرفكم قتلا ، أسلمتموه ، فمن الآن ، فهو والله ، إن فعلتم خزي الدنيا والآخرة . وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتوه إليه على نهكة الأموال^(١) ، وقتل الأشراف فخذوه ، فهو والله خير الدنيا والآخرة . فأجابوا في غير تردد :

” إنا نأخذه على مصيبه الأموال وقتل الأشراف ، طالما أن ذلك لمصلحة الإسلام ، فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا ؟ “ .
قال : ” الجنة ، وأنتم فيها خالدون “ .

« وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ ، وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ، وَآتَوْا الزَّكَاةَ ، وَرَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ، وَيدْرَعُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ ، أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ * جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ، وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْهِمْ بِمَا صَبَرْتُمْ ، فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ * »
[سورة الرعد ، آية : ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤]

« وَيَبْشِّرُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا : هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا ، وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * »
[سورة البقرة ، آية : ٢٥]

« وَخُورُ عَيْنٍ * كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ * جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا * »

[سورة الواقعة ، آية ٢٢ إلى ٢٥]

« وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ، وَقَالُوا : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا * »

[سورة الأعراف ، آية ٤٣]

«وَأُخْرَى تُجِيبُونَهَا : نَصْرُ مِنْ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ، وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ *
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَتَصَارَ اللَّهُ * »

[سورة الصف ، آية ١٣ ، ١٤]

فلما سمع المؤمنون بما لا يخطر على قلب بشر من نعيم الجنة — هذا النعيم الذى أعلنه الرسول فى الصورة الوحيدة التى هى فى متناول العقل الإنسانى العاجز الضعيف — أحسوا بالأمل يدب فى أرواحهم ، فقالوا للرسول :

” أبسط يدك “ فبسط يده ، فكان أول من ضرب عليها أسعد بن زرارة وتلاه أبو الهيثم ، ثم البراء ، وتبعهم الباقون ، وسموا من ذلك الحين بالأنصار .
وعندما بايعنا رسول الله ، أخذنا نتأهب للعودة إلى رحالنا خفية . وفى القلب فرح ، وفى النفس أمل ، فإذا صرخة من أعلى العقبة بأنفذ صوت ما سمعته قط :
” يا معشر قريش ، الحذر ، الحذر ، إن الأوس والخزرج قد اجتمعوا على حربكم “ .

أحدث فينا هذا الصوت قشعريرة ، بيد أن الرسول طمأننا قائلاً :
” هذا صوت شيطان العقبة ، هذا صوت إبليس عدو الله ، ولم يسمعه أحد من أعدائنا “ .

فعدنا إلى رحالنا حيث وجدنا مواطنينا يغطون فى نوم عميق ، ولم يشعروا بشيء مما حدث .

فلما أصبحنا ، غدا علينا وفد من أشراف قريش ، ولعلمهم من أعينهم الذين كانوا يتبعون أثر الرسول أنى سار ، وقالوا :

” يا معشر الأوس والخزرج ، إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا ، تستخرجونه من بين أظهرنا ، وتبايعونه على حربنا “ .

فانبعث من هناك من مشركى قومنا يحلفون بالله ، ما كان من هذا شيء ، وما علمناه ، وقد صدقوا ، فالحم بما كان من علم ، وقال عبد الله بن أبى بن سلول لهم :

” إن هذا الأمر جسيم ، ما كان قومى ليخفوه على ، وما علمته ! “ .

انصرف القرشيون وهم على شيء من الاطمئنان ، غير أنهم بعد قليل تقابلوا

مع أعراب كانوا قد شهدوا مبايعة العقبة ، فأكدوا لهم ما نفاه مشركو يثرب ، فعادوا مسرعين في طلب القوم ، فوجدوهم قد ارتحلوا .

المؤامرة ضد الرسول :

أصبح للرسول بعد هذه البيعة ملجأ أمين في مدينة يثرب ؛ فأمر أتباعه بالهجرة إليها .

ولم يطمئن المشركون إلى هذا الأمر ، ورأوا من الخطر عليهم أن يؤلف ضحاياهم مع أهل يثرب — تلك المدينة التي تنافس مكة — جماعة واحدة ، فعارضوا الهجرة ، بكل ما يملكون من وسائل العنف ، لذلك لم يتمكن المسلمون من الهجرة إلا فرادى أو جماعات صغيرة متتابعة ، وقد سمي هؤلاء ، منذ ذلك الحين بالمهاجرين .

أما الرسول ، وقد اطمأن إلى مصير المهاجرين ، فقد مكث في مكة مع صاحبيه : أبي بكر وعلى . حقيقة أنه لم يكن يحول ما يحيط به من أخطار ، غير أنه — رغم إلحاح أبي بكر — أراد أن يحاول محاولة أخيرة لإقناع بعض مواطنيه باعتماد الإسلام ، والهجرة إلى حيث يجدون الأمن والطمأنينة ، وذلك قبل أن يغادر مسقط رأسه وقبل أن يضطر إلى الاحتكام إلى السيف ، ثم إنه — فضلا عن ذلك — لم ير أن يترك مكانه قبل أن يتلقى الأمر من ربه سبحانه .

وصل الغضب بقريش إلى أقصاه بسبب هجرة المؤمنين ، واستولى عليهم القلق ، فعزموا على القيام بأمر حاسم . واجتمعوا لذلك في دار الندوة ، وهي دار بناها أحد أسلافهم ، قصي بن كلاب . في هذه الدار كانت قریش تشاور في كل أمر جليل ، ولم تكن تسمح بحضور الشورى إلا لمن كان من نسل قصي ، ويكون قد بلغ من العمر على الأقل أربعين خريفاً .

في اللحظة التي بدأ كل ممثل لعشيرته يتأهب لدخول الدار ، رأوا شخصاً في هيئة شيخ جليل ، عليه طيلسان من صوف ، يقف بالباب ، فسألوه من يكون ، وماذا يريد ؟

قال : « شيخ من أهل نجد ، رأيتمكم حسنة وجوهكم ، طيبة ريحكم ، فأحببت أن أجلس إليكم وأسمع كلامكم ، وعسى ألا يعدمكم مني رأى أو نصيح » .

كان سكان نجد ينئى عنهم تهمة التحالف مع محمد ، فلم يروا مانعاً من السماح لهذا الشيخ الجليل بحضور مجلسهم ، فدخل خلفهم ، وبدأت المناقشة بين أعضاء الجماعة ، وقال قائلهم :

نحن نعلم جميعاً ما كان من هذا الرجل ومكائده ، وإنا والله ما نأمنه على الوثوب علينا فيمن قد اتبعه من غيرنا فليُسبَد كل منكم — فى حرية تامة — ما يرى ، وأجمعوا فيه رأياً .

قال أبو البخترى : « احبسوه فى الحديد ، وأغلقوا عليه باباً ، ثم تربصوا به الموت » .

فقال الشيخ النجدى : « لا والله ، ما هذا لكم برأى ، والله لو حبستموه كما تقولون ليخرجن أمره من وراء الباب الذى أغلقتم دونه إلى أصحابه ، فلاؤشكوا أن يثبوا عليكم ، فينتزعوه من أيديكم ثم يكاثروكم حتى يغلبوكم على أمركم ، ما هذا لكم برأى ، فانظروا فى غيره » .

قال الأسود بن ربيعة : « نخرجه من بين أظهرنا ، فننفيه من بلادنا ، فإذا خرج عنا ، فوالله ما نبأى أين يذهب » .

فقال الشيخ النجدى : « والله ما هذا برأى ، ألم تروا حسن حديثه ، وحلاوة منطقته ، وغلبته على قلوب الرجال بما يأتى به ، والله لو فعلتم ذلك ما أمنت أن يحل على حى من أحياء العرب فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يتابعوه عليه ، ثم يسير بهم إليكم حتى يطأكم فى بلادكم بهم ، فيأخذ أمركم من أيديكم ؛ ثم يفعل بكم ما أراد . دبروا فيه رأياً غير هذا » .

قال أبو جهل : « والله إن لى فيه لرأياً ، ما أراكم وقعتم عليه بعد » .

— وما هو يا أبا الحكم ؟

— أرى أن نأخذ من كل قبيلة شاباً جلدأً حسيباً فى قومه نسيباً ، ثم يعطى كل فتى منهم سيفاً صارماً ، ثم يعمدون إليه ، فيضربونه ضربة رجل واحد ، فيقتلونه ، فنستريح منه ، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه بين القبائل جميعاً ، فلا يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً ، فيرضوا منا بالدية فنعطيهما لهم .

قال الشيخ النجدي ، الذى لم يكن إلا إبليس فى شخصية إنسان : « القول ما قال الرجل ، هذا هو رأى ، لا رأى غيره » .

أقرت الجماعة الغادرة هذا الرأى ، واعتقد المشركون — منذ إقراره — أنهم قد تخلصوا من عدوهم ، غير أن المشيئة الإلهية أخلفت ظنهم^(١) ، فقد أرسل الله جبريل إلى رسوله يعرفه بمؤامرة دار الندوة ، ويأمره بالهجرة ويطلب إليه أن لا يبيت على فراشه الذى كان يبيت عليه .

كان بمنزل الرسول أمانات وضعها عنده المشركون لثقتهم فى طهارته ؛ فأبت نفسه الهجرة قبل رد الأمانات إلى أهلها ، لذلك أتى بعلى المخلص الوفى ، وكلفه بردها ، بعد أن أخبره نبأ دار الندوة ، وقال له :

« نم على فراشى ، وتسحج ببردى هذا الحضرى الأخضر ، فم فيه فإنه لن يخلص إليك شىء تكرهه منهم » .

مضى الهزيع الأول من الليل والمؤمنون خلف باب الرسول ليحولوا بينه وبين الحرب ، وأبو جهل معهم يشعل فيهم نار التجمس والحمية . وكانوا على عهد بالألا يقوموا بحريمتهم إلا إذا أشرق نور الفجر ، حتى لا ينكر أحد مساهمته متخذاً الظلمة ستاراً وجنّة يتقى بها تكذيبه فى دعواه . هكذا قدروا . . . غير أن من لا ينأى كان يلحظ بعين الرعاية رسوله المحاط بالأعداء :

« إِنَّا جَعَلْنَا فِيْ أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُّقْمَحُونَ * وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ » .

وخرج رسول الله وكله ثقة فى الله ، وإيمان بحمايته ، فأخذ حفنة من تراب فى يده ، فنثرها على رءوس المؤمنين . وقد رنقت أجفانهم من طول الانتظار ؛ وأخذتهم سنة من النوم أرسلها الله عليهم فلم يروا شيئاً .

أناهم آت — ممن لم يكن معهم — فقال : « من تنتظرون هنا ؟ » .
— محمداً .

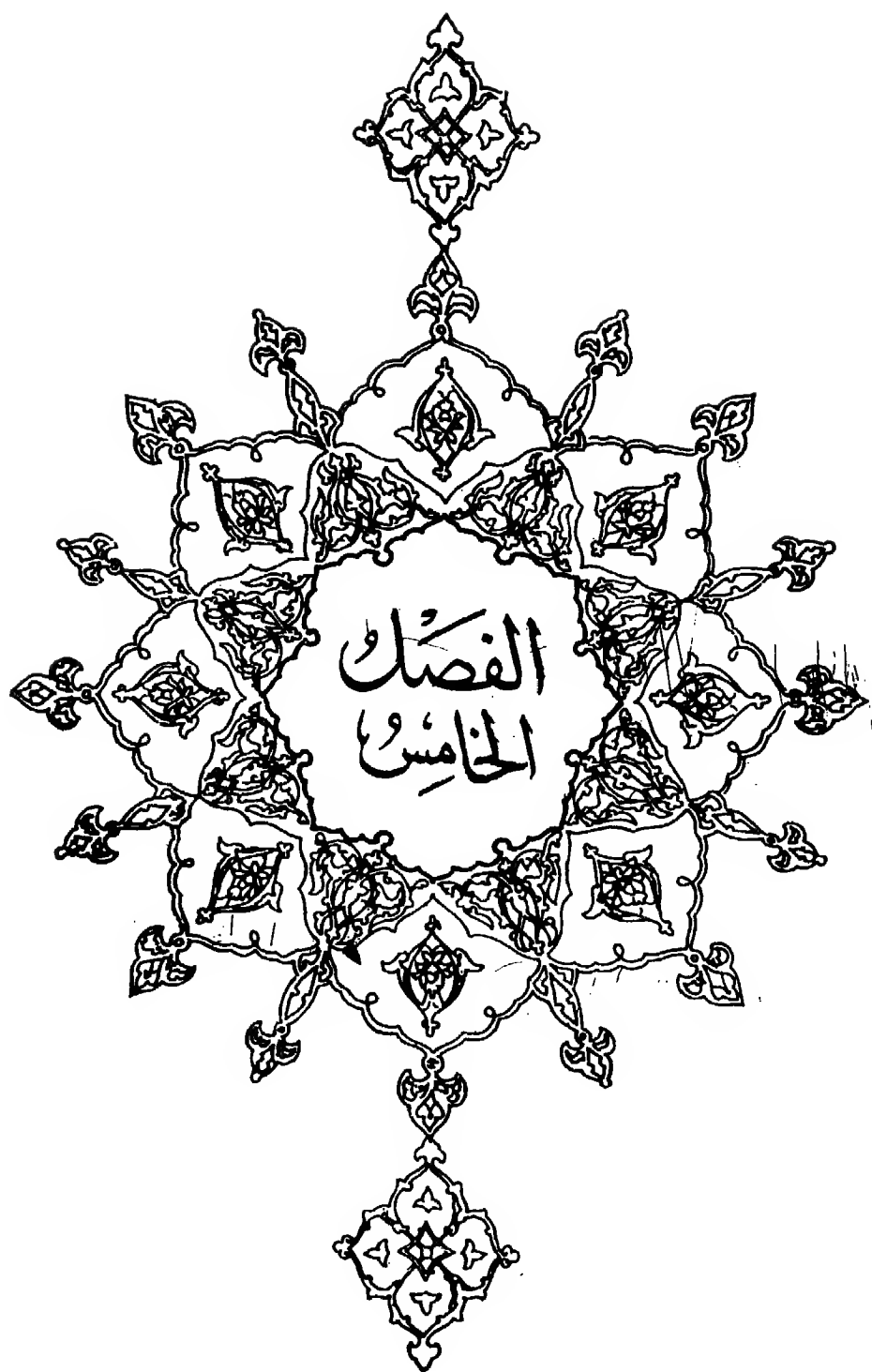
(١) وفى هذا يقول الله تعالى :

« وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ ، أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ، وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ ، وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ » (الأنفال ٣٠)

— إن إلهه قد أنقذه ، ولقد لعب بكم ، وخرج من بينكم ، ثم ما ترك منكم رجلاً إلا وقد وضع على رأسه تراباً ، وانطلق لحاجته ! ! . .
 وضع كل شخص يده — في رجفة — على رأسه ، فإذا عليه تراب . اعتراهم الدهول ، ثم أخذوا ينظرون من خصاص الباب ، فرأوا علياً على القراش متسجياً ببرد الرسول ، فاطمأنوا ، فلم يبرحوا مكانهم حتى أصبحوا ، حينئذ دفعوا الباب دفعة أتت عليه ، وهجموا — مصلته سيوفهم — على عليّ الذي أيقظته دفعة الباب ، فهب واقفاً ، فلما رأوا بهتوا وصاحوا به : « أين رفيقك ؟ » .
 — لا أدري .

فلما رأوا أنهم خدعوا قبضوا على عليّ ؛ وسجنوه في الكعبة ، وبعد قليل رأوا من الحماقة أن يثاروا من محمد في شخص ابن أبي طالب ؛ فأطلقوا سراحه .

وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ
 سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ

هجرة الرسول إلى المدينة :

هاجر المسلمون إلى يثرب فاستأذن أبو بكر رسول الله في الرحيل ، ولكنه قال له : لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحباً . وطمع أبو بكر أن يكون رسول الله إنما يعنى نفسه حين قال له ذلك ، فابتاع راحلتين سريعتين احتبسهما في داره يعلفهما لإعداداً لذلك الرحيل المنتظر .

قالت عائشة :

كان لا يخطئ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتي بيت أبي بكر أحد طرفي النهار ، إما بكرة ، وإما عشية . حتى إذا كان اليوم الذي أذن فيه لرسول الله ، صلى الله عليه وسلم — في الهجرة والخروج من مكة ، أتانا بالهجرة في ساعة كان لا يأتي فيها . فلما رآه أبو بكر قال : إنه لم يأت في هذه الساعة إلا لأمر حدث . فلما دخل تأخر له عن سريره ، فجلس رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وليس عند أبي بكر إلا أنا وأختي أسماء ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أخرج عني من عندك . فقال :

يا رسول الله إنما هما ابنتاي ، وما ذاك ، فذاك أبي وأمي ؟ فقال :

إن الله قد أذن لي في الخروج والهجرة ، فسأله أبو بكر ، في لفة وتوسل : « الصعبة ، يا رسول الله » . قال : « الصعبة » . قالت : فوالله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أن أحداً يبكي من الفرح حتى رأيت أبا بكر يبكي يومئذ . ثم إن أبي أنبا الرسول بأمر ما أعده للسفر .

وكانت الراحلتان على أتم الاستعداد ، فدفعتا إلى عبد الله بن أرقط ، وكان على

الرغم من إشراكه موضع ثقة أبي بكر المطلقة . وكان على عبد الله بن أرقط أن يرعاهما ثلاثة أيام ثم يأتى بهما لميعاد بينه وبين أبي بكر إلى غار بجبل ثور ، وكان بأسفل مكة ، بينه وبينها ساعة ونصف سيراً ، ويقع على الطريق المؤدى إلى البحر ثم كان عليه أيضاً أن يهديهما الطريق حتى يثرب .

وخرج المهاجران ، خفية ، من خوخة لأبي بكر في ظهر بيته ، فسارا على أطراف الأصابع متجهين نحو جبل ثور . كان رسول الله يسير حافياً ، فام تلبث الدماء أن سالت من قدمي الرسول ، وقد شجتها الصخور الحادة التي تكسو الطريق الوعر ، وفزع أبو بكر لما علم بدماء المصطفى وهي تسيل ، فحمله على كاهله حتى فوهة الغار ، حيث أجلسه ، ثم دخل وحده ليفتش في سائر الأركان ، حتى يستيقن من أن ليس هناك وحوش ضارية ، أو زواحف خبيثة ؛ ثم جمع ما كان في الغار من الأحجار والصخور المؤذية ، وحملها في طرف ثوبه ، ورمى بها على جانب الطريق ، ثم عمد إلى الجحور التي من شأنها أن تخفى حيات أو حيوانات أخرى شريرة فسدها بخرق من ثيابه ، وبعد أن انتهى من توفير كل وسائل الراحة في الغار ، أدخل رسول الله الذي ما لبث أن استغرق في النوم ، مسنداً رأسه على فخذ صاحبه .

بيد أنه ، بالرغم من كل احتذر أبي بكر ، تمكنت حية من الاختفاء تحت الرمل الذي كان يكسو الغار . وفي حركة لاشعورية وضع الخليل رجله فوق الزاحفة ، فغضبت وأدارت رأسها مصفرة وأخذت تلدغه في كعبه . وأحس أبو بكر بألم مبرح ولكنه لم يحرك ساكناً خوفاً من إيقاظ الرسول الذي كان مستنداً إليه .

بيد أن السم الخبيث كان يسرى في عروقه ، وبلغ من شدة الألم أن انتزع من عينيه دموعاً غزيرة حارة ، وقع بعضها على خد محمد ، فانتشلت من نومه انتشالاً ، وجعل يسأل حائراً : « ماذا بك يا خليل ؟ » قال : « لدغتنى حية » .

وكانت فرحة التضحية قد ملأت قلب أبي بكر حرارة وحماساً ، فتغلبت على شر السم الفتاك الذي كان قد بدأ يسرى في دماائه . وتفل الرسول على الجرح المسموم ومسحه قليلاً ، فزال الألم ، والتورم في الحال^(١) .

(١) تريد هذه القصة أن تبين ، في قوة ، حب أبي بكر لرسول ، وقد كان حباً حقيقياً ، وكان قلب أبي بكر كله إيماناً وإخلاصاً وحباً لله ورسوله . ولعل القصة لا تريد أن تقول أكثر من ذلك .

أما القرشيون فقد ثارت ثائرتهم حينما علموا بهجرة محمد وأبي بكر . فبعثوا بمناديين أحدهما أسفل مكة والآخر بأعلاها ، يناديان بأن قد جعلت مائة ناقة لمن يأتي بالهاريين . فراح أشهر القافة يتقصون الآثار في كل ناحية

وهرع أبو جهل إلى بيت أبي بكر . وطفق يضرب على الباب في غيظ ، فخرجت له أسماء أخت عائشة ، فقال لها : « أين أبوك ؟ » قالت : « لا أدري والله » . فرقع يده ، وكان فاحشاً خبيثاً ، فلطم خدها لطمة قاسية طرح منها قرطها ، ثم انصرف ولحق بجماعة من الفتيان يفتشون في جبل ثور .

ولم يكد الرسول يدخل الغار حتى شمله الله بعنايته ، فأمر بشجرة في قمة الرجل تسمى أم الغيلان ، وكانت تنمو قريباً من الغار ، فانتقلت حتى سدت فوهته . وبعث إليه عنكبوتاً فجعلت تنسج شبكتها بين غصون الشجرة وزوايا الكهف . وأمر بزوج من الحمام فعشش في فوهة الغار ووضعت الأنثى بيضها^(١) .

ولم يمض قليل وقت على ذلك حتى هل من كل جانب ، هؤلاء الباحثون المنقبون الذين طمعوا في الناقات المائة . ولكنهم توقفوا حيارى أمام ذلك الغشاء الرقيق الذي نسجته أضعف الحشرات وجعلته عرضة للرياح تطوح به أقل نسمة . عندئذ قال أمية بن خلف :

« وما أربكم إلى الغار ؟ إن عليه لعنكبوتاً كان قبل ميلاد محمد ، ولو دخل الغار لتمزق ذلك النسيج وتكسر البيض » .

واعتقد الجميع أن ما قاله أمية هو الصواب ، فتولوا عن ذلك البحث الذي لا يجدى ، إلا أن أبا جهل تشكك في الأمر وقال : « والله إنى لأحسبه قريباً يرانا ولكن بعض سحره قد أخذ على أبصارنا » ، ولكنه انصرف معهم جميعاً دون أن يفكر أحد في تتبع آثار الأقدام التي تركها الهاريان في ذلك المكان .

وكان أبو بكر أثناء كل ذلك ترتعد فرائصه ، لا خوفاً على حياته بل على حياة رفيقه ، وكان يقول له : « ما أخشى ميتى ، فلنما هى ميتة رجل واحد ، أما موتك فهو موت كافة المؤمنين » .

(١) وفي هذه المعجزة يقول المستشرق درينج : إن هذه الأمور الثلاثة هي وسطها المعجزة التي يرويها التاريخ الإسلامي الصحيح : نسج عنكبوت ، ووقوف حماة ، ونماء شجرة . هذه هي الأعاجيب الثلاثة ، وإن لها كل يوم في أرض الله نظائر .

لبث الرجلان في الغار زهاء ثلاثة أيام وثلاث ليال . وكان عبد الله بن أبي بكر يتسمع لهما ما يقول الناس فيهما نهاره ، ثم يأتيهما إذا أمسى بما يكون في ذلك اليوم من الخبر . وكان عامر بن فهيرة مولى أبي بكر يرعى غنمه بين غم قريش ثم يريحها عليهما إذا أمسى في الغار فيزودهما باللبن واللحم ، ثم يرجع بغنمه في الصباح فيمر على آثار عبد الله ليمحوها . حتى إذا أتى اليوم الثالث وسكنت عنهما قريش أتاها ابن أرقط في ميعاده بالراحتين وراحلة ثالثة له . أما أسماء فقد أتت بأكياس من الزاد . وتمت عدة الرحيل ، فدفع أبو بكر أحسن الناقتين إلى الرسول ؛ وحثه على الإسراع في الركوب فأجاب محمد :

« إني لا أركب بعيراً ليس لي » ، فقال أبو بكر : « فهى لك يا رسول الله بأبى أنت وأمى » ، قال : « لا ، ولكن ما الثمن الذى ابتعتها به ؟ » . وتم الاتفاق على شراء الناقة ، فركبها الرسول ، وامتنطى أبو بكر الأخرى وقد ركب في عجزها عامر بن فهيرة الخادم الأمين ، أما ابن أرقط فامتنطى ناقته وأخذ يدل القافلة الصغيرة في الطريق الغربى ليثرب ، ذلك الطريق الذى يحاذى البحر في بعض المواضع .

قصة سراقه :

قال سراقه بن مالك : « فبينما أنا جالس في نادى قومي يتحدثون في الحوادث الأخيرة وفي الجعل الذى وعد به من يأتى بمحمد ، إذ أقبل رجل من البادية حتى وقف علينا فقال : " إني رأيت ركبة ثلاثة بالسواحل ، أراهم محمداً وأصحابه " . فأومأت إليه بعيني أن اسكت . ثم قلت بصوت مرتفع دون أن أبدي اهتماماً : " ليسوا بهم ، ولكنك رأيت فلاناً وفلاناً انطلقوا بمعرفتنا يتبعون ضالة لنا " .

و مكثت قليلاً ، ثم قمت إلى منزلى فأمرت جاريتى أن تخرج فرسى خفية إلى بطن الوادى ، وأمرت عبداً إلى أسود ذا قوة وجراءة أن يسوق بعيراً إلى هذا المكان وينتظرني به . ثم خرجت من باب خلف البيت ، متحجباً متخفياً وقد حططت بزج الرمح في الأرض لئلا يرى بريقه أحد . وإنما فعلت ذلك كله لأفوز بالجعل ولا يشاركنى فيه أحد . حتى أتيت بطن الوادى فامتطيت بعيرى وأسرعت به في أثر الهاربين ، ومن ورائى العبد يقود الفرس . فلما اقتربت من ضالتي امتطيت فرسى وتركت بعيرى بين يدى العبد وأمرته أن يسرع في اللحاق بى . وكانت الفرس لم

تزل على أحسن حال ، لأنها لم تتركب ، وكانت معروفة بسرعتها ، فبالغت في إجرائها ، ولكنها لم تلبث أن عثرت بي ، فوقعت لمنخريها ثم قامت تحمحم . فخررت عنها ؛ فقممت فأهويت بيدي على كنانتي فاستخرجت الأزام واستقسمت بها فخرج الذي أكره^(١) . وكنت أرجو أن آخذ المائة ناقة ، فركبت فرسي وعصيت الأزام .

« وظللت أستحث الدابة حتى اقتربت بي من الهارين ، وسمعت قراءة الرسول وهو لا يلتفت لصوت فرسي وأبو بكر يكثر الالتفات وقد تملكه القلق الشديد .

« ولم تكن بيني وبينهم إلا مسافة قصيرة . بيد أن فرسي غابت رجلاها فجأة في الأرض على الرغم من صلابتها في المكان فخررت من فوقها لساعتي . فرحت ألعنهما في حنق وأزجرها لتنهض ، ولكنها لم تزد بجهدا إلا إغالا في الرمال حتى غاصت لبطنها . وخرج من مكانها غبار في السماء مثل الدخان ، فتملكني الذعر واستقسمت بالأزام فخرج الذي أكره ، فعرفت حين رأيت ذلك أن عذاب الله سيحل بي إذا تماديت في غي ؛ فناديت قائلا : « يا محمد إني أطلب منك الأمان . ولا تخبرنك بما ينفعك ، ولأردن عنك من يتبعونك . ولكن ادع الله أن يطلق فرسي » .

فرجع محمد يديه إلى السماء قائلا : « اللهم إن كان سراقا صادقا فأطلق دابته » . وعندئذ انفرجت الأرض فانطلقت الفرس فركبتها ولحقت بهما . وعرضت عليهما زادي وسلاحى فرفضوا أن يأخذا شيئا من يدي مشرك . وطلبا مني الانصراف . ولكني أيقنت مما رأيت بفوز محمد النهائي ، فطلبت منه كتابا يكون أمانا بيني وبينه . فكتب أبو بكر كتابا أملاه الرسول على قطعة جلد وأخذته ، وكان من شأنه أن أنقذ حياتي فيما بعد في غزوة الطائف . ورجعت على أعقابى فأخبرت عبدى وسائر أهل مكة الذين عرفوا غرضي بأنى لم أعثر على شيء . وأخذت ألعن تلك الأخبار التي أتى بها البدوى والتي جشمتني تلك الرحلة المتعبة الحمقاء » .

(١) كان العرب إذا أرادوا فعلا ضربوا ثلاثة أقداح مكتوب على أحدها : أمرني ربى ، وعلى الآخر نهاني ربى ، والثالث غفل ؛ فإن خرج الأول مضوا على ذلك ؛ وإن خرج الثاني تجنبوا عنه ، وإن خرج الغفل أجالوها ثانيا . ومعنى الاستقسام بالأزام : طلب معرفة ما قسم لهم .

وصول الرسول إلى قباء (٢٨ يولية سنة ٦٢٢ م) :

بفضل السرعة العجيبة التي بها تنتشر الأخبار في بلاد العرب لم يلبث مسلمو يثرب أن علموا بهجرة الرسول واعتزاه الإقامة بينهم .

قال أحدهم : « كنا نخرج إذا صلينا الصبح إلى ظاهر حرتنا (سهل منبسطة ناري الرمال ، تعخلله الصمخور الحادة ، يمتد إلى الجنوب الغربي للمدينة) وكنا ننتظر رسول الله ، فوالله ما كنا نبرح حتى تغلبنا الشمس على الظلال .

« وفي يوم من تلك الأيام الحارة رجعنا إلى البيوت بعد انتظار طويل . فإذا برجل من اليهود عرف بحدة بصره يكشف من أعلى أطم (١) قافلة صغيرة مكونة من قليل من الإبل تحمل أشخاصاً قد ارتدوا ثياباً بيضاء ، يظهرهم السراب تارة ويخفيهم تارة أخرى ، فعرف الرجل في القادمين رسول الله ورفاقه . فاتجه إلى المدينة وصاح بأعلى صوته : يا معشر العرب هذا حظكم الذي تنتظرون .

فاستيقظنا من غفوتنا ، وسارعنا إلى القادمين ، فلاقيناهم قد حطوا الرحال في ظل نخلة منفردة غير بعيدة من واحة قُباء . كان الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، وأبو بكر يجلسان في ظل هذه النخلة ، ولكن أكثرنا لم يكن شاهد الرسول من قبل ، وزاد من حيرتنا أن الاثنين كانا في نفس السن ، فلم ندر إلى أيهما نتوجه ، ولكننا شاهدنا الظل يزول عن أحدهما فيقوم الآخر ويظل صاحبه بردائه ، وعندئذ زالت حيرتنا وعرفنا الرسول » .

وأقبل بنو عمرو بن عوف بدورهم ، وقد تملكهم الفرح ، وكانوا يملكون بلدة قُباء . فدعوا الضيف العظيم الذي أرسله الله لهم ، فتزل النبي على كلثوم ابن هيدم ونزل أبو بكر على خبيص بن إساف ، بينما أقام باقي المهاجرين في بيت سعد بن خبيصة الذي لم يكن قد تزوج وقتئذ .

التاريخ الهجري :

كانت نهاية هذه الرحلة الموقفة ظهر يوم الاثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول ، واشتهرت السنة التي رحل فيها الرسول باسم سنة الهجرة ، واتخذها المسلمون بدءاً لتأريخهم . وهي توافقت سنة ٦٢٢ م .

(١) ألم : المل المرتفع .

وقد تعجب ، لأول وهلة ، لذلك الاختيار ، ولكن دهشتنا تزول إذا ما علمنا أنه لم يكن في حياة الرسول حادث أعظم شأنًا وأجل أثرًا في ذبوع الإسلام وانتشاره بين ربوع العالم من حادث الهجرة ، فلو لبث محمد بمكة ، حتى ولو كتب له في النهاية الانتصار على أعدائه ، لمكث الإسلام فيها معه ، إذ لا شك في أن عرب الجزيرة جميعها كانوا يندفعون إلى الاتحاد ويحاولون منع الدين الجديد من اجتياز حدود مكة المكرمة خشية أن يزيد انتشار الإسلام في عزة قريش ، على حين أنه ستهل على الرسول ، وقد غرس في مكة جذور دعوته ، رغم العداوات ، أن يرجع إلى موطنه ، بعد أن تشيع له العرب الآخرون .

إن هذا ليدل في وضوح على مقدار خفاء الأقدار ، وعلى مقدار عجزنا عن كشف مساطر العناية الإلهية : وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم . فلو أن الرسول لم يؤذه مواطنوه ، ولم يخرجهم قومه ، لما استطاع أن يؤدي رسالته العالمية ، ولما سطع نور الإسلام على وجه المعمورة .

وأقام الرسول بقاء أيام الثلاثاء والأربعاء والخميس . ولحق به على ، وقد رد ما أوتمن عليه من ودائع ، وقطع الطريق بين مكة والمدينة ماشيًا ليل نهار ، حتى تشققت قدماه ، فعانقه محمد في حرارة ، وضمد جراحه بيده المباركة ، وأجلسه إلى جنبه في بيت كلثوم .

ثم عمل الرسول على إنشاء مسجد — هو أول مسجد أقيم في الإسلام . وقد أكمله عمار بن ياسر . وقد سمي المسجد باسم مسجد التقوى وفيه نزلت الآية :

«لَمَسْجِدُ أُسُسٍ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ ، فِيهِ رَجُلٌ يُجِبُونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ » .
[سورة التوبة ، آية ١٩٨]

الرسول يصل إلى يثرب :

ورغم إلحاح بنى عمرو الذين أرادوا أن يستمر محمد في ديارهم فقد رحل عنهم الرسول في صبيحة يوم الجمعة ممطليًا ناقته التي ابتاعها من أبي بكر والتي عرفت بالقصواء ، وقد تبعته جموع غفيرة من الناس ، ما بين مترجل وراكب ، وتسابق الصحابة في التشرف بلمسك خطام دابته .

وفاجأتها ساعة الصلاة وهو يمر بأرض بني سالم بن عوف ، فترجل . ولأول مرة قام بصلاة الجمعة في دار الهجرة ، وقد أمّ جموع المؤمنين الذين اصطفوا وراءه خاشعين . وانتهت الصلاة فالتفت إلى المسلمين يعظهم ، ثم اعتلى ناقته ودخل يثرب دخول المنتصر ، يحف به الشعب الذي ثار في نفسه حماس مُتَّقِد .

وفوق السطوح اجتمعت ربّات الحدور كأنهن ، في ثيابهن الفاتنة الألوان ، طيور جذابة حطت فوق الصخور . وأخذن يغنين في صوت شجي ساحر ، يفصح عن التأثير العميق :

طلع البدر علينا من ثَنِيَّاتِ الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع

وكان الرسول أينما سار ، سواء في حى بنى بياضة ، أو بنى ساعدة ، أو بنى الحارث ، أو بنى عدى ، يقابله وفد من أشرف القوم ، ويمسكون بخطام ناقته قائلين : « أقم عندنا يا رسول الله في العدد والعزة والمنعة » .

فيقول : « خلوا سبيل الناقة ودعوها فإنها مأمورة » . ثم يبتسم في عطف ويقول : « بارك الله فيكم » .

وكان قد أرحى الزمام لها فسارت ، وقد ارتفع عنقها الطويل فوق جموع المؤمنين ، وظل رأسها يلتفت يمنة ويسرة كأنها تبحث بعينها الواسعتين اللتين تظلهما أهداب طويلة عن المكان الذى حددته العناية الإلهية . وبعد تردد ولف كثير توسمت أرضاً خالية وبركت فيها ، فلم ينزل عنها الرسول ، فوثبت وسارت غير بعيد في تردد وحيرة ، ثم التفتت خلفها وقد قوى عزمها فرجعت إلى مبركها وبركت فيه من جديد في تمكن واسترخاء ، وصوتت دون أن تفتح فاهها ، فنزل عنها الرسول قائلاً : « رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلاً مُّبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ » . وكانت هذه الأرض الخالية مَرَبُداً^(١) لبنى النجار ، لا يبعد كثيراً عن بيت أبى أيوب الأنصارى الذى أضاف رسول الله صلى الله عليه وسلم وحمل رحله إلى بيته . . . وأحس الرسول في ذلك البيت أنه تخلص وقتياً من مظاهر الحفاوة البالغة ، وراح الشبان والعبيد

(١) المرید : الموضع الذى يجفف فيه التمر .

يصيحبون في كل حي وفي جميع أرجاء المدينة : « جاء محمد . جاء محمد . نزل الرسول بمدينتنا » . ومنذ ذلك اليوم المشهود ويثرب تعرف بمدينة النبي أو بالمدينة المنورة اختصاراً .

بناء مسجد المدينة :

كان أول ما شغل الرسول عندما قدم المدينة أن يقيم بها مسجداً . وبحث عن أصحاب الأرض التي بركت فيها الناقة فقبل له : إنها لأخوين يتيمين هما سَهْل وسُهَيْل ، وقد كانا تحت وصاية معاذ بن عفراء ، فسألهما عن الثمن الذي يرغبان فيه ، فقالا : لا نطلب ثمناً لنا إلا ثواباً من الله . ولكن الرسول لم يقبل تلك الهبة ، وحدّد الثمن بعشرة دنانير قدمها أبو بكر الذي كان قد استقدم كل أمواله من مكة .

وشرع المؤمنون في العمل فوراً بإرشاد الرسول ، فطهروا أرض الحَرَبَد ، وكانت بها أسوار متهدمة ، وبعض القبور المهجورة ، ونخلة ، ثم مهدوا للبناء بتسوية الأرض . ولما أرادوا إقامة الأساس تناول الرسول حجراً كبيراً ليحمله إليها . فالتصق الغبار بصدره الشريف ، فأراد أصحابه أن يمنعوه ، ولكنه قال لأبي بكر : بل ضع حجرك إلى جنب حجري ، ثم أمر عمر أن يضع حجره بجانب حجر أبي بكر . وجاء أشراف المسلمين واحداً واحداً ، كل يضع حجره في هذا البناء . ولما بلغ ارتفاع البناء الحجري ثلث الارتفاع المقدر ، جعل المؤمنون يضعون اللبانات اللازمة لإكماله . وداوم الرسول على خطته ، فجعل يشجع العمال ، ويضرب لهم من نفسه مثلاً ، فيحمل اللبانات في ثوبه . ولاحظ ذات مرة أن أحد العمال يحمل ضعف حمل الرجل فجعل يمسح برأسه في رفق قائلاً : « للناس أجر ولك أجران » .

والتهب الجميع حماساً . وراح البناء ينشدون الشعر الذي يعبر عن آمالهم كي تنزح حركاتهم فيسرع عملهم . ولما ارتفعت الحيطان إلى سبعة أذرع سقّفها المؤمنون بجذوع النخل المغطاة بالسعف والجريد ، ثم صبوا فوق ذلك طبقة من الطين تمنع المطر . وأسند العرش من الداخل بجذوع النخيل ، وفرشت الأرض بالرمل الناعم .

وبلغ طول البناء مائة ذراع . أما عرضه فيقل عن ذلك قليلاً . وفتحت فيه

ثلاثة أبواب ، عرف أكبرها بباب الرحمة . أما المنبر فكان من جذوع النخيل يعتليه الرسول وقت الخطبة ، فما أعظم الفارق بين المسجد الأول الشبيه بمسجد القرى الصغيرة الصحراوية وبين الأبنية السامقة التي لم تلبث أن أقيمت لأداء شعائر الإسلام .

وفي الوقت نفسه أقام محمد بناء بيتين من الطين (الحجرات) لاصقين بالمسجد : ليسكن فيهما مع أسرته التي بعث زيداً ، متبناه ، في طلبها من مكة . فلما تم بناء هذين المنزلين انتقل إليهما من بيت أبي أيوب ، وما لبث أن لحقت به أسرته . أما المهاجرون فقد أضافهم الأنصار الكرام الذين اقتسموهم بينهم ، فعاد كل منهم فخوراً بضيفه الذي بعث القدر به إليه .

وقد تأثر محمد تأثراً عظيماً لذلك الاستقبال الأخوي الذي حظى به المهاجرون لدى هؤلاء الأتباع الجدد ، ولكن بصيرته النفاذة إلى ما تنطوى عليه النفوس جعلته يعمل على توثيق رباط تلك الصداقة المؤثرة ، كي تستطيع مقاومة روح التنافس ، تلك الروح التي لا بد أن تنشأ يوماً بين المهاجرين الذين ضحوا بوطنهم وبأسرهم وثروتهم وبكل شيء ليتبعوا النبي ، وبين الأنصار الذين آووه ونصروه . أليس لكل فريق حقوقه وحججه في المطالبة بالمكان الأول من عطف الرسول ، وبالصدارة في الإسلام . وفي سبيل درء تلك الاحتمالات الخطيرة ، وفي سبيل تكوين أسر حقيقية للمهاجرين ، انتهز محمد فرصة الحماس الذي لا تشوبه شائبة ، الذي جمع بقوة بين المهاجرين والأنصار ليقرر بينهم أخوة كاملة ، وتم له ما أراد فأخى بين المهاجرين والأنصار ، اثنين اثنين ، وقال لهم : تأخوا في الله ، أخوين أخوين . ومنذ ذلك اليوم أصبح كل مدني له أخ مكى .

ومن العيب أن نحاول التعبير بالألفاظ عن مقدار ما وصلت إليه من الإخلاص والسمو تلك الأخوة في الله ، تلك الأخوة التي فاقت أخوة الدم لأنها دينية سماوية ، فكل تلك القلوب التي تأخت في حب الله لم تعد إلا قلباً واحداً قوياً يخفق في صدور عديدة . كان كل أخ يحب لأخيه أكثر مما يحب لنفسه ، وقد رأينا في أوائل أيام الهجرة أن الذين يموتون إنما يرثهم إخوانهم دون أهلهم وورثتهم من النسب .

ومن بين تلك الأسر الأخوية نذكر ، على الأخص ، أخوة أبي بكر وحارثة

ابن زيد ، ثم أخوة عمر وعثمان بن مالك ، ثم أخوة عثمان بن عفان وابن النجار ، وأخوة أبي عبيدة وسعد بن معاذ . وقد اختار الرسول أن يكون علي بن أبي طالب أخاه . فثبت بذلك هذا التأخي الذي أعلنه في أوائل بعثته . ولكن علياً كان من المهاجرين ، فخشى الرسول أن يغضب الأنصار لأنه لم يختار أخاه منهم . فلما مات أسعد بن زرار ، وكان من نقباء الأنصار شغل الرسول مكانه بحجة أنه منهم ، وذلك لأن خاله كان يقطن المدينة .

وهكذا بفضل فهمه للنفسية الإنسانية ، وبفضل سياسته البارة ، توصل محمد إلى نتيجة عظيمة الخطر : لم يكد يدخل المدينة حتى كف الخرج والأوس عن حروبهم الداخلية الدامية ، كفوا عنها وكأنه قد مسهم بعصاه السحرية ، فجعل من أهل المدينة إخوة ، وكانوا أحزاباً متنافسة .

القبلة :

كان الرسول في أول عهده بالرسالة يترك للمؤمنين حرية اختيار قبلتهم في الصلاة وذلك لأن :

«لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ، فَأَيْنَمَا تُولَّوْا فَسَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * »

[سورة البقرة ، ١١٥]

وبينا الرسول يوشك أن يتم مسجده الأول إذ أحس بمقدار التسامى والجمال الذي سوف تصل إليه الصلوات ، إذا ما اتجهت القلوب كلها نحو وجهة واحدة ، فاتحدت النفوس في مثل أعلى واحد نشأ عن ذلك الاتجاه الواحد ، لذا عمد إلى قالب مصنوع من الحجر والطين ووضعه ملاصقاً للحائط الشمالى من المبنى وبه عين القبلة الأولى ، وكانت بيت المقدس . ولكن الوحي أمر بأن تكون القبلة مكة :

«قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ، فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ، قَوْلُ وَجْهِكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ »
[سورة البقرة ، ١٤٤]

ومنذ ذلك اليوم ، ومكة هي القبلة الثابتة لجميع مسلمى العالم .

الأذان :

الصلاة الجامعة هي بلا شك أكثر الصلاة نفعا ، وفيها يسرى الإخلاص والتحمس من روح كل مسلم إلى روح جاره ، ولقد قال عنها الرسول : إنها تعدل الصلاة المنفردة سبعا وعشرين مرة . فمن المهم إذن ، والأمر كذلك ، جمع كل المؤمنين في وقت محدد ، خمس مرات في اليوم .

ولكن كيف يعلنون الوقت المحدد لاجتماعهم ؟ لأن أكثرهم متناثرون في كل أحياء المدينة . فيصل بعضهم مبكراً ، ويصل البعض الآخر متأخراً . فاجتمع مجلس من رؤوس المسلمين للتشاور في الأمر ، فنصح بعضهم بإشعال نار تضيء فوق علم وتجعل كإشارة للاجتماع . واقترح بعضهم أن يستعمل بوق كبير . ورأى آخرون أن خير وسيلة هي دق النواقيس . ولكنهم عدلوا عن كل تلك الاقتراحات لأنها كانت تشبهها بغيرهم من الفرس أو اليهود أو من المسيحيين .

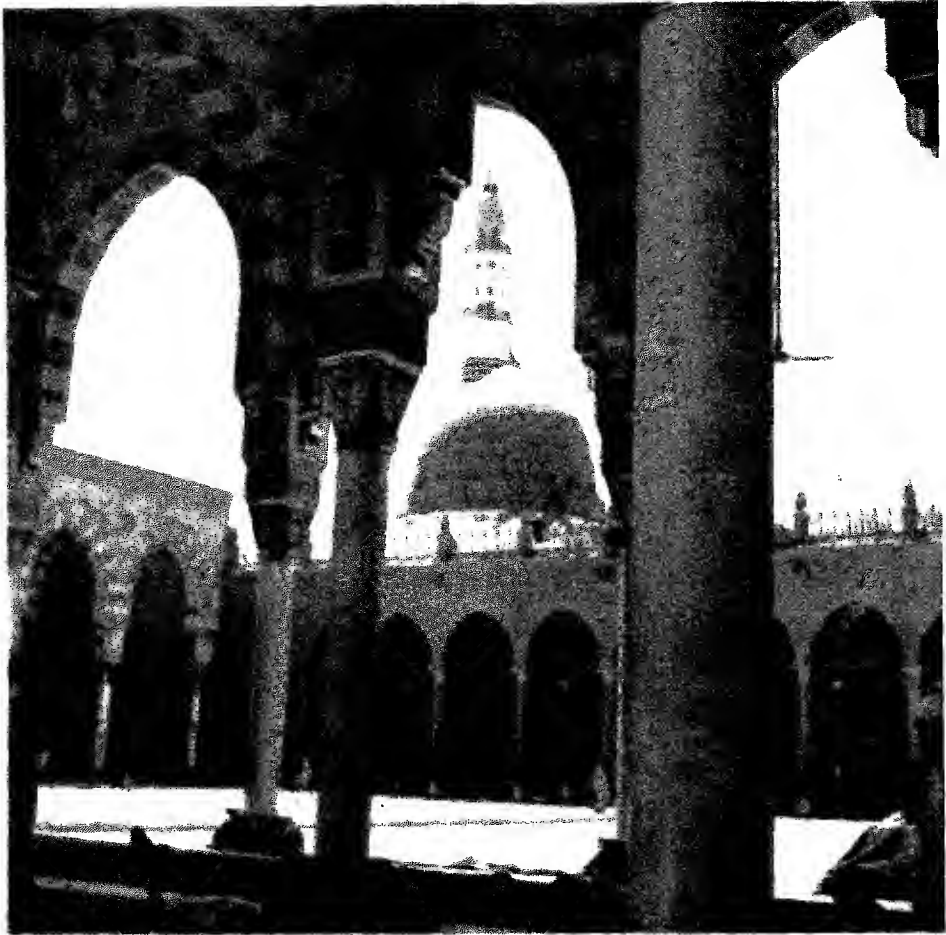
وبينا هم كذلك إذ أقبل عليهم عبد الله بن زيد فحكى لهم رؤيا رآها في الليلة السابقة :

« مر بي رجل عليه ثوبان أخضران ، يحمل ناقوساً في يده . فقلت له : يا عبد الله أتبيع هذا الناقوس ؟ قال : وما تصنع به ؟ قلت : ندعو به إلى الصلاة . قال : أفلا أدلك على خير من ذلك ؟ أن تشهد شهادة الإسلام » .

وفطن الرسول إلى ما للصدوت الإنساني من تأثير يبعث العاطفة ويفوق تأثير أجمل الآلات المعدنية . فقال : « إنها لرؤيا حق إن شاء الله ، فقم مع بلال فألقها عليه فليؤذن بها : فإنه أندى صوتاً منك » .

فقام بلال العبد المحرر يؤدي مهمته ، فيجمع للصلاة المسلمين على اختلاف طبقاتهم وأجناسهم ، وعمد إلى سطح المسجد فصعد منه بذلك النداء الصادر من أعماق الروح الإسلامية :

« الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمداً رسول الله ، أشهد أن محمداً رسول الله ، حي على الصلاة ، حي على الفلاح ، حي على الفلاح ، الله أكبر ، الله أكبر ، لا إله إلا الله » .



كانت هذه الكلمات خارجة من فم بلال في قوة وانسجام كأنها المياه المعطرة تسيل من إبريق نفيس . وكانت تنتشر في جميع أرجاء المدينة مناسبة داخل المساكن . وكان المؤمنون يأتون سراعاً ، أفواجاً أفواجاً ، ليتنسّموا في لذة ، طيب الصلاة المنعش .

ومنذ ذلك الحين من أعلى المنارات المرتفعة الرشيقة في جميع بقاع العالم يدعو المؤذن للصلاة خمس مرات في اليوم .

صوم رمضان :

بعد أن اختار محمد الأذان نداء للصلاة أخذ —وهو في مستهل عهده بالمدينة — في تحديد الفروض الدينية .

لقد كان من عادته أن يصوم ثلاثة أيام من كل شهر ، فنزل عليه الوحي بما يأتي :

« شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ ، فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ . وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ، يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ ، وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ، وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ ، وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُم ، وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ، أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ، فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ *

أَجَلْ لَكُمْ لَيْلَةُ الصَّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ ، هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ ، عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ ، فَالآنَ بَاشِرُوهُمْ وَأَبْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ، وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ، ثُمَّ أَتِمُّوا الصَّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ، وَلَا تُبَاشِرُوهُمْ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ . تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ * »

بهذه الآيات فرض صوم رمضان ، وكانت نتيجة هذه الفريضة الخير الكثير ، ذلك أن الإنسان - وهو مجبول على الأنانية - يبحث عن كل ما يلد له مادياً ، ويتجنب كل ما من شأنه أن يكون من حظ الفقراء الضعفاء ، وليس هناك من علاج لهذه الأنانية سوى الشعور القوى ببؤس الآخرين من جوع وظلم .

والمؤمنون - وقد تخففوا من ثقل الطعام - يجتمعون أثناء النهار ، فيتزودون بالغذاء الروحي الذي تحمله إليهم صلواتهم ، وإن شوقهم إليه لأشد من شوقهم إلى الغذاء المادى .

ومع ذلك فإن الإنسان ، فى جو المدينة الملهب ، يشعر شعوراً قاسياً بالظلم أثناء أيام الصيف التى لا تكاد تنتهى ، وإن بعض المؤمنين - وقد جفت حناجرهم ظمأ - ليلهثون ويوشكون أن يقطعوا صومهم عند منظر الماء البورى الصافى يسيل من السواقى ، ينساب فى صوت خافت مغرٍ ، ولكنهم ينظرون إلى إخوانهم ذوى العزيمة القوية ، فتعود إليهم شجاعتهم ، ويواصلون صومهم ، وتتقوى بهذه الرياضة الروحية أواصر الأخوة بينهم ، ويتنصر المؤمنون متعاونين على هذا العدو الشرس ، أعنى الجوع والظلم ، فيصبحون أكثر استعداداً وأوثق تعاوناً لمجابهة أشد أعدائهم مراساً من بنى البشر .

ويستمر المهاجرون والأنصار على هذا الوضع ثلاثين يوماً دون تألم أو ضجر ، بل فى تحمس متزايد ، ثم ها هو ذلكم الهلال يوشك أن يرى فتمتلئ سطوح المنازل وتكتظ قمم الآكام بالمؤمنين لرؤيته ، ها هو ذا قرص الشمس الذهبى يخفى وراء الأمواج الزرقاء فى آفاق الصحراء البعيدة ، فتتطلع الأعين قلقة باحثة فى أعماق السماء الصافية كأنها الزمرد ، وفجأة فى الثلث الأسفل من القبة الزرقاء يرسم قوس فضى دقيق . . . إنه الهلال . فتتنفس الصدور فى عمق متنهدة ، كأن سهاماً خفية سددت إليها صادرة عن هذا القوس .

ولكنه ليس تنهد فرح يصدر عن هؤلاء المؤمنين ، بل تنهد أسف على انقضاء شهر الصوم فى سرعة سريعة .

إن هذا الصوم تضحية بسيطة تقدم شكراً لمانح النعم . وهذا الاختيار الدينى

التعبدى يحى الأرواح ويقوى الأجسام . ولأجل أن يعبر المؤمنون الصحراوات الرهيبة التى تحيط بهم لفتح العالم ، كى تكون كلمة الله هى العليا ، كان لا بد لهم من هذا التدريب الذى يعتبر حيناً بالنسبة لما سيلاقونه من الشدائد فى فتوحاتهم .
ولما قدر المؤمنون نعمة الغذاء ، بعد الحرمان ، حق قدرها ، فرض الله عليهم زكاة الفطر ، وهى حق معلوم فى مال الأثرياء للفقراء .

الزكاة وتحريم الخمر :

ولما كانت تغذية الفقراء يوماً واحداً فى العام ، وذلك عقب الصيام ، لا تكفى ، فرض الله - تعالى - زكاة الأموال . وهى جزء ميسور يؤخذ من أموال الأغنياء ويعطى للفقراء ، وبذلك يضمن المجتمع الحياة لهم .

هذه الزكاة ، التى هى أحد أركان الإسلام الخمسة ، تجبى على الثروة الثابتة وعلى الدخل ، سواء كان ذلك ذهباً أو فضة أو أنعاماً ، أو فواكه ، أو زرعاً فيؤخذ جزءه من ذلك يتراوح بين العشر وربع العشر معونة للفقراء كل عام ، ويجب أن يعطى فى رقة بالغة وفى تواضع تام .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى ، كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ (١) النَّاسِ ، وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ؛ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانَ (٢) عَلَيْهِ تُرَابٌ فَاَصَابَهُ وَابِلٌ (٣) ، فَتَرَكَهُ صَلْدًا (٤) ، لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا (٥) ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ *

وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَشْيِئاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ (٦) أَصَابَهَا وَابِلٌ ، فَآتَتْ أَكْثَلَهَا ضِغْفِيرٌ ، فَإِنْ لَمْ يَصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌ (٧) . وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * »

[سورة البقرة ، ٢٦٤ - ٢٦٥]

(١) مرائياً لهم . (٢) حجر أملس .
(٣) مطر شديد . (٤) صلباً أملس لا شئ عليه .
(٥) علواً . أى لا يجدون له ثواباً فى الآخرة كما لا يوجد على الصفوان شئ من التراب الذى كان عليه لإذهاب المطر له .
(٦) مكان مرتفع . (٧) مطر خفيف .

« إِنَّ تُبَدُّوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ ، وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ؛ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * »
[سورة البقرة ٢٧١]

« لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا ^(١) فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ ، تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ ، لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ، وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ * »
[سورة البقرة ٢٧٣]

« لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ، وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ * »
[سورة آل عمران ٩٢]

« إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ : لِلْفُقَرَاءِ ، وَالْمَسْكِينِ ، وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا ، وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ ، وَفِي الرِّقَابِ ، وَالْعَارِمِينَ ، وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * »
[سورة التوبة ٦٠]

بهذه الآيات فرضت الزكاة ، ومعناها الحرفي : التطهير ، أى تطهير الثروة وجعلها طيبة مقبولة .

ولما كان للخمر تأثير هدام على العالم حرّمها الله تحريمًا باتّناً ^(٢) ، وقد نزل على الرسول — صلى الله عليه وسلم — أولاً الآية التالية .

« يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ، قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ؛ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا . . . »
[سورة البقرة ٢٠٩]

(١) حبسوا أنفهم على الجهاد .

(٢) الخمر : ذلك هو الداء الفتاك ، وهو أحد الأمراض الاجتماعية الويلة في عصرنا الحاضر على أن محمداً هو الشخص الوحيد الذى أحس بالأثر السيئ الشديد للخمر في النفوس فحاربه حتى حرّمه تحريمًا تاماً ، وقد فاز في ذلك فوزاً كبيراً

عند ذلك ترك بعض المؤمنين استعمال الخمر ، ولم يجد الآخرون العزيمة القوية على تركها . فنزل الوحي ثانياً بالإنذار التالى :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ »

[سورة النساء ٤٣]

وقد كان على سبباً فى نزول هذه الآية، فقد أكثر ذات يوم من الشرب ، ولما حان وقت الصلاة قرأ : « يا أيها الكافرون ، نعبد ما تعبدون » بدل أن يقرأ : « قل يا أيها الكافرون * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * »

ثم نزل التحريم صريحاً رادعاً :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ، إِنَّمَا الْخَمْرُ ، وَالْمَيْسِرُ ، وَالْأَنْصَابُ ، وَالْأَزْلَامُ رَجَسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ، فَاجْتَنِبُوهُ ، لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * »

[سورة المائدة ٩٠]

« إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ

= « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ ، وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ ، رَجَسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ، فَاجْتَنِبُوهُ . لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * » إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ، وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ، وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ؟ * » [سورة المائدة]

نعم إن من المسلمين من لم يعمل بذلك، فهو يخالف الدين فى تحريم الخمر تحريماً قاطعاً . غير أن الكثيرين من هؤلاء قد تركوها ثم تابوا وأتابوا ، وهم لم يفعلوا ذلك إلا بتأثير الدين نفسه وبما جاء فيه من النهى عن الخمر والأمر بالتحريم ؛ فى حين أننا لم نسمع أن أحداً من المسيحيين الذين يسمون الخمر قد تركها أو رجع عنها .

ولا يخفى أن الأناجيل المسيحية ذكرت أن المسيح فى أفراح « قانا » ملا من النبيذ متاً من قدر الماء ، تسع كل واحدة منها ما يقرب من سبعين لترًا بمكيالنا الحاضر .

كما أن الكنيسة قد جعلت « مونيك » الإفريقية فى عداد القديسات ، مع أنها كانت من مدمنات الخمر ، كما ذكر عنها ذلك ولدها نفسه القديس « أوغسطين » فى اعترافات الدكتور بينيه سنجليه فى كتابه : « جنون يسوع » (عن أشعة خاصة بنور الإسلام) .

وَالْمَيْسِرَ وَيَصَدِّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ ، فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ؟ *
وَأَطِيعُوا اللَّهَ . وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ »
[سورة المائدة ، ٩١ - ٩٢]

بناء الرسول بعائشة :

لقد بلغت عائشة حدًّا من الظرف والدكاء والثقافة لا يكاد يضارع ، ولم يكن الرسول ، إذ ذاك ، قد دخل بها .
وتحدثنا عائشة بقصتها فتقول :

« دعنى أرى ذات يوم ، وكنت فى أرجوحة ألعب مع صاحباتى ، فليبت نداءها دون أن أعرف ما تريد ، فأخذتنى من يدى ، تقودنى ، حتى وقفت بى عند الباب ، وإنى لأنهج ، حتى سكن نفسى ، فسحت وجهى ورأسى بشيء من الماء ، ثم أدخلتنى الدار ، فإذا نسوة من الأنصار فى البيت ، فقلن : على الخير والبركة ، وعلى خير طائر ، فأسلمتنى إليهن ، وأصلحت من شأنى ؛ يوما إن انتهين حتى دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فجأة » .

عداوة اليهود والمشركين :

فى مبدأ الإسلام تأثر بعض اليهود بما فى الإسلام من روعة ، وبما فيه من حجج مستقيمة فأسلموا على يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن هؤلاء العالمان : خبريق وعبد الله بن سلام .

أما الآخرون فلم يهملوا لما رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يتجه فى صلاته إلى هيكل سليمان جدهم العظيم أرضى ذلك كبرياءهم ، واعتقدوا أن معبدهم أسمى بكثير من معبد مكة . واعتقدوا ، من حراء ذلك ، أن الجنس اليهودى يتفوق تفوقًا عظيمًا على الجنس العربى .

ولما أمر الله رسوله أن يولى وجهه شطر المسجد الحرام ، انقلبوا على أعقابهم مغيطين . ثم لأنهم - فضلا عن ذلك - لم يلبثوا أن شعروا بأن محمداً صلى الله عليه وسلم كان مضرًا بمنافعهم الانتهازية ، فالفضل يرجع إلى محمد فى إعادة السلام والصفاء إلى الأوس والخزرج ؛ وقد كان اختلافهما فيما مضى يعتبر من الفرص الطيبة بالنسبة

اليهود . على أن هذا الرسول الذى بشرت به كتبهم ، والذى كانوا يعلقون عليه آمالا واسعة ، والذى يعرفونه إذ ذاك ، كما يعرفون أبناءهم هذا الرسول لم يكن من ذرية آبائهم وأجدادهم : إنه من ولد إسماعيل .
وها هو ذا ، يحمل سراج الإسلام المنير ، فحاولوا ، بكل ما أوتوا من وسائل ، أن يطفئوا نور الله .

ولكنهم رأوا أنهم اضعف من أن يقفوا أمام تيار الإسلام ، فحاولوا أن يثيروا الخلافات بين عرب المدينة ، ووجدوا عوناً قيمياً من بعض أشرف المدينة :
كان بعض أشرف المدينة ضيق النفس لما أتى به القرآن من مبادئ المساواة .
وكانوا يعتقدون — فى جاهليتهم العمياء — أن من الضعة أن يقفوا على قدم المساواة مع من كانوا يحتقرونهم من الفقراء والمساكين .
هؤلاء الأعداء الجدد الذين سموا فيما بعد بالمنافقين ، كانوا يتظاهرون بالإسلام ، ويختلطون بالمسلمين المخلصين فيعرفون أسرارهم ، ويبلغونها — مقابل أجر — لليهود والمشركين .

الجهاد :

شعر الرسول حينئذ أنه لا بد من الالتجاء — وفى سرعة — إلى السيف لانتصار الإيمان ، هذا الانتصار الذى لم تتوطد أركانه إلا بعد فتح مكة حيث الكعبة المقدسة عند العرب . ولقد تلقى الرسول الوحي باستعمال السيف فى جهاده ضد الوثنيين :
« وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ ، وَلَا تَعْتَدُوا : إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ، وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجْتُمُوهُمْ »

[البقرة ، ١٩٠ — ١٩١]

تلك هى الآيات التى فرضت الجهاد ، والتى أثارت ، من بجانب المسيحيين عاصفة من النقد :

بيد أن المسيح نفسه ، وهو سيدنا وسيد المسيحيين ، يعلن : « لا نظنوا أنى جئت أنشر السلام على الأرض ، لأنى لم آت أحمل السلام ، وإنما السيف » .
(إنجيل متى ، الإصحاح العاشر ، ٣٤) .

« إنني جئت لألقي النار على الأرض ، وماذا أريد من ذلك إلا اشتعالها » .
(إنجيل لوقا ، الإصحاح الثاني عشر ، ٤٩) .

وإذا كان الجهاد من أجل نصرة الحق على الوثنية ، قد أثار ، أثناء بضع سنوات ، الاختلاف في أسر مواطني الجزيرة ، فما ظنك بكلمات عيسى ، وهي الآمرة بالاختلاف أمراً ، ألم تستتبع نتائج مفزعة لدى كل الطوائف المسيحية أثناء عصور متطاولة ؟

« إذ أني جئت لأفرك بين الولد وأبيه ، والبنت وأمها ، وبين زوجة الابن وأمها » .
(إنجيل متى ، الإصحاح العاشر ، ٣٥) .

« إن كان أحد يأتي إلى ولا يبغض أباه وأمّه ، وامراته وأولاده ، وإخوته وأخواته حتى نفسه أيضاً ، فلا يقدر أن يكون لي تلميذاً » . (إنجيل لوقا ، الإصحاح الرابع عشر ، ٢٦) .

على أن الجهاد لم يشرع من أجل أعداء الدين فحسب ، وإنما شرع أيضاً ضد هذا العدو الغادر الذي يحمله الإنسان بين جوانحه ، وفي ذلك يقول رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ما معناه : « إن الجهاد حقاً هو جهاد النفس » .

لقد صبر محمد طويلاً ، وصبر المؤمنون معه كذلك حقبة طويلة على إيذاء المشركين ، الذين أخرجوهم من ديارهم بعد أن أذاقوهم فيها أليم العذاب . فرأى المسلمون — مؤيدين بالقرآن — أن لهم الحق في استعمال السيف دفاعاً عن أنفسهم .

كان موقع المدينة يساعدهم على النصر ، ذلك لأنها تسيطر على كل الطرق التي تمر بها القوافل إلى سوريا ، وكانت التجارة المورد الوحيد بمكة المحوطة بواد غير ذي زرع ؛ فإذا ما منع الرسول هذه القوافل فلا بد من أن المجاعة ستسود هذه البلدة الجاحدة وتضطرها إلى الإتيان خاضعة للرسول دون أن يلجأ إلى إراقة دماء قومه المكيين ، الذين كان يحافظ عليهم ، رغم إيذائهم له ، والذين كان يود لهم الخير ، أملاً في أن يهتدوا يوماً ، فيكون منهم الأساس الإسلامي الوطيد .

عندئذ بدأت السلسلة الطويلة من السرايا والغزوات ؛ والفرق بينهما : أن الغزوة كان يقودها الرسول بنفسه ، وأن السرية كان يقودها أحد أتباعه . وستحدث هنا عن

أهم الغزوات فحسب ، تاركين كل ما تعتبر أهميته أمراً ثانوياً ، ومن أجل ذلك سنبداً مباشرة بغزوة بدر الشهيرة .

غزوة بدر (سنة ٥٢ هـ ، ٦٢٤ م) :

ألف المكيون قافلة ، غاية في الأهمية ، يسير فيها ألف جمل ، مثقلة بالتجارة إلى سوريا ، حيث تعود محملة بأنفس البضائع وأثمنها ، فأتاحت بذلك الفرصة التي كان ينتظرها الرسول .

فلو أن الرسول تمكن من الاستيلاء على هذه القافلة لقضى — في سرعة سريعة — على هؤلاء الذين نفوه ، ولتجنب إراقة الدماء ، إذ أن حامية القافلة لم تكن تزيد على أربعين رجلاً ، وهؤلاء ، وقد رأوا أنفسهم أنهم أضعف من أن يقاوموا — كانوا يضطرون للتسليم .

ولكنه لم يدرك القافلة ، فعزم على أن يغير عليها في العودة ، وترك أحد أتباعه ليرقب الطريق . وذات يوم جاء هذا الشخص يعلن أن القافلة على وشك أن تمر بمحاذاة المدينة سائرة في طريقها العادي بين الجبل والبحر .

فندب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — المسلمين إليها دون تفرقة بينهم ، ولبي المسلمون النداء ، فبلغ عددهم أكثر من ثلثمائة ، وكلهم رغبة في أن يذيقوا المشركين مثل ما أذاقهم من عذاب .

كان في هذه الحملة ثلاثة وسبعون من المهاجرين ، ومائتان وأربعون من الأنصار وكانت الإبل يومئذ سبعين بعيراً تحمل الماء والزاد ، ويتعقبها المشاة ، ولم يكن معهم سوى أربعة أفراس ، منها فرس لمثد ، يقال له : « السيل » وفرس الزبير ، يسمى : « اليعسوب » . وكانوا يقودون هذه الأفراس دون أن يركبوها ، وذلك لإعدادها ، مستريحة ، ليوم النزال . ودفع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — اللواء إلى مصعب العبدري ، أما اللواء الأنصار فقد حملة سعد بن معاذ .

على أن تهية مثل هذا العدد الكبير لا يمكن — للأسف — أن تبقى سرية ، ولقد لاحظ المنافقون واليهود كل الخطوات التي قام بها محمد : لقد أحسوا بما يعده ، وأحسوا بالهدف الذي يسعى للوصول إليه ، فأرسلوا رسلهم إلى أبي سفيان رئيس القافلة ، ينبئونه بالخطر الذي يتهدده ، فأرسل إلى مكة ضمضم بن عمرو الغفاري ،

وأمره أن يأتى قريشاً فيستنفرهم إلى أموالهم ، ووعدته بجائزة قيمة إذا أسرع ، إنقاذاً للقافلة .

كان المكيون قد ساهوا جميعاً ، كل بحسب ثرائه ، فى تجهيز هذه القافلة التجارية العظيمة ، وكانوا ينتظرون بفارغ الصبر عودتها ، وينعمون مقدماً بالآمال العذبة فيما ستدره عليهم من ربح عظيم ، وكانوا يخرجون جماعات فى كل ساعة من النهار إلى أبواب مكة ، يمدون أعينهم إلى بطون الوادى الذى يشقه طريق سوريا على أمل أن يروا بعض رسل القافلة .

وذات يوم رأوا عن بعد رجلاً على ناقته الضامرة السريعة يسير فى اتجاههم . وحينما قرب بحيث يميزون منظره ومنظر ناقته ، بلغت بهم الدهشة حدّاً عظيماً ؛ كان ذلك الشخص هو ضمضم ، قد شق قميصه ، وشق أنف بعيره ، وقطع أذنيه ، وحول رحله . وما إن قرب منهم متعباً مجهداً لاهثاً ، حتى أخذ يصرخ :

يا معشر قريش ؛ اللطيمة اللطيمة^(١) .

وأسرع القريشيون يحيطون به ، تنهال عليه الأسئلة من كل جهة . فما كاد يستفيق حتى قال لهم : أموالكم مع أبى سفيان ، قد عرض لها محمد فى أصحابه ، لا أرى أن تدركوها ، الغوث . الغوث ، فامتلأوا غيظاً وغضباً . لقد كانوا منذ لحظات ، يسعدون بالخيال ، يناجيهم بما سيصنعون بمكاسيهم النفيسة ، وما هو ذا محمد ، الذى كانوا يظنون أنهم قد تخلصوا منه نهائياً ، يهددهم بالخراب والدمار .

واجتمع كبارهم فى سرعة ، وقرروا أن يسرعوا فى مناهضة محمد قبل أن تفوت الفرصة . وكان الشعور العام يوحى بهذا رأى ، فقد كان الكل مستعداً لأن يضحي فى سبيل إنقاذ القافلة ، بالنفس وبالمال . وتألف جيش بأقصى سرعة ، يتكون من تسعمائة وخمسين رجلاً يقودون مائة فرس ، وسبعمائة جمل . وخرجت حملة المشركين من مكة ، فودعتها عاصفة حارة من السلام والدعاء ، وكان يتقدم الحملة سرب من الصبابا المغنيات ، لامعات كأنهن الشموس ؛ مشرقات الوجه كأنهن الأقمار ، يمتزن بأعين نجل ، ملابسهن موشاة ، يكاد ما عليهن من ذهب وزينة

(١) أى أدركوا اللطيمة ، وهى العير التى تحمل الطيب والبز .

يذهب بالأبصار ، يغنين بشعر فيه ذم المسلمين ، أو ينشدن أشعار الحماسة ، ضاربات بالدقوف في لحن منسجم يبعث التحمس في النفس ، ويثير العواطف في قلوب المحبين .

وزين الشيطان للمشركين أعمالهم ، وأوحى إليهم بأحلام النصر . وماذا على الشيطان لو انهزموا ، سوى أن يتركهم وخزيهم ؟

«وإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ ، وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ ، وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ ، فَلَمَّا تَرَآتِ الْفِئْتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ ، وَقَالَ : إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ ، إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ ، إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ ، وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ * »

[سورة الأنفال ، ٤٨]

على أن الرسول لم يكن يعلم قط بشأن حملة قريش ، وبعد أن تزود في طريقه من ماء الروحاء سار حتى نزل بالصفراء ، ثم بعث بسبس بن الجهنى وعدى بن أبي الزغباء إلى بدر يتحسسان له الأخبار ، ثم ارتحل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى أتى على واد يقال له : ذفران ، فأقام به .

وفي الصباح المبكر من الغد ارتحل رسول الله من ذفران ، وسار حتى نزل قريباً من بدر ، وكان بسبس وعدى قد مضيا حتى نزلا بدرأ ، فأناخا إلى تل قريب من الماء ، فوجدا امرأتين تملآن جرارهما وتتنازعا بصوت مرتفع ، إحداهما دائنة والأخرى مدينة ، قالت المدينة :

اصبرى قليلا فغداً أو بعد غد تأتى العير ، فأعمل لهم وأفضيك دينك . وكان على الماء مجدى بن عمرو الجهنى ، فقال لها : صدقت ، ثم خلص بينهما .

سمع ذلك عدى وبسبس فجلسا على بعيريهما ، ثم انطلقا حتى أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبراه بما سمعا ، وكان ذلك موافقاً لحديثه .

بيد أنه بعد لحظات أتى إلى الرسول شخص كان النبي قد أقامه بمكة يتحسس الأخبار : أتى يحمل أخباراً مزعجة ؛ أتى ينبيئ الرسول بأن المشركين يسرعون الخطا لإنقاذ القافلة .

اهتم محمد بالأمر اهتماماً كبيراً ، وأخذ يتساءل :

ماذا يكون موقف المسلمين ، وقد خرجوا للملاقاة القافلة فحسب ، حينما يرون أمامهم قوى هائلة تفوقهم عدة وعدداً ؟ أيتزعزون ؟ أيفقدون تحمسهم خشية العدو ؟

ومع هذه الاحتمالات لم يرد محمد أن يخفى عنهم خطورة الموقف . لذلك جمع رؤساءهم وكاشفهم بحقيقة الأمر ، وأخذ يستشيرهم في مقاتلة العير أو التفير ؟ وساد الصمت ، وانتاب النفوس شىء من التردد .

وإنا لنعترف بأن الأمل في المغنم كان يضيف جاذبية وسحراً إلى الرغبة في إنزال العقاب بالمشركين . وقال أحد الحاضرين :

ألى مذبحه إذن تقودنا ؟

وقابل القرآن هذا الموقف بزجر قاسٍ :

« وَإِذْ يَعِدُّكُمْ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ ، وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ ، وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحَقِّقَ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ »

[سورة الأنفال ، ٧]

قام على الفور المقداد بن عمرو ، فقال محتجاً في قوة :

يا رسول الله ، امض لما أراك الله ، فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى :

« اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا ، إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ »

ولكن : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، والذي بعثك بالحق ، لو سرت بنا إلى برك الغيماد^(١) لجالدنا معك من دونه حتى تبلعه . فباركه الرسول ودعا له بخير .

ثم قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « أشيروا على أيها الناس » . وإنا يريد الأنصار ، لاحتمال أنهم يعتقدون أن بيعة العقبة لا تلزمهم بشىء آخر غير حماية الرسول ما بقي في المدينة .

(١) موضع بناحية اليمن ، وقيل مدينة بالحشة .

فلما قال ذلك رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال له سعد بن معاذ وقد أحزنه أن يوضع لإخلاص الأنصار موضع الشك : والله لكأنك تريدنا يا رسول الله ؟ قال : أجل .

قال سعد : فقد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا بأن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا وموآثيقنا ، على السمع والطاعة ، فامض يا رسول الله لما أردت ، فنحن معك ، فوالذي بعثك بالحق ، لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً ، إنا لصبرٌ في الحرب ، صدقٌ في اللقاء ؛ لعل الله يريك منا ما تقر به عينك فسر على بركة الله .

أراح هذا القول الرسول مما كان يخامرهم من قلق ، وسره ذلك ونشطه فأشرق وجهه مضيئاً بعاطفة من الرضى ، وبنور من الإلهام ، وكانت عيناه تحدقان في منظر لا يراه غيره ، وقال : أبشروا أيها الناس ؛ إني لأرى الموقعة ، وقد التحم الفريقان ، وها هي تلك فلول الأعداء تولى منهزمة . فهم الكل أنهم على أبواب المعركة ، فأخذوا يستعدون لها ، في ثقة وفي إيمان .

أما أبو سفيان ، فإنه حينما علم بخروج الرسول للملاقاة أخذ حذره وأسرع الخطى ، وتقدم الركب ، فوصل إلى بدر بعد ذهاب بسبس وسعدى مباشرة تقريباً وكان لا يزال مجدى بن عمرو على الماء ، فسأله أبو سفيان . هل أحسست أحداً ؟ فقال : ما رأيت أحداً أنكره إلا أنى قد رأيت راكبين قد أناخا إلى هذا التل ، ثم استقيا في شئ^(١) لهما ، ثم انطلقا . فأتى أبو سفيان مناخهما ، فأخذ من أبعاربعيريهما ففتته فإذا فيه النوى ، فقال : هذه والله علائف يثرب .

فرجع إلى أصحابه سريعاً ، فضرب وجهه عيره عن الطريق ، وأخذ بها جهة الساحل ، وترك بدرأ عن يساره ، وانطلق حتى أسرع ؛ وبهذه الطريقة أفلت من جند الإسلام .

(١) الشن : القرية .

ولما اطمأن وأمن أرسل إلى قريش : « إنكم قد خرجتم لتمنعوا غيركم ورجالكم وأموالكم ، فقد نجت ، فارجعوا » .

فقال أبو جهل — متأثراً بحقده الدفين — : « والله لا نرجع حتى نرد بدرأ ، فنقيم عليه ثلاثاً فننحر الجزر ، ونطعم الطعام ، ونسقى الخمر ، ونعزف علينا القيان ^(١) ، وتسمع بنا العرب ، وبمسيرنا وجمعنا ، فلا يزالون يهابونا أبداً بعدها ، فامضوا » .
وملاهم كلام أبي جهل كبرياء وفخراً ، وسال لعابهم لذكر المآذب ، وكؤوس الخمر تتوالى مترعة ، فوافقوا على رأى رئيسهم ، وساروا إلى بدر .

وكان المؤمنون يتجهون إلى بدر أيضاً ، غير عالمين بما سيكون : أيلتقون بالغير ، أم بالنفير ، أم بهما معاً . فأرسل الرسول عليّاً والزبير يتعرفان الأخبار ، فلحقيا شابين يبحثان عن آبار الماء ليملا السقاء المعلق بكتفيهما ، فأتيا بهما إلى معسكر المسلمين ، فسألاهما ، ورسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قائم يصلى ، فقالا : نحن سقاة قريش ، بعثونا نسقيهم من الماء . وكانت الدهشة في جيش المسلمين : أحقاً وصل جيش قريش إلى هذا المكان ؟

وبدا لهم أن هذا غير محتمل : ذلك لأنهم كانوا يجهلون ما تزودت به قريش من جمال تحمل أثقالهم ، ومن أفراس ، فأخذوا قول الشابين على أنه كذب ، فضرباهما راجعين أن يعترفا بأنهما لأبى سفيان ، فلما اشتد بهما ألم الضرب قالوا نحن لأبى سفيان .

فلما اعترفا بهذا تركهما على والزبير ، فخورين لاعتقادهما أنهما ظفرا بالحق من بين شفتى الأسيرين .

وركع رسول الله صلى الله عليه وسلم وسجد سجدة ، ثم سلم ، وقال : إذا صدقاكم ضربتموهما وإذا كذباكم تركتموهما ، صدقا ، والله إنهما لقريش . ثم اتجه إليهما سائلا :

— أخبراني عن قريش .

قالا : هم والله وراء هذا الكثيب الذى ترى .

فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم : كم القوم ؟

قالا : كثير .

قال : ما عدتهم ؟

قالا : لا ندري .

قال : كم ينحرون من الإبل كل يوم .

قالا : يوماً تسعاً ويوماً عشرين .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : القوم فيما بين التسعمائة والألف .

ثم قال لهما : فمن فيهم من أشرف قريش ؟

فأخذوا يذكران ألمع الأسماء في مكة .

فهز رسول الله رأسه في حزن ، وأقبل على الناس فقال : « هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها » .

ومهما يكن من أمر فإن المقادير أرادت غير ما أراد المسلمون . لقد خرجوا لمفاجأة قافلة تجارية ، لا يحميها سوى عدد قليل من المحافظين عليها ، فلذا بهم يجدون أنفسهم وجهاً لوجه أمام عدو يفوقهم عدداً وعدداً ثلاث مرات ، ومزوداً بسلاح من الفرسان خطير .

تجاه ذلك يجب — مهما كان الثمن — أن يسبق المسلمون إلى آبار بدر . فأخذوا في السير حتى وصلوا إلى أعلى الوادي ، وكان الوادي من الجذب بحيث لم يجدوا به قطرة ماء .

ونفذ ما كان مع المسلمين من الماء . فلما كان الغد بلغ بهم الظمأ حدّاً أليماً من العذاب . وانتهاز الشيطان هذه الفرصة ، فوسوس إليهم : « انظروا إلى ما قادكم إليه ذلكم الذي يزعم أنه رسول الله القادر ! ها هم أولاء الأعداء ، لا يحصيهم العد ، يحيطون بكم ، ولا ينتظرون إلا أن تخور قواكم من شدة الظمأ ، فيلتهموكم التهام القرية السهلة التي لا تجد من يحميها . وأخذت وسوسة الشيطان تدور برءوسهم . . .

ومن حسن الحظ أن تعودهم الظمأ في صيام شهر رمضان قوى من صبرهم . وفي الوقت الذي بلغت فيه الحرارة أشدها ، وأرسلت الشمس شعاعها كشواظ من نار ،

وكاد ينفد الصبر ، أرسل الله إليهم السحب تتوج القمم والآكام ، وتفجرت عن الغيث المنعش .

نهل المسلمون منه وعلوا وحفروا حفراً صغيرة امتلأت بالماء فغسلوا فيها ثيابهم التي كانت تنضح عرقاً وتطهروا للصلاة ، ولم تقف فائدة المطر عند ذلك : فقد كان طريقهم في الوادي ليناً تغوص فيه الأقدام ، فلبد لهم المطر الأرض ، ولم يمنعهم عن السير .

«وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ ، وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ»^(١) ، وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ ، وَيَثْبُتَ بِهِ الْأَقْدَامُ*»
[سورة الأنفال ، ١١]

وعلى العكس كانت هذه العاصفة ، ضرراً على المشركين : فقد أصابهم منها ما لم يقدروا على أن يرتحلوا معه . فقد كانوا في أرض سبخة ، وكانت إبلهم تنزلق ، وتخر على الأرض ، وأرجلها الطويلة ممدودة وراءها في صورة تبعث على الضحك ، وكانت قوائم الخيل تغوص في الأرض وتعجز عن إخراجها ، ويحاول الفارس تخليصها من الأرض فترتمى عليه الفرس ، وساد الاضطراب وعمت الفوضى ، وعرق كل ذلك من سيرهم ، وأنهك قواهم .

أما المؤمنون ، وقد تطهروا وانتعشت نفوسهم ، فإنهم قضوا ليلة في هدوء ، مريحة ، حتى لقد أهملوا الحراسة واثقين كل الثقة فيما أنخبر به الرسول من أن الملائكة ستولى حراستهم ، ولكن محمداً بقي متيقظاً ، مستغرقاً في الصلاة .

«إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسُ أَمَنَةً مِّنْهُ»

[سورة الأنفال]

وجاءت الساعة التي سيقتررفيها مصير الإسلام ، وكان ذلك يوم الجمعة السابع عشر من شهر رمضان .

وكان الحباب بن المنذر مشهوراً بجودة الرأي وإخلاص النصيحة ، فخاطب رسول الله قائلاً : يا رسول الله ، رأيت هذا المنزل ، أمتزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ، ولا نتأخر عنه ، أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟ فقال رسول الله : بل الرأي

والحرب والمكيدة . فقال : يا رسول الله ، فإن هذا ليس بالمتزل ، فانهض بالناس حتى نأتى أدنى ماء من القوم فننزله ، ثم نغور^(١) ما وراءه من القلْب^(٢) ، ثم نبني عليه حوضاً فنملؤه ماء ، ثم نقابل القوم فنشرب ولا يشربون . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أشرت بالرأى . ثم أخذ رسول الله ينفذ النصيحة خطوة فخطوة ، وتحدد بذلك مكان الموقعة : فسيضطر المشركون ، بلا شك ، إلى الحضور لينازعوا المسلمين على الماء ، فليس في الوادى غيره .

وقام سعد بن معاذ ، فقال : يا نبي الله ، ألا نبني لك عريشاً^(٣) تكون فيه ، ونعد عندك ركائبك ، ثم نلقى عدونا ، فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا ، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحققت بمن وراءنا من قومنا ، فقد تخلف عنك أقوام ، يا نبي الله ، ما نحن بأشد لك حباً منهم ، ولو ظنوا أنك تلتقى حرباً ما تخلفوا عنك ، يمنعك الله بهم ، يناصحونك ويجاهدون معك . فأثنى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، خيراً ، ودعا له بخير .

وقطع المسلمون غصون الأراك ، وألفوا بينها حتى صارت عريشاً ، فغطوه بأعواد الطرفة . فأوى إليه رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يرافقه أبو بكر ، رضى الله عنه . وأتت الطلائع الأولى لفرسان الأعداء ، تسير في خيلاء ، على مرأى من الرسول ، فلما رآها قال : اللهم هذه قريش ، قد أقبلت بخيلائها وفخرها ، تحادك^(٤) ، وتكذب رسولك ، اللهم فنصرك الذى وعدتني ، اللهم أحنهم^(٥) الغداة . وتجمع المشركون ؛ فبعد جهدهم بالأمس ليتخلصوا من أحوال السبعة التى كانوا بها ، ناموا ما بقى من ليلتهم ، ثم استيقظوا وقد شعروا بظماً شديداً . وكانت العاصفة من السرعة بحيث لم تملأ الغدران ، أما آبار الوادى فقد ردمها المسلمون ، فلم يجد المشركون ماء يروى ظمأهم .

اشتد بهم الظمأ ، ورأوا البساط السائل منتشراً في الحوض الذى حفره المسلمون ، وكاد شعاع الشمس الذى ينعكس عليه يخطف أبصارهم ، فأثار ذلك من حفيظتهم ، وحرك غرائزهم للانتقام . وأقبل نفر من قريش — معتمدين على سرعة أفراسهم —

(١) فطمس ونردم .

(٢) شبه الخيمة يستظل به .

(٣) الآبار .

(٤) تعاديك .

(٥) أهلكهم .

حتى وردوا الحوض، وفيهم حكيم بن حزام. فأراد المسلمون أن يصبوا إليهم سهامهم، فقال - صلى الله عليه وسلم - دعوهم. فما شرب منه رجل يومئذ إلا قتل، إلا ما كان من حكيم بن حزام فإنه لم يقتل، ثم أسلم بعد ذلك، فمحسن إسلامه^(١). أما الأسود المخزومي فقد ركب كبريائه، وأعجب بقوته، فصرخ بحيث يسمعه المسلمون والمشركون قائلاً: وحق آلهتنا، وحق اللات والعزى، لأشربن من حوضهم، أو لأهدمنه، أو لأموتن دونه. فلما خرج، خرج إليه حمزة بن عبد المطلب، فلما التقيا ضربه حمزة فأطار قدمه بنصف ساقه، وهو دون الحوض، فوقع على ظهره، ورجله تشعب دمًا نحو أصحابه، ثم حبا إلى الحوض في مهارة مذهشة، وأسرع نحوه، يريد أن يبر يمينه، ولكن حمزة أدركه فقصى عليه.

وعلى إثر ذلك خرج ثلاثة من أبطال المشركين يدعون المؤمنين إلى المبارزة الفردية، وهم: عتبة بن ربيعة؛ وابنه الوليد بن عتبة، وأخوه شيبة بن ربيعة. فأرسل إليهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عبيدة بن الحارث، وحمزة، وعليًا. فأما حمزة فلم يمهل شيبته أن قتله، أما علي فلم يمهل الوليد أن قتله، واختلف عبيدة وعتبة بينهما ضربتين، فأثبت^(٢) كل منهما صاحبه فوقعت الضربة في ركة عبيدة، فأطاحت رجله، وصار مخ ساقه يسيل، فأصبح تحت رحمة عدوه، فأدركه علي وحمزة فأجهزا على خصمه. ثم احتملا صاحبهما - في رفق - إلى جوار الرسول الذي أسند رأسه ووضعه على فخذه؛ وأخذ يواسيه: ويبشره بالثواب الذي ينتظره بين أرجاء الفردوس الفسيحة؛ ولم يلبث عبيدة أن لفظ النفس الأخير. فكان أول شهيد في الجهاد.

بعد هذه المبارزة الفردية التي أثارت العواطف الحربية بين جوانح المحاربين، لا يمكن أن يطول انتظار النزال بين هذين الجمعين. فأخذ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يعدل جيشه كتفًا بكتف، في صفوف متلاصقة كالبنيان المرصوص، وأخذ يكبح شكيمة هؤلاء المتهورين، الذين يريدون أن يتقدموا لجمع إلى القتال، فيلاقوا، بلا شك، مصرعهم دون فائدة تعود على المسلمين من ذلك.

(١) كان إذا اجتهد في يمينه، قال: لا والذي نجاني يوم بدر.

(٢) جرحه جراحة لم يقم معها.

من هؤلاء سواد بن غزبة ، فقد برز من صفه ، فضر به رسول الله بقده (١)
كان بيده ، وقال : استويا سواد .

فقال : يا رسول الله ، أوجعتني ، وقد بعثك الله بالحق والعدل ، فأقذني (٢) .
فقال رسول الله : اقتص مني .

فقال سواد : كيف وقد ضربتني على بطني العريان ؟

فكشف له رسول الله — صلى الله عليه وسلم — عن بطنه ، وقال : استقد يا سواد .
فاعتقه سواد فقبل بطنه .

فقال : ما حملك على هذا يا سواد ؟

فقال : يا رسول الله ، حضر ما ترى ، فأردت أن يكون آخر العهد بك أن
يمس جلدي بجلدك .

فدعا له رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بخير .

عدل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — الصفوف ، وأمر أصحابه أن
لا يحملوا حتى يأمرهم ، ورجع إلى العريش يرافقه أبو بكر ، فدخله ، وكان على بابه
سعد بن معاذ ممثشقاً سيفه ، فأخذ رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يناشد (٣)
ربه ما وعده من النصر ، ويقول فيما يقول :

اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد ، واستغرق في الدعاء والتضرع حتى
سقط رداؤه دون أن يشعر ، فأعاده أبو بكر وهو يقول : يا نبي الله بعض مناشدتك
ربك ، فلأن الله منجز لك ما وعدك . وقد خفي (٤) رسول الله — صلى الله عليه وسلم —
خفقة وهو في العريش ، ثم انتبه فقال : أبشر يا أبا بكر ، أناك نصر الله ،
هذا جبريل ، آخذ بعنان فرس يقوده ، على ثناباه النقع (٥) .

ثم خرج رسول الله — صلى الله عليه وسلم — من العريش ، يحرض الناس
على القتال مكرراً : «سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ» ، والذي نفس
محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً ، مقبلاً غير مدبر ، إلا أدخله
الله الجنة .

(٢) اقتص ل من نفسك .
(٤) نام نوماً يسيراً .

(١) القلح : المسم .
(٣) يسأله ويضرع إليه .
(٥) النبار .

وسمع عمير بن الحمام ذلك ، وكان في يده تمرات يأكلهن ، فرمى بهن ، وقال :
 بخ بخ^(١) ألفا بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء ؟ .. وامتشق سيفه ،
 واقتحم صفوف المشركين مخضباً الأرض بدمائهم ، واستمر يقاتل القوم حتى
 قتل .

وسأل أحد المؤمنين قائلاً : يا رسول الله ، ما يُضْحِكُ^(٢) الرَّبَّ مِنْ عِبْدِهِ ؟
 قال — صلى الله عليه وسلم — : غَمَسُهُ يَدَهُ فِي الْعَدُوِّ حَاسِراً^(٣) .
 فنزع درعاً كانت عليه ففقدوها ، ثم امتشق سيفه يخضبه بدماء العدو .
 وأصبح من المستحيل صبر المسلمين ، على تلك الحال ، فأخذ رسول الله ،
 صلى الله عليه وسلم — حَفَنَةً من الْحَصَبِ ، فاستقبل قريشاً بها ، ثم قال :
 شَهِتَ الْوَجُوهَ . ثم نَفَحَهُمْ بها ، وأمر أصحابه فقال : شدوا .

وانقض المسلمون كل أعصار هائل على المشركين ، وكان للاضطدام ضجيج
 قد بلغ سنان السماء ، وكانت قعقة السلاح ، وصراخ البائسين ، وصياح المنتصرين ،
 كان كل ذلك يردده الصدى من جوانب الوادي ، ويرافقه ضوضاء غريب ،
 متقطع كضرب الطبول المضطربة .

حدث رجل من بني غفار قال : أقبلت أنا وابن عم لي حتى أصعدنا في
 جبل يُشْرِفُ بنا على بدر ، ونحن مشرکان ، ننتظر الواقعة ، على من تدور الدائرة
 فننتهب مع من ينتهب .

وفجأة ، وفي وقت ارتجف فيه المسلمون ، رأيت في أعماق الوادي ، من وراء
 جيش الإسلام ، عموداً من التراب ، يرتفع ويقرب في سرعة عجيبة ، ومن
 خلال شكله الحلزوني كانت تطير وتختفي أشباح غريبة مرعبة ، وكان العمود
 في سرعته يهدد السحاب ، وكأنه حرب عوان أقامت الأرض في ثورة ضد السماء .

وكان يخرج من هذا العمود أصوات غريبة أيضاً ، كدت منها أموت فزعماً ،
 كان منها صهيل الخيل وقدحها بحوافرها وهي تعدو ضبحاً ، وكان منها خفق

(١) كلمة تقال لتعظيم الأمر والتعجب منه .

(٢) يرضيه غاية الرضى .

(٣) لا درع له .

الأجنحة الضخمة ، وقرع الطبول ؛ وسمعت صوتاً آمراً ، ساد كل هذا الضجيج يقول : أقدم ، حيزوم^(١) .

وما هي إلا طرفة عين حتى أصبح هذا الطائر الخفيف بجوار المسلمين ، وانقض معهم على صفوف المشركين ، ولم يلبث أن أحاط بنا وغمرنا في ظلمته الداكنة ، فلم أعد أرى رفيقي ، وكدت أفقد وعيي من الفزع ، وكانت رياح المعركة تدفعني في كل اتجاه ، فتشبثت - تشبث المستميت - بأطراف الصخور ، حتى لا أطيح معها كذرة من حطام ، ولقد تمزقت أذني من الصيحات المزعجة ، التي أضيف إليها إذ ذاك اللعنات تقذف بها الأفواه ، وأنين الجرحى ، وسباب المنهزمين بملء أفواههم ، وكنت لا ترى في ظلام هذه الموقعة سوى لمعان السيوف ووميض الخناجر ، وبريق الحراب .

وانتهت العاصفة فرأيت رفيقي ملقى على الأرض بجاني ، وقد انشق صدره وانكشف قناع قلبه . وكانت الجثث ، لا تعد ، ملقاة على الأرض تغطيها ؛ أشبه بجذوع أشجار أطاحت بها الأعاصير ، وعلى بعد كان جنود الإسلام ، يغمرهم شعاع الشمس ، يكرون وراء الهاربين .

هذا العمود الطائر إنما كان أثراً لجبريل وهو على فرسه حيزوم ، يقود ثلاثة آلاف من الملائكة لإغاثة المسلمين ، وكان إيمان المسلمين من الحرارة بحيث كان لا بد من انتصارهم ، وأعانت العاصفة المسلمين على هذا الانتصار ، فكانت أمواج الرمال تضرب في وجوه المشركين ، وتؤذى بشرتهم ، وتملأ بالتراب أفواههم وأنوفهم ؛ وكان المشركون لا يدرون أين يضربون وعن أى وجهة يدافعون .

أما المسلمون ، فقد كانوا على العكس : يشعرون أن قوتهم تزداد بدفع العاصفة ، وكانت أعينهم المبصرة تجعلهم يتقون هجوم الأعداء وتجعلهم يضربون في ثبات وإصابة للهدف . وفضلاً عن ذلك كانوا يشعرون بأن قوة خفية أسمى من الطبيعة تضاعف من قوة سواعدهم ومن نشاطهم ، لدرجة أنهم كانوا يشعرون بأنهم يضربون في الهواء : إذ أن أسلحتهم كانت تنفذ في أعدائهم في سهولة لم تكن تتصور ، ولم يشعروا في ذلك بأية مقاومة .

(١) أقدم : كلمة تزجر بها الخيل ، وحيزوم : اسم فرس جبريل عليه السلام .

يقول أحد الذين حضروا غزوة بدر : « لم أكد أتوعد أحد الروس بأني سأحزه بسيفى ، حتى رأيته يطير عن كتفى عدوى ويهوى إلى الأرض متدحرجاً قبل أن يمسه ذباب سيني » .

قتل فى هذه المعركة سبعون من المشركين ، ومن هؤلاء كل الذين تعاهدوا على قتل الرسول فى مكة : « فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ » [سورة الأنفال] . وكان من ضمن قتلى المشركين أربعة وعشرون من أشرف قريش ، أمثال عتبة والوليد ، وشيبة ، وأمىة بن خلف ، وحنظلة بن أبى سفيان ؛ وأهم من هؤلاء جميعاً قائد الحملة أبوجهل .

كان المسلمون يعلمون أن أباجهل هو المحرك لكل المؤمرات التى تحاك ضد رسول الله ، فأخذوا يبحثون عنه ، وتمكن معاذ بن عمرو من الوصول إليه ، فضربه ضربة أطارت قدمه بنصف ساقه ، وأسرع عكرمة بن أبى جهل لإغاثة أبيه وللثأر له ، فضرب معاذاً على عاتقه فطوح بيده التى تعلقت بجلده من جنبه ، وضايقته فى القتال فسحبها خلفه ، ولكنها بقيت حملاً عليه أيضاً . يقول معاذ : فلما آذنتى وضعت عليها قدمى ، ثم تمطيت بها عليها حتى طرحتها . ثم مر بأبى جهل ، وهو عقير ، فتيان من الأنصار هما ولدا عفراء وهو على فرسه ، فطعنانه حتى هوى عن فرسه .

واهتم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بالبحث عن مصير أبى جهل ، وأمر أن يلتمس فى القتلى ؛ فذهب عبد الله بن مسعود للبحث عنه فوجده بأخر رمق ، فوضع رجله على عنقه ، كما يضع الإنسان رجله على أفعى ؛ ولكن فى اللحظة التى يوشك عبد الله أن يقضى عليه فيها ، أخذ أبو جهل بلحيته ، وأرسل إلى عينيه نظرات سكرى من الغيظ العاجز ، وصرخ فى حشجة : « لقد ارتقيت مرتقى صعباً يا روىعى الغنم » .

ولأجل أن يضع ابن مسعود حداً لسباب هذا الملحد احتز رأسه وجاء بها رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وحينما رأى رسول الله وجهه عدوه الدامى قال : « الله الذى لا إله غيره » . ثم حمد الله ، ثم قال : « هذا فرعون هذه الأمة » . وتحت شعاع الشمس الملتهب بدأت الجثث تفسد ، وأخذت الوجوه المنتفخة

لون القار ، وهذه الظاهرة جعلت المسلمين يعتقدون أن المشركين قد صرعوهم جند السماء ، وأنهم اختنقوا بلهيب من نار جهنم . وتفق رسول الله — صلى الله عليه وسلم — الميدان ، سائراً بين القتلى ، آمراً بدفن الجثث دون تفرقة بينها .

ولما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بهم أن يلقوا في القليب^(١) ، أخذ عتبة ابن ربيعة ، فسحب إلى القليب . فنظر رسول الله — صلى الله عليه وسلم — في وجه أبي حذيفة بن عتبة ، فإذا هو كتيب قد تغير لونه ، فقال : يا أبا حذيفة ، لعلك قد دخلك من شأن أبيك شيء ؟ فقال : لا والله يا رسول الله ، ما شككت في أبي ولا في مصرعه ، ولكنني كنت أعرف من أبي رأياً وحلماً وفضلاً ، فكنت أرجو أن يهديه ذلك إلى الإسلام ، فلما رأيت ما أصابه ، وذكرت ما مات عليه من الكفر ، بعد الذي كنت أرجو له ، أحزنني ذلك . فدعا له رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بخير وقال له خيراً .

جىء لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — بناقته فركبها وذهب إلى القليب حيث أمر أن يدفن فيه أربعة وعشرون من أعدائه ، فلما وصل إليه نزل عن ناقته ، وأخذ يسأل الموتى ، كلا باسمه ، يقول :

يا أهل القليب ، يا عتبة بن ربيعة ، يا شيبه بن ربيعة ، ويا أمية بن خلف ويا أبا جهل بن هشام (فعدد من كان منهم في القليب) هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ؟ فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقاً .

فقال له عروة : يا رسول الله ، أتكلم قوماً موتى ؟ قال : والذي نفس محمد بيده ، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ، ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبوني .

وهكذا ، عرفه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن هؤلاء المشركين وقد أصبح مسكنهم النار ، لم يجدوا مناصاً من الاعتراف بصحة ما حدثهم به الرسول صلى الله عليه وسلم في حياتهم . وبهذا المعنى يفسر حديث عائشة الذي يشرح هذا الموقف إذ أن القرآن يقول : « إنك لا تسمع الموتى . . . » [سورة الروم ٥٢] أما المؤمنون فلم يفقدوا سوى أربعة عشر : ستة من المهاجرين ، وثمانية من

الأنصار . وهؤلاء - وقد أصبحوا خالدين على مر الزمن - أول الشهداء الذين استشهدوا في الجهاد .

الإقامة ببدر ثم العودة إلى المدينة :

ومكث رسول الله صلى الله عليه وسلم ببدر ثلاثة أيام ليدفن الموتى ، ويجمع الغنائم التي أقام على حراستها أحد أفراد بني النجار ، ثم تاهب للعودة إلى المدينة ؛ وبعث أمامه زيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة ليبشرا أهل المدينة بالانتصار ، فوصلوا في ساعة حرجة بالنسبة للمسلمين . قال أسامة بن زيد : أتانا الخبر حين سويتنا التراب على رقية بنت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - التي ماتت إثر مرض أليم ، وكانت زوجة عثمان بن عفان ، وكان المنافقون واليهود ، إذ ذاك ، يذيعون الشائعات الخطيرة التي تقض مضاجع المسلمين ، عن مصير الرسول في بدر ؛ ويتأهبون لمهاجمة أنصاره . . .

وسرت البشرى في جميع أرجاء المدينة مسرى البرق ، فأشاعت القلق في نفوس المنافقين واليهود ، والطمأنينة والتحمس في نفوس المؤمنين الذين خرجوا للملافة المنتصر زرافات ، زرافات ؛ رجالاً ونساء وأطفالاً ؛ ضاربين على الدفوف ، ينشدون بأنشودة الاستقبال التي استقبلوا بها الرسول عند دخوله المدينة أول مرة :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع

هذه الغزوة الخالدة ، التي لم يكن بها من المحاربين إلا عدد قليل ، كانت نتائجه من الأهمية بحيث غيرت وجه العالم ، وأصبح وادي بدر مزاراً لآلاف من الحجاج كل عام .

يقول الرحالة ابن جبير عن بدر : إن قرية تقوم هناك الآن ، محاطة بسياج . . وعلى القليب ، حيث دفن المشركون ، غرست طائفة من أشجار النخيل ، وعلى بعد خطوات من هناك ، مقابر الشهداء .

وعلى شمال الطريق الآن من الصفراء يمتد جبل الرحمة ، حيث نزلت الملائكة من السماء .

أما العريش الذى كان فيه الرسول ، فإنه كائن — كما يقولون — على حافة جبل من الرمال ، يسمى «جبل الطبول» ، ويسمع الحاج عادة فيه قرع الطبول التى لا يعرف مصدرها ، ولا يدرك سرها ، والتى تحيى ذكرى أول انتصار للإسلام .

وكان عدد الأسرى سبعين كعدد الذين قتلوا ، وكانوا ينتسبون — فى الأغلب — إلى أكبر أسر المشركين ، وكان من بينهم اثنان ، هما : عقبة والنضر ، قد تجاوزا فى إيذاء الرسول كل حد ، فحكم عليهما بالإعدام ونفذ الحكم .

ولم يكن العباس ، عم محمد ، قد اعتنق الإسلام . وقد اضطر إلى البقاء بمكة للتجارة ، ثم لحق بالقافلة المهددة ، فوجد نفسه فى عداد الأسرى . ولم تجد ضخامة جثته وقوته شيئاً ، إذ أسره ضعيف من الأنصار ، فكان ذلك مثار دهشته ، وضاق بالحبال التى كانت تربطه وتشد جسمه فى قسوة ، فأخذ يتنهد . ثم لحقه مؤمن رحيم القلب تذكر كرم العباس وقرابته من النبي فخفف شيئاً من قيوده . وعلم محمد بالأمر ولم يكن يرى أن يلتقى أفراد أسرته أى نوع من المحابة ، فأمر بتخفيف قيود سائر الأسرى على نحو ما كان بالنسبة إلى العباس .

وبقى أن يبيت فى مصير كل هؤلاء الأسرى .

ورأى أبو بكر أن تقبل فديتهم ، لما بين الغالبيين والمغلوبين من أواصر القرابة . أما عمر فى شدته ، فكان يرى أن يقضى عليهم جميعاً لما تسببوا فيه من اضطهاد للمسلمين وإخراج للرسول من مكة . وتساوى عدد الصحابة المنضمين إلى كل من الرايين .

فرأى الرسول رأى أبى بكر وأمر باحترام الأسرى الذين ، وإن كانوا قد غلبوا على أمرهم ، إلا أنهم أظهروا شجاعة وإقداماً ، وحث الناس على معاملتهم معاملة طيبة . وفك قيودهم ، ووزعهم على المسلمين الذين كلّفوا بحراستهم . ونفذ هؤلاء المسلمون تعليمات الرسول فى دقة ، فعاملوا أسراهم أحسن معاملة ، حتى لأنهم كانوا يؤثرونهم على أنفسهم بالخبز ويكتفون بالتمر .

وقد ردت فدية كل أسير حسب ثروته . فكانت فدية العباس عم محمد أكبر فدية . وسرح بعضهم ، لفقرهم ، دون مقابل . وأضاف محمد إلى ذلك أن طلب

من كل أسير يعرف الكتابة والقراءة أن يعلمها لاثنتين من أولاد الأنصار قبل أن يطلق سراحه نهائياً .

وكان من بين الأسرى أبو العاص بن ربيعة ، وهو من وجهاء القوم وأغنيائهم ، تزوج زينب بنت الرسول قبل الوحي ، وظل على إشراكه . وقد بعثت زينب من مكة فدية له مبلغاً من المال وعقدت له إهدته إليها أمها خديجة عند زواجها . ورأى محمد العقد الذي كان قد رآه من قبل في عنق زوجه المحببة خديجة ، فعرفه ، وثارت له في نفسه شجون ، فسأل المسلمين إعادة الفدية إلى زينب وإطلاق سراح زوجها . فلم يعترض أحد على ذلك ، فأطلق محمد سراح أبي العاص على شريطة أن يبعث إليه بابتنته ، لأن المسلمة لا يمكن أن تبقى في ذمة المشرك . وقبل المشرك الشرط وإن لم يكن مستريحاً إليه . فعاد إلى مكة وبعث بزينب إلى المدينة . وعلم القرشيون برحيل زينب فتتبعوا خطاها ، ولحقها أحدهم فلطمها في قسوة ، بكعب رجمه ، فوقعت من هودجها . ثم وصلت تلك المرأة الخزينة المدينة وكانت حاملاً ، فماتت بعد قليل من آثار ما لاقته من قسوة المشركين .

وغضب الرسول لهذا ، فأمر المؤمنين إذا تمكنوا من الرجل الذي كان سبباً في موت زينب أن يحرقوه حياً . ثم رجع عن هذا الأمر لأنه رأى أن الله وحده - سبحانه - مالك الملك - الحق في إحراق الناس في جهنم .

أما أبو العاص فقد أسره المسلمون ثانية وهو يقود قافلة إلى الشام ، فأطلقه الرسول مرة أخرى ، فأسلم .

وهكذا حاول محمد ، في كل مناسبة أن يظهر كرمه بالنسبة إلى الأسرى من قبيلته . وكان نتيجة هذا أن أسلم عدد من أهل مكة ، أعجبهم ما رواه الأسرى الذين شهدوا عند عودتهم بحسن معاملة المسلمين لهم .

ولكن ألم تكن هذه الرحمة بأعداء الله ضارة وخطرة بالنسبة إلى مستقبل الإسلام ؟

لقد جاء الوحي ينبيء الرسول بسوء العاقبة ويلومه على ما فعل . فحزن محمد حزناً عميقاً عندما علم أن رأفته بالأعداء سوف يترتب عليها استشهاد الكثير من المؤمنين . ولم يكن يعقل في الواقع أن تؤدي هذه الرأفة إلى إيقاف القتال .

وكادت مشكلة تقسيم الغنائم بعد الانتصار تثير الفتنة بين المسلمين . فقد رأى هؤلاء الذين تلقطوا الغنائم أن يحتفظوا بها كلها لأنفسهم . أما الذين قاتلوا ولم يفكروا في الغنم وسلب الموتى ، فقد طالبوا بنصيبهم . وقالوا : إنه لولاهم لما استطاع أحد أن يغنم أو يسلب شيئاً . ورأى جند المؤخرة أنه ، لولا حرصهم على الإحاطة بالرسول ، لقاتلوا وغنموا وسلبوا كالأخرين . ولغظ القوم وكادت الفتنة تدب بينهم ، فجاء الوحي بفصل الخطاب .

« يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ ، قُلْ : الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ »

وعاد محمد إلى المدينة ، فقسم الأنفال بكل دقة ، وقرر أن يأخذ جند المؤخرة نصيبهم منها ، وكذلك بعض المؤمنين الذين قعدوا في المدينة لخدمة الإسلام في غياب قائده .

واستطاع محمد بذلك أن يرضى الجميع . ولم يستبق لنفسه إلا نصيب الجندى البسيط . ولكنه تقرر أن يكون فيما يستجد من الغنائم : أن

« لِلَّهِ خُمُسُهُ وَلِلرَّسُولِ ، وَلِذِي الْقُرْبَى ، وَلِالْيَتَامَى ، وَالْمَسَاكِينِ ، وَابْنِ السَّبِيلِ »

وظن أهل مكة أن قافلتهم الكبرى التي سببت لهم الكثير من القلق ، عائدة . فأعدوا العدة لاستقبالها في أعراس وأفراح . ولكنهم رأوا فلول جندهم مقبلين ، فلم يصدقوا في أول الأمر هذه الخسارة العظيمة ، لشدة إيمانهم بتفوق جنودهم في العدد والعدة ، فلاقوا الهاربين من الجند أسوأ لقاء ظناً منهم أنهم بعض الخونة فروا من المعركة قبل انتهائها .

ولكن جاء النبا اليقين بعد قليل ، وانكشف الشك عند أعداء الله عن يأس عميق . واثرت ثائرة أبي لبب — المنظم الحقيقي للحملة — عند ما حكى له أحد الهاربين الأمور العجيبة التي شهدوها والتي تفسر في رأيه هزيمة قريش ، فقد رأى المسلمين يتلقون عوناً من السماء يمكنهم من أعدائهم ، ورأى يقيناً ، في سحب العاصفة ، جنداً عجباً في أثواب بيضاء على جياد قوية يقاتلون في صفوف أنصار محمد . وصاح عند ذلك رجل من القوم يقال له أبو ربيعة ، وكان من خدام العباس عم محمد ، مؤكداً أن هؤلاء الجنود الشداد لم يكونوا إلا ملائكة .

وغضب أبو لهب لما رأى من خوف القوم من هذا الحديث وبما أعقبه من التعليقات ، فأخذ بتلابيب الخادم ، فصرعه ، وراح يضربه فى وحشية وقوة شديدة . وثارت امرأة العباس لهذا ، فصرخت فى أبى لهب تعنفه على ضربه الخادم فى غياب السيد ، وعلته بقطعة خشب وضربته بها فأدمت رأسه . ولم يغضب القوم لذلك ، إذ رأوا أن أبا لهب يستحق ما ناله من عقاب ، فقام الرجل يخفى خزيه وسخطه فى عمر داره ، وكان مريضاً فلم يستطع بعد ذلك مقاومة ما ثار فى نفسه من ألم وخزى ، ففسد دمه واكتسى جسمه بدمامل حمراء يقال لها عدسات ، ومات من دائه فى سبعة أيام .

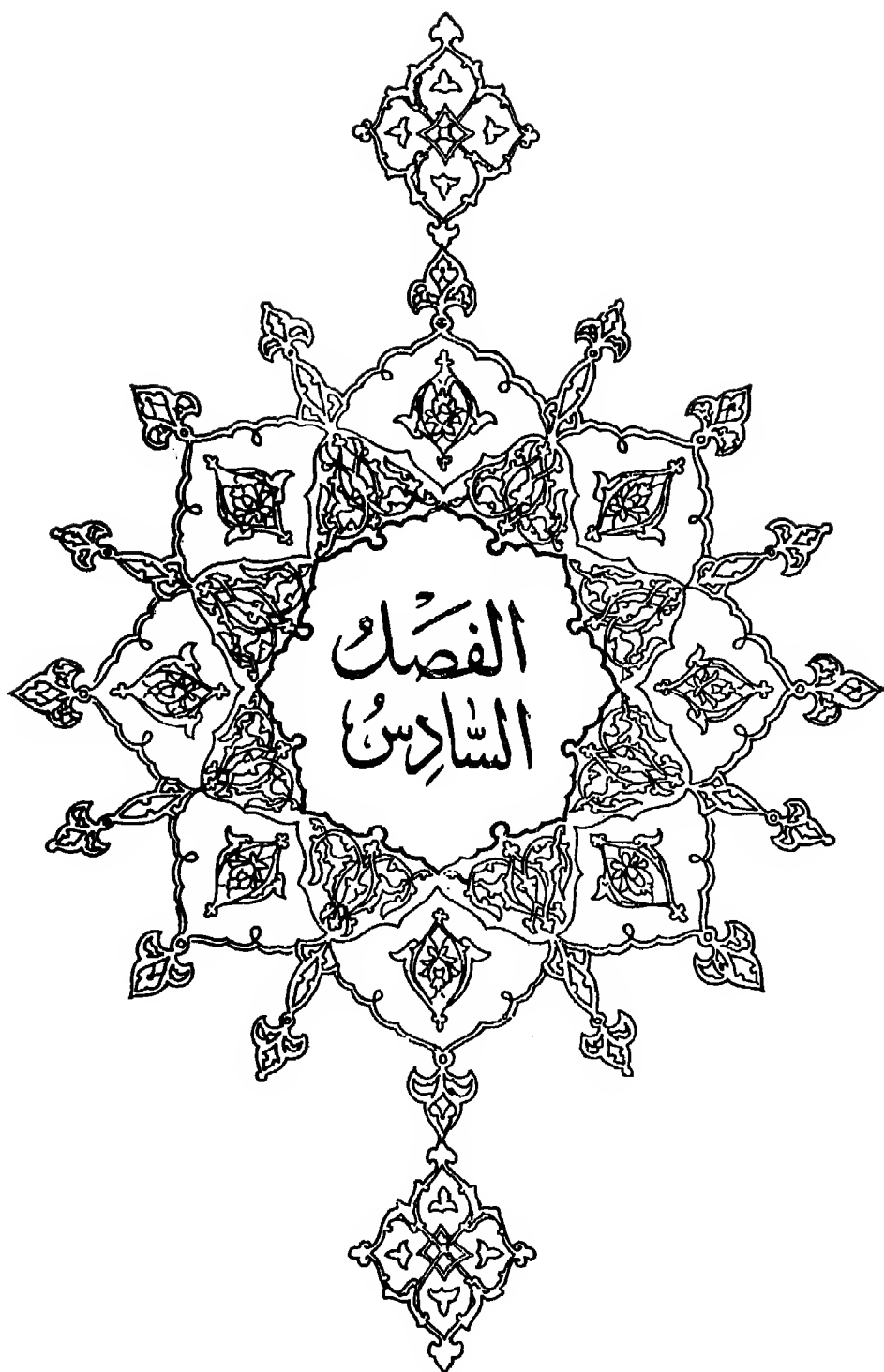
أما أبو سفيان وامراته هند فقد آلمهما موت ابنهما حنظلة ، وأحفظهما عار الهزيمة ، فعرفا بين الناس بتعطشهما للنار .

واستعمل أبو سفيان سلطته فى منع مظاهر الألم واليأس بين أهل مكة . فقد رأى فى بكاء الموتى والمآتم التقليدية وقصائد الرثاء أشياء لا تجدى ، ورأى أن حزن قومه من شأنه أن يبعث السرور فى نفوس أعدائه ، فراح يحث الناس على الجدل فى أمر واحد ، ألا وهو طلب النار .

وحلف أن يحرم نفسه من النساء والطيب حتى يروى قلبه بثرأ عظيم . . . وذاع نبأ انتصار النبي بين قبائل بلاد العرب كلها ، فكان له فيها الأثر الفعال .

كذلك تخطى النبأ البحار ، ومشى رسول من محمد بالخبر إلى نهجاشى الحبشة وأنبا المسلمين الذين استجاروا فيما مضى بهذا الملك أن لهم ، إذا أرادوا ، بالمدينة حصناً ومقاماً منيعاً بجوار نبيهم وأهلهم .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا
وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ
الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ

زواج علي :

أصبح علي بن أبي طالب ، بفضل إخلاصه المتناهي وشجاعته التي لا تقاوم وحرصه الدقيق على طاهر السجايا ، أحد أبطال الإسلام المشاهير . غير أن فقره الشديد ألزمه بأن يعمل أجيراً عند أحد الملوك من الأنصار ، فكان يقضى يومه بين الصلاة وري النخيل . ولم يكن — بأعماله الحميدة — أهلاً لتلك الحال المتواضعة ، فجدير به أن يحتل مكانة سامية في أعين الناس .

وقد مر به أبو بكر وعثمان يوماً وهو يَمْتَحُ الماء من بئر ، فوقفاه عن عمله وذكراه برغبته التي كثيراً ما أبداها في الزواج من فاطمة بنت الرسول قائلين : إنه أحق الناس بها . فغضب علي وعتب عليهما أن كلماه في هذا الحلم الذي ظنه محال التحقيق لضيق ذات يده .

لكنهما ألحا عليه أشد الإلحاح ، وأكدوا له استعدادهما لمعاوته . فخلع علي لباس الخجل ، وأتى دار الرسول حاملاً سيفه ودرعه وخفه وكان ذلك كل ماله .

وطرق الباب ، فاستقبله الرسول مرحباً بأحب الناس إليه ، ووقف علي أمامه مطأطئ الرأس في حياء . فسأله النبي عن حاجته . فتكلم علي ذاكراً أن الرسول رباه يتيماً وعطف عليه عطف الآباء على الأبناء حتى كان رجلاً . وهو اليوم يريد أن يكون له بيت وأولاد ، وإلى الرسول يلجأ في هذا طالباً الزواج من ابنته فاطمة . فسأله محمد صلوات الله وسلامه عليه عن المهر . فأجاب علي : أن إعساره معروف ، وأنه جاء حاملاً كل ماله : سيفه ودرعه وخفه .

قال رسول الله : إن السيف للإسلام ليس للرسول أن يقبله ، أما الدرع ففي قوة ذراع البطل غناء عنها ، ويستطيع أن يبيعها ويأتي بثمنها مهرًا لفاطمة .
وفرّح على كل الفرّح ، وراح يبحث عن شار لدرعه . فابتاعها منه عثمان بثمن لا بأس به ، ثم أعادها إليه في ساعته هدية عرس .
وتم الزواج بأن قال محمد لعلي : إن الله قد أعطاه فاطمة في السماء قبل أن يعطيها له محمد في الأرض .

ودعا بلال عددًا كبيرًا من المؤمنين ليستمعوا إلى خطبة نبيهم الذي رأى أن يخبرهم بهيته ابنته لعلي ، وأمر بلالا بإحضار لوازم الزواج المتواضعة ، فاشترى بنصف المهر الأشياء التي لا يستغنى عنها في بيت : حشية ووسادة من ألياف النخيل ، ثم قرية وأوان للطبخ . وأنفق الباقي في الزبد والدقيق والتمر لوليمة العرس .
ودخلت جماعة من النساء يجهزن الزوجة — تبعًا للتقاليد — في حجرة زوجها . فلما رآهن الرسول رجعت به الذاكرة إلى السيدة التي لو كانت على قيد الحياة لما تركت غيرها يقوم بهذا العمل ، رجعت به الذاكرة إلى السيدة خديجة أم فاطمة ، فتملكه حزن شديد ، وسالت دموعه غزيرة على خديه . ولما ولت الذكرى بما تحمل من حزن وألم ، جعل عليًّا إلى يمينه وفاطمة إلى يساره ودعا لهما أن يهبهما الله ذرية صالحة تكون فخرًا للمسلمين .

وقضى الزوجان ثلاثة أيام وثلاث ليال في صلاة وتعب . ولم يقرب عليّ الحبي الخجول زوجته ذات النسب الشريف إلا في الليلة الرابعة ، إذ أراد أن يحقق رغبة الرسول في سلالة من الذكور .

ووضعت فاطمة بعد تسعة أشهر ولدًا سمى الحسن ، ثم جاءت بالحسين بعد مولد الحسن بسنة ، فكان نسل الحسن والحسين ، ذلك النسل الذي عرف بالشريف نسل محمد خاصة .

زواج الرسول بحفصة وبأم الماسكين :

رغبت حفصة بنت عمر — وأرملة خنيس — في الزواج ، فلم يتقدم أحد لخطبتها ، إذ رأى الناس أنفتها وكبرياءها . ولقد عرضت يدها على أبي بكر ثم على عثمان ، فأبيا . وغازب عمر ما لحق بابنته من إهانة ، فشكا حاله إلى الرسول . فقال

النبي الكريم له : إن حفصة سوف تتزوج بخير من عثمان وإن عثمان سوف يتزوج بخير من حفصة . وزوج النبي ابنته أم كثوم لعثمان بينما تزوج هو من حفصة المتكبرة إكراماً لعمر . ولم يمكث طويلاً على ذلك حتى بنى بأرملة عبيدة الذي مات شهيداً يوم بدر ، وكانت تقية رحيمة بالفقراء والضعفاء كثيرة الصدقات ، وقد لقبت من أجل هذا بأُم المساكين .

معركة أحد (سنة ٣ هـ سنة ٦٢٥ م) :

رجع أهل مكة من هزيمتهم في بدر ، فلم تفر لهم بعدها عين ، ولم يهدأ لهم بال ، ونظروا نظرة اليأس إلى مستقبلهم ، فلقد قطع عليهم الرسول بتلك الغزوة الجريئة طريق الشام . ولم تعد القوافل تجرؤ على ارتيادها . وبدأ لهم أن الخراب والمجاعة أقرب إليهم من حبل الوريد . ومن أجل ذلك عزموا على تخصيص الأرباح الهائلة التي تدرها عليهم قافلتهم التجارية الكبيرة لتجهيز حملة تتأثر لقتالهم وتبني الأمن لقوافلهم . وجاء لمساعدة أهل مكة الكثيرون من البدو طمعاً في الأجر الضخم ، وقد استفزتهم قصائد كعب بن الأشرف وأبي العزى الحماسية الملهبة ، فانضموا إلى جيش أبي سفيان .

وكان على رأس ذلك الجيش ، المكون من ثلاثة آلاف مقاتل ، رجال ممن أصيب أهلهم يوم بدر ، كصفوان وعكرمة ، كذلك كان هناك خالد بن الوليد البطل المقدم . ولم تكن النساء أقل تحمساً لطلب الثأر ، فخرجت هند بنت عتبة زوج أبي سفيان ، يرافقها زمرة من صواحبها ، وقد وطدن العزم على سد الطريق في وجه كل جندي يريد الفرار .

* * *

انصرف الفلاحون ، في السهول الحصبة الممتدة شمال المدينة ، إلى الأعمال في حقولهم ورعى قطعانهم في وداعة وهدوء ، ولم يدروا أن جند أبي سفيان قد نزلت من شعاب الجبال الغربية ، حتى باغتتهم بفضل ما اتخذته من حيلة شديدة لإخفاء مسيرها السريع . ورأى الفلاحون المسالمون الجند ، وعلموا أنهم لن يقدرُوا على مقاومتهم ، فولوا هاربين مسرعين لينقذوا أنفسهم من الموت المحقق ، وليخبروا لإخوانهم بقدم أعداء الله .

ووقف أهل المدينة فوق أسوار حصنهم يشهدون منظرًا تقطعت له أكبادهم وأكباد الفلاحين أصحاب الأرض : إذ وقفت إبل المشركين كسراب من الجراد الهائل على الحقول الخضراء ، بينما انقض المشاة على الأنعام يذبحونها ، والفرسان على الغلات الناضجة يدوسونها ، ويبعثونها ؛ وهم في ذلك إنما يقودهم ازدياء التجار لأعمال الفلاحة .

ولإزاء ذلك الخراب الذى جرى تحت أنظارهم ، وجد المؤمنون أنفسهم ، في وقت واحد ، في أشد حالات العجز والغضب ؛ إذ رأوا السهل الرحب وقد أصبح مجالا لفرسان الأعداء ، الذين لا قبل لهم بهم . وكان ملجؤهم الأخير فطنة رسول الله ، فالتفتوا حوله يستشيرونه ، وقد أبدوا استعدادهم لكل تضحية ، مهما عظمت ، في سبيل إنقاذ حقوقهم وأموالهم .

ولقد رأى محمد رؤيا ، قال : « إني قد رأيت والله خيرا ، رأيت بقرًا تذبح ، ورأيت في ذباب سيفي ثلما ، ورأيت أنى أدخلت يدي في درع حصينة ، فأولتها بالمدينة . . . فأما البقر فهي ناس من أصحابي يقتلون ، وأما الثلم الذى رأيت في ذباب سيفي فهو رجل من أهل بيتي يقتل ، فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم حيث نزلوا ، فإن أقاموا أقاموا بشر مقام ، وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها » .

وكانت تلك الخطة الحربية خطة يعرفها أهل المدينة ، غير أنهم ، وقد أسلموا وانتصروا في بدر ، تغير حالهم ، فأصبحوا يرون أنفسهم قومًا لا يقهرون ، فضاقوا ذرعًا بتخريب الأعداء لحقولهم . وكذلك كان المؤمنون من الذين لم يشهدوا بدرًا يتحرقون شوقًا إلى إظهار بسالتهم بدورهم ، ولم يكن شرًا لهم التعرض للاستشهاد الذى تهفو نفوسهم مخلصه إليه .

ولم يعارض فكرة الهجوم إلا عبد الله بن أبى بن سلول زعيم المنافقين ، الذى وجد نفسه لأول مرة يرى رأى الرسول . غير أن محمدًا لم يرد أن يقاوم الرغبة الملحة التى أبدأها مخلصو المؤمنين ، وما كان ليكبت حماسهم ، فعزم على الأخذ برأيهم الذى أبته نفسه في تبصرها وفطنتها . فلما صلى العصر بالناس دخل بيته ليرتدى لأمتعته . وأعد الجند عديتهم من جانبيهم ، ثم أحاطت جموعهم المحتشدة ببيت الرسول ، الذى ما لبث أن خرج لهم مظهرًا درعه ، لابسًا خوذته ، متقلدًا سيفه

ملقيًا بالترس على ظهره ، وممسكًا برمحه . ولكن المؤمنين حينما كانوا ينتظرون النبي ، تبصروا في أمرهم ، فندموا على ما اتخذوه في عجلتهم من تدابير ، فقال زعمائهم للمصطفى ، وقد هالهم ما بدر منهم من معارضته : « يا رسول الله استكرهناك ولم يكن لنا ، فإن شئت فاقعد » .

فأجابهم محمد : « ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل » . وكان عدد جند المؤمنين يبلغ الألف من المشاة ، غير أنه لم يكن في جيشهم إلا جوادان . وقد دفع لواء المهاجرين إلى مصعب بن عمير ، وسلم لواء الأوس إلى أسيد ، أما لواء الخزرج فكان بيد الحباب .

وارتحل الجند قبيل غروب الشمس مولين وجوههم شطر الشمال . ولكنهم ما كادوا يبرحون أسوار المدينة حتى لحقت بهم كتيبة يهودية مؤلفة من ستمائة مقاتل على تمام الأهبة والسلاح ، وكانوا من حلفاء عبد الله بن سلول المنافق من اليهود ، وجاءوا بإيعازه يعرضون على النبي مساعدتهم . ولكن النبي كان عليماً بمكنون سرهم ، فخاف خيانتهم ، وردهم قائلاً : إن الله يغنيه عن مساعدتهم .

واغتاظ عبد الله إذ رد حلفاؤه ، فقام بين الجند ينشر بذور القلق والشقاق في نفوسهم ، ويقول : « أطاعهم وعصاني ، ما ندرى علام يقتل أنفسنا ها هنا أيها الناس ؟ ! » .

فانحاز إليه ثلث الجيش الصغير الذي لم يبق منه إلا ما يقرب من السبعمائة رجل ، وقفل المنافق راجعاً إلى المدينة في المنخزلين ، وتشيعهم سخرية المسلمين الخالصين .

وفي اليوم التالي ، يوم السبت الحادى عشر من شهر شوال ، ارتحل الرسول بجنده قبيل الشروق ، وطلب دليلاً يستطيع أن يقود الجند دون أن يراهم العدو في مسالك جبل أحد الذي يرتفع منعزلاً وسط السهل ، فتقدم أبو خيثمة ونفذ بهم في حرة بني حارثة وأموالهم ، حتى سلك في مال المربع . وكان رجلاً منافقاً ضريـر البصر . فلما سمع صوت رسول الله ومن معه قام يصيح : « إن كنت رسول الله فلاني لا أحل لك أن تدخل حائطي » . ثم مال إلى الأرض ، وقبض على حفنة تراب واعتدل قائلاً : « والله لو أعلم أني لا أصيب بها غيرك يا محمد لضربت بها وجهك » .

فأراد المؤمنون أن يعاقبوا ذلك المنافق على وقاحته ، غير أن محمداً منعهم قائلاً :
 « إن الرجل ليس أعشى البصر فحسب ، بل قد عمى قلبه عن الحق أيضاً » .
 وسار المسلمون في ذلك الطريق الملتوى المختفى تحت غصون الأشجار المتشابكة
 الكثيفة ، حتى وصلوا إلى جبل أحد عند بروز الشمس ، دون أن يثيروا انتباه
 أعدائهم .

وأعد الرسول العدة للقتال ، وجعل الجبل خلف ظهره ، فلم يكن ليخشى
 حركة دائرية من الأعداء ، غير أنه — ليزداد اطمئناناً — جعل فوق الجبل
 خمسين من أمهر رماته ، واستعمل عليهم عبد الله بن جبير ، وأمره أمراً قاطعاً :
 « أن انضح الخيل عنا بالنبل ، لا يأتونا من خلفنا ، إن كانت لنا أو علينا ، فاثبت
 مكانك لا نؤتين من قبلك » .

وفي تلك الآونة ارتفع الصباح من الجانب الآخر للسهل : لقد بصر المكيون
 بالمؤمنين وقت أن وقعت عليهم أشعة الشمس المشرقة ، فأظهروهم — جلياً — في
 هالة من نور ، فوق سفوح جبل أحد الصخرية .

انتظم جيش الأعداء ، كما قدر الرسول ، وعلى ميمنته خالد بن الوليد البطل
 المغوار ، وعلى ميسرته عكرمة بن أبي جهل ، على شكل القوس ، ليحيطوا بالمسلمين
 ويباغثوهم من الخلف .

وأخذ أبو سفيان ، قائد المشركين ، يقول لبني عبد الدار حاملي اللواء ، حاثاً
 على القتال : « يا بني عبد الدار ، إنكم قد ولّيتم لواءنا يوم بدر ، فأصابنا ما قد
 رأيتم ، وإنما يؤتى الناس من قبل راياتهم ، إذا زالت زالوا ، فإما أن تكفونا لواءنا ،
 وإما أن تخلوا بيننا وبينه فنكفيكموه » .

فوقعت تلك الإهانة موقعها من بني عبد الدار وأثارت حفيظتهم ، فوثبوا
 يدفعون عن أنفسهم ويعدون أبا سفيان بأنهم سوف يقاتلون أشد القتال .

وأقبلت هند بدورها تسرع في صواحبها فأحطن بحاملي اللواء وأنشدن :

ويهماً بني عبد الدار ويهماً حماة الأديار

ضرباً بكل بتر

نحن بنات طارق نمشى على النمارق

والدر في الخنادق والمسك في المفارق
إن تقبلوا نعانق أو تدبروا نفارق
فراق غير وامق

ولم يكن النبي ليألو جهداً في سبيل تشجيع المؤمنين . من ذلك أنه رفع سيفاً
بتاراً براقاً وقال وهو يمدده إليهم : « من يأخذ هذا السيف بحقه ؟ » . فتقدم
أبو دجانة قائلاً : « وما حقه يا رسول الله ؟ » ، قال : « أن تضرب به في العدو
حتى ينحنى » فقال : « أنا آخذه بحقه » .

وكان أبو دجانة جندياً في الحرب مهاباً ، فأخذ السيف من يدي محمد ،
واعتصب بعصاة حمراء لم يكن يعتصب بها إلا في أعظم المواقع . ثم سار في
صفوف الجند يتبختر ، فقال الرسول : « إنها لمشية يبغضها الله إلا في مثل هذا
الموطن » .

وكان من بين الأعداء رجل من أهل المدينة يقال له أبو عامر ، وكان قد تنصر ،
فكنى عنه بالراهب ، واعتقد أنه يستطيع جذب فئة من قومه من الأوس ويرجعهم
عن الإسلام . فقام إليهم وصاح فيهم : « يا معشر الأوس أنا أبو عامر » .
فأجابوه قائلين : « فلا أنعم الله عليك يا فاسق ! » . فرجع الراهب خائباً حانقاً
بعد أن رجمهم بالحجارة لشدة غيظه . وخرج بعده رجل من المشركين على بعير له
ضخم ، وكان منظره يبعث الخوف والفرح ، فدعا المؤمنين للمبارزة ، فأحجم
عنه الناس ، حتى دعا ثلاثاً ، فقام إليه الزبير ، فوثب عليه وثبة الفهد فاستوى
معه على البعير وطوقه بذراعيه فوقاً معاً على الأرض ولم يترك الزبير غريمه إلا وقد
ذبحه .

ولما رأى أبو دجانة أن قد دارت رحى القتال ، لم يقدر على كبح جماح نفسه
فاستل سيفه صائحاً :

أنا الذي عاهدني خليلي ونحن بالسفح لدى النخيل
أن لا أقوم الدهر في الكيول^(١) أضرب بسيف الله والرسول

(١) الكيول : الجبان . وهو أيضاً آخر الصفوف .

وشاهد المشاهدون عصابته الحمراء ، وكأنها الجمرة المتقدة تشق جموع الأعداء ، وتنفذ إلى مرجل القتال .

وكان أبو دجانة ذا جرأة فائقة يأتي في الحرب بالعجائب ، فلم يلق أحداً إلا قتله ، حتى وجد نفسه بغتة أمام إنسان غريب يخمش الناس خمشاً شديداً ومن ورائه زمرة من ضاربات الطبول . فصمد له أبو دجانة ، وحمل عليه بسيفه ، فسمع منه ولولة وصراخاً ، فعرف من الصوت أنه أمام هند ، فأكرم سيف رسول الله أن يضرب به امرأة .

وقد أثار أبو دجانة التهمس للقتال فاحتدم وعم . وقام حمزة فقتل أرطاة حامل لواء القرشيين الذي خر فاغراً فاه ، كاشفاً عن أسنانه ، مكشراً تكشيرة الموت . وسرعان ما تقدم سباع بن عبد العزى الغيشاني ، فرفع اللواء داعياً قاتل زميله إلى المبارزة ، فما كان من حمزة إلا أن ألحقه بأرطاة ، بضربة واحدة قاتلاً : « هلم إلى يابن مقطعة البطور » . وأراد جبير بن مطعم أن يثار لعمه طعيمة الذي قتله حمزة يوم بدر ، فوعد غلاماً له حبشياً يدعى « وحشياً » أن يعتقه إن هو قتل حمزة .

قال وحشى : « وخرجت مع الناس ، وكنت رجلاً حبشياً أقذف بالحربة قذف الحبشة ، قلما أخطئ بها شيئاً . فلما التقى الناس ، خرجت أنظر حمزة وأتبصره حتى رأيته في عرض الناس مثل الحمل الأوراق ، يهز الناس بسيفه هزاً ، ما يقوم له شيء : فوالله إني لأتألم له أريده ، فأستتر منه بشجرة أو حجر ، ليدنو مني ، إذ تقدمني إليه سباع بن عبد العزى ، فلما قتله حمزة بضربة على رأسه ، هزرت حربتي ، حتى إذا رضيت عنها دفعتها عليه دفعاً ، في ثنته^(١) ، حتى خرجت من بين رجله ، وذهب لينوء نحوى فغلب ، وتركته وإياها حتى مات ، ثم أتيت فأخذت حربتي ثم رجعت إلى المعسكر وقعدت فيه ، ولم يكن لي بغيره حاجة وإنما قتلته لأعتق . فلما قدمت مكة أعتقني » .

وقتل مصعب بن عمير ، حامل لواء المهاجرين دون الرسول ، وكان الذي قتله ابن قمشة الليثي ، وهو يظن أنه رسول الله ، فرجع إلى قومه وقد انتفخ اختيالا ، وصاح : « قتلت محمداً » .

(١) الثنة ما بين السرة والمائة من أسفل البطن .

فرفع على اللواء الذى سقط من يد مصعب ؛ ولجى دعوة أبى سعد بن أبى طلحة حامل لواء المشركين إلى المبارزة . وكان أبو سعد هذا يسخر من المسلمين قائلا : « يا أصحاب محمد ، زعمتم أن قتلناكم فى الجنة ، وأن قتلنا فى النار ، كذبتم واللوات والعزى ، لو تعلمون ذلك حقاً ، لخرج إلى بعضكم ! » .

ولم يدعه على " يتم كلامه ، إذ أوقعه بضربة واحدة على الأرض محتضراً ورفع ذراعه ليجهز عليه ، غير أنه أدبر عنه فجأة ، إذ انكشفت سواته .

واحتدم حول لواء القرشيين قتال عنيف ، شرب فيه الكثير من المشركين كأس المذون . وأصيب اثنان من حماة الراية ، هما مسافع بن طلحة وأخوه الجلاس ، وكلاهما بسهم ، فتحاملا حتى أتيا أمهما سلافة إحدى صواحب هند ، ووضعاً رأسيهما فى حجرها ؛ وهما يتقايان سيلاً من الدم ؛ فصاحت الأم شاهدة : « يا ابنائى ما أصابكما ؟ » . قالوا : سمعنا رجلاً حين رمانا يقول : « خذها وأنا عاصم بن أبى الأفلح » . فنذرت سلافة إن أمكنها الله من رأس عاصم أن تشرب فيه الخمر .

كان النصر — من غير ما شك — للمسلمين . ولقد وقع لواء القرشيين تحت كومة هائلة من القتلى ؛ فلم يحسر أحد منهم على رفعه . وشرع أعداء الله فى الهرب وانقلب حنق هند وصواحبها إلى رعب ، فشمروا عن سيقانهم استعداداً للفرار . وشاهد الرماة عند مضيق الوادى على سفح جبل أحد ذلك المنظر مهللين ، غير أنهم لم يستطيعوا صبراً حتى انتهاء المعركة — خشية أن تفوتهم الغنائم — وعبثاً حاول أميرهم عبد الله بن جبير أن يوقفهم ويذكرهم بأوامر الرسول المشددة ، وواجبهم الذى يقضى بحماية ظهر الجيش ، وبأن ذلك لا يتأتى إلا بالصمود فى مكانهم ، فقد أجابوه غاضبين : « انهزم المشركون ، فما مقامنا ها هنا » . وانحلروا إلى الوادى كالسيل الجارف ، غير عابئين بأوامر الله ورسوله :

« وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ ، إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ ، حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ

وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ ، وَغَصِبْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تَحْبُونَ »

[سورة آل عمران ، ١٥١] .

كان خالد ، ذلك الجندى الداهية الشجاع ، على ميمنة القرشيين ، وكان قد

ورأى أول الأمر ، استحالة الهجوم على المسلمين من الخلف ، ثم رأى غلظتهم الكبرى ، ففكر بفرسانه على ابن جبير ومن تبقى حوله من رماة قليلين مخلصين لم تغن مقاومتهم شيئاً ، إذ سحقهم خالد تحت سنابك خيله ، ثم انقض من الخلف على المسلمين الذين لم يكن لهم من شغل شاغل إلا السلب والمغانم . وفي هذه الآونة ذاتها تقدمت امرأة مشركة تدعى عمرة بنت علقمة الحارثية ، فرفعت لواء أهل مكة الذين غمرهم الخزي من جبنهم إذ نظروا شجاعة تلك المرأة فأقبلوا ثانية إلى الميدان ، بينما ارتفع صوت ابن قمئة ، قاتل مصعب ، مهللاً فوق معمعة القتال : « إن محمداً قد قتل » .

وانقلب وجه المعركة ، فغدا ذلك اليوم يوماً عصيباً ، بعد أن بدأ بالبشر والإقبال ، وفزع المسلمون إذ باغتهم المشركون من خلفهم ، وحل فيهم الخوف عند ما سمعوا الخبر الرهيب ، فتشتتوا ، وفرت جماعة منهم إلى المدينة ، من بينهم عثمان نفسه ، ذلك أن اليأس ملأ صدره . ووقع شهيداً في هذا اليوم عدد غير قليل من أجلاء الصحابة وأشrafهم ، بينما أخذ أعداء الله يرمون وابلا من الحجارة والسهام على الجمع الصغير الذي أحاط بالرسول ، فوقع حجر ، وقد رماه عتبة بن أبي وقاص ، على محمد فكلّم شفّته وكسر إحدى أسنانه الأمامية ، وأصابه حجر آخر في مغفره فانغrust الحلقات في وجنته . وأخرج أبو عبيدة تلك الحلقات التي انغrust في اللحم بأسنانه ، فكسر على كل حلقة سنّاً من أسنانه ، ومض مبتهجاً الدم الذي سال من جراح المصطفى ، فأثار ذلك الإخلاص العميق عطف محمد فقال : « من مس دمه دمي لم تمسه النار ، كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم ، وهو يدعوهم إلى ربهم ؟ ! » . وازدادت المعركة خطراً ، ودفع محمد على بغتة منه ، فوقع في حفرة عميقة لم يرها ، لكن سرعان ما خلّصه منها على وطلحة . ثم أقبل على وبصحبه أبو بكر وعمر اللذان جرحا بدورهما ، فانقضوا على الكافرين الذين ما فتئت جموعهم تزداد ، حتى أوشكوا على الإحاطة بالمؤمنين . وفي بعض الأوقات ما كان الرسول يجد من حوله إلا أبا دجاجة الذي جعل من جسمه درعاً كستها السهام ، وأبا طلحة الذي يذود عنه بحصّته الجلدية . وكان أبو طلحة رجلاً رامياً ، شديد الرمي ، فكسر في ذلك اليوم ثلاثة أقواس وهو يثنيها . وصار

رسول الله يشرف على القوم ، ليرى مواقع النبل ويدير المعركة ، فيقول له أبو طلحة « يا نبي الله بأبى أنت وأبى ، لا تشرف على القوم يصيبك سهم من سهامهم ، فحري دون نحرك » . وفى هذه الآونة رأى سهمًا من سهام الأعداء ، فحاول أن يشنيه ، فجرحته يده ولم يعد يقلر على استعمال قوسه ، فاستقل سيفه ، غير أن الإعياء والكلل كانا قد نالا منه كل منال ، حتى كان سلاحه يكاد يفلت من يده لفرط إعيائه . وكانت أم عمارة ، وهى امرأة شجاعة من الأنصار ، تحمل على ظهرها ماء تسقى به المؤمنين ، لتجلىد فيهم النشاط ، فأمسكت بسيف ، وباشرت القتال برجولة وشهامة جنبًا إلى جنب مع الرسول حتى وقعت جريحة .

وشاءت ظروف المعركة أن تفرق بين الرسول وبين على وعمر وأبى بكر ، فلما سمع هؤلاء تنادى المشركين بموته وهنت قواهم ، وضعفوا ، فأضحوا كأجساد بلا أرواح ، وأصبحوا لا يفكرون ، حتى فى الدفاع عن أنفسهم . فر بهم أنس بن النضر وهم على ذلك فوبخهم قائلاً : ماذا يجلسكم ؟ . قالوا : « قتل رسول الله » . قال : « فإذا تصنعون بالحياة بعده ؟ ففوتوا على ما مات عليه رسول الله » ؟ وأعطاهم من نفسه قدوة فاستقبل القوم وقاتل فوق وقع وقد أثخنته الجراح ، حتى ما عرفه إلا أخته ، عرفته ببنانه .

وبدأت اليقظة وثار الحمية ، فخرج على وأبو بكر وعمر من تخاذلهم ، واقتلوا بأنس ، فانقضوا ، ومن ورائهم زمرة من المؤمنين ، يريدون جمعًا غفيراً من الأعداء يتواثب على نفر قليل من المسلمين صمد أمامهم . وفجأة رأى كعب بن مالك النبی من بين هؤلاء الأبطال ، وكانت عيناه تزهزان من تحت المغفر ، فنادى بأعلى صوته : « يا معشر المسلمين ، أبشروا !! هذا رسول الله — صلى الله عليه وسلم !! » . وأثارت تلك الصيحة شجاعة القوم ، فأقبل المسامحون من كل صوب يريدون البهجة المشار إليها ، فلما أنقذوا الرسول ، انقضوا على الأعداء ، وقد توقدت فيهم حمية لا تقهر ، ففتحوا لأنفسهم طريقاً رصفوه بالجلث الدامية حتى مضيق عينين الذى ما كان لهم أن يتركوه ، وعلى هذا المكان المنيع انكسر هجوم المشركين ، فصاح أبى بن خلف حانقاً : « أى محمد ، لا نجوت إن نجوت ! » .

وأراد القوم أن يرموه بالسهام ، فمنعهم الرسول ، وتناول حربة من يد الحارث ابن الصمة ، وطمع بها أبي بن خلف في عنقه طعنة تلأدأ منها عن فرسه مراراً ، وحاول أن يتعلق بذؤابته ، لكن عبثاً حاول ، فوقع على الأرض ، وأقلع المشركون عن ثأره ، إذ كان الإعياء قد نال منهم كل منال . . .
وانتهى على ذلك القتال . . .

وعثر على عليّ قليل من الماء في فجوة ، فلأ منه درقته ، وجاء به الرسول ليشرب منه ، فوجد له رائحة كريهة فعافه ولم يشرب منه ، فاستعمله عليّ في غسل جراح مصطفي الله ، ولكن ذلك لم يجد شيئاً ، إذ لم يكف الدم عن السيل سيلاً مخيفاً ، وأخيراً أقبلت فاطمة من المدينة قلقة ، وعلى إثرها صواحب لها ، فأحرقت قطعة حصير خيزراني ، وجعلت رمادها على جراح أبيها فانقطع نزيف الدم .
وفرغ الرسول من تضميد جراحه ، فصلى الظهر قاعداً ، بسبب ما ناله من الإعياء الشديد وما عاناه من الجراح . وصلى القوم من ورائه قعوداً للسبب نفسه ، شاكرين المولى القدير على إنقاذهم رغم عصيانهم .

وكان عدد الموق في هذا اليوم يساوي عدد الأسرى المشركين يوم بدر ، فرأى كثير من المؤمنين في تلك المصادفة الغريبة عقاباً لهم ، إذ دفعهم حبهم للدنيا بعد بدر ، إلى تسليم هؤلاء الأسرى إلى المشركين طمعاً في المال .
وكانت جثث أولئك الشهداء في حال يرثى لها : لقد ظمئت نساء قريش إلى الثأر ، فتركن الدفوف ، وارتمين على القتلى يمثلن بهم ، وقد سبقتهن رئيستهن هند في مضمار الوحشية فاتخذت من آذان الرجال وأنوفهم قلائد وأقراطاً ، وأعطت أقراطها وقلائدها ونخزمها « وحشياً » ووقعت وكأنها الفهد ، على جثة حمزة ، فبقرت بطن الشهيد بأظافرها الدامية ، وخلعت الكبد ولاكتها بين فكيها ، بحنق ووحشية ، فلم تستطع أن تسيغها ، فلفظتها ، ثم علت صخرة مشرفة ، وولت وجهها شطر جند الإسلام ، وصرخت بأعلى صوته :
نحن جزيناكم بيوم بدر والحرب بعد الحرب ذات سَعَر

ما كان من عتبة لي من صبر ولا أخى وعمه وبكرى
شفيت نفسي وقضيت نذرى شفيت وحشى غليل صدرى

فشكر وحشى على عمرى حتى ترم أعظمى فى قبرى
كان أبو سفيان يوجب ميدان القتال أملا فى العثور على جثة محمد . فلقى
جثة حمزة على حين أقبل الحليس سيد الأحابيش ، فجعل أبو سفيان يضرب فى
شدة حمزة بزج الرمح قائلا : « ذق عقى » .

وقد غضب الحليس ، برغم إشراكه لذلك الفعل الشنيع ، فصاح فى قومه :
« يا بنى كنانة ، هذا سيد قريش يصنع بآبى عمه لهما ، ما ترون ؟ » . فحجل
أبو سفيان من سلوكه ، وأوقف الحليس ورجاه قائلا : « ويحك اكتمها عنى فإنها
كانت زلة » . ثم اقترب أبو سفيان من المؤمنين حتى صار فى استطاعته محادثتهم ،
وهم متحصنون بسفوح أحد ، فصاح فيهم : « أحمدهم بينكم ؟ » . فلم يتلق جوابا ،
فاستنتج أن محمدا قد مات ، فصاح بأعلى صوته قبل أن ينصرف : « أنعمت فعال ،
إن الحرب سجال ، يوم بيوم بدر ، أعلى هبل » .

فلما سمع الرسول ذلك الإسفاف أمر عمر بالرد عليه ، فصاح عمر قائلا :
« الله أعلى وأجل ! » .

فعرف أبو سفيان صوت عمر ، فسأله : « أنشدك الله يا عمر ، أقتلنا محمدا ؟ »
قال : « اللهم لا ، وإنه ليسمع كلامك الآن » ، فخاب ظن أبى سفيان فقال :
« أنت أصدق عندى من ابن قمئة وأبر » ، لقول ابن قمئة لهم : « إني قد قتلت
محمدا . ثم نادى أبو سفيان :

« إن موعدكم بدر للعام القابل » . فأجاب عمر : « نعم هو بيننا وبينك
موعد » .

ثم بعث الرسول بعلى فى آثار المشركين وقال له : « اخرج فى آثار القوم ،
فانظر ماذا يصنعون ، وما يريدون ، فإن كانوا قد جنبوا الخيل وامتطوا الإبل ، فإنهم
يريدون مكة ، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل ، فإنهم يريدون المدينة ، والذى
نفسى بيده ، لئن أرادوها لأسيرن إليهم فيها » ، ثم لآناجزنهم .

وخرج على ، وما لبث أن رجع ، ، وقد رأى القرشيين يجنبون الخيل ويمتطون
الإبل مولين شطر مكة .

فاطمأن المؤمنون ، وخرجوا لمؤارة شهدائهم ، وخرج النبی يلتمس عمه حمزة ،

فوجدته بمنخفض الوادى ، قد بقر بطنه ، وجدع أنفه وأذناه ، فقال حينما رأى ما رأى : « لولا أن تخزن صفية ، وتكون سنة من بعدى لركته حتى يكون فى بطون السباع ، وحواصل الطير ، ولئن أظهرنى الله على قريش فى موطن من المواطن لأمثلن بثلاثين من رجالها » . فنزل عليه الوحى :

« وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ، وَلِئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ » .

فلما تلقى الرسول هذا التنبيه ، ألق عن عزمه ، ونهى المؤمنين على المثلة بالأعداء . ووصلت أخبار خسائر المسلمين إلى المدينة ، فجاءت النساء ، ومن بينهن صفية بنت عبد المطلب ، ليداوين الجرحى ، ويبكين الموقى . فلما علم الرسول بمجىء صفية ، أمر ابنها الزبير بن العوام بلقائها وإرجاعها ، لئلا ترى أخاها وقد شوه وجهه تشويهاً شنيعاً . فأجابت : « ولم ؟ وقد بلغنى أنه قد مثل بأخى ، وذلك فى الله ، فما أرضانا بما كان من ذلك ، لأحتسبن ، ولأصبرن إن شاء الله » . وأنت أخاها : حمزة ، ونظرتة نظرة طويلة ثم انصرفت بعد أن صلت صلاة حارة وهى ثابتة الجنان .

عندئذ بدئ فى دفن الموقى ، فشيح الرسول جثة عمه حمزة ، ثم جمع الجثث اثنتين أو ثلاثاً فى كل ضريح بغير غسلهم كالعادة ، وذلك لثلاث يرهق المؤمنين ، وقال :

« أنا شهيد على هؤلاء . إنه ما من جريح يجرح فى الله إلا والله يبعثه يوم القيامة ، يدمى جرحه ، اللون لون دم ، والريح ريح مسك » .
وعلم الرسول أن كثيراً من الناس قد قتلوا موتاهم إلى المدينة ليدفنوهم بها فنهاهم قائلاً : « ادفنوهم حيث صرعوا » .

ولم تكن لموقعة « أحد » نتائج ضارة بالإسلام - كما يتصور بعض الناس . فإن كان الإسلام قد عانى فيها خسائر أليمة ، فقد جنى منها الكثير من الفوائد المعنوية ، ولم تنتج الهزيمة إلا من عصيان الجند لتنبيهات الرسول الحكيمة ، ثم مخالفة أوامره الصارمة قبيل القتال ، فكان هذا إشارة للمؤمنين أن يلتزموا فى المستقبل الطاعة التامة لنبيهم ، وأن ينفذوا أوامره بكل دقة ، حتى فى حالة ما إذا افتقد

الرسول أو مات وقد نصت على ذلك الآية التي تشير إلى فترة اليأس التي انتابت علياً وأبا بكر وعمر :

«وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ، أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ» .

والواقع أن الهزيمة تزيد العزم قوة ، والحماسة اشتعالا ، إذا كان الإيمان صادقا متوقفاً :

«وَكَايْنٍ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُونَ كَثِيرٌ، فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ» .

ولم تعد الرحمة بالمشركون مشروعة ، فقد جعلها تمثيلهم الوحشي بالشهداء السبعين ضرباً من المستحيل ؛ وكذلك فرق الله بين المؤمنين المخلصين والمنافقين من أمثال عبد الله بن أبي بن سلول وأشباهه . وكان الرسول عليماً بأخلاق المنافقين ، غير أن عامة المسلمين لم يكونوا يدرون مدى غلب هؤلاء ونفاقهم ، فظهر لهم ذلك جلياً ، بعد انخزالهم الخبيث في ساعة الخطر ، وقد شهد محمد صلى الله عليه وسلم بفضل أحد رغم الهزيمة ، على المسلمين ، وجعل منه ساحة حراماً حرمة ساحة مكة .

زواج محمد بزَيْنَب (١) :

أعتق النبي صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة وتبناه ، ثم زوجه ابنة عمته : زينب بنت جحش . وأصبح زيد كفرد من أفراد أسرة الرسول : يعامل معاملة الابن الحقيقي جرياً على عادة العرب بالنسبة للمعتنى .

لم يكن الرسول يفكر في الزواج بزَيْنَب ، لا قبل زيد ولا بعده ، وإلا فأى شيء كان يمنعه من الزواج بها بكرةً غضة الإهاب ، وقد كان يملك من أمرها كل شيء ؟

(١) جارى المؤلف في كتابته عن زواج زينب بعض الروايات التي ذكرت في السيرة ، ولكننا رأينا أن التصريح الصحيحة والقرآن يخالفان رأيه ، فمررنا هذا الموضوع بتصريف . وهذه المناسبة تذكر أن المؤلف كان يروى بعض الأحاديث عن الرسول وعن الصحابة وهذه الأحاديث أثبتنا أصلها العربي ، حينما كنا نعرض عليه في كتب السيرة ، وكنا نترجمها بالمعنى إذا لم نعرض على أصلها العربي ، أو إذا كان المؤلف نفسه قد تصرف فيها بخياله وقته .

على أن زواج زيد بزینب كان بوحى سماوى وأمر إلهى ، لأن زینب وأهلها
أبوا أن تتزوج بهذا العبد المحرر ، ذلك أن العرب تتعصب للأنساب ، وتفتخر
بالآباء والأجداد ، فامتنعوا ، ورأوا أن ذلك عار عليهم ، فنزلت الآية الكريمة :
« مَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ - إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا - أَنْ يَكُونَ
لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ » .

وامثلت زینب أمر الله ورسوله فى هذا الزواج ، إلا أنها كانت تشعر بأنها
شريفة قرشية ، وبأن زيدا كان عبداً مملوكاً . لذلك كانت تتكبر عليه وتنفرد منه ،
فشكا ذلك إلى النبي ، صلى الله عليه وسلم ، وأراد غير مرة أن يطلقها ، ولكن
الرسول كان يقول له : « أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ » مع علمه صلى الله عليه
وسلم بأن الله سيزوجه بها تشريعاً جديداً ، وقضاء على عادة تأصلت فى نفوس العرب :
هى معاملة المتبنى معاملة الابن الحقيقى .

أراد الله تعالى القضاء على تلك العادة . فنزلت الآيات :

« ... مَا جَعَلَ أَذْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ، ذَلِكَ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ ، وَاللَّهُ
يَقُولُ الْحَقَّ ، وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ » آذَعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ ، هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ ،
فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ ، فَاِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ ... » الآية
[سورة الأحزاب ، ٤ - ٥]

وكان من الممكن أن تستمر هذه العادة من الناحية العملية مع زوال الاعتقاد
فيها من الناحية النظرية ، وكان لا بد من عمل حاسم ، فنزل :

« مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ ... » الآية [الأحزاب ، ٤٠]
وكان زيد قد قضى من زینب وطراً ، ولم يعد له بها من حاجة ، ولم يعد
يحتمل العيش معها فطلقها ، فأمر الله الرسول أن يتزوج بها ، ولكن الرسول فى
نفسه كان يخشى على ضعف الإيمان سوء الظن ومن الكفار الدعاية السيئة فنزلت
الآية الكريمة الجامعة :

« وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِى أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ ، وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ : أَمْسِكْ عَلَيْكَ
زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ ، وَتُخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ ، وَتَخْشَى النَّاسَ .

وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ، فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا ، لِيَكُنْ
لَا يَكُونَنَّ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا ،
وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا * »

[سورة الأحزاب ، ٣٧]

وتزوج الرسول تنفيذاً لحكم الله وقضائه المفروض :
« مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ ، سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ
خَلَوْا مِنْ قَبْلُ ، وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا » [الأحزاب ، ٣٨]
ولما كان زواجها بالنبي صلى الله عليه وسلم من الله وحده ، ولا دخل لأمر
آخر فيه كانت تفتخر بذلك وتقول لباقي الزوجات : « إن الله تعالى تولى
إنكاحي » .

وكان ذلك ابتلاء عظيمًا ، سواء نظرنا إليه بالنسبة لزيد وزينب أولا ، أو بالنسبة
إلى النبي صلى الله عليه وسلم ثانيًا .

غزوة ذات الرقاع (سنة ٤ هـ ، سنة ٦٢٦ م) :

علم الرسول أن بني محارب وبني ثعلبة بنجد ، قد أعدوا العدة ليحملوا عليه ،
فعزم على سبقهم والتقدم لمواجهةهم . ولم يستطع لعجلته في الرحيل ، أن يجمع
إلا القليل من الجمال ، فكان نصيب كل ستة من الجنود بعيراً ، يتناوبونه بينهم ،
كل بدوره ، فلحق بأرجلهم أذى من أثر الصخور الحادة التي أدمتها وخلعت
منها الأظافر ، فكان المؤمنون يلفونها بوقاع من القماش ، ومن ذلك سميت الغزوة
بذات الرقاع .

وبعد أن عسكر جند محمد في بطن نخل ، وجدوا أنفسهم أمام الأعداء
مجمعين . فثبت الجيشان متواجهين لا يجرؤ أحدهما على البدء بالقتال ، ولم يتقدم
المؤمنون ، إذ كانوا قلة بالنسبة إلى أعدائهم ، ولم يتقدم المشركون إذ حل بهم الرعب
من جند الإسلام بعد انتصاراتهم المتوالية .

وفي هذه الأثناء شرع الرسول صلاة الخوف ، فقسم المؤمنين فئتين تتناوبان
الصلاة وملاحظة العدو .

وقد أتى الحلفاء لبياعته المسلمين ، فوجدوهم على أهبة القتال ، بل وجدوهم تقدموا يطلبونه ، فأخافهم ذلك ، وأقلقهم ثبات المسلمين ، فأخذوا في التراجع ، الجماعة منهم تلو الجماعة . وانقلب الخذر الشديد ، الذي اتبعه المسلمون في الساعات الأولى إلى مبالغة في الاطمئنان ، من ذلك أن القائلة أدركتهم فنفروا يستظلون بأشجار الطلح ، التي كانت تكسو الوادي ، مهملين حراسة أنفسهم ، فلاحظ الأمر أعرابي من بني محارب ، فتسلل زاحفًا حتى وصل إلى مجلس النبي ، فاخطف سيفه ذا المقبض الفضي ، وكان معلقًا بغصون الشجيرة التي ينام في ظلها ، وقال للرسول : « دعني أنظر إلى سيفك هذا » . ومس بيده حذ السيف ليختبره ، ثم جعل يهزه فوق رأس النبي صائحًا : يا محمد أما تخافني ؟ قال : « لا ، وما أخاف منك ! » . قال : « أما تخافني وفي يدي السيف ؟ » . قال النبي بصوت هادئ رزين ، مصوبًا نظراته إلى الأعرابي : « لا ! فإن الله يمنعي منك » .

ودهش البدوي لهذا الهدوء في ذلك الموقف ، وأحس بقوة إلهية تقبض عليه ، وتكاد توقف دقات قلبه ، فتصيب على وجنتيه عرق بارد ، وتفككت أنامله القابضة على العيف ، وسرعان ما وقع هذا السيف من يده أمام محمد الذي التقطه بهدوء وقال : « والآن ، ما يمنحك مني ؟ » . فقال الشقي ، وقد ملأه الرعب : « كرمك » فركه الرسول يبتعد ، دون أن يطلب منه شيئًا ، يريد بذلك أن يبين للمشاركين كرم الإسلام حتى يقبلوا عليه راغبين ، فانصرف الأعرابي إلى قومه ، وكان قد وعدهم برأس محمد ، فقال حين أتاهاهم : « لقد رأيت أكرم الناس » . ثم رجع إلى الرسول ، فأسلم بين يديه .

غزوة بني المصطلق (سنة ٥ هـ ، ٦٢٧ م) :

تحرك بنو المصطلق بدورهم ، وتآمروا على الإسلام ، فعقد محمد العزم على ردعهم . فقام إليهم في جيشه ، حتى لحقهم في أرضهم بقديد ، عند ماء يقال له « المريسيع » . فتقابل الجيشان ، واقتتلا ، فهزم الله بني المصطلق ، وأوقع في يد جند الإسلام غنائم عظيمة ، من إبل ، وغنم ، وسبايا . وكان من بين السبايا ابنة سيد بني المصطلق ، وكانت فتاة مليحة ، تدعى « جويرية » ، وقد وقعت في السهم

لثابت بن قيس فكاتبته على نفسها بمبلغ من المال كبير نظير عتقها ، ثم أتت الرسول ، فقالت له :

« يا رسول الله أنا جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار ، سيد قومه ، وقد أصابني من البلاء ما لم يخف عليك فجتلك أستعينك على كتابتي » .

فقال لها : « أقضى عنك كتابك وأتزوجك » .

فقبلت . وعزم النبي على الزواج منها رغم غيرة عائشة التي رأت من جويرية ملاحه وجمالا .

وفي هذه الأثناء أتى الحارث بفدية ابنته فأعاد محمد جويرية إليه ، لكن ليخطبها في الحال ويمهرها أربعمائة درهم . وما إن ذاع خبر ذلك الزواج ، حتى قال المؤمنون : « أصهار رسول الله أصهارنا » . وأرسلوا إلى بني المصطلق بما في أيديهم من غنائم وسبايا ، فما أعلم امرأة كانت أعظم على قومها من جويرية .

وبينا الجند على ماء المريسيع يسقون دوابهم اللاهثة بعد القتال العنيف ، إذا بحادث يوشك أن يوقد الفتنة بين المهاجرين والأنصار :

كان جهجاه يقود فرس عمر بن الخطاب ، فزاحم على الماء سنان بن وبر الجهني حليف بني عوف بن خزرج ، فغضب سنان ، واقتتل الرجلان ، فوقعا على الأرض ، وصاح سنان : « يا معشر الأنصار ! » . وصرخ جهجاه : « يا معشر المهاجرين ! » . ففرق الناس بين الخصمين في الحال . فلم ينتج عن ذلك الحادث شيء مباشر . لكنه أثار غيظ الناس من الجاهليين . وزاد الطين بلة ، قول عبد الله ابن أبي بن سلول المنافق — وكان قد شاهد الحادث — : « أوقد فعلوها ؟ لقد نافرنا وكاثرونا في بلادنا ، والله ما أعدنا وجلابيب قریش هذه إلا كما قال الأول : سمن كلبك يأكلك . أما والله لن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل » . وسمع ذلك زيد بن أرقم ، فثنى به إلى رسول الله ، وأخبره الخبر وعنده عمر بن الخطاب الذي انتفض غاضباً وصاح : « يا رسول الله ، مر به عباد بن بشر فليقتله » فأجاب الرسول : « كيف يا عمر ! إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه » . ثم قال لعباد : « لا . ولكن أذن بالرحيل » .

وكانت الشمس تسطع في كبد السماء ، والحر شديد منهك ، والساعة لا تناسب

الرحيل . غير أن النبي ضرب ناقته على لحم بطنها الناعم ليحثها على السير ،
فرحل جنده ورائه .

وساروا يؤمهم هذا حتى أمسوا ، وليلتهم تلك حتى أصبحوا ، ويومهم ذلك
حتى غدوا . وآتئذ رأى النبي جنده الشداد وقد نال منهم التعب ، فراحوا يترنحون
من الإعياء ، فأمر بحط الرجال ، فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض ، حتى وقعوا
نياماً ، وقد أرهاقتهم مشقات الطريق ؛ فلم يستطيعوا إبداء الغيظ الذى فى
قلوبهم ، والذى كان من شأنه — لولا حكمة النبي — أن يثير بين المسلمين فتنة
دامية .

وكان لعبد الله بن أبى المنافق ابن مؤمن مخلص الإيمان يحمل أيضاً اسم
عبد الله ، فأتى الرسول وقال له : « يا رسول الله ، بلغنى أنك تريد قتل عبد الله بن
أبى بن سلول فيما بلغك عنه ، فإن كنت فاعلا ، ففرنى به ، فأنا أحمل إليك رأسه ،
فوالله لقد علمت الخزرج ما كان بها من رجل أبر بوالده منى ، وإنى لأخشى أن
تأمر به غيرة فيقتله ، فلا تدغى نفسى أنظر إلى قاتل أبى يمشى بين الناس
فأقتله ، فأقتل رجلا مؤمناً بكافر ، فأدخل النار » .

فهدأ الرسول من روع ذلك المؤمن القوى الإيمان وقال له : « بل تفرق به .
ونحسن صحبته ما دام معنا » .

التيمم :

فى هذه الرحلة نزل الوحي بالآيات :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ ، وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى
الْمَرَافِقِ ، وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ ، وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ، وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُباً
فَاطَّهَرُوا ، وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى ، أَوْ عَلَى سَفَرٍ ، أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ ،
أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ ، فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً ، فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا ، فَامْسَحُوا
بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ ، مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ ، وَلَكِنْ يُرِيدُ
لِيُطَهِّرَكُمْ ، وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ ، لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » .

هكذا شرع التيمم الذى يمنع المؤمنين من تناسى فرض الوضوء لأنه أبعد عنهم حجة عدم توافر الماء اللازم ، تلك الحجة التى كثيراً ما كانوا يتعلقون بها فى الصحراء .

حرب الخندق (سنة ٥هـ ، سنة ٦٢٧ م) :

خرج إلى مكة وفد من قبيلة بنى النضير ، وبعض الغاضبين من بنى وائل ليعرضوا على القرشيين التحالف معهم ضد محمد . ولحق بهم الأحابيش وقبائل الغطفانيين من أهل شمالى الحجاز . فدبرت فى مكة مؤامرة واسعة النطاق تهدد المدينة من كل جانب .

ولما أحيط النبي علماً بأهمية تلك الغزوة ، سهل عليه إقناع المؤمنين بأن طريقة النجاة الوحيدة هى فى انتظار العدو وراء حصون المدينة .

وكانت المدينة محصنة من كل جانب بالسدود والقلاع والبساتين ، غير أن الجانب الشمالى كان ضعيفاً يعرض للأعداء منفذاً يخشى منه هجوم عنيف . فأشار سلمان الفارسى ، وكان حديث عهد بالإسلام ، على الرسول باتخاذ تدبير مفيد للدفاع ، وهو أن يحفر خندقاً يحيط بالموقع الضعيف . وكان سلمان قد رأى شيئاً من ذلك فى بلاده . واقتنع محمد بمحجج الفارسى ، مما جعله يأمر فى الحال بحفر الخندق ؛ فتنزل جميع المسلمين إلى ساحة العمل ، مؤمنين بصواب رأى نبيهم وبصدق بصيرته . على أن حالهم كان يرثى لها وكانوا يتحملون متاعب كثيرة ، فقد هبت عليهم ريح باردة ثلجية ، كتلك التى يكثر هبوبها شتاء على تلك الوديان الصحراوية ، ذات الإشعاعات الشديدة ، فأوشكت أجسامهم أن تتجمد برداً ، وقطع الأعداء طرق الموثونة عنهم ، فأصبح المؤمنون والجوع يعرض فيهم ويوشك أن يشل قواهم ، لولا إيمانهم الذى كان يبعث فيهم الدفء والقوة ، وكان غذاؤهم الوحيد حبات من الشعير المطبوخة فى دهن الضأن الذى بدأ يفسد .

وعلى الرغم من ذلك فقد كان الذين يعملون فى الخندق يرمون الرمل بمرح واستبشار ، فهبط سطح الخندق بسرعة . وقد فاجأتهم صخرة اشتدت على معاولهم ، فلم يستطيعوا اقتلاعها ، فأخذ محمد قليلاً من الماء فى فمه ثم نضح به على الكدية داعياً الله القدير ، ثم عادوا إلى الحفر فلم تلاق أذرعهم من عائق .

إذ ضاعف الإيمان قواهم ، الإيمان الذى بعثه الرسول فى قلوبهم بعمله هذا ، فتفتتت الصخرة تحت ضربات المعاول ، وانهارت حتى عادت كالكتيب .

ولم يكذ المؤمنين ينتهون من حفر الخندق ، حتى اختفى السهل تحت غميج جيش الأعداء المكون من عشرة آلاف رجل من قريش وكنانة وغطفان ، وعرب تهامة وعرب نجد، وغيرهم ... وتخوف المشركون، رغم تفوقهم فى العدد، من عاقبة قتال سيد المرسلين ، فجعلوا يبحثون عن حلفاء جدد ، وخرج عدو الله « حى بن أخطب » حتى أتى كعب بن أسد ، أمير قبيلة بنى قريظة اليهودية ، وكان قد عاهد الرسول رغم عداوته الشديدة له . فضاق كعب بزيارة حى وصده قائلاً : « ويحك يا حى ! إنك امرؤ مشثوم ، وإنى قد عاهدت محمداً ، فلست بناقض ما بينى وبينه ، ولم أر منه إلا وفاء وصدقاً » . فقال حى : « افتح الباب فإأريد إلا أن أقاسمك فى دثيشتك وأن آكل منها معك » ، ففتح له . فلم يكذ حى يدخل حتى فاتح مضيفه بموضوع زيارته ، وأبان له عن قوة المتحالفين المعسكرين على جبل أحد ، ثم أكد له اعتقاده الراسخ فى أنهم يستطيعون أن يجعلوا من محمد أثراً بعد عين . غير أن كعباً أجاب ، ولم يزل متردداً : « جثنى والله بذل الدهر ، وبجهام قد أهرق مائه ، فهو يرعد ويبرق ، وليس فيه شىء . ويحك يا حى ! فدعنى وما أنا عليه » .

فلم يزل حى بكعب يفتله فى الذروة والغارب ، حتى أغراه بفسخ عقده مع محمد ، وعقد معاهدة مع المشركين . فلما انتهى خبر ذلك إلى الرسول ، بعث سعد ابن معاذ وسعد بن عباد ونحوات بن جبير لينظروا : أحقاً كان ما بلغه ؟ فخرجوا حتى أتوا بنى قريظة ، وذكرهم بميثاقهم ، فلم ينالوا منهم سوى هذا الجواب : « من رسول الله ؟ لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد » . وكان لهذا الغدر خطره فبنو قريظة كانوا يعلمون تمام العلم أسرار المؤمنين ، ونقط الضعف فى المدينة . فقال الرسول ليطمئن أتباعه عند رجوع وفده بالخبر : « الله أكبر ! أبشروا يا معشر المسلمين » ، يريد بذلك أن بنى قريظة سوف يغنون المؤمنين عما قريب بأسلاهم ، بعد أن غدروا بهم هذا الغدر القبيح . بيد أن منظر الآلاف العشرة من الراح البراقة ، وقد كست السهل ، لم يكن ليطمئن المؤمنين ، وقد وقفوا على شرف قلاعهم .

وأخذ المنافقون كعادتهم ، يبتشون في الناس الرعب بدلا من أن يخطوهم على الثبات ، فيقولون : « كان محمد يعدنا أن نملك كنوز كسرى وقبصر ، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط » . وأخرج الرسول جنده ، ليشغلهم عن أحاديث اليأس ، وصفهم وراء الخندق ، جاعلا ظهورهم إلى جبل سلع ، فأناه بعض الحبلاء يستأذنون في الرجوع قائلين : « إن بيوتنا عورة » .

« ... وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ النَّبِيَّ ، يَقُولُونَ : إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ ، إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا * .. وَلَوْ دَخَلْتَ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ، ثُمَّ سَأَلُوا الْفِتْنَةَ لَأْتَوْهَا ، وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا * »

وكان القلق في الواقع عظيماً ، لكن إيمان المسلمين المخلصين وهذوء الرسول قضيا على هذا القلق ، فضلا عن أن الحلفاء كانوا لا يزالوا يحسون بالرعب الذي أحسوا به إزاء القوة الخفية التي لا قوها في كل معركة لهم مع جند الله ، وخافوا أن يخطروا بالهجوم قبل التأكد من أن الدائرة لن تلور عليهم ، فقتنوا بالاقتراب من المدينة . . .

وأقام الناس على هذه الحال بضعا وعشرين ليلة . لم يكن بينهم خلاها من حرب إلا الحصار والرمي بالنبال رميا لم يكن فيه ضرر ولا نفع . وأخيرا خجل فوارس من قريش وكنانة من قعودهم ، فتهيشوا للقتال ، وخرجوا في كوكبة متقاربة الأفراد ، ومالوا على رقاب خيلهم ، فأقبلت تعنت بهم حتى اختفوا في هالة من الغبار المظلم وفجأة توقف السيل الآدمي ، فزالت هالة الغبار التي سترت فوارس المشركين ، ورآهم الناس قد جملوا رعبا أمام الخندق العميق ، الذي كاد يلتهمهم في جوفه ، بينما الخيل ، على حافة الهاوية ترتجف سيقانها المتوترة ، وأنوفها ترتعد ، وأفواهها ملتوية مخضبة بالدماء التي أسالتها جذبة الخطام القوية لإيقافها .

وصاح المشركون : « والله إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها » . ثم توجهوا نحو مكان ضيق من الخندق ، وهمزوا خيولهم همزا شديدا فافتحمتهم في قفزة هائلة ، ونزلت بهم على الناحية الأخرى ، فخرج إليهم على يحد في نفر من المسلمين ، ووقف بينهم وبين الخندق ، فقطع عليهم طريق الهروب .

فتقدم عمرو بن عبدود ، وهو فارس يمتاز بقامته الهائلة ، وراح يتلفظ بأقبح الشتائم ، وينادى المؤمنين إلى المبارزة ، فاستأذن على بن أبي طالب الرسول في الخروج إليه . فأذن له ، وألبسه درعه وعمامته ، وشد سيفه ، فقام إلى عمرو بن عبدود ووقف أمامه ، فاستصغره الفارس الرهيب ورحم شبابه ، وقال : « والله ما أحب أن أقتلك لأن أباك كان نديمي » .

فأجابه على : « ولكنى والله أحب أن أقتلك » .

فاغتاز عمرو لذلك ، فنبهه على بن أبي طالب أنه وإن كان قد احتقر ضعف خصمه ، فإنه لم ير حرجاً في ركوب فرسه أمام خصم مترجل ، فقفز عمرو عن فرسه فعمقه لثلاثي يستعين به في القتال ولا في الفرار ، ثم لطم وجهه بقبضته وقد جن جنونه أمام سخرية خصم صغير مثل هذا . . . ثم وثب على غريمه فضربه ضربة شديدة أصابته في جبينه إصابة خفيفة بعد أن خرقت ترسه ، غير أن علياً تراجع كالبرق وباغت عدوه بوثبة فجائية ففقد هذا الأخير توازنه ؛ إذ استدار ليحاطبه ، ولم تفت علياً الفرصة ؛ فضرب عدوه ضربة بارعة ، جعلت السيف يغوص بأكمله في صدر عمرو بعد أن قطع أوداجه ، وسال الدم غزيراً من الجرح العميق فترنح العملاق ساجدة وهو يئن كالسكير ثم خر كالبنيان ، شاهقاً شهقة الموت ، بين يدي بطل الإسلام .

وكبر المسلمون لهذا النصر وهللوا ، بينما فر باقى المشركين مذعورين ، وخيلهم تعنت بهم . غير أن رجلاً منهم يقال له عبد الله بن نوفل لم يحسن القفز فوق الخندق ، فوقع فيه بفرسه وانهاه عليه وابل من الحجارة ، فأنتهى الزبير عذابه بضربة سيف شقت جسمه نصفين ، ولم يقف السيف إلا على الرحال

وكانت صفة عمه الرسول في أعلى حصن حسان بن ثابت ، تلاحظ الأعداء ، وكان حسان يجانبها ، فريهما رجل من اليهود يطيف بالحصن ، فقالت لحسان : يا حسان ، إن هذا اليهودى كما ترى يطيف بالحصن ، وإنى والله ما آمنه أن يدل على عورتنا من وراءنا من يهود ، وقد شغل عنا رسول الله وأصحابه ، فانزل إليه فاقتله . فقال : « يغفر الله لك يا بنت عبد المطلب ! والله لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا ، إنى شاعر ولست بصاحب حرب » .

فلما رأت صفية الشجاعة منه ذلك ، هزت كتفيها احتقاراً ، وأخذت عموداً ثم نزلت من الحصن إلى اليهودى ، فضربته بالعمود على رأسه حتى قتلتها ، فلما فرغت منه رجعت إلى الحصن فقالت لحسان : « انزل إليه فاسلبه ، فإنه لم يمنعني من سلبه إلا أنه رجل » .

ظل الناس أياماً على تلك الحال ، واقتصر القتال على مناوشات لا أهمية لها . غير أنه إن كان الهجوم من جانب الأعداء لا يخشى ، بفضل الخندق الذى أفسد خطط المشركين ، فإن المجاعة كانت تهدد بالقضاء على المحاصرين أجمع ، فكان القلق عظيماً فى صفوف المسلمين .

وفى هذه الأثناء أتى نعيم بن مسعود سيد غطفان رسول الله ، فقال له : « يا رسول الله ، إني قد أسلمت وإن قوى لم يعلموا بإسلامي ، فزنى بما شئت » . فقال النبي : « إنما أنت فينا رجل واحد ، فخذل عنا إن استطعت فإن الحرب خدعة » .

فهم نعيم فى الحال ما يجب عليه أن يقوم به ، فخرج حتى أتى بنى قريظة ، وكان لهم نديمًا فى الجاهلية فقال : « يا بنى قريظة ، قد عرفتم ودى إياكم ، وخاصة ما بيني وبينكم » .

قالوا : « صدقت لست عندنا بمتهم » .

فقال : « إن قريشاً وغطفان ليسوا مثلكم ، فأنتم البلد ببلدكم ، فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم ، ولا تقدرن على أن تحولوا منه إلى غيره ، وإن قريشاً وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه ، وقد ظاهروهم عليه ، وأموالهم وأبناؤهم ونساؤهم بغيره ، فليسوا مثلكم ، فإن رأوا نهضة أصابوها ، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم ، وخلوا بينكم وبين الرجل ببلدكم ، ولا طاقة لكم به إن خلا بكم ، فلا تقاتلوه مع القوم حتى تأخذوا منهم رهناً من أشرفهم ، يكونون ثقة لكم على أن تقاتلوا محمدًا معهم حتى تنجزوه » .

فقالوا له جميعاً فى صوت واحد : لقد أشرت بالرأى .

ثم خرج نعيم حتى أتى مشركى قريش ، فقال لهم : « قد عرفتم ودى لكم وفراق محمدًا » .

قالوا : « نعم » .

قال : « وإنه قد بلغنى أمر ، قد رأيت حقاً على أن أبلغكموه نصيحاً لكم ، فاكتموه غنى » .

قالوا : « نعم » .

قال : « تعلمون أن معشر اليهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد ، وقد أرسلوا إليه يقولون : إنا قد ندمنا على ما فعلنا ، فهل يرضيك أن تأخذ لك من القبيلتين من قريش وغطفان رجلاً من أشrafهم فتعطيهم ، فتضرب أعناقهم ، ثم تكون معك على من بقى منهم فتقتلهم حتى نستأصلهم ؟ فأرسل إليهم أن نعم . فإن بعث إليكم بنو يهود يلتمسون رهناً منكم من رجالكم ، فلا تدفعوا إليهم منكم رجلاً واحداً » .

ثم أتى عشيرته من غطفان ، وقال لهم مثل ما قال لقريش ، فأحرز عين النجاح ، وأقسم القرشيون والغطفانيون أن يلتزموا الحرص والحذر .

فلما كانت ليلة السبت من شوال سنة خمس ، أرسل أبو سفيان بن حرب ورعوس غطفان بعكرمة بن أبي جهل في نفر من قريش وغطفان إلى بنى قريظة ليقولوا لهم : « إنا لسنا بدار مقام ، قد هلك الخلف والحافر ، فاغدوا للقتال حتى نناجز محمداً ، ونفرغ مما بيننا وبينه » .

فردوا عليهم يقولون : « إن اليوم يوم سبت ، وهو لا نعمل فيه شيئاً ، ولسنا مع ذلك بالذين يقاتلون معكم محمداً حتى تعطونا رهناً من رجالكم ، يكونون بأيدينا ثقة لنا ، حتى نناجز محمداً ، فإننا نخشى أن يخسرتم الحرب ، واشتد عليكم القتال ، أن تتشمروا إلى بلدكم ، والرجل في بلدنا ، لا طاقة لنا بذلك منه » .

فلما رجع عكرمة إلى قريش وغطفان بذلك الجواب ، قالتا : « والله إن الذي حدثكم به نعيم بن مسعود عن بنى قريظة لحق ! » . وأرسلوا إلى بنى قريظة برسول آخر ، ليبين لهم بوضوح أنهم لن يدفعوا إليهم رجلاً واحداً من رجالهم . وعندئذ تحقق بنو قريظة ، بدورهم ، من صحة قول نعيم ، فتم بذلك فسخ ما عقد بينهم وبين الحلفاء .

فلما جاء تعيم بالخبر إلى النبي ، سر منه ، ولكنه أراد التحقق من أثره في صفوف غطفان وقريش ، فدعا بحذيفة ، وقال له : « يا حذيفة ، اذهب فادخل في القوم ، فانظر ماذا يصنعون ، ولا تحدثن شيئاً حتى تأتينا » .

وفي الظلام الحالكة في تلك الليلة من ليالي الشتاء ، تسلل حذيفة وسط خيام الأعداء والريح الصرصر تقلب القدور ، وتطفئ النيران ، وتصفر في الآذان صفيراً مؤلماً ، فيرتعد المشركون لها في ثنايا أثوابهم . وصاح أبو سفيان في الناس : « يا معشر قريش ، لينظر كل امرئ من جلسه » . أى : احذروا العيون . وكان حذيفة حاضر البيديهة ، فأخذ بيد جلسه المشرك وقال له بصوت فيه رنة التهديد : « من أنت ! » ، قال : « فلان بن فلان » . فتركه . ولم يفكر المشرك ، وقد أجبر على أن يتبرأ ، في أن يسأل بدوزه من جلسه .

وأدى انخدال بني قريظة ، وتعذر وجود العلف للخيول والإبل ، وأخيراً ما كان في تلك الليلة المشثومة من اضطراب ، إلى سريان اليأس في قلب أبي سفيان ، فدار بينه وبين رموس قريش ، أمام حذيفة المتخفي ، حديث قصير انتهى بأن قرروا الرجوع إلى الديار .

وأحاط حذيفة علماً بما أراد ، فرجع إلى قومه ، فوجد الرسول قائماً يصلي . فلما رآه الرسول أشار إليه بالاقتراب ، وطرح عليه طرفاً من الثوب الذي كان يصلي عليه ليقيه البرد ، وأتم صلاته ، ثم أنصت إلى حديث الكشف الجريء ، وهنأه على ما أحرز من نجاح في مهمته .

وفي اليوم التالي ، كان السهل خالياً من الأعداء فخرج النبي عن الخندق وأرجع جيوشه إلى المدينة قائلاً : « الآن نغزوهم ولا يغزونا » .

معاهدة الحديبية (سنة ٦ هـ سنة ٦٢٨ م) :

رأى الرسول فيما يرى النائم أنه دخل مكة بين أصحابه ، وأنه طاف بمنى فعزم على تحقيق ذلك الحلم الذي عبر عن أعز أمنائه وأمانى سائر المسلمين الذين لم يطوفوا بالحرم منذ الهجرة .

وفي شهر ذي القعدة رحل الرسول في أربع عشرة مائة حاج ، يسوقون أمامهم الهدى : سبعين بدنة . وخرج من المدينة قاصداً مكة ، ولكنه أراد أن يبين للناس

أنه لم يخرج للحرب ، فأمر بنثر الزهور على نحور الهدى ، ثم أحرم في ذى الحليفة ، فلبس ثوب الحجاج المكون من الرداء والإزار ، الخالين من الخياطة ، وامتنع عن كل شيء محظور أثناء الإحرام : من اتصال بالنساء واستعمال للعطور . وأرسل شعر الرأس والذقن ، وترك أظافره ، وامتنع عن أى تشاجر أو قتال ، وعن ذبح أية دابة غير الهدى . وقد فعل أصحابه مثلما فعل . ثم جهر محمد بالتلبية : « لبيك اللهم لبيك » ، فرددوها جميعاً من بعده .

فلما كان بعُسفان : جاء إليه بشر بن سفيان الكعبي ، وكان قد أرسل إلى مكة عيناً ، فقال : « يا رسول الله ، هذه قريش قد سمعت بخروجك واستنفروا من أطاعهم من الأحابيش ، وأجلست ثقيفاً معهم ، ومعهم النساء والصبيان ليكون أدعى لعدم الفرار ، وأخذوا العوذ المطافيل^(١) ليشربوا ويأكلوا ، وقد لبسوا جلود النمر ، عازمين على القتال حتى الموت . وقد نزلوا الآن بذى طوى يعاهدون الله لا تدخلها عليهم أبداً . وهذا خالد بن الوليد في خيلهم قد قدموها إلى كراع العميم » .

فتأدى الرسول : « هل من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التى هم بها ؟ » . فتقدم رجل من بني أسلم ، وسلك بهم طريقاً مجهولاً ، وكان هذا الطريق يبدو موحشاً لأعينهم : كان يتلوى في شبكة من الشعاب الضيقة بين ربوات صخرية مشققة ، وبين هبوط وصعود وعلى سفوح جبال تكسوها الحجارة الحادة التى تدمى أرجل الحجاج والدواب .

وبعد اجتياز ما لا حصر له من العقبات ، أفضى المؤمنون إلى بطن هواء رملي واسع ، بدا لأرجلهم الدامية وكأنه البساط اللين ، فحمدوا الرحمن ، وصاحوا مع قائدهم الملهم : « نستغفرك اللهم ونتوب إليك » ، ثم سلكوا ثنية المزار ، وهبطوا حتى وصلوا إلى أسفل جبل الحديبية ، الذى يقع جزء منه في الأرض المحرمة ، والجزء الآخر في الأرض الحل ، وبينه وبين مكة مسير يوم . وفي هذا المكان بركت القصواء (ناقة الرسول) فجأة ، وأبت القيام ، فقال الناس : « خلأت (بركت)

(١) العوذ المطافيل : النياق ذوات الأولاد ، يريد أنهم خرجوا بذوات الألبان من الإبل ليتزودوا ألبانها ، والمطافيل جمع مطلق : ذوات الطفل .

الناقة ؟ » . فأجابهم : « ما خلأت وما هو لها بخلق . ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة » . ثم أمر الناس يضرب الحيام .

وتعجب الأعداء إذ لم يلقوا محمداً ، بعد أن ظنوا أنهم منه غير بعيدين ، لكن سرعان ما علموا باتجاهه الجديد ، فرجعوا على أعقابهم مهرولين وبعثوا بفرسانهم يتقدمونهم لحماية طريق مدينتهم ، ثم أرسلوا إلى النبي ببديل بن ورقاء الخزاعي في رجال من خزاعة ليستطلعوا قصده . فلما علم بديل من الرسول نفسه أنه لا يريد حرباً مع قومه بل جاء حاجاً للبيت الحرام ، عاد إلى القرشيين بالخبر ، ولكنهم تشككوا في صدق خزاعة ، إذ كانت تميل إلى محمد ، فأرسلوا إليه رسولا آخر يقال له الحليس بن علقمة ؛ فقال الرسول عندما رأى الحليس آتياً : « إن هذا من قوم يتألهون ، فابعثوا الهدى في وجهه حتى يراه » . فلما رأى الحليس الهدى الكثير ماراً أمامه في عرض الوادي في قلائده وقد حلفت نحور الدواب من حيث تدبح ، اكتفى بما رأى ورجع إلى قريش ليخبرهم بما شاهد فقالوا له : « اجلس فإنما أنت أعرابي لا علم لك » فغضب الحليس وقال : « يا معشر قريش ، والله ما على هذا حالناكم ولا على هذا عاقدناكم ، أبصد عن بيت الله من جاء معظماً له ؟ والذي نفس الحليس بيده لتخلن بين محمد وبين ما جاء له ، أو لأنفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد » .

فهزوا أكتافهم احتقاراً ، وقالوا : « مه ، كف عنا يا حليس حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به » .

ثم بعثوا إلى النبي بعروة بن مسعود ، أحد رؤوس ثقيف ، ليقوم بالمهمة التي رأوا أن السفيرين الأولين لم يحسنا القيام بها . فاعترض عروة على ذلك قائلاً : « يا معشر قريش ، إني قد رأيت ما يلقى منكم من بعثتموه إلى محمد إذا جاءكم ، من التعنيف وسوء الكلام . وقد عرفتم أنكم والد وأنى ولد ، وقد سمعت بالذي نابكم ، فجمعت من أطاعني من قومي ، ثم جئتكم حتى آسيتكم بنفسي » .

قالوا : « صدقت ، ما أنت عندنا بمتهم » .

فخرج عروة حتى أتى النبي ، فجلس بين يديه وقال : « يا محمد ، أجمعت أوشاب الناس ، ثم جئت بهم إلى بيضتك لتفضها بهم ؟ إنها قريش ، قد خرجت

معها العوذ المطافيل ، وقد لبسوا جلود النمرور ، يعاهدون الله ألا تدخلها عليهم عنوة أبداً ، وإيم الله لكأنى بهؤلاء قد انكشفوا عنك غداً » .

وعندئذ بان الغضب في عيون الصحابة وقد وقفوا وراء الرسول وأسفل وجوههم مغطى . فانبرى أبو بكر من صفهم ، ووقف أمام المشرك صائحاً : « امصص بظئر اللآت ! أنحن ننكشف عنه ؟ » .

فسأل عروة : « من هذا يا محمد ؟ » .

قال : « هذا ابن أبي قحافة » .

فقال عروة لأبي بكر : « أما والله لولا يد كانت لك عندي اكافأتك بها ، ولكن هذه بها » .

ثم جعل يقترب من محمد ويتناول لحيته — كما جرت العادة في هذا العصر بين من يتسامرون — ، فصاح فيه رجل آخر من الصحابة : « اكفف يدك عن وجه رسول الله قبل أن تقطع دونك » .

فقال عروة : « من هذا الفظ الغليظ يا محمد ؟ » .

فتبسم الرسول وقال : « هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبة » .

فقال عروة لابن أخيه : « أى عُذَر : وهل غسلت سؤأتك إلا بالأمس » .

ثم عاد إلى حديثه مع محمد الذى أكرم وفادته ، وأكد له أنه ما جاء للحرب .

ورأى عروة أثناء إقامته عند الرسول ، ما يحيطه به أصحابه من إجلال : لا يتوضأ إلا ابتدروا وضوءه ، ولا يسقط من شعره شيء إلا أخذوه ، فلما رجع قال لمن بعثه : « يا معشر قريش ، إني قد جئت كسرى في ملكه وقيصر في ملكه ، والنجاشي في ملكه . . . فوالله ما رأيت ملكاً في قوم قط مثل محمد في أصحابه ، لا يبغيون منه مالا ولا جاهاً كالعهد بأصحاب الملوك ، ولقد رأيت قوماً لا يسلمونه لشيء ، فترؤا رأيكم » .

وأصر القرشيون على أن يبقوا في ضلالهم يعمهون ، رغم تأثرهم بذلك القول ، فبعثوا بأربعين أو خمسين رجلاً منهم ليطيقوا بمعسكر رسول الله ، ويصيبوا لهم من أصحابه . وكان المؤمنون على حذر ، فكانوا هم الذين أصابوا من المشركين ،

وأثروا بهم رسول الله ، ولكنه لم ير الخروج عن موقفه السلمى ، فغفا عنهم وخلي سبيلهم ، رغم أنهم استحقوا القتل جزاء هجومهم الغادر .

وأراد الرسول بعد ذلك أن يبعث عمر برسالة إلى أشراف مكة ، ولكن عمر امتنع قائلاً : « يا رسول الله ، إني أخاف على نفسى قريشاً ، وليس بمكة من بنى عدلى بن كعب أحد يمينى ، وقد عرفت قريش عداوتى إياها ، وغلظتى عليها . ولكنى أدلك على رجل أعز بها منى هو عثمان بن عفان » .

فرأى محمد صواب ذلك القول ، فدعا بعثمان بن عفان وبعثه إلى أبى سفيان ابن حرب وأشراف قريش ، ليخبرهم أنه ما جاء لحرب بل حاجاً للبيت ومعظماً لحرمة . فلما بلغ عثمان رسالته إليهم ، قالوا له : « إن شئت أن تطوف بالبيت فطف » .

فقال : « ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله » .

فغضب أهل مكة من تلك الإجابة ، واحتبسوه رغم كونه سفيراً .

ولما تأخر عثمان على المؤمنين ، استنتجوا أنه قد قتل ، فنال منهم الغضب منالاً عظيماً ، حتى قطع الرسول فى الأمر ، فنادى فيهم : « لا نبرح حتى نناجز القوم » .

وأمر عمر أن يصيح بأعلى صوته فى المؤمنين : « أيها الناس ، البيعة ! البيعة ! نزل روح القدس ، فاخرجوا على اسم الله » .

وكان الرسول جالساً فى ظل دوحة وارفة الظلال ، يتلقى مبايعة المؤمنين المتحمسين ، وقد عقدوا العزم على أن يطيعوه طاعة تامة ، وإن دعاهم إلى مناخزة أهل البلد الحرام ، وكان كل واحد منهم يشد على يده لبياعه على الموت . وفى هذه الأثناء بلغ الرسول أن الذى ذكر له عن عثمان باطل فبايع لعثمان ، فضرب بإحدى يديه على الأخرى .

وأبلغت العيون أهل قريش ما كان من أمر جند المسلمين ، فقلقوا وبعثوا بسهيل بن عمرو ليفاوضهم وقالوا له : « آيت محمداً فصالحه ، ولا يكن فى صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا ، فوالله لا تحدث العرب عنا أنه دخل علينا عنوة أبداً » .

فأتى سهيل بن عمرو الرسول وأبلغه شروط الصلح ، فقبلها رغم مراجعة عمر بن الخطاب الشديدة ، وقال : « أنا عبد الله ورسوله ، لن أخالف أمره ، ولن يضيغني ، يا عمر ، إني رضيت وتأبى »

فارتبك عمر لذلك — رغم قوة شخصيته — ارتباكاً شديداً ، حتى جعلت أعضاؤه ترتجف ، ونضج من جسمه عرق بارد ، ويروى أنه قال : « ما زلت أصوم ، وأتصدق ، وأصلى وأعتق ، مخافة كلامي الذي تكلمت به حتى رجوت أن يكون خيراً » .

وقال الرسول بعد ذلك لعل : « اكتب : باسم الله الرحمن الرحيم . . . »
فقال سهيل : « لا أعرف هذا ، ولكن اكتب : باسمك اللهم » .
فقال رسول الله : « اكتب : باسمك اللهم . هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو . . . »
فقال سهيل : « لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك » .

فقال النبي : « اكتب : هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو : اصطالحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين ، يأمن فيهن الناس ، ويكف بعضهم عن بعض ، على أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه ، رده عليهم ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه ، وعلى محمد وأصحابه أن يرجعوا عن مكة عامهم هذا فلا يدخلوها ، وأنه إذا كان عام قابل ، يدخلها بأصحابه ، فيقيمون بها ثلاثة أيام ، ومعهم سلاح الراكب أي السيوف في القرب » .

فلما سمع المؤمنون تلك الالتزامات ، بدا لهم أنها ليست في صالحهم ، فقالوا في قلق بالغ : « يا رسول الله أتكتب هذا ؟ » .

فأجاب الرسول باسمًا : « نعم ، إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله ، ومن جاءنا منهم فرددناه ، سيجعل الله له فرجاً ومخرجاً » .

ولم يكده العقد يبرم ويشهد عليه رعووس المؤمنين ورعووس المشركين ، حتى برز أبو جندل بن سهيل — وكان قد أسلم فحبس — يرسف في الحديد ، فارتبى بين إخوانه في الإسلام فرحبوا به . ووثب سهيل عند هذا المشهد فضرب وجه ابنه بغصن ذى أشواك حادة ، ثم أخذ بتلابيبه فجره أمام الرسول قائلاً : « يا محمد ،

قد بلغت (١) القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا .

فقال محمد : « صدقت » .

فأخذ أبو جندل يصرخ : « يا معشر المسلمين ، أأرد إلى المشركين يفتنونني في ديني ؟ ! انظروا حالي » . وكان جسم المؤمن الصبور يحمل حقاً آثار الضرب المبرح .

فقال له الرسول : « يا أبا جندل ، اصبر واحتسب ، فإن الله جاعل لك ولن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً . . . إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً ، وأعطيناهم على ذلك وأعطينا عهد الله ، وإنا لا نغدر بهم » .
وقام الرسول مع ذلك يكلم سهيلاً في الأمر طالباً منه تسليم أبي جندل لقاء فدية كبيرة فرفض سهيل رفضاً قاطعاً .

وعندئذ اقرب عمر بدوره من المسلم اليائس وقال له : « اصبر يا أبا جندل ، فإنما هم المشركون ، وإنما دم أحدهم دم كلب » .
وجعل يريه السيف ليدفعه إلى قتل أبيه . ولكن أبا جندل لم يكن بالابن العاق رغم ملاقاه من أبيه ، فأجاب : « ما لك لا تقتله أنت ؟ » .
قال عمر : « نهانا رسول الله عن قتله وقتل غيره » .
فقال : « ما أنت أحق بطاعة رسول الله مني » .

ولقد تأثر مكرز بن حفص ؛ وهو ممن صاحب سهيلاً من أهل مكة ، عندما شاهد ذلك المنظر ، فعطف على أبي جندل ، وأقسم أن يجره من أبيه ومعذبيه . ولما رأى المؤمنون صاحبهم يجر جراً نحو مكة أحسوا لذلك بحزن شديد ، وانقبضت قلوبهم حتى كادوا يهلكون أسى . . . وتبدلت حماسهم وآمالهم في تلك الرحلة ، فانقلبت يأساً مريراً . وعندما أقبل الرسول نحوهم ، يريد إفهامهم أن كل شيء قد انتهى ، ويأمرهم بنحر الضحايا ، وخلق الرعوس ، بدا عليهم وكأنهم لم يعوا شيئاً مما يقول .

فدعا محمد باسم الله ، ثم نحر بيده أولى الضحايا ، وجلس فحلق له خراش بن أمية . وعندئذ فقط ذهب عن المؤمنين ذهولهم وقنوطهم وندموا على تباطئهم في

تنفيذ أوامر نبيهم ، فقاموا وفعلوا مثل ما فعل من نحر الأضاحي ، وحلقوا شعورهم .
وبعث الله سبحانه ريحاً شديدة حملت في ثناياها الشعر المخلوق فجعلته في ساحة
الحرم فاستبشروا بقبول الله عمرتهم .

وكان قد مضى على نزول محمد بالحديبية تسعة عشر يوماً أو عشرين يوماً ،
فأمر جنده بالرحيل . وكانوا يأملون ، في مكنون سرهم حتى اللحظة الأخيرة ، أن
يأتيهم أمر بالمحجوم . ولكنهم أطاعوا رسولهم في غير تلكؤ ، رغم شدة ما يجدونه في
نفوسهم . فلما وصلوا إلى المدينة شهدوا فيها مناظر أخرى كالتى رأوها في الحديبية ،
فكادت أكبادهم تنفقت وإن قدر لهم أن تشرح صدورهم بأن يجدوا الرسول يرفض
تسليم المستضعفات من المسلمات اللاتي هربن من مكة إلى المشركين : (أم كلثوم
بنت عتبة ، وسبيعة بنت الحارث ، وغيرهما) إذ جاءه الوحي بأن النساء لا تنطبق
عليهن نصوص العقد :

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَاثْمَحِيهِنَّ» ،
اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ ، فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ ،
لَا مَنَ حِلٌّ لَهُمْ ، وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ، وَآتُوهُنَّ مَا أَنْفَقُوا ، وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ
أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ ، إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجْرَهُنَّ ، وَلَا تُنْسِكُوا بِعَصَمِ الْكَوَافِرِ ،
وَأَسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ ، وَلَيْسَ أَلَا مَا أَنْفَقُوا . ذَلِكَ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ،
وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * (١) .

غير أن العقد فيما يتصل بالرجال لم ينقض ولم يمس . وكان أبو بصير قد هرب
من أيدي معذبيه — شأنه في ذلك شأن أبي جندل — فسلمه الرسول إلى رجل من
بنى عامر يرافقه أحد الموالى ، أرسلتهما قريش في طلبه إلى المدينة ، فأخذه على
مرأى من المسلمين الذين ودوا لو ابتعلتهم الأرض ولم يشاهدوا ، مغلوله أيديهم ،
مثل ذلك المنظر الأليم . وبقي الرسول وحده ، وكان يرى ما لا يرون ، متفائلاً هادئاً
يبشر المسلم اليائس بعون من الله وفرج قريب .

رجلس الرجال الثلاثة في ذى الحليفة ، يستريحون في ظل حائط ، فجعل

العامري يفخر بما أحرزه في مهمته من نجاح ويظهر نفسه على أنه البطل الذي لا يقهر ، واستل سيفه وهزه قائلاً : « لأضربن بسيفي هذا في الأوس والخزرج يوماً إلى الليل » .

فسأله أبو بصير : « أو صارم سيفك هذا يا أخا بني عامر ؟ آرنيه » .

وأعمى الغرور العامري فلم يحتط لنفسه ، وترك لأبي بصير سيفه يختبر حده ، فانتزعه هذا الأخير فجأة وهزه فوق رأس المشرك ، ثم أطاح به بضربة واحدة ، فوق الرجل جثة هامدة ، وملأ الرعب قلب المولى ففر هارباً إلى المدينة يستجير بمحمد .

وقد وصل أبو بصير بعده بقليل ، فأناخ بعير العامري ، الذي استولى عليه ، أمام باب المسجد ، ودخل متوشحاً سيفه ، وقال لرسول الله : « يا رسول الله ، وقت ذمتك ، وأدى الله عنك ، أسلمتني بيد القوم ، وقد امتنعت بدني أن أفتمن فيه ، أو يُعَبَّثَ بي . وهذا سلب العامري : رحله وسيفه . فخمسه » .

فقال الرسول : « إذا خمسته رأوني لم أف لهم بالذي عاهدتهم عليه ، ولكن شأنك بصاحبك فاذهب حيث شئت » .

فلما ودعه أبو بصير ورحل ، قال الرسول : « ويل أمه ! مِسْعَرُ حرب ولو كان معه رجال ! » .

وخرج أبو بصير إلى « العيص » على مقربة من البحر في طريق قوافل القرشيين السائرة إلى الشام . ولم يلبث أن لحق به أبو جندل وسبعون من المسلمين علموا أن الرسول لا يمكن أن يُسأل عن يتحررون بغير معونته ففروا من أيدي المشركين .

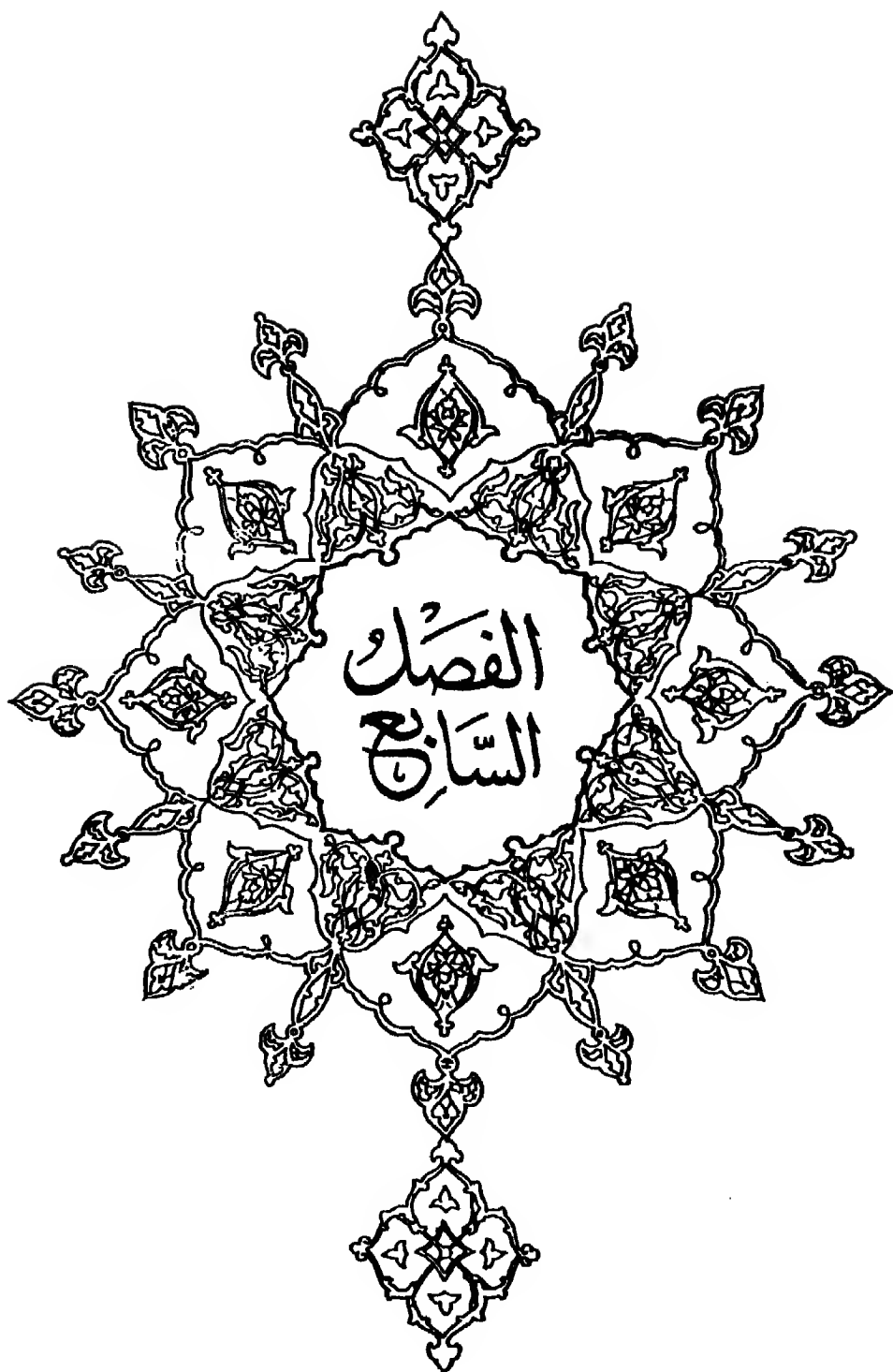
وكان هؤلاء الرجال يضارعون أبا بصير في جرأته وشجاعته ؛ فأقاموا بهذا البلد الذي تكسوه الشجيرات الكثيرة ، والذي يسهل فيه نصب المكائد الحربية ، وكانوا ينهبون كل قافلة تعجرو على المخاطرة فيه . وقد اجتذبوا إليهم ، بنجاحهم في هذا الأمر وبمغاغهم الكثيرة رجالاً من عرب غفار وأسلم وجهينة ، أسلموا وانتظموا معهم فكونوا جيشاً صغيراً للمؤمنين في هذه المنطقة ، بلغ عدده ثلثمائة مغير .

وفهم المؤمنون عندئذ هدوء الرسول واستبشاره ساعة قبول ذلك البند من العقد الذي

ينص على رد اللاجئين ، والذي ظنه الناس في أول الأمر ضاراً بالمسلمين .
وقطعت على أهل مكة كل موارد المؤونة ، فهددتهم المجاعة ، وأعيتهم الحيلة ،
فكتبوا إلى الرسول يرجونه في إلغاء الشرط الذي أعجبهم أول الأمر ونال استحسانهم
ويطلبون منه أن يحفظ عنهم في المدينة كل من يهرب إليه من مسلمي مكة ، وأن
يبعث إلى أبي بصير وأصحابه ليقیموا حيث يقيم الرسول .
وأرضاهم الرسول في كل ذلك ، فكان له مغنماً أن أبان لقريش عن حسن نيته
وكرمه ، وأن قرى جيشه برجال أشداء كثيرين .
وهكذا بدت رحلة الحديبية أول الأمر غير ذات نتائج كبيرة ، ثم إذا هي في
حقيقتها عظمة الشأن . ولقد خصصها القرآن بمقام يوازي تقريباً مقام بدر .
وأعظم نتائج رحلة الحديبية هي أن المهاجرين والأنصار لم يترددوا في متابعة
الرسول عندما ظن أن الحرم سيهاجم .
وقد أصبح للشجرة التي تلقى الرسول في ظلها البيعة شهرة عظيمة بين المؤمنين
بعد موته ، فكانوا يحجون إليها ويصلون بجوارها ، فقطعها عمر بن الخطاب خشية أن
تكون فيما بعد موضع عناية لا تخلو من الشرك .
ونزلت الآيات التالية متممة لفوائد رحلة الحديبية :

« لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ، فَعَلِمَ
مَا فِي قُلُوبِهِمْ ، فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ ، وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا * وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً
يَأْخُذُونَهَا ، وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا * »

بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا

لم يصل محمد - قط - إلى اكتساب ثقة اليهود وضمهم إلى صفوفه ، رغم كل ما تقدم به إليهم في سبيل إرضائهم . فلم يكن هؤلاء ليعترفوا ، كما قلنا ، بأن النبي المرتقب سيأتيهم من غير أبناء جلدتهم ، ثم لم يكونوا ليغفروا لمحمد ما جاء به من إخاء ومساواة في الدين ، وإنهاء المنازعات الداخلية ، التي كانت قائمة بين أهل المدينة ، تلك المنازعات التي طالما استغلوها فيما مضى ، فضلا عن أنهم لم ينظروا بعين الرضا إلى انتصارات العرب المسلمين . بل خافوا الوقوع تحت نير حكمهم ، لذا كان كل انتصار جديد لجنود المسلمين يزيد في غيرتهم ، ويدفعهم إلى الغدر ، حتى صار عداؤهم للإسلام علنياً ، فاقضى ذلك من اتباع الدين الحديد سلسلة طويلة من الغزوات ، نجمها لزيادة إيضاحها في فصل واحد ، مع اختلاف أزمان وقوعها وتباعدها .

غزوة يهود بني قينقاع (سنة ٥٢ هـ ، ٦٢٤ م) :

جلست امرأة عربية إلى صائغ من بني قينقاع ، فتعرضت لأشنع المحن : إذ عمد يهودى إلى ذيل ثوبها ، فعقده إلى ظهرها ، دون إثارة انتباهها ، فلما اعتدلت واقفة انكشفت سواتها ، أمام يهود الحانوت ، الذين انتفضوا ضاحكين على أقيع الصور ، وغضب أحد العرب الحاضرين فضرب المستهتر بعصاه ضربة ألقته صريعاً . وثارت حمية أهل اليهودى ، فانقضوا على العربى وأردوه قتيلاً ، وهرع العرب إلى المكان يطلبون ثأر أخيهام ، فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع ، وسالت الدماء من الجانبين .

وكان الرسول عليماً بأخلاق اليهود وبعدايهم المستحكم للإسلام ، فاستغل ذلك الموقف الذى كانوا هم فيه المعتدين ليعرض عليهم اعتناق الدين الجديد . فأبوا فى هزء وسخرية . وغضب الرسول ، فقال : « يا معشر يهود احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النعمة . . . »

فهمزوا أكتافهم مستهزئين وقالوا : « . . . لا يغرنك أنك لقيت قومًا لا علم لهم بالحرب فأصببت منهم فرصة ، إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس » . فجمع محمد المسلمين ، وسيرهم لغزو بنى قينقاع الذين ما كادوا يرون جند الله حتى فروا هارين ، مخلفين وراءهم غرورهم وغطرستهم ، واعتصموا بقلاعهم فى ضواحي المدينة ، فتبعهم الرسول وحاصرهم ، حتى أرغمهم على الاستسلام المطلق بعد خمسة عشر يوماً من المقاومة . ثم أراد أن يعطى اليهود الآخرين مثلاً يذهب من رءوسهم فكرة تقليد بنى قينقاع ، فأمر بذبح أسراه ، فقام إليه عبد الله المنافق حليفهم يستعطفه لهم ، فأعرض عنه محمد وصاح فيه مرتين : « دعنى » ، فوضع عبد الله يده على قلب رسول الله ، وضرع إليه قائلاً : « لا والله لا أتركك حتى تحسن فى مولى . . . إني والله امرؤ أخشى الدوائر » ؛ وأخيراً قال الرسول : « هم لك » .

وهكذا نجا بنو قينقاع بفضل المنافق ، ولكنهم أرغموا على الهجرة إلى الشام ، وقسمت أمراهم بين المنتصرين .

غزوة يهود بنى النضير (٣ هـ ، ٦٢٥ م) :

طالب بنو النضير بدية رجلين من بنى جلدتهم ، قتلها جند عمرو ، فخرج الرسول إليهم مستوضحاً القضية ، وبذل لهم ما أرضاهم ، غير أن جحاش بن كعب اليهودى ، أراد أن يكيد لمحمد ، فصعد مستتراً إلى دار تطل على النبى وجماعة من الصحابة ، وقد جلسوا فى ظل حائط يتجاذبون أطراف الحديث ، وأعد ابن جحاش صخرة ضخمة قاصداً رى الرسول بها وسحقه . وبينما الشقى على وشك تنفيذ خطته ، إذا بمحمد قد أتاه إلهام سماوى ، فرفع رأسه ناظراً إلى أعلى ، ورأى المكيدة فأسرع بالابتعاد عن الحائط جاذباً أصحابه معه .

ولم يكد يرجع إلى المدينة حتى جمع جنوده ، وسار فيهم لمعاينة أولئك الغادرين .

ولما رأى بنو النضير أنهم قد باعوا بالفشل التجئوا إلى قلاعهم . ولكنهم بعد ستة أيام من المقاومة ، أرغموا على مثل ما فعل بنو قينقاع ، فاستسلموا صاغرين ضارعين إلى المنتصر ، يطلبون منه الرحمة ، فعفا عنهم وأجلاهم ، ولم يسمح لكل منهم إلا بحمل بعير من أموالهم الطائلة .

غزوة يهود بنى قريظة (٥ هـ ، ٢٦٧ م) :

تشتت شمل الحلفاء بعد فشلهم في غزوة الخندق . فطوى المسلمون السلاح وباتوا يريحون بالنوم أبدانهم المردقة من أثر السهرات الطويلة ، والمتاعب الكثيرة ، التي عانوها أيام الحصار . وبينما هم على هذه الحال إذا بصوت المؤذن يوقظهم ويدعوهم إلى صلاة العصر في بنى قريظة ، وكان ذلك بأمر من الرسول ، إذ رأى أن غدر بنى قريظة الذين نقضوا ميثاقهم وانقلبوا عليه متحالفين مع أعدائه ، لا يستحق إلا صارم العقاب وعاجله . فعسكر في اليوم نفسه عند بئر أبي أمام قلاعهم ، وأجبرهم على الاستسلام بعد خمسة عشر يوماً من الحصار .

وسعى الأوسيون ، حلفاء بنى قريظة القدامى ، لدى محمد ليعفو عنهم كما عفا عن بنى قينقاع من قبل ، ورأى الرسول أن غدر بنى قريظة أعظم من غدر بنى قينقاع فلم يكن مستريحاً إلى العفو عنهم ، بيد أنه قال أخيراً للأوسيين : « ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم » ؟ قالوا : « بلى » قال : « فذاك إلى سعد بن معاذ » .

وكان سعد بن معاذ قد جرح جرحاً خطيراً إبان غزوة الخندق إذ أصابه سهم قطع شريان ساعده ، فكان قصارى مناه أن يحياه الله حتى يذيق بنى قريظة جزاء غدرهم . وكان سعد جسيماً ولا يهوى على الحراك من شدة ضعفه . فجعل على حمار قد وطئ له بوسادة من آدم . وأسندته اثنان من المؤمنين حتى أتيا به جماعة الأنصار والمهاجرين الذين قاموا له لإجلالا قائلين : « يا أبا عمرو إن رسول الله قد ولاك أمر مواليك لتحكم فيهم » . فقال : « عليكم بذلك عهد الله وميثاقه أن الحكم فيهم لما حكمت ؟ » . قالوا : « نعم » — قال سعد : « فلأني أحكم فيهم : أن تقتل الرجال ، وتقسم الأموال ، وتسبي الذراري والنساء » .

عندئذ صرف محمد القوم بقوله : « لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة

أربعة . وفاضت أرواح سبعمائة يهودى جزاء غدرهم المنكر ، وقد تحققت بذلك أمنية سعد التي كانت تربطه بالحياة ، فانفتح جرحه من جديد ، وسال منه كل ما تبقى في جسد المريض من دماء ، ومات .

غزوة يهود خيبر (سنة ٦٢٨ هـ ، ٦٢٨ م) :

لم تكن انتصارات المسلمين المتتالية ، رغم خطورتها : بضربة قاصمة لشوكة اليهود بالجزيرة ، فقد كانوا يملكون بالمدينة ، وعلى بعد ستة وتسعين ميلاً منها يملكون ولاية خيبر ، التي تفوق في الغنى والأهمية كل ما فقدوه . وقد زاد تعطشهم إلى الثأر شدة ، واستمرت وقدة الحقد للإسلام في قلوب أهل خيبر بوفود الجماعات تلو الجماعات من اليهود الهاريين إليهم من المدينة . واعتقد أهل خيبر أنهم بمأمن من ضربات المسلمين ، فلم يألوا جهداً في سبيل الكيد لهم . ووجدوا في الطريقة التي اتبعها محمد حيال أهل مكة ، خير معين للوصول إلى مآربهم . وكانت قبيلة بني غطفان ، حليفهم ، تسود البلاد الواقعة بين خيبر والبحر ، فتآمروا على قطع السبيل على كل القوافل الخارجة من المدينة في طريق سوريا . وأثر ذلك على حالة المدينة الاقتصادية . ففكر الرسول مراراً في غزو يهود خيبر ، غير أن انشغاله بأمر مكة منعه من تنفيذ فكرته ، حتى رجع من الحديبية وقد عقد مع القرشيين هدنة السنين العشر ، فأزال ذلك عن كاهله كل هم من ناحيتهم ، ونزل عليه الوحي :

«... وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا * وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا...»

فاعتقد النبي أن ذلك الرحي لا ينطبق إلا على خيبر ، فلم يتردد ، وعقد العزم على فتح آخر معقل لليهود في بلاد العرب .

وأمر عبد الله المنافق بالخبر إلى بني غطفان ، فهرعوا إلى نجدة حلفائهم اليهود . بيد أنهم ما كادوا يصلون إلى وادي الرجيع حتى بصروا بجند الإسلام ، وقد سبّوهم إلى المكان وقطعوا عليهم طريق خيبر . وبينما هم واقفون تغمرهم الدهشة الخائفة ، إذ سمعوا خلفهم في أموالهم وأهليهم صوتاً ، فظنوا أن قوماً من المسلمين قد خالفوا إليهم ، فانقلبوا مسرعين ، على أعقابهم راجعين .

... واحة تمتد بين تلال الحرة وصخورها السوداء ، فكانها بحيرة من الزمرد ، تعلوها جزر صخرية متوجة بقلاع حصينة . . . هكذا بدت خير للرسول ، عندما خرج من الممر الضيق ، وأشرف عليها ، فسأل الله العزيز القدير عوناً وقوة . وأقبل الليل فخيم الجيش ليستريح ، وانتظار محمد للهجوم إلى الصباح . ولما انتشرت أشعة الشمس المشرقة فكست أعلى النخيل بلون ذهبي جميل ، خرج عمال خير من قلاعهم إلى بساتينهم يحملون محافرههم وفؤوسهم ، وقد علقوا السلال بأكتافهم ، فبصروا بجند المؤمنين الآتين من الحرة ، ومعهم الرماح والسيوف المتوهجة في أشعة الشمس ، فصاح القوم : « محمد والخميس ^(١) معه ! » وأدبروا هارين مخلفين المحافر والفؤوس والسلال ، فقال الرسول : « الله أكبر ! خربت خير . إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين . »

وكان أول حصن وقع في أيدي المؤمنين ، حصن ناعم ، وعنده قتل محمود بن مسلمة : فقد حارب حتى أعياه الحرب ، وثقل عليه السلاح ، واشتد الحر فانحاز إلى ظل الحصن ، فألقى عليه من إحدى فتحاته حجر رعى فكسر مغفر الجندى الشجاع ، وهشم عظام رأسه ونزل جلد جبينه على عينيه ، فأدركه المسلمون ، فأثروا به النبي الذي رد الجلد إلى مكانه ، وعصب الرأس بعمامة ، غير أن تلك الجهود لم تفلح لخطورة الجرح ، فلم تلبث روح محمود أن فاضت .

وأظهرت قلاع النظاة صموداً أمام ضربات المساحين ، فلجأ محمد ، ليرغم المحاصرين على الاستسلام ، إلى قطع أربعمائة من نخيل واحتهم أمام أعينهم ، ولكن لم يجد ذلك فتيلًا ، إذ أصرّ أهل النظاة على المقاومة ، فأوقف ذلك التخريب الذي كانت نفسه لا تستسيغه ، إذ كان الرسول يحب النخيل ويراهم أشجاراً مباركة .

وطال الحصار ، ودبت المجاعة في الجيش ، ففترت همة الجند . وفي ذات ليلة أسر عمر يهودياً من الأعداء . فأدلى الأسير إلى الرسول بمعلومات نفيسة بعد أن أمنه على حياته :

كان حصن صعب ، وهو من قلاع النظاة ، يحوى ، على ضعف حاميته ،

(١) الخميس : الجيش .

فى سراديبه آلات حربىة كثرىة ، فمن مناىق ودرور وذبابات إلى رماى وخناجر وسىوف . وورع اللىهورى بإرشاد المسلمىن إلى باب سرى لتلك القلعة ، لا علم لأحد به سواه — فقبل محمد العرض واستولى على قلعة صعب دون عناء ، فوجد بها من الآلات ما أعانه على فتح الثغرات فى الحصون الأخرى ، والاستيلاء عليها ، ووجد فى هذه الحصون من الزاد والمؤونة الشىء الكثرى .

وبىنا المسلمون يهجمون على إحدى تلك القلاع ، كر الشاعر عامر بن الأكوع وراء عدو ، ووجه إلىه ضربة سىف عنىفة محاولا بتر ساقه لىوقفه ، فطاش السىف ، وكان قصىراً ، فرجع إلىه وكلمه فى ركبته كلماً شديداً . فسال منها الدم غزىراً حتى فاضت روح الشاعر ، وقد قتل نفسه بىده مجاهداً فى سبىل الله .

وبقىت من قلاع خىبر أهمها ، وهى قلعة القموص ، حىث اىتمى كنانة أمىر بنى النضىر . وكان ىدافع عنها مرىب البطل الشهىر . وقلعة القموص كانت قائمة على قمة تل صخرى أملس رأسى الخواف ، محاطة بمىدار ضخم مرتفع ، وقد اشتهرت بالقوة والمناعة ، بىد أن المسلمىن بعد عشرة أىام من العمل الشاق ، استطاعوا أن ىفتحوا ثغرة فى المىدار ، فتقدم إلىها الرسول ، وتبعه أصحابه . ولكنهم سرعان ما ارتدوا بعد أن خاضوا من المخطاير الكثرى .

وأصاب الرسول وجمع شديداً ألزمه الفراش يومىن ، فبعث أباً بكر برأىته ، فقاتل أشد القتال ، ولكنه أرغم على الرجوع ، ولم ىكن قد فتح الحصن . وتولى عمر المىند مكان أبى بكر ، فأتى بالعجب العجاب من الشىجاعة والإقدام ، ولكنه آب بالفشل كما آب من قبله أبو بكر . فقال محمد عندما أتاها نبأ ذلك الفشل المتوالى : « لأعطىن الراىة غداً رجلاً ىحب الله ورسوله ، ىفتح الله على ىديه ، لىس بفرار » .

وفى الغد اجتمع الصحابة حول الرسول ، وقد تلهفوا على معرفة الشىخص الذى سىعطى بذلك الشرف العظمى ، غىر أن محمداً لم ىلتفت إلىهم ، بل بعث فى طلب على ، وكان قد ابتعد عن القتال لرمه شديداً ؛ فأتى به صدىق له وقد عصب عىنیه ، فقال له الرسول : « خذ هذه الراىة ، فامض بها حتى ىفتح الله

عليك « فأجاب على : « يا رسول الله ، إني أرمد كما ترى ، ولا أبصر موضع قدمي » فأخذ الرسول برأس علي في حجره ، وفتح عينيه وتفل فيهما ثم فركهما ، فزال الالتهاب في التو ، كما زال كل أثر للألم . . . ، ألبس الرسول علياً درعه الحديدى وشد إليه سيفه ذا الفقار . وتوجه على إلى الحصن ، فركز تحته الراية البيضاء التي رسمت عليها بالحروف السوداء البارزة شهادتا الإسلام ، ثم تأهب للصعود إلى الثغرة ، فواجهه الحارث في نفر من اليهود محاولاً سد طريق بطل الإسلام ، فثبت له على « وقاتله فقتله ، فأدبر جند اليهود قارين .

عندئذ خرج مرحب البطل الشهير أخو الحارث ، يطلب الثأر . وكان مرحب جد مهيب بقامته الهائلة ، ودرعه المزدوج ، وسيفه ورمحه ذى الأسنة الثلاث وعمامته السمكية وخوزته التي يعلوها حجر كريم في حجم البيضة ، وعينيه اللتين تبرقان كالجواهر ، وكان الغرور يعلأ صدر « مرحب » فوقف على الثغر يرتجز قائلاً :

قد علمت خير أنى مرحب شاكى السلاح بطل مجرب
أطعن أحياناً وحيناً أضرب إذا الليوث أقبلت تحزب
إن حماى للحمى لا يقرب يحجم عن صولتى المحرب
ويقول : من يبارز ؟

فلم يخف على ولم يضطرب لهذا الغرور ، بل تقدم متحدياً قائلاً :
أنا الذى سميتى أجبى حيلره ضرغام آجام وليث قسوره

عند ذلك احمرت وجنة مرحب غضباً فانقض على غريمه رافعاً السيف ، فترس على ، وهوى السيف ، فسمع له طنين هائل ، حتى ظن الناس أن بطل الإسلام قد قضى نحبه ، لكن السيف لاقى الترس ، فشقه وانغرس فيه . ولم يترك على لعلوه فسحة من الوقت لانتشال سيفه ، بل أمسك عن ترسه ، الذى أصبح ولا فائدة منه ، ثم حمل على غريمه بضربة قوية كسرت مغفر مرحب ، وتفلتت إلى عمامته فشقتها وإلى رأسه فهشمتها . وانتثر مخه على الأرض ولم يتوقف السيف إلا عند ما بلغ الأضراس ، فخر العملاق صريعاً كالبنيان في هالة من غبار وطنين كالرعد .

فدب الرعب في قلوب جند اليهود ، فولوا هاربين ، وتبعهم جنود على الذى خلع باب الحصن الحديدى الثقيل ، وترس به بدلا من ترسه الذى هشم بين يديه . ولم تطل المقاومة ، فوقع حصن القموص المنيع في أيدي جند الإسلام .

ولم يكد يهود فلك ويهود وادى القرى ، وبلادهما تقع على مسيرة بضعة أيام في الشمال ، يسمعون بالخبر حتى ، بعثوا يطلبون السام . وبالاتفاق مع بنى دينهم من أهل خيبر ، ضرعوا إلى الرسول سائلين أن يتركهم يستثمرون أرضهم ، إذ لا أحد سواهم يعلم طرق فلاحتها ، ورجوه مقابل ذلك أن يمنحهم نصف الغلات . فقبل محمد عرضهم ، على أن يكون للمسلمين حق الرجوع على ذلك العهد إن بدا لهم .

وكانت خيبر أغنى بلاد الحجاز ، فكثرت المغانم وقسمت . فأخذ منها نصفها لسد نفقات الحج المزمع إقامته إلى إبان السنة الجارية ، وفرق النصف الثانى بين الجنود . أما الأراضى فقد أخذ منها الرسول واليتامى نصيبهم ، وقسم الباقى ، فكان لكل راجل منهم سهم واكل فارس سهمان ، وفضلا عن ذلك فقد منح كل صاحب جواد كريم هدية ، وذلك لتشجيع تربية الخيل .

اهتمام الرسول بالخيال :

نستطيع أن نعرف من تلك التدابير مدى ما كان يعلقه النبي من الأهمية على الخيل في مصير العرب .

كان العرب ينظرون إلى الجياد كأداة ترف لقلتها ، فكان الجندي يركب الجمل ، ويسحب وراءه جواده ، فلا يمتطيه إلا ساعة المعركة ، عند مهاجمة الأعداء ومطاردتهم .

وقد أتم الرسول تدابيره هذه بتنظيم سباق يتبارى فيه الفرسان ، ويتنافس أرباب الجياد الصافات ، وقد بلغ من شأن الخيل ، أن اتخذ الله الجياد العاديات شواهد لبعث الخوف من يوم الدين في قلوب المسلمين إذ قال تعالى :

« وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا * فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا * فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا * فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا * فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا * إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ * وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ

لَشَهِيدٌ * وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ * أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ *
وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ * إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ *

وقد بلغ من كلف « عبد الله بن أبي سرح » أحد أبطال الفرسان في ذلك العهد ووالى مصر فيما بعد، بتلك السورة أن صارت لا تفارق شفثيه وهو وال على مصر ثم وهو يحارب الروم برأً وبحراً ، ومات وهو يرددّها . ويرجع الفضل في إيجاد ذلك النوع من الجياد العربية الكريمة التي لا يعرف لها العالم مثيلاً إلى تشجيع النبي لأصحاب الخيل ، وحثه أربابها على العناية بها ونشرها في جميع أرجاء بلاد العرب .

الشاة المسمومة :

عاد الرسول إلى خيمته عقب صلاة المغرب ، فوجد ببابها زينب ابنة الحارث اليهودية زوجة سلام بن مشكم في انتظاره ، وقد عمدت إلى شاة فذبحتها وصلتها على نار من أخشاب الرياحين وقدمتها للرسول . فشكرها ، فلما انصرفت دعا أصحابه إلى مشاطرته الشاة ذات اللحم الذهبي الشهى . فتناول هو الذراع وانتهش منها وقلده بشر بن البراء فتناول قطعة لحم وانتهش منها وبلعها . ومد الحضور أيديهم إلى الشاة ، غير أن الرسول لفظ فجأة ما كان يلوكة بين أسنانه ، ومنع أصحابه عن الشاة قائلاً : « إن هذا العظم ليخبرني أنه مسموم » . فصاح بشر : « والذي أكرمك لقد وجدت ذلك من أكلتي التي أكلت ، حين التقمعتها . فما منعني أن ألفظها إلا أنني كرهت أن أبغض إليك طعامك ، فلما أكلت ما في فيك لم أرغب بنفسى عن نفسك » .

ولم يكذب بشر ينطق بتلك الكلمات ، حتى عاد لونه كالطليسان ، ولم يمهله وجعه فوقع على الأرض يتلوى في سكرات الموت . وفي الحال دعا الرسول باليهودية وقال لها : « ما حملك على ما صنعت ؟ » قالت : نلت من قوى ما نلت ، قتلت أبى وعمى وزوجى . فقلت إن كان نبياً فستخبره الذراع وإن كان ملكاً استرحنا منه » .

فهدأ هذا الجواب من ثائرة الرسول ، فأوشك أن يعفو عن اليهودية ، ولكن

بشراً كان قد مات وأتى أهله يطلبون الثأر ، فدفعها إليهم فصلبوها . وأحرق ما تبقى من الشاة المشثومة . وبالرغم من أن محمداً كان قد لفظ اللقمة الحبيثة فقد سري في جسده السم ووصل إلى أمعائه ، فلم يخلص أبداً من آثاره السيئة .
وقد قال في مرضه الأخير بعد ذلك بثلاث سنين مخاطباً أم بشر التي جاءت تستفسر عن صحته : « إن هذا الأوان وجدت فيه انقطاع أبهرى ^(١) من الأكلة التي أكلت مع ابنك بخير » .

عمرة القضاء (سنة ٥٧ هـ ، ٦٢٩ م) :

بينما الحملة في طريق العودة من خير بالغنائم الكثيرة ، كان مهاجرو الحبشة قد وصلوا كلهم إلى المدينة وعلى رأسهم جعفر بن أبي طالب أخو علي ، وقد أفعم ذلك قلب محمد بالسرور ، فقبل جعفرأ بين عينيه ، وقال والفرح يملأ جوانحه : « ما أدري بأيهما أنا أشد سروراً ؛ أبفتح خير أم بقدوم جعفر » . وكان أيضاً من بين القادمين أم حبيبة ابنة أبي سفيان ، ألد أعداء الرسول . وقد خرجت أم حبيبة مع زوجها عبيد الله بن جحش مهاجرة . فلما استقرا بأرض الحبشة تنصر الزوج ومات بمهجره ، بينما بقيت الزوجة مخلصة لإسلامها . فأراد الرسول أن يعجزها أجر إخلاصها وأن يستميل إليه عدواً للدودأ ، فبعث بعمر بن أمية إلى النجاشي راجياً منه أن يرسلها مع بقية المهاجرين ، وهكذا كان ، فلما وصلت أم حبيبة المدينة ، دخلت في ذمة زوجها العظيم .

أما المهاجرون ، فقد رأى محمد أن يعطيهم نصيبهم من مغنم خير ، ووافق الجميع على ذلك ، فعوضوا بذلك عما فقدوه ، بسبب هجرهم أوطانهم ، وتركهم أموالهم في سبيل دينهم .

وأتى اليوم الذي تسمح فيه معاهدة الحديبية للمسلمين بدخول مكة ، لزيارة الأماكن المقدسة ، فتأهب الرسول لتحقيق أعز أمنائه ورؤية مسقط رأسه .

وقد أخذ محمد في عمرة القضاء من الأضاحي ، ومن الحجاج مثل ما أخذ في رحلة الحديبية . ويم شطر المدينة المقدسة ، فلما وصلت القافلة بطن يأجج ،

(١) الأبهر : عرق إذا انقطع مات صاحبه ، وهما أبهران يخرجان من القلب ثم يتشعب منهما سائر الشرايين .

ترك فيه سلاحاً كثيراً ، من الأسلحة التي كان قد أخذها احتياطاً ، ووضع على ذلك السلاح أوس بن خولى في مائتين من الجنود ، وقال : « لا ندخل عليهم الحرم بالسلاح . ولكن يكون قريباً منا ، فإذا رأينا من المشركين الغدر كان السلاح قريباً منا » . وعندما وصل محمد جبل كداء ، تسنمه خاشعاً ، ونزل الوادي عند مقبرة الحجاجون حيث ووريت خديجته الحبيبة ، رحمة الله عليها ، وأشرف على ديار مكة فانبعثت في نفسه ذكريات وآمال ، وتملكه حنين لا يوصف ، واضطربت نفسه عندما فكر في أن المشركين قد يغدرون به ، فيضطر إلى معاقبتهم وتلاويث مسقط رأسه بدماء قومه .

فدعا الله أن يحفظ المسلمين من كل شر في البلد الحرام ، ولم يزل يردد دعاءه حتى خرج من مكة .

ولم يكد المؤمنون يقتربون من مكة حتى غادرها أشرافها ، وقد نال الغضب منهم منالا ، لما رأوا من رجوع المهاجرين بالنصر المبين ، فراحوا يخفون سخطهم الذي لا جدوى منه في مخيماتهم بالأودية المجاورة ، أما سواد أهل مكة ، الذين كانوا ، ككل الجماعات الشعبية ، مدفوعين بغريزة الفضول ، فقد احتشدت فئة منهم بجبل قينقاع ، وتجمعت فئة أخرى فوق سطح دار الندوة التي تشرف على الكعبة .

وكان يسود كل أحاديثهم الأمل في أن يكون النبي وأصحابه قد أوهنتهم حمى يثرب وأنهمكهم صيفها الحار ، فيأتون مكة في حالة من الضعف شديدة ، ولكن الله أطلع رسوله على أمرهم فقال لأصحابه : « رحم الله امرأ أراهم من نفسه قوة » .

وخلت مكة إلا من الجماعة الصغيرة التي احتشدت فوق سطح دار الندوة فكان سهلا على الرسول أن يفتحها ، غير أن نفسه الكريمة — التي لا ترضى باقتراف مثل ذلك الغدر — كانت منصرفة إلى الله وكلها خشوع وتقوى . فتقدم معتلياً ناقته القصواء مسلماً خطامها لعبد الله بن رواحة ، ومن حوله موكب الصحابة ؛ فاخترق في جلال ضواحي مكة تحت بصر الأعداء ، ولم يشرفهم بنظرة واحدة من نظراته ؛ فلما بلغ الموكب الكعبة نزل الرسول والتف بردائه ،

ورفع أحد أطرافه كاشفًا كتفه وذراعه اليمنى ، ثم أقبل ، والمؤمنون يتبعونه ، على الحجر الأسود ، فقبله وقضى الطواف ، فهرول ثلاثًا ليرى المشركين أن له ولأصحابه قوة ، فهزّ هؤلاء رؤوسهم وقالوا : « أهؤلاء الذين زعمتم أن الحمى قد أوهنتهم ! » واعترفوا في أنفسهم أن مثل هؤلاء الرجال الذين تفوق صحة أخلاقهم صحة أبدانهم ، ليس لهم إلا الفوز المبين . وقضى الرسول ما تبقى من الأشواط السبعة بتزودة وجلال رفقًا بالمؤمنين أن ينالهم التعب ، ومنذ ذلك اليوم والحجاج يؤدون الطواف دائمًا على مثل ذلك النظام .

وفرغ الرسول من الطواف ، فأمر بلالا بالأذان ، فجلجل صوت العبد المحرر في الوادى ، وارتد صدهاء إلى المشركين ، الذين بلغ منهم الغيظ أن حسدوا على مصيرهما أبا جهل وأبا لهب ، هذين العظيمين فيهم اللذين وارثهما الأرض ، فلم تسمع آذانهما ذلك النداء البغيض إلى قلوبهم . ولما قضيت الصلاة ، اعتلى النبي ناقته ، وسعى بين الصفا والمروة ، فقضى على كل ما كان يخالجه المسلمين من التردد في إتمام تلك الشعيرة بذلك المكان الذى نصبت فيه الأصنام ، ولكن الرسول كان يقصد بأداء تلك الشعائر التى وضعها إبراهيم وتوارثها العرب غاية وطنية سياسية أراد أن يقرنها بغايته الدينية ، فلم يكن تقبيله للحجر الأسود بعلامة للميل فى العبادة نحو الخرافات — فذلك يتنافى ومبادئ القرآن تنافياً صريحاً — بل إن تقبيله ذاك الحجر لم يكن إلا إكراماً وإجلالاً لتراث سلفه المجيد .

ويروى عن ابن أبى شيبه أن الرسول قال مخاطباً الحجر الأسود : إنه يعلم أنه حجر أصم لا نفع فيه ولا ضرر ، ثم إنه قبله . . . وتبعه فى ذلك أبو بكر فعمر معلنين أنهما لولا سنة الرسول لما فعلا هذا .

وهكذا كان الرسول يحبى ، فى السعى والوضوء ببئر زمزم ، الذكرى العاطرة التى خلفها جد العرب إسماعيل وأمه هاجر ، التى تركت طفلها المسكين على الأرض فى ظل شجيرة ، إذ لم تقو على حمله فى الصحراء القفر ، وكان إسماعيل يكاد يموت من العطش ، وسعت إلى قمة تل من التلال تأمل أن تكشف عن بئر أو عين ماء ، ولكنها لم تجد من ذلك شيئاً فعادت إلى طفلها لاهثة . ثم صعدت قمة أخرى لنفس الغرض فلم تفلح ، فعادت ونفسها تضطرب من الألم ، وعادت

سعيها الشاق المرهق سبع مرات ، وظنت ، وعقلها يكاد يطير ، أنها لن تجد إسماعيل إلا جثة هامدة . وإكبتها رأت ابنها الحبيب بعد ذلك يشرب من عين أنبعها الرحمن تحت رجل الطفل المسكين . وسميت تلك العين بززم .

لذلك كان على الحجاج أن يقلدوا هاجر فيطوفوا سبعاً بالطريق ذى الذكرى الأليمة الذى سلكته بين هاتين الربوتين المعروفتين باسم الصفا والمروة ، وعليهم أيضاً أن يتوضئوا ويشربوا من بئر زمزم .

ونحرت الأضاحى فى اليوم التالى بوادى منى تخليداً لذكرى ما فعله إبراهيم ، وقسمت لحومها بين الحجاج الذى كانوا قد رجعوا إلى التحلل بعد حلق شعورهم ، وكانوا فى إحرام منذ مرحلة ذو الحليفة .

أما محمد فقد عقد على امرأة مكية تدعى ميمونة ، وهو لا يزال فى حالة الإحرام لامتياز خاص يرجع إلى كونه رسول الله . وكان عمر ميمونة يقرب من الخمسين ، وكانت فقيرة معلمة ، إلا أن هذا الزواج كان من شأنه أن يجلب للإسلام الكثير من الأشراف ، وعلى الأخص العباس عم محمد . وكان العباس وكيلاً لميمونة فأعلن زواجها بالرسول ، غير أن الزواج لم يتم إلا فى طريق الرجوع إلى المدينة .

ووصل الرسول إلى غايته المنشودة ، رغم غضب مشركى قريش الذين أبوا أن يشاهدوا عدوهم وهو يقضى عمرته : لقد أعلن بذلك على سائر العرب فى شبه الجزيرة أنه ليس فى نيته محو تقاليدهم المتوارثة ، بل هو يسعى جاهداً فى سبيل دعم تلك التقاليد بإرجاعها إلى براءتها الأولى ، فكان لعمرة القضاء صدى عظيم ، إذ جرت ، فوراً ، كثيراً من ذوى النفوذ إلى الإسلام ، ومن أولئك ثلاثة أبطال هم : عثمان بن طلحة ، وعمر بن العاص ، وخالد بن الوليد ، ثم إنها هيأت العرب الآخرين للإسلام ، وشجعتهم على تقليد هؤلاء الثلاثة الكبار .

رسل النبي إلى الملوك :

وقد وطد انتصار النبي على اليهود سلطة المسلمين فى أغلب شبه الجزيرة . وبقي منها جزء ، فكان مصيره المحتوم الوقوع فى يد المسلمين بدوره تدريجياً فأخذ محمد

يلتفت إلى الممالك المجاورة : إن الإسلام ، الذى أصبح يجمع أناساً من مختلف الأجناس ، والذى يقول بأن الله يملأ الكون ، لم يكن ليقتصر على بلاد العرب وحدها ، بل كان عليه أن يشمل العالم أجمع ، إذ قيل فى كتاب الله : « وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا .. »

ولذلك بعث محمد بالرسول إلى أعظم ملوك المشرق والمغرب مزودين بكتب تعرض عليهم اعتناق الإسلام دين الله الذى لا إله غيره ، وكانت تلك الكتب محتومة بخاتم كتب عليه فى ثلاثة سطور منضدة من أعلى إلى أسفل : « محمد رسول الله » مبتدئة باسم الجلالة ومنتهية بمحمد .

فتلقى المنذر ، ملك البحرين ، الرسالة فأسلم ، وكذلك فعل نائب ملك اليمن . وبعث المقوقس ملك مصر بالهدايا الثمينة إلى محمد ، وكان من بين تلك الهدايا جارية شابة بارعة الجمال يقال لها : مريم القبطية . فتزوجها محمد . وكان من بينها أيضاً حمار يقال له يعفور وبغلة تدعى دلدل . أما هرقل إمبراطو الرومان والنجاشي ملك الحبشة ، فقد رد كل منهما على الدعوة برسالة غاية فى التلطف والاحترام . غير أن كسرى ملك الفرس أقسم ليعاقبن النبي على جرأته ؛ فنزل عليه فى الحال غضب الله ، إذ اغتاله ابنه شيرويه ، وتبوأ عرشه . ومزق الحارث ابن أبى شمر رسالة النبي ، فرأى ملكه يتمزق ، جزاء له من الله على ما مزق رسالة محمد ، وكان الحارث بن عمير الرسول الوحيد الذى قوبل استقبالا مشيناً ، ثم اغتيل بغتة عند الكرك بالبلقاء بأمر من شرحبيل الغسانی حاكم تلك البلاد التى كانت تخضع للرومان .

غزوة مؤتة (سنة ٥٧ هـ ، ٦٢٩ م) :

بلغ النبي أمر سفيره الحارث بن عمير ، فاشتد عليه ، وعزم أن يثار له ثأراً عاجلاً وإن كان لم يخف عليه ما يعترض ذلك من العقبات . ولم يكن على المؤمنين فى هذه الحملة أن يقاتلوا فقط عرب سوريا الذين يفوقون عرب الحجاز عدداً بل كان عليهم أن يواجهوا أيضاً جند الروم التى تحتل بلاد البلقاء .

جهز الرسول ثلاثة آلاف من الجند وأمر عليهم زيد بن حارثة ، غير أنه أدرك أن قائد الحملة قد يقتل في ذلك الصراع الذي تتفاوت فيه قوى الجانبين ، فعين لهم جعفر بن أبي طالب أميراً إن أصيب زيد بن حارثة ، فإن أصيب جعفر فعليهم بعبد الله بن رواحة من بعده فإن أصيب عبد الله فليترضوا رجلاً منهم فليجعلوه عليهم .

وحضر هذا المجلس رجل من اليهود فقال : « يا أبا القاسم (وتلك كانت كنية محمد) إن كنت نبياً يصاب جميع من ذكرت ، لأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من بنى إسرائيل كان الواحد منهم إذا استعمل رجلاً على القوم ، وقال : إن أصيب فلان ، فإنه يصاب » . ثم صار يقول لزيد : « اعهدي فلن ترجع إلى محمد أبداً إن كان نبياً » . فقال زيد بكل بساطة : « أشهد أنه نبي » عندئذ عقد الرسول لواءه الأبيض إلى نصل رمح ، ودفعه إلى زيد بن حارثة . ثم شيع جنده وصدره مملوء بالحزن والتشاؤم ، فلما وصل ثنية الوداع ، وقف ليدل إلىهم بتوصياته الأخيرة فقال : « أوصيكم بتقوى الله وبن من معكم من المسلمين خيراً ، اغزوا باسم الله ، فقاتلوا عدو الله وعدوكم بالشام ، وستجدون فيها رجالاً في الصوامع معزلين فلا تعرضوا لهم ، ولا تقتلوا امرأة ولا صغيراً ولا بصيراً فانياً ، ولا تقطعوا شجرة ولا تهدموا بناء » . وأوصاهم أن يأتوا بثأر عمير . فإذا أتوه فليدعوا إلى الإسلام قبائل العرب بسوريا .

ونخاف شرحبيل عواقب غدره المنكر فقلق ، وعمد إلى جيرانه من العرب فجمع جنداً من بني لخم وجنداً من بني وبرة ، واستنجد بتيودور قائد هرقل ، فأنجده بجميع القوات الرومانية التي كانت تحتل البلد .

وهكذا جمع شرحبيل ما يربو على مائة ألف من الرجال قبيل نزول جيوش المسلمين بمعان . فلما رأى المؤمنون أنفسهم أمام مثل تلك القوة العظيمة ، ترددوا وأقاموا على معان ليلتين ينظرون في أمرهم ، فقال بعضهم : « نكتب إلى رسول الله ، فإذا أن يمدنا بالرجال ، ولما أن يأمرنا بالرجوع أو القتال » . وقام عبد الله بن رواحة فبعث في الناس روح الإقدام بقوله : « يا قوم إن الذي تكرهون للذي خرجتم له ، خرجتم تطلبون الشهادة ، إنا لا نقاتل بعدد ولا قوة ولا كثرة ، ما نقاتلهم إلا بهذا

الدين الذى أكرمنا الله به ، فانطلقوا ، فإنما هى إحدى الحسينين : إما ظهور ، وإما شهادة . فقال الناس : « صدق والله ابن راحة » ، ومضوا غير هائبين للآفة العدو ، فالتقى الجيشان بمؤتة ، وهى قرية صغيرة تقع شمال قلعة كرك .

وانقض المسلمون كالليوث الكاسرة على جيوش الأعداء ، فقتلوا زعيمهم مليك ابن زفيلة بطعنة رمح . . . غير أن المشركين ثابوا إلى رشدتهم بعد ذهولهم الأول ، فلم يلبثوا ، بفضل كثرة عددهم ، أن كروا على المسلمين وأحاطوا بهم من كل جانب . وتكاثر الناس على زيد بن حارثة فمات شهيداً ؛ فأسرع جعفر إلى رفع اللواء من يدى زيد اللتين ما زالتا تقبضان عليه وهو ميت ، وسار على رأس المسلمين كما أمره النبي .

وكان جعفر يمتطى صهوة جواد كريم أشقر ، ولكنه حينما رأى خطورة الحال نزل من على مطيته وعقرها خشية أن تقع بموته فى أيدي المشركين فينتفعوا بها ويقاتلوا عليها المسلمين .

ورفع جعفر الراية الإسلامية ، فنشر أجنحتها الكريمة فوق رؤوس المؤمنين الذين كروا متحمسين فى آثاره . لكن سرعان ما هوى اللواء كما هوى الصقر الجريح من الجو ، إذ قطعت اليد التى كانت تحمله بضربة سيف .

ولم يبال جعفر بآلامه ، بل رفع اللواء ثانية بيده اليسرى ، فما لبثت إلا قليلا حتى قادت بضربة أخرى . عندئذ مال جعفر إلى الأرض ، وقبض على الراية بذراعيه الداميتين ، واحتضنها حتى لا تقع . ثم أقبل على العدو غير هياب حتى قتل ، وقد احترقت جسمه تسعون طعنة .

وخلفه عبد الله بن راحة الذى لم يمكث طويلا حتى قتل . فلما رأى المسلمون الأعداء قد دهموهم من كل صوب ، ورأوا موت زعمائهم الثلاثة ، تراجعوا وجعلوا ينهزمون . فأوقفهم أرقم بن عامر صائحاً : « يقتل الإنسان مقبلا خيرا من أن يقتل مدبراً » . ثم رفع اللواء ودفعه إلى خالد الذى امتنع أول الأمر قائلا : « أنت أحق به منى إذ كنت ببدر » . لكنه قبل الراية لما رأى من إلحاح الأرقم . فآعاد ببسالته وإقدامه الإيمان إلى قلوب المسلمين الذين خجلوا من ضعفهم الطارئ . واستطاع خالد ، وهو الجندي الباسل والقائد الماهر ، أن يخلص بعون الله جيشه

من العدو ، وأن يعيد التوازن في المعركة بحيث لم يستطع المشركون أن يحرزوا النصر على المسلمين .

ولم تكد شمس اليوم التالي ترسل أشعتها حتى هاجم خالد المشركين ليفاجئهم ، ولا يمكنهم من استكمال عدتهم بعد فشلهم الأول ، ثم لجأ إلى الحيلة ليدخل في روعهم أن عدد رجاله كبير . فجعل مقدمة الجيش ساقه وساقه مقدمة ، وميمنته ميسرة وميسرته ميمنة ، فظن المشركون أن المسلمين قد أتاها المدد أثناء الليل ، فخافوا واستولى عليهم الرعب ، إذ كان كل اعتمادهم على عددهم . ففروا هاربين مشتتين ، والمؤمنون من ورائهم يعملون فيهم السيوف ، فقتلوه قتلته لم يقتلها قوم ، وقد اندقت بيد خالد تسعة سيوف في ذلك اليوم المشهود .

وأطلع الله رسوله على ما لاقاه جيشه ، فنادى في الناس بالصلاة الجامعة ، ثم صعد المنبر وعيناه مغرورقتان وصاح : « أيها الناس ، باب خير ، باب خير : أخبركم عن جيشكم هذا الغازي ، إنهم انطلقوا فلقوا العدو ، فقتل زيد شهيداً ، فاستغفروا له ، ثم أخذ الراية عبد الله بن رواحة ، وأثبت قدميه حتى قتل شهيداً ، فاستغفروا له ، ثم أخذ اللواء خالد بن الوليد ، ولم يكن من الأمراء وهو أمر نفسه ، ولكنه سيف من سيوف الله فأب بنصره » .

وذهب محمد بعد ذلك إلى أسماء بنت عميس زوج جعفر ، فقال إلى أطفالها وشجعهم ، وذرفت عيناه حتى قطرت لحيته بدمع كالجوهر المتألق ، فقالت أسماء : « يا رسول الله ، بأبي أنت وأمي ، ما يبكيك ؟ أبلغك عن جعفر وأصحابه شيء ؟ » قال : « نعم . أصيبوا هذا اليوم » . فوقعت البائسة ، وانهاالت على خديها تقطعهما بأظفارها ، وصاحت متألمة بائسة ، فاجتمع عليها النسوة لما سمعنه من صياحها ، وصرخن معها ، فطن البيت بصيحات الحزن واليأس . فأمر الرسول أصحابه بإسكات النساء قائلاً ما معناه : إنه يجب عليهن ألا يبكين هكذا على جعفر الذي أثابه الله أحسن الثواب . ثم قال : « فاخلفه اللهم في ذريته بأحسن ما خلقت أحداً من عبادك في ذريته » . وفجأة رفع الرسول رأسه إلى السماء هامساً : « وعليكم السلام ورحمة الله » فقال الناس : « على من تسلم يا رسول الله ؟ » قال : « رأيت جعفر بن أبي طالب يطير مع الملائكة في السماء مرفوعاً إلى الجنة بجناحين من ياقوت ، عوضه الله تعالى بهما عن يديه » .

غير أن السهيلى الذى يروى الحديث يضيف : « إن الجناحين عبارة عن صفة ملكية وقوة روحانية ، أعطيتهما جعفر ليقندر بهما على الطيران ، لا أنهما جناحان كجناح الطائر كما يسبق إلى الوهم ، ولا يضير في ذلك وصفهما بأنهما من ياقوت لكونهما مضمعين بالدم » .

وبين حداد المدينة العام ، وحزنها الشامل ، أمر الرسول بتجهيز طعام المأتم لأهل الشهداء : لأن من تشبعت نفوسهم بالحزن يشق عليهم التفكير في طهى طعام البطون .

وعندما اقترب الجيش من المدينة ، خرج إلى لقاءه كل كبير وصغير من أهلها ، فأمر النبي الفرسان أن يأخذوا الأطفال بجانبهم على الدواب وحمل هو ابن جعفر ، فأقعدته أمامه على رحله . وأكد الجند خبر موت قوادهم ، فرأى الناس أن هؤلاء القواد لم ينالوا ثأرهم اللائق ، فصاروا يحثون التراب في وجوه الجند ، ويسبونهم قائلين : يا فرارون ، فررتم من سبيل الله . فأسكت النبي الملاً بقوله : « بل هم الكرارون » .

فتح مكة (سنة ٥٧ هـ ، ٦٣٠ م) :

لم يلبث أهل مكة أن نقضوا معاهدة الحديبية ، إذ باغتوا ليلاً جماعة من مسلمى بنى خزاعة في مخيمهم ، عند بئر الوثير ، فقتلوا منهم عشرين رجلاً . وإزاء هذا الاعتداء الأثيم لم يتردد النبي في العزم على مهاجمتهم ، وأعد العدة لتسير الحملة . ولم يشك أهل مكة في أنهم سوف ينالون جزاء غدرهم ، فبعثوا بأبى سفيان إلى المدينة ليصالح المسلمين ، ويطلب إبقاء المعاهدة . فلما قدم أبو سفيان إلى المدينة نزل عند ابنته أم حبيبة ، وهى زوج محمد ، وأراد الجلوس على بساط مفروش ، فسبقته أم حبيبة إليه فطوته ؛ فقال أبو سفيان غاضباً : « يا بنية ما أدري أرغبت بى على هذا الفراش ، أم رغبت به عني ؟ » فأجابت : « هو فراش رسول الله ، وأنت مشرك نجس » ، قال : « والله لقد أصابك من بعدى شر » .

وفهم أبو سفيان من هذا الاستقبال ، أن حبل الرجاء من قبيل ابنته قد

انقطع ، فقام إلى النبي ، ولكنه لم يحصل منه على جواب ، فتحول يائساً إلى أبي بكر ، ثم إلى عمر فعلى ، يرجو الواحد منهم بعد الآخر أن يعاونه في تحقيق رغبة أهل مكة . فعاد بالفشل ، ويش كل اليأس ، فاعتلى بغيره وقفل راجعاً إلى مكة .

وكان قدوم أبي سفيان إلى المدينة عاملاً من العوامل التي حثت الرسول على المبادرة بغزو مكة ؛ إذ كشف عن نواياه ، فلم يشغله بعد ذلك من شاغل سوى تجهيز حملة لمباغطة مكة قبل أن يحصنها أهلها .

وفي اليوم العاشر من شهر رمضان ، استخلف الرسول على المدينة كلثوم الغفاري ، وسار إلى مكة في جيش عظيم ، انضم إليه في الطريق الكثير من القبائل ، فبلغ عدد الرجال عشرة آلاف رجل . وياشر المؤمنون الصيام حتى وصلوا بئر الكديد في وضح النهار ، فرأى الرسول أن قد كفى ما كان من امتحان إخلاصهم ، وخشى أن يشق العطش والتعب الشديد على جنده فيضعفهم ، فدعا بإناء ، وأشرف على الناس من فوق ناقته العالية ، وشرب جرعة على مشهد من الجند ، ليريهم أنه يمكنهم — كما يمكنه — قطع الصيام أثناء السفر ، إذا ما أنسوا في قواهم خوراً ، وقد قيل في القرآن : « فن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام آخر » . ومنذ تلك المرحلة ، أخذ الرسول يبحث جنده على الإسراع في السير ، فوصل إلى « مر الظهران » على أبواب مكة ، قبل أن يعرف القرشيون شيئاً عن قوة جند المسلمين ، وعن اتجاه سيرهم .

كان العباس عم محمد ، قد بقي في مكة ، إذ شغلته بها شؤونه الخاصة ووظيفة السقاية . ولكنه عندما علم بقدوم المسلمين . خرج في أسرته ، فلحق بهم عند الجحفة . وكان العباس صادق الإيمان ، لكن ذلك لم يمنعه من التفكير في مصير قومه بمكة ، فقلق عليهم وخشى أن يصيبهم شر إن دفع عندهم محمداً على اقتحام مدينتهم بالقوة .

قال العباس : فجلست على بغلة رسول الله البيضاء ، فخرجت عليها حتى جئت الأراك ، فقلت : لعل أجد بعض الخطابة أو صاحب لبن ، أو ذا حاجة

يأتى مكة ، فيخبرهم بمكان رسول الله ليخرجوا إليه ، فيستأمنوه قبل أن يدخلها عنوة . فوالله إني لأسير إذ سمعت كلام أبي سفيان ، وبديل بن ورقاء وهما يتراجعان وأبو سفيان يقول : ما رأيت كالثيلة نيراناً وعسكرًا ، وبديل يقول : هذه والله خزاعة ، حمشتها الحرب ، وأبو سفيان يقول : خزاعة أذل وأقل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها .

فعرفت صوت أبي سفيان فقلت : « يا أبا حنظلة » . فعرف صوتي فقال : « مالك - فداك أبي وأُمى - يا أبا الفضل » ، فقلت : « والله هذا رسول الله في الناس قد جاءكم بما لا قبل لكم به » . فقال : « واصباح قريش ! والله ، فما الحيلة ؟ فداك أبي وأُمى ! ! » . فقلت : « والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك ، فاركب في عجز هذه البغلة ، حتى آتى بك رسول الله فاستأمنه لك . فركب خلقي ، ومشى بديل من ورائنا ، فجئت به ، كلما مررت بنار من نيران المسلمين قالوا : « ومن هذا ؟ » فإذا رأوا بغلة رسول الله وأنا عليها قالوا : « عم رسول الله على بغلته » حتى مررت بنار عمر بن الخطاب فقال : « من هذا ؟ » وقام إلى فلما رأى أبا سفيان على عجز الدابة قال : « أبو سفيان عدو الله ، الحمد لله الذى قد أمكن منك من غير عقد ولا عهد » ، ثم خرج يشتد نحو رسول الله ، فركضت البغلة فسبقتة ، فاقتحمت عن البغلة ، فدخلت على رسول الله ودخل عليه عمر في إثرى فقال : « يا رسول الله هذا أبو سفيان عدو الله ، قد أمكن منه من غير عقد ولا عهد ، فدعنى لأضرب عنقه » : فقلت : « يا رسول الله ، إني قد أجرتة ، والله لا ينجيه الليلة رجل دوني » فلما أكثر عمر في شأنه قلت : « مهلا يا عمر ، فوالله لو كان من رجال بني عدى ابن كعب ما قلت مثل هذا ، ولكنك قد عرفت أنه من رجال بني عبد مناف ... » قال : « مهلا يا عباس ! فوالله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إلى من إسلام الخطاب لو أسلم ، وما بى إلا أنى عرفت أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله من إسلام الخطاب لو أسلم » ، فقال رسول الله : « اذهب به يا عباس إلى رحلاك . فإذا أصبحت فائتني به » .

وذهبت به ، فلما أصبح غدوت به على رسول الله بعد أن نودى بالصلاة وثاب الناس ؛ ففرع أبو سفيان وقال : « أمروا في بشىء ؟ » . قلت : « لا ولكنهم قاموا إلى الصلاة » .

ورأى المسلمين يتلقون وضوء رسول الله ، ثم رأهم يركعون إذا ركع ، ويسجدون إذا سجد ، فقال : « ما رأيت ملكاً مثل هذا ، لا ملك كسرى ! ولا ملك قيصر ! » فلما قضيت الصلاة ، قلت : « أدخل عليه ، أكلمه ، وتكلمه في قومه ، هل عنده من عفو عنهم » . فلما دخل أبو سفيان على رسول الله قال رسول الله : « ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله » قال : « بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك ، وأوصلك ، والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عني شيئاً بعد » . قال : « ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله ؟ » قال : « بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ، أما هذه والله فإن في النفس حتى الآن منها شيئاً ، فأرجئها » . فقلت غاضباً لأبي سفيان : « ويحك أسلم واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله قبل أن تضرب عنقك ! » .

فقال أبو سفيان : « كيف أصنع بالعزى ؟ » فسمعه عمر من وراء القبة فقال له : « تسلم عليها ! » قال « ويحك يا عمر إنك رجل فاحش ، دعني مع ابن عمي فإياه أكلم » ، ثم شهد بشهادة الحق ، كذلك فعل صاحبه بديل الذي كان قد لحق بنا ، فقلت للنبي : « يا رسول الله إن أبا سفيان يحب الفخر ، فاجعل له شيئاً » .

فقال : « نعم ، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن » ، ثم قال : « احبسه بمضيق الوادي حتى يرى جنود الله تمر » ، ففعلت ، فمرت القبائل كلها من سليم ومزينة ثم غفار ثم كعب فجھينة ، فلما مرت أشجع قال أبو سفيان : « هؤلاء كانوا أشد العرب على محمد ! » فقلت : « أدخل الله الإسلام قلوبهم فهذا فضل الله » . حتى مر به رسول الله في كتيبته الخضراء ، وفيها المهاجرون والأنصار قال : « سبحان الله ! يا عباس من هؤلاء ؟ » فقلت : « هذا رسول الله في الأنصار » ، قال : « ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة والله يا أبا الفضل ، لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيماً » . فقلت : « يا أبا سفيان إنها النبوة » ، ثم قلت له : « النجاة إلى قومك » . حتى إذا أتاهم صرخ بأعلى صوته : « يا معشر قريش ، هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به ، فن دخل دار أبي سفيان فهو آمن » . فقامت إليه زوجته هند وقد غضبت لما رأت من وجوم القوم عند سماع ذلك الحديث ، فأخذت بشاربه لتسكته وصاحت :

« اقتتلوا الحميت ^(١) الدسم الأحمس قبح من طليعة قوم » .

غير أن أبا سفيان تخلص من مخالب زوجته وقال : « ويحكم لا تغرنكم هذه من أنفسكم ، فإنه قد جاءكم بما لا قبل لكم به » ثم قال فخوراً : « فن دخل دار أبي سفيان فهو آمن » ، فصاح به الملاء من حوله : « قبحك الله ، وما تغني دارك عنا ! » . عندئذ أخبرهم بما كان أخفاه عليهم أول الأمر من خبر فقال : « ومن أغلق بابَه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن » .

دخول الرسول مكة :

وصل الرسول إلى ذى طوى ، فوقف دابته وأشرف على مكة التي كان قصارى مناه أن يدخلها دون إراقة دماء عشيرته ، فحمد الله التقدير الكريم ، وطأطأ رأسه حتى مست لحيته مقدم رحله .

ثم عاد إلى جنده فنظمهم وخط لهم الخطة لدخول مكة ، فأسند إلى الزبير مهمة الدخول من طريق كداء ، وهو بأعلى مكة ، وإلى خالد بن الوليد الدخول من أسفل مكة ، وإلى أبي عبيدة الدخول من طريق الضواحي الشرقية ، أما سعد ابن عبادة فقد قر الرأي على أن يدخل من مضيق كدى ، ولكنه عندما علم بذلك صاح متحمساً : « اليوم يوم الملحمة اليوم تستحل فيه الحرم » . فأمر محمد علياً بأن يخلفه ويأخذ الراية منه .

ولم يلق الزبير ولا على ولا أبو عبيدة أدنى مقاومة ، فاحتلوا ما كان عليهم احتلاله من مكة دون عناء ، أما خالد فلم يكده يدخل في ضواحي مكة حتى استقبله وابل من السهام وقع على جنده فأصاب منهم الكثير . وكانت تلك المكيدة من عمل صفوان بن أمية وعكرمة اللذين ذبرا الكمين وراء صخور جبل خندمة ، فلم يتردد خالد بل هجم برجاله يريد المكان الذى تحصن فيه الأعداء ، فبعث فيهم الرعب ، وشنت شملهم ، وقتل منهم عدداً كبيراً ؛ وتبع من نجا من الفارين إلى الحرم ، أو إلى البحر فأعمل فيهم السيف .

ووصل النبي إلى جبل الحجون ، فرأى منه لمعان الرماح والسيوف ، فدهش وغضب وبعث برجل من الأنصار يستقدم خالدًا . فلما جاء خالد عنقه الرسول

(١) الحميت : الزق ، نسبته إلى الضخم والسمن والأحمس أيضاً الذى لا خير عنده .

على أن قاتل وقد نهاه عن ذلك نهياً شديداً .

فأجابه خالد : «هم يا رسول الله بدعونا بالقتال ، ورمونا بالنبال ، ووضعوا فينا السلاح وقد كففت ما استطعت ، ودعوتهم إلى الإسلام فأبوا ، حتى لم أجد بداً من أن أقاتلهم فأظفرنا الله عليهم ، فهربوا من كل وجه » . فقال الرسول خاتماً للحديث ومتأهباً لدخول مكة : « قضى الله أمراً » .

وكان الرسول معتلياً ناقته المفضلة القصواء ، وقد أركب على عجزها أسامة بن زيد بن حارثة ، فركع على رحله وتلا سورة الفتح :

« إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ، وَيَتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ، وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا * وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا * » .

واعتمر الرسول عمامة سوداء فوق وشاح مخطط بالأحمر على رأسه وترك طرفها يرفل بين كتفيه ، ثم يمم راكباً شطر الكعبة ليقضى الطواف ، فحيا الحجر الأسود بأن استلمه بطرف محجن ، ثم نزل عن راحلته ليغشى البيت ، ولكنه تراجع يغمره النفور ، إذ أبصر الأصنام التي كانت به ، وصاح أمام لوحة تصور إبراهيم ممسكاً بالأزلام «قاتلهم الله حيث جعلوه شيخاً يستقسم بالأزلام» وأمر بتمزيق تلك الصورة الآثمة ، كما أنه هشم بيديه صورة الحمامة منحوتة على الخشب ، ثم دخل البيت قائلاً : « الله أكبر » .

واتجه إلى الأصنام المحيطة بالحرم ، وكان عددها ثلثمائة وستين ، فبدأ بالصنم الأكبر صنم هبل ، وجعل يضرب في عينيه بمحجته قائلاً : « جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً » . فخر الصنم لوجهه مهشماً ، وجعل الرسول يطوف بالأصنام فيهشمها واحداً واحداً كما هشم هبل ، حتى لم يبق قائماً إلا صنم بني خزاعة المصنوع من نحاس وصدف ، وكان منصوباً على سطح الحرم ، فقال الرسول لعل : « اجلس » فجلس على ، فصعد رسول الله على منكبيه ، ثم قال له : « انهض » فأحس على بحمل فوق طاقة البشر - حمل النبوة - يمنعه ، رغم حشده لذلك كل قوته ، من القيام ، فلما رأى النبي ما كان من ضعف على تحته

نزل عنه ، ثم جلس بدوره قائلاً له : « اصعد على منكبي واهدم الصنم » . فارتبك على ووجل ، فرفض ولكنه لم يسعه إلا الامتثال لإزاء إصرار محمد .

قال على : « فلما نهض بي صعدت فوق ظهر الكعبة . وتنحى رسول الله ، ونخيل إلى حين نهض بي أنى لو شئت لنتل أفق السماء . وكان الصنم مؤيداً بأوتاد من حديد . وجعل الرسول يقول : ” إيه إيه . جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً “ . فتمكنت من الصنم فقذفته فتكسر » .

وعاد الاطمئنان إلى صدور أهل مكة فخرجوا من دورهم ليشاهدوا — وقد صاروا لا ينطقون من الدهشة — هدم آلهتهم العاجزة عن المقاومة . فلما زال كل أثر من آثار الإشراك ولى الرسول وجهه شطر الكعبة قائلاً : « لا إله إلا الله وحده ، لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده » .

ثم التفت إلى أهل مكة وقال : « يا معشر قريش ، ما ترون أنى فاعل بكم ؟ » قالوا فى قلق : « خيراً ، أخ كريم ، وابن أخ كريم » . فقال لهم : اذهبوا فأنتم الطلقاء » . (وقد كانوا أسرى وعبيداً بمقتضى سنن الحرب) .

لم يستثن الرسول من ذلك العفو الشامل الكريم إلا أحد عشر رجلاً ، وست نساء ، رأى من سلوكهم ما لا يغتفر ، فأمر بإعدامهم حيثما وجدوا ، فنفذ ذلك الحكم فوراً فى أكثرهم ، ومن بينهم « الحويرث » الذى أساء معاملة فاطمة بنت الرسول وزوج على عند مغادرتها مكة .

ثم أراد محمد أن يعزز سلطته الجديدة ، فعزم أن يعين فى الحال صاحبي الوظيفتين العظيمتين بمكة ؛ وهما وظيفتا : الحجابة والسقاية ؛ فبعث إلى عثمان ابن طلحة يطلب مفاتيح المسجد ، فغضب عثمان ، وأغلق الأبواب ، ثم أخذ المفاتيح وحملها إلى داره ، فما كان من الرسول إلا أن أخذها منه قسراً ، وفكر فى أن يعطيها عمه العباس ، وكان قد أثبتته فى منصب السقاية ، أى أمانة بئر زمزم ، فأوحى الله إلى رسوله ألا يفعل ، بل يرجع منصب الحجابة إلى صاحبها ، فأرسل علياً بالمفاتيح إلى عثمان ليعطيها إياه ويقول له : « يا ابن طاحنة خذ مفاتيحك والحجابة » .

فتأثر عثمان لما رأى من ذلك الكرم الذى لم يكن أهلاً له ، فقام من ساعته إلى النبي يؤكد له امتنانه وإخلاصه .

وفي هذه الأثناء ، جاء إلى الرسول رجلان يبعث منظرهما في القلب العطف والشفقة . كانا أبا قحافة وابنه أبا بكر ، وقد ناء الأب العجوز المكفوف تحت حمل سنه التسعين ، فاتكأ على كتف ابنه ، فقال الرسول لأبي بكر : « هلا تركت الشيخ في بيته ، حتى أكون أنا آتية فيه ؟ ! » فرد أبو بكر : « هو أحق أن يمشى إليك من أن تمشى إليه أنت » . فأكرم محمد الشيخ الأعشى وأجلسه بين يديه ، ومسح على صدره ، وتقبل مسروراً نبأ إسلامه .

الرسول بالصفاء :

توجه أهل مكة في اليوم التالي إلى الصفاء ، حيث دعاهم الرسول ليأخذ عليهم العهد والميثاق ، ولم تكن تبدو عليهم أمارات الخزي التي تبدو عادة ، على المنهزمين ؛ فقد اطمأنوا إلى المنتصر حينما سمعوا حديثه وشاهدوا أفعاله . ألم يكن قاهرهم من بنى جلدتهم ؟ ألم يكن مجده مجداً لهم وانتصاره انتصاراً لهم وسلطانه سيصبح سلطاناً لهم ؟ وكان أكثرهم في الحقيقة ، رغم عداوتهم لمحمد ، يتألم لفراق ذلك المواطن العبقري الذي لقب في شبابه بالأمين ، وكان الناس يحنون للذكر شخصيته ذات السحر الغريب وجاذبيته التي لا تقاوم .

وكان أهل مكة ، في مكنون سرهم ، يتحرقون شوقاً إلى اعتناق الإسلام والدخول في غمار تلك الحركة الدينية الحماسية التي أثارها محمد في سائر أنحاء بلاد العرب !! كم تبدو لهم الأصنام الآن حقيرة بعد أن تهشمت وصارت بقاياها تزيد من ضخامة أكوام القمامات الملقاة خارج مكة .

ووصل الصفاء ، أول ما وصل ، هؤلاء بعينهم الذين استغلوا فيما مضى خرافات المشركين وعبادتهم للأصنام ، حجيرية كانت أم خشبية . فقد أرادوا بإسراعهم ذلك إسandal ستار النسيان على حياتهم السالفة ، حيث كانوا دعاة ذلك الدين الجاهلي التافه . وبالرغم مما فرضه محمد على المسلمين من تساوي في الخشوع ، فقد كانوا يفتخرون ، سرّاً ، بالانتساب إلى أسر من كانوا في الماضي محل سخريتهم .

أما النبي فلسنا نستطيع تصوير الطرب السامى الذي استولى على نفسه العالية ، حينما رأى أهله قادمين إليه من كل صوب وقد تفتحت أعينهم للنور ، فلا قلوبهم

الندم ، بعد ان كانوا للإسلام وللنبي أعداء ، وكان محمد يحبهم ويعطف عليهم رغم كل شيء . وجلس عمر أسفل مجلس النبي وتلقى استسلام أهل مكة الذين أقبلوا عليه ، الواحد تلو الواحد ، فشدوا جميعاً على يده ، فعاهدهم باسم الرسول أن يحميهم من كل اعتداء . فلما انتهى ذلك المشهد الرائع ، دار على سفح الجبل مشهد آخر أشد روعة وجمالاً ، وأكثر هيبة وجلالاً : فقد تهدم إلى الأبد سور الأصنام الذى فرق ، طوال عشرين سنة ، بين القرشيين المهاجرين والقرشيين الذين بقوا بمكة ، فتعانق هؤلاء وأولئك الإخوة — الذين كانوا بالأمس أعداء — متحابين متحدين فى سبيل الله ، وانضم إلى الفريقين فريق ثالث ، هو فريق الأنصار من أهل المدينة ، تلك المدينة التى كانت فيما مضى منافسة لمكة ، فتآخت المدينتان ، واتحدتا تحت اسم « الحرمين » المجيد .

ولم يشوه جمال تلك المظاهرة المشهورة ، التى تحقق بها ما كان يسعى إليه الرسول من أحلام وآمال سعيًا حثيثًا ، اللوم إلا أن بنى خزاعة لقوا أحد قاتلى إخوتهم فذبجوه ، فاستقدمهم الرسول ولامهم لومًا شديدًا ، ثم أضاف : « يأيتها الناس إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض ، فهو حرام من حرام إلى يوم القيامة ، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دمًا ، ولا يعصده فيها شجرًا . لم تحل لأحد كان قبلى ، ولا تحل لأحد يكون بعدى . يا معشر خزاعة ، ارفعوا أيديكم عن القتل ، فلقد كثر القتل » . ثم ودى رسول الله ذلك الرجل الذى قتلته خزاعة ، وعفا الرسول عمن لم يقتلوا ممن حكم عليهم بالإعدام .

واسترعى نظر محمد ، من بين نساء مكة ، اللاتى أتين لتأكيد إخلاصهن ، امرأه تستر وراء صواحبها ، فعرف فيها رغم تنكرها هند الشرسة زوج أبى سفيان ، فصاحت رامية بقناعها : « نعم لى هند ، فاعف عني عفا الله عنك ! » . فعفا الرسول عنها ، رغم ما كان منها يوم أحد من تشويه جثة عمه حمزة ، فلما رجعت هند إلى بيتها بعد أن أسلمت ، عمدت إلى الصنم الخاص بعائلتها ، وجعلت تسبه قائلة : « كنا قبل فى غرور » ثم انهالت عليه ضرباً فهدمته .

وكان عكرمة بن أبى جهل مدبر مكيدة الخندمة لخالد بن الوليد ، قد فر إلى

البحر ، فأنت زوجه أم حكيم الرسول تستأمن له فأمنه . فاحقت به وقد أوشك على الإبحار فأرجعته إلى مكة ، وخشى الرسول أن يثار المسلمون من عكرمة عندما يتذكرون ما نال فتياتهم من عسف وعنت بسبب أبي جهل فقال : « يأتىكم عكرمة مؤمنًا لا تسبوه ولا تسبوا أباه ، فإن سب الميت يؤذى الحي ولا يباحق الميت » . فتأثر عكرمة من رحابة صدر الرسول وحلمه ، فصار من جند الله المخلصين المتحمسين .

وقد عفا الرسول كذلك عن وحشى قاتل حمزة بعد أن اعتنق الإسلام . وكان هبار قد تسبب فى قتل زينب بنت الرسول بضربة من كعب رجمه ، وفر خشية العقاب المستحق ، لكنه أسلم وأخلص لدينه ، فأقى الرسول مستسلمًا معتمدًا على واسع حلمه ، فقال له رسول الله : « يا هبار عفوت عنك وأحسن الله إليك حيث هدائك إلى الإسلام ، ولكن اذهب ولا ترنى وجهك » . وأفاد كذلك من حلم الرسول صفوان ، ثانى مدبر مكيدة الخندمة ، إذ سأله شهرين للخيار فقال له الرسول : « أنت بالخيار أربعة أشهر » .

وكان ابن أبي سرح الوحيد الذى عانى المشقة فى سبيل الحصول على عفو الرسول الذى غضب عليه غضبًا شديدًا لارتداده عن الإسلام . وكان ابن أبي سرح عليمًا بالفروسية والخط . وكان يكتب لرسول الله الوحى فبلغت به الجرأة أن غير من ألفاظ القرآن ، وشوه معانى السور ، ليسخر من كلام الله ، لكن أمره افتضح فهرب إلى مكة ، ورجع إلى عبادة الأصنام ، فلما فتحت مكة استجار ابن أبي سرح بأخيه من الرضاع عثمان بن عفان ، فأجاره وخبأه زمناً ، ثم أتى به النبي ليستأمنه ، لكن سعيه ذهب هباء ، إذ كان الرسول يعرض عنه كلما توسل إليه ، وأخيراً لم يجد الرسول سبيلاً إلى التخلص من إلحاح عثمان إلا بالعفو ، فلما خرج المذنب قال لأصحابه : « أعرضت عنه مراراً ليقوم إليه بعضكم فيضرب عنقه » ، قالوا : أفلا أمأت إلينا فقتلناه ؟ فأجابهم : « الإيماء خيانة ، ليس لنبي أن يوءى » .

من هذه الأمثال نستطيع أن نعرف مدى ميل الرسول إلى جذب قومه إليه باللين والإقناع ، دون الخروج عن الحزم والشدة بالنسبة إلى ما يتصل بالإشراك

والمشركين ، فحصل بالحلم على ما لم يكن ليحصل عليه بالطغيان وبسفك الدماء .
لقد جذب محمد إليه كل القلوب ، فأسرت نحوه مستسلمة جميع القبائل
المجاورة ما عدا قبيلتي ثقيف وهوازن . ومنذ ذلك اليوم لا يحق لإنسان غادر مكة
إلى المدينة أن يدعى لقب « مهاجر » إذ أصبح الإسلام وقد دعمت قواعده في مكة
والمدينة على حد سواء .

غزوة حنين (٦ شوال سنة ٥٨ هـ ، ٢٨ يناير سنة ٦٣٠ م) :

اعتمد الثقفيون والهوازنيون على مناعة مدينتهم : الطائف ، وكانوا على ثقة من
أنها كفيلة بحمايتهم في حالة الهزيمة ، فرفضوا الخضوع للرسول ، بل أعدوا العدة
لقتاله ، فاجتمعوا بوادي أوطاس برئاسة البطاين الشهيرين مالك بن عوف ،
ودريد بن الصمة .

وعلم محمد بما يبيتون له من شر ، فبعث بابن أبي الحدر مستطلعاً ، فلما
وافاه بالمعلومات الدقيقة ، عزم على القيام إليهم . وانضم إلى جيش النبي ، وكان
عدد رجاله عشرة آلاف ، ما يربو على الألفين من أهل مكة الذين أسلموا بعد
الفتح ، فدفعهم حميتهم إلى إظهار شجاعتهم وإخلاصهم ، فزاد ذلك في عظمة
جيش المؤمنين ، حتى كان من روعته وقوته حينما مر بالصحرَاء أن ارتفع صوت من رجل
يقال إنه من بني بكر هاتفاً : « لن نغلب اليوم من قلة » .

وقد غضب الرسول إذ سمع ذلك القول الغرير ، ولام قائده أشد اللوم ، لأن
الغرور يوهن العزيمة وينسى الإنسان أن النصر إنما يأتي من لدن الله .

ومر الجند بواد ، فبصروا بسدرة خضراء شاحخة منعزلة يحيطها المشركون بعبادة
خرافية ، فينحرون في ظلها الضحايا ، ويلقون بها أسامحتهم ، اعتقاداً منهم أن
لمس الشجرة يمنحهم قوة لا تقاوم . وكانت عقول بعض المسلمين لم تظهر بعد
من آثار خرافاتهم القديمة ، فرغبوا في أن تكون لهم أيضاً شجرة ذات أنواط ،
ورفعوا إلى الرسول طلبهم ، فغضب أشد الغضب ، وقال لهم : « الله أكبر ، قلم
— والذي نفس محمد بيده — كما قال قوم موسى : " اجعل لنا إلهاً كما لهم
آلهة " . إنكم قوم تجهلون ، إنها السنن ، لتركن سنن من كان قبلكم » .

قال جابر بن عبد الله : « لما استقبلنا وادي حنين ، انحدرنا في وادٍ من
أودية تهامة أجوف ذي خطوط ، كأنما ننحدر منه انحداراً ، وكان في عمائة

الصباح ، فخرج علينا القوم ، وكانوا كمنوا لنا في شعاب الوادى ومضايقه ، وذلك بإشارة دريد بن الصمة ، فحملوا علينا حملة رجل واحد ، وكانوا رماة ، فاستقبلونا بالنبل كأنه جراد منتشر ، لا يكاد يسقط لهم سهم ، ففر الناس راجعين لا يلقى أحد على أحد ، فوجدنا باب المضيق ، وقد سده رجل من هوازن على جمل له أحمر ، بيده راية سوداء ، في رأس رمح له طويل ، أمام هوازن وهوازن خلفه ، إذا أدرك طعن برمحه ، وإذا فاتته الناس ، رفع رمحه لمن ورائه فاتبعوه .

وعندئذ بدت الهزيمة أقرب من حبل الوريد ، وسارع بعض مرافقى الرسول من أعدائه القداحى الذين ما زالوا يحقدون عليه إلى الفرح والابتهاج بحالة المسامحين الخطرة ، وصاح أبو سفيان مستقسماً بالألزام التى حملها خفية في جعبته : « لاتنتهى هزيمتهم دون البحر » . وقال كلدة بن الحنبل أيضاً : « ألا بطل السحر اليوم ! » ، ولكن صفوان أخاه ، ولم يكن أسلم بعد ، أسكته بقوله : « اسكت ، فض الله فاك ، فوالله لأن يربى رجل من قريش أحب إلى من أن يربى رجل من أعراب هوازن » .

وبقى الرسول وحده محافظاً على اتزانه وسط الفوضى الشاملة ، فانحاز في نفر قليل من أصحابه ذات اليمين ، وأقام على ربيعة صغيرة قائلاً : « أنا رسول الله ، أنا محمد بن عبد الله ، أنا عبد الله ورسوله » ، واستحث بغلته رامياً بنفسه في حومة القتال ، فنهه أبو بكر وأمسك بخطام البغلة فوقفها ، وعندئذ حاول الرسول رد المهاجرين والأنصار إلى القتال ، فأمر العباس أن يصيح فيهم : « يا معشر المهاجرين والأنصار ، يا معشر أصحاب البيعة تحت الشجرة ! » . وأطاع العباس ، فلما دوى صوته القوى من قمة الربيعة حاملاً إلى الهاريين نداء الرسول انتابهم خزي عظيم ، فتابوا إلى رشدهم وأجابوا : « لبيك ، لبيك » . لكن كيف السبيل إلى وقف مثل ذلك السيل الجارف من الدواب الهاريين المتزاحمين بين جانبي المضيق الراسيين ؟ .

لم يأل المؤمنون جهداً في سبيل وقف إبلهم ، ولكن عيشاً إذ لم تنثن الإبل ، بل سارت تخب في نفس الاتجاه ، وعندئذ أخذ جند الله تروسهم ، وعلقوها في أعناقهم ، ونزلوا عن إبلهم اللأى تابعت سيرها ، واستلوا سيوفهم ، وعادوا إلى القتال من جديد .

وانتصب الرسول على ركابه فرأى ما قرت له عينه . رأى تغير الموقف ، ورأى الجند العرمرم يتواثبون إلى حومة الوغى ، فصاح : « الآن حمى الوطيس » . وعزم على ، وبصحبه رجل من الأنصار ، على أن يقضى على ذلك الأعرابي الهوازنى ، الذى كان يرفع ، مختالاً ، رمح المزيئة براية سوداء ، فأناه وضرب عرقوبى جملة بسيفه فقطعهما ، ووثب الأنصارى على المشرك فضربه ضربة أتت على قدمه بنصف ساقه ، فاختلف عن رحله ووقع على الأرض فقضى عليه .

ورأى المشركون هجوم المسلمين المفاجئ ، بعد أن ظنوا أنهم قد سحقوهم فنال الرعب منهم منالاً عظيماً ، وهربوا بدورهم مشتتين ، وأمر محمد بغلته باللبود فلبدت حتى مس بطنها الأرض ، وقبض قبضة من التراب ، ورمى بها كما رى يوم بدر في وجه المشركين ، فانقلب فرارهم إلى هزيمة منكرة ، وكأن ذلك التراب قد أعماهم ، فتفرق الجند كما تفرقت تلك الذرات المتناهية الصغر .

« لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ، وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ، إِذْ أَخَعَجَبْتَكُمْ كَثَرَتُكُمْ ، فَلَمْ تَغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً ، وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ، ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ ، وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ ، وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا ، وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ، وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ »

وسار المؤمنون في آثار مالك وقلول جيشه معملين فيهم السيوف ، فاعتصموا بمدينتهم المحصنة : الطائف . ولم يكن حظ دريد القائد الثانى للمشركين مثل حظ زميله مالك ، فلم ينج مثله . وكان دريد كفيفاً عجوزاً ، يربو عمره على التسعين ، لا يقلر على توجيه بعيره ، وقد فر من حواليه قومه المدعورون ، فوقع الرجل بين يدى غلام يدعى ربيعة بن رفيع ، فظن هذا الأخير — عندما رأى الهودج الذى يحمل البطل المقعد الشهير — أنه قد ظفر بجارية ، فأناخ الدابة وأزاح أستار الهودج ، فإذا أمام عينيه الجاحظتين من الدهشة شيخ كبير ، فغضب فضربه بسيفه فلم يغن شيئاً ، فقال دريد ساخراً : « بشس ما سلحتك أملك ، خذ سيفى هذا من مؤخرة الرجل ثم اضرب به وارفع عن العظام واخفض عن الدماغ ، فإنى كذلك كنت أضرب الرجال » . فخذى ربيعة من فشله الأول ، فضرب البطل فألقاه على الأرض مقطوع الرأس .

وفي حمية النصر تابع الرسول الهاربين حتى جدران الطائف ، وحاول الاستيلاء عليها ، ولكنه بعد حصار غير مجد دام عشرين يوماً ، رأى أن يدع فكرة الهجوم ليستعمل أساليب أخرى قد تكون أبطأ ، ولكنها أكيدة الأثر ؛ لذا فإنه بدلا من أن يدعو على أهل الطائف بالغضب الإلهي دعا لهم ربه قائلا : « اللهم اهد ثقيفًا واثت بها » . وقفل راجعًا إلى مكة رغم ما أظهره الجند من استياء ، فأقام بالجرعانة حيث جمعت السبايا والمغانم للتقسيم . وعند ما وصل محمد الجرعانة لاحظ من بين السبايا واحدة ، وهى شيماء من قبيلة بنى سعد (بطن من بطون هوازن) تدفع عن نفسها الجند الذين يسيئون معاملتها . فصاحت به إذ مر بها : « يا رسول الله إني أختك من الرضاعة » . فقال : « وما علامة ذلك ؟ » . قالت : « عضه عضضتنيها وأنا متوركتك » . فعرف الرسول العلامة فتأثر وبكى وسط لها رداءه ، فأجلسها عليه وخيرها قائلا : « إن أحببت فعندى محبة مكرمة ، وإن أحببت أن أمتعك وترجعى إلى قومك » . فقالت : « بل تمتعنى وتردنى إلى قومي » . ففتحها رسول الله وردها إلى قومها .

وفي الجرعانة أقبل وفد من هوازن ، فقال عنهم شيخهم أبو صرد من بنى سعد : « يا رسول الله إنما فى الحظائر عمتك وخالاتك وحواضنك اللائى كن يكفلنك ، ولو أنا ملكحنا (أرضعنا) للحارث بن أبى شمر أو للنعمان بن المنذر ثم نزل منا بمثل الذى نزلت به ، رجونا عطفه وعائدته علينا ، وأنت خير المكفولين » . فسألم الرسول وهو يخفى تأثره وحنينه : « أبناؤكم أحب إليكم أم أموالكم ؟ » . قالوا : « يا رسول الله ما كنا نعدل بالأحساب شيئًا ، اردد علينا نساءنا وأبناءنا فهى أحب إلينا » . فقال الرسول بصوت مرتفع : « أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم » ؛ ولم يكذب ذلك حتى صاح المهاجرون والأنصار : « وما كان لنا فهو لرسول الله » . وهكذا رد جميع الأسرى - وكان عددهم يربو على ستة آلاف ، إلى وفد هوازن .

ولم يستثن من ذلك إلا أسرة مالك بن عوف ، غير أن محمداً أوصى من حررهم بأن يبلغوا مالكا قوله : « إنه إن أتانى مسلماً رددت إليه أهله وماله ، وأعطيته مائة من الإبل » .

وقبل مالك ذلك ، فخرج مستخفياً من الطائف ، ثم أسلم فحسن إسلامه حتى استعمله الرسول على من أسلم من هوازن ، وكان ذلك أصدق الطرق للقضاء على مقاومة أهل الطائف ، إذ أن مالكاً — ذلك القائد المحجرب المعتز بمنصبه الجديد — شنها شعواء على الثقفيين بفضل جيش متحمس للدين ، فكان لا يقدر على صرح إلا اغتنمه ، ولا قافلة إلا أخذها ، فأجاعهم بين جدران مدينتهم ، وأجبرهم على القيام بدورهم إلى الرسول مستعطفين مسلمين .

وكانت المغنم كثيرة : أربعة وعشرين ألفاً من الإبل ، وأربعين ألفاً من رعوس الغنم . فعزم محمد على إرجاء التقسيم إلى يوم آخر ، بعد أن عانى ما عانى من التعب من جراء مشاكل الأسرى ، فاعتلى ناقته متأهباً للرحيل . إلا أن جنده كانوا لا يستطيعون صبراً ، فتبعوه بالإلحاح والمضايقة ، حتى أبلجوه إلى شجرة ، فاخطفوا عنه رداءه فقال : « ردوا على رداي أيها الناس ، فوالله لو كان لكم بعدد شجر تهامة نعماً لقسمته عليكم ، ثم ما ألفتوني بخيلاً ولا جباناً ولا كذاباً » ، ثم قام إلى جنب بعير فأخذ وبرة من سنامه فجعلها بين إصبعيه ثم رفعها ثم قال : « أيها الناس ، والله ما لي من فيثكم ولا هذه الوبرة إلا الخمس ، والخمس مردود عليكم فأدوا الخياط والمحيط ، فمن أخذ شيئاً في غير عدل ولو كان إبرة كان على أهله عاراً وناراً وشناراً يوم القيامة » ، ثم بدأ في تقسيم الغنائم .

وقد غنى الرسول بأن يستميل أعيان مكة نهائياً إليه ببذل العطايا ؛ فسموا بالمولفة قلوبهم ، فحصل كل من أبي سفيان وابنه معاوية ، وحكيم بن حزام ، ونضير بن حارث ، وسهيل وعكرمة ، وعيينة والأقرع وصفوان على هدية هي خمسون من الإبل . ولكن ذلك آثار غيظ بعض الناس ، فأظهر ابن مرداس عدم رضاه في قصيدته التي منها :

فأصبح نهبي ونهب العبيد د بين عيينة والأقرع
وما كان حصن ولا حامس يفوقان شيعي في الجمع

فاستقدمه الرسول وقال له : « أأنت القائل :

فأصبح نهبي ونهب العبيد د بين الأقرع وعيينة
مبدلاً للفظين الأخيرين ، غير دارٍ أن ذلك يكسروا البيت ، وقد قال

الله تعالى في كتابه : « وما عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ » . فرد أبو بكر مصححاً : « بين عيينة والأقرع » ، فقال الرسول : « هما واحد » ، ثم أمره أن يرضى الشاعر ، فيقطع لسانه بالمنح والهبة .

وأتى رسول الله أعرابي من تميم ، يدعى ذا الحويصرة ، فبلغت به الجراءة أن قال له : « لم أرك عدلت » . فغضب رسول الله ثم قال : « ويحك ، إذا لم يكن العدل عندي فعند من يكون ؟ » .

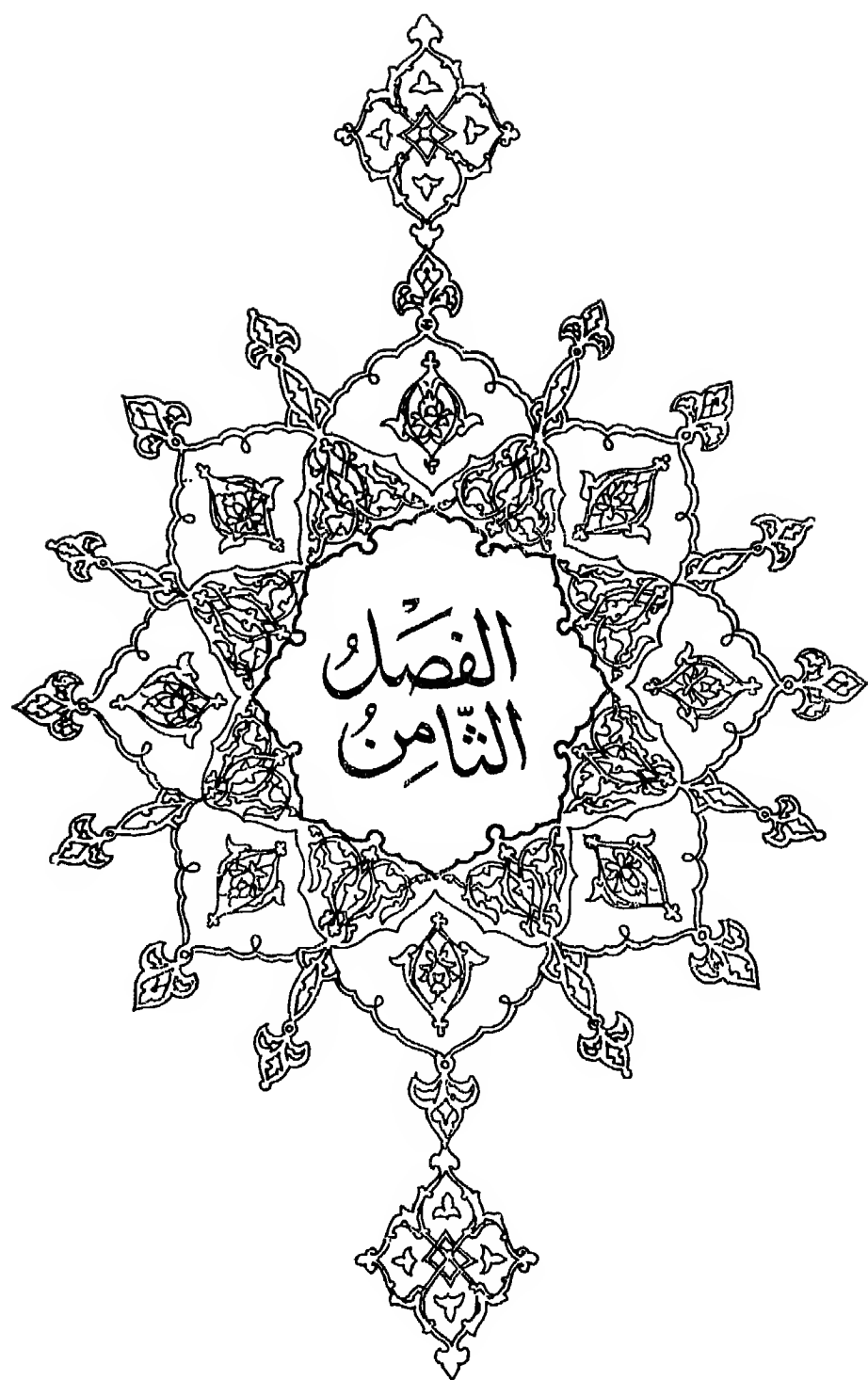
فهب عمر صائحاً : « يا رسول الله ألا أقتله ؟ » . فقال محمد بكل بساطة : « لا ، دعه » . وقد لجأ الرسول إلى حيل عديدة في سبيل تهدئة الخواطر ، وتجنب التحاسد بين أتباعه ، وبالرغم من ذلك فقد نفدت الغنائم أو كادت ، ولم يبد من الرسول ما يدل على تذكره الأنصار المخلصين . وكان هؤلاء بطبيعة الحال لا يشكون في أنهم سيكونون أول الظافرين ، لذا نظروا بأعين يزداد فيها العجب إلى ما يناله القرشيون والأعراب من المغام دون أن يكون لأنفسهم فيها شيء .

وأخيراً لم يبق شيء ، فتبادلوا النظرات المريرة ، وقالوا : « لى والله رسول الله قومه » . فسمع ذلك سعد بن عباد ، فنقله إلى الرسول فقال له : « فاجمع لى قومك في هذه الخطيرة » .

فلما اجتمعوا قام إليهم الرسول ، وخاطبهم قائلاً : « يا معشر الأنصار ؛ مقالة بلغني عنكم وجدة وجدتموها على في أنفسكم ، ألم آتكم ضللاً لا فهداكم الله ، وعالة فأغناكم الله ، وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟ » . قالوا بصوت واحد : « بلى ، الله ورسوله آمن وأفضل » . قال : « أما والله لو شئتم لقاتم وإصدقتم ولصدقتم : أتيتنا مكذباً فصدقناك . ومخذولاً فنصرناك ، وطريداً فأويناك ، وعائلاً فأسيناك » . فضجبت الجماعة محتجة : « لله ولرسوله المن والفضل علينا » ، فقال : « أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم . ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاء والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم ؟ فوالذى نفسى بيده ، لولا الحجر لكنت امرأة من الأنصار ، ولو سلك الناس شيعياً ، وسلك الأنصار شيعياً ، لسلكت شيعب الأنصار ، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار ! » .

ولم يستطع الرسول أن يكتم انفعاله الشديد وهو يلقي تلك الكلمات التي أثارت
عواطف القوم ، فدمعت عيونهم دموع الرضا والامتنان حتى اخضلت لحاهم ،
وقالوا بصوت يقطعه الشهيق : « رضينا برسول الله قسماً وحطاً » .

لَقَدْ نَصَرَكَ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ
إِذْ أَعَجَبْتَكَ وَكُنْتُمْ أَكْثَرُ نَجْداً فَلَمْ تَغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ

خبر الإفك :

قالت عائشة : « لما فرغ رسول الله من غزوة بنى المصطلق ، توجه قافلاً حتى إذا كان قريباً من المدينة نزل منزلاً فبات فيه بعض الليل ، ثم أذن في الناس بالرحيل ، فارتحل الناس وخرجت لبعض حاجتي ، وجاء القوم خلافي : الذين كانوا يرحلون إلى البعير ، وقد فرغوا من رحلته ، فأخذوا المودج وهم يظنون أنني فيه كما كنت أصنع ، واحتملوه فشدوه على البعير ، ولم يشكوا أنني فيه ، ثم أخذوا برأس البعير فانطلقوا به ، فرجعت إلى المعسكر وما فيه من داع ولا مجيب ، قد انطلق الناس ، فالتفت في جلبابني ، ثم اضطجعت في مكاني ، وعرفت أن لو افتقدت لرجع القوم إلى . فوالله إني لمضطجعة ، إذ مر بي صفوان بن المعطل السلمي ، وقد كان تخلف عن المعسكر لبعض حاجاته ، فلم يبت مع الناس ، فرأى سوادى ، فأقبل حتى وقف على ، وقد كان يرانى قبل أن يضرب علينا الحجاب . فلما رآني قال : « إنا لله وإنا إليه راجعون » ، فقممت ثم قرب البعير ، واستأخر عني فركبت ، وأخذ برأس البعير ، فانطلق سريعاً يطالب الناس حتى لحقنا برسول الله » .

واتخذ أهل النفاق من ذلك الحادث مطية لإفكهم وقالوا في عائشة ما قالوا ، وأحس محمد بالشك يغزو قلبه ، فابتعد عن عائشة رغم احتجاجها وتأكيدها براءتها ورغم تألم صهره أبي بكر لذلك .

ثم أخيراً نزل الوحي على النبي ، فجاء بلسمًا شافيًا لشكوكه ، ودواء ناجعًا قاطعًا للظنون ، إذ استنكر فيه الله تعالى الإفك وكذب أهله .

ولادة إبراهيم وموته :

في السنة الثامنة للهجرة ، وضعت مريم السرية القبطية ولداً ، ففرح الرسول فرحاً عظيماً ، لأنه رأى فيه عوضاً عما فقدته بموت أبنائه الذكور من خديجة ، فوهب جارية لأبي رافع الذي بشره بالمولود ، ثم أعلن أن مولد الطفل من شأنه تحرير الأم .

وحلق شعر المولود في اليوم السابع ، وختن ، ثم نحر الرسول جملين ، وتصدق على الفقراء ، وجاءت المرضعات يتنافسن ، كل تبغى شرف إرضاع ابن رسول الله ، الذي سمي بإبراهيم . فأعطاه الرسول امرأة البراء بن أوس ، ووهبها لذلك حديقة نخيل .

فخرجت المرضعة بالوليد إلى بني مازن . وكان الرسول كثيراً ما ينطلق إليها ، ويدخل البيت ، فيأخذ ابنه بين ذراعيه ، فلا يشيع من تقييله وشمه . وازداد حبه لمريم القبطية ، فاغتاضت ضررتها .

وبات محمد مع مريم ليلة كانت لحفصة بنت عمر . فغضبت حفصة ، وراجعت أشد المراجعة ، حتى وعداها ألا يقرب مريم بعد ذلك أبداً على أن تكتم حفصة له السر . فأبت غطرسة حفصة إلا أن تفضي الأمر ، وأن تفضي بالقصة إلى عائشة التي غصبت بدورها غضباً شديداً وأثارت غيظ الزوجات الآخر وحقدن على مريم .

وأضحى البيت يضيح بالصياح والمشاجرات والمراجعة ، حتى ضاق الرسول بهذا فكف عن مجاملة نسائه ، وأبى أن يكون لمن عليه الأمر ، فطلق حفصة بعد أن لامها على فعلها أشد اللوم ، ثم أخذ على نفسه ألا يقرب زوجاته شهراً .

وتعادت النساء بعض الشيء في المراجعة فيما بينهن كل واحدة تتهم الأخريات بأنهن كن السبب في هجر الرسول لبيته ، ثم تعاودن جميعاً على أن لا يعدن بعد ذلك إلى مضايقة النبي .

ولكن محمداً أصر على عهده الذي اتخذه ، فاعتزل في مشربة له يرقى إليها بسلم من جذوع النخيل ، ينام فيها على حصير تنطبع آثارها في جسده ، وعلى رأس السلم غلام له أسود يأتيه بالطعام ويحرس المشربة التي أوصد بابها دون أعز الصحابة . وأخيراً ، وفي اليوم التاسع والعشرين ، فكر الرسول في حزن عمر وأبي بكر

لذلة ابنتيهما حفصة وعائشة ، فاستردهما ، كما استرد جميع زوجاته بعد أن تلا عليهن الآية :

« وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ ، فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ ، وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ ، وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ * عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ ، أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ ، مُسْلِمَاتٍ ، مُؤْمِنَاتٍ ، قَانِتَاتٍ ، تَائِبَاتٍ ، عَابِدَاتٍ ، سَائِحَاتٍ ، ثِيْبَاتٍ ، وَأَبْكَارًا * »

غير أن الأفراح والآمال التي جاءت بمجىء إبراهيم لم تدم طويلا ، فقد فارق الطفل الحياة ، في رجب سنة ٩ هـ ، وسنه لا تربو على سبعة عشر شهراً أمام عيني أبيه اللتين فاضتا بالدموع الغزيرة .

ورأى عبد الرحمن بن عوف تلك الدموع . وتذكر منع الرسول الصباح وشق الجيوب ولطم الحدود في حالة الحداد فقال : « أَوَلَمْ تَكُنْ نَهَيْتَ عَنِ الْبُكَاءِ ؟ » ، قال : « الْبُكَاءُ مِنَ الرَّحْمَةِ وَالصَّرَاحُ مِنَ الشَّيْطَانِ » وهطلت دموعه الغزيرة فقال : « تدمع العين ويحزن القلب ، ولا نقول ما يسخط الرب ، وإلا أنه وعد صادق ، وموعده جامع ، فإن الآخر منا يتبع الأول ، لوجدنا عليك يا إبراهيم وجداً شديداً ما وجدناه . إنا لله وإنا إليه راجعون » .

وغسلت زهيرة أم الموضع ، الجسم الصغير ، وحمله الفضل بن العباس ، وأسامة بن زيد حتى مقبرة البقيع ، وأنزلوه في القبر . فلما وارت الأرض ابنه الذي عقد عليه كل تلك الآمال ، وقف الرسول على القبر الصغير وصلى عليه ، وقال : « يَا بَنِي قُل : اللَّهُ رَبِّي ، وَالْإِسْلَامُ دِينِي ، وَرَسُولُ اللَّهِ أَبِي » .

وانتفض الناس لذلك المنظر باكين متألمين . وفجأة علت الوجوه صبغة باهتة ، كما كست ، في آن واحد ، أديم الأرض ورمال الصحراء ، ووجوه الصخور ، واحتجبت السماء اللازوردية بحجاب رصاصي وبهتت الشمس ، وتضاءل ضوءها قليلا قليلا ، على أنه لم تحجبها أدنى غمامة ، واعترت الطبيعة كلها رعدة خفيفة ثلجية ، كردة الحمى ، فسارع الطير إلى أوكاره الليلية يحتوى بها صائحا جزعا ، ثم انطفأت الأشعة الأخيرة التي لا تزال تضيء المكان بنور باهت مخيف ، فأسدلت

الظلمة ثوبها على الأرض في وضوح النهار بينما تلالآت نجوم مرتجفة في كبد السماء .

وارتاع القوم واضطربوا ، وتشتت شمل الناس ، فلم يدر أحد أى مذهب يسلك ، في انتظار وقوع الدمار الأعظم . بيد أن بعضهم ، وقد راعه وقوع ذلك الانقلاب الطبيعى وموت إبراهيم ، صاح : « يا رسول الله ! إن عين الشمس قد غشيتها الدموع فاحتجبت تشاركك حزنك » . فاعتدل الرسول قائماً متغلباً على آلامه ليعلم بصوت ثابت لا يتلعل : « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله ، يخوف الله بهما عباده ، فلا ينكسفان لموت أحد من عباده ، ولا لحياته » .

غزوة تبوك (سنة ٥٨ هـ ، ٦٣٠ م) :

جرب روم الناصرية وعرب الشام بسالة جند الله في موقعة مؤتة فخابوا وخسروا ، فحققوا على الإسلام الآخذ في التوسع ، واشتغلوا بجمع جيش هائل ، ليقعوا بجند الله الضربة الساحقة .

وعلم الرسول بالخبر ، فعزم على سبقهم ليكون له الهجوم . ولم يكن ليوحى إليه بتلك المخاطرة إلا لإيمانه الراسخ في الحماية الإلهية ، فكم كان عليه أن يجمع من آلاف الجنود ، كى لا يجرى إلى هزيمة لا تعوض ؟ لم يكن الوقت مناسباً لقيام الحملة ، إذ عم الحفاف وطالت مدته ، فذبل النبات ، وقل الحب ، ونقص نتاج الأنعام نقصاً كبيراً ، وعمت المجاعة ، ففت ذلك في عضد الناس وهمتهم . وزاد الطين بلة لظى الشمس في النصف الثانى من السنة . ولم يكن هناك بعد ذلك ما يبشر بمحصول وافر إلا ما يجنى من لذيذ ثمار الواحة التى تروىها آبار لا تنفد مياهها . وفى تلك الآونة ، التى تطلع فيها المؤمنون إلى استجلاء المتعة الوحيدة التى وهبتها لهم تلك السنة المملوءة بالأحزان ، أمر الرسول بإعداد العدة للرحيل . فسرى في قلوب الناس استياء صامت استغله المنافقون المعنيون بإذاعة الأقاويل الغادرة : « أتحنسبون جلاد بنى الأصفر (أحفاد إسحق الأصفر ^(١)) كقتال العرب بعضهم

(١) قال السهيلي : يقال : إن الروم قيل لهم : بنو الأصفر لأن عيصو بن إسحاق كان به صفرة ،

وهو بجلهم .

بعضًا ، والله لكأنكم عند وصولكم أمام العدو المدرع ، قد أنهكتكم جهد الحال والحر والبلد البعيد » .

وتأثر المترددون بتلك الحجج التي لم يكن أحد ليناقش في سلامة منطقها لو أنها كانت تتعلق بحرب غير تلك التي يعدها المسلمون في سبيل الله . أما ذوو الإيمان الراسخ ، فقد ظهرت لهم جليًا الصعاب الهائلة التي يلاقونها بسبب نقص الزاد ، وقلة عدد الإبل ، فقد نفق الكثير منها جوعًا ، وهزل الباقي . وكانت الظروف كلها غير مواتية للرحيل ، بيد أن المصطفى لم يكن يأبه بالعوائق ، بل لم يكن في سبيل الله ليعترف بها . واجتمع جمع من المنافقين في بيت سويلم اليهودي ليتآمروا ، فبعث الرسول إليهم بطلحة بن عبيد الله ليحرق دارهم :

« وقالوا لا تنفروا في الحر ، قل نار جهنم أشد حرًا لو كانوا يفقهون •
فليضحكوا قليلا ، وليبكو كثيرا ، جزاء بما كانوا يكسبون • »
[سورة التوبة : ٨١ - ٨٢] .

وعمل الرسول جهد طاقته على إفهام أتباعه سمو الغاية المنشودة آخذًا كل شخص بميوله وآماله الذاتية ، ليشير الاهتمام العام ، فقوى عند أناس الأمل الخاص في سعادة الآخرة ، التي تتفق وروحهم المشبعة بالمثل العليا ، ولم يقطع عند الآخرين الأمل في المكافآت المادية والغنائم واللذات الدنيوية .

وكان الجلد بن قيس من ذوى الإعجاب الشديد بالنساء ، فقال للنبي : « أوتأذن لي ولا تفتني ؛ فوالله لقد عرف قومي أنه ما من رجل أشد إعجابًا بالنساء مني ، وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر أن لا أصبر » . فأعرض عنه الرسول ، ولم يجبه ، فعد الجلد ذلك الإعراض وعدًا من الرسول بغض العين ، فلم يستطع كتمان فرحه ، رغم وجود ابنه الذي لاهه على ذلك ، فرماه الجلد بنعالة في وجهه .

هب المؤمنون من رقتهم ، ودبت فيهم حماسة ، وتوقدت حميتهم ، بفضل نشاط زعيمهم المتواصل ، وغدت الصعاب والتضحيات تزيد من حماسهم وتقوى من روحهم المعنوية ، بدلا أن تثبط من عزيمتهم ، وتقلل من همتهم ، أما الفقراء والمقعدون ، الذين لم يستطيعوا الالتحاق بالمقاتلين ، فقد حزنوا حزنًا شديدًا ، حتى سمو بالبكاكين رغم عذو الله عنهم ، إذ أنزل على رسوله قوله :

« لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ ، وَلَا عَلَى الْمَرْضَى ، وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ
مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ ، إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ . مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ ،
وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * »

ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم ، قات : لا أجد ما أحملكم عليه
تولَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ ، حَزَنًا ، أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ * »
[سورة التوبة ٩١ - ٩٢] :

وتأثر الرسول لحزن هؤلاء ويأسهم ، فنادى في المسلمين ، يستحث كرمهم
ويثير أريحتهم ، فتنافسوا تنافساً عظيماً في الاستجابة إليه في الحال بالوفير من
المال ، ووضع أبو بكر جميع ثروته رهن تصرف الرسول ، وزود عثمان بن عفان
عشرة آلاف جندى بالسلاح والزاد . وتبارى الناس في الكرم ، حتى تجردت
النساء من حليها تبرعاً بها لجند الله .

وأخيراً كون جيش الحملة ، فإذا عدد رجاله يتراوح بين الثلاثين والأربعين
ألفاً ، ولم تكن جزيرة العرب قد شاهدت مثله من قبل . وتجمع الجند عند مدخل
ثنية الوداع . فرأى المنافقون ، إزاء حماسة المؤمنين أن خير ما يفعلون هو أن يخفوا
حالمهم ، وإن كانوا أعدوا العدة للتجمع في مؤخرة الجيش ، فلما تحرك تسلاوا منه
مستترين ، الجماعة تلو الجماعة ، ليرجعوا إلى المدينة .

ولم يكن الناس ليعجبوا لسلوكهم هذا ، غير أن نصائحهم الختالة ردت ،
للأسف ، أربعة من مخلصي المسلمين عن واجبهم ، وهؤلاء الأربعة هم : الشاعر
كعب بن مالك ، ومراة بن ربيع ، وهلال بن أمية ، وأبو خيثمة . أما هذا الأخير
فقد اشتد عليه الحر ، وربما ، أيضاً ، الشعور بالعار ، فدخل حديقته التي
تكتنفها الجدران المنيع ، فرأى فيها تحت سعف النخيل المتشابكة ، والغصون
التي تحمل ، من نخلة إلى نخلة ، أعناقها المعلقة بعناقيدها الملتوية ، رأى عريشتين
من ورق النخيل وجذوعها ، قد امتنعت عنهما أشعة الشمس ، والظلمة فيها كالليل
المسدل ، وقد أضاء في كل منهما وجه حسناء مشرق كالبدر في تمامه .

وقد تساوى ذكاء هاتين الزوجتين المحبتين وجمالهما . وقد رشنا ، بعناية ،

أرض العريش ؛ فهبت منها ريح عطرية ، وعلقتا ، بعناية فائقة ، في مداخل الهواء قريباً يرشح منها الماء والبرد فيصير كالجليد ، ثم هيأتا طعاماً يشرح طيب ريحه الصدر ، ويثير من الشهية المستعصية .

رأى أبو خيثمة كل ذلك ، وكان جسده يقطر عرقاً ، ولباسه يكسوه التراب ، فأحس بشعور عظيم من الراحة والسعادة يسرى في كيانه ، وكاد يلقى بنفسه في أحضان تلك المتعة ويفترش ، متكاسلاً ، سجاداً رخيئاً ، لكنه لم يفعل . إذ رأى فجأة خلال ما كان يكسو عينيه مترقفاً من الظل ذى الانعكاسات الزمردية صورة خاطفة قاسية : رأى في وسط صحراء حزينة موحشة ، لا نهاية لها ، وتحت زرقة سماء لا يحجبها غمام ، ولظى شمس لا رقة فيها ، قافلة تسير متثاقلة متعبة ، قافلة طويلة من الآدميين ، تختفى تارة وتظهر تارة أخرى بين أمواج الرمال أو الصخور الصفراء . . . هؤلاء الآدميون ، إنه يعرفهم ، إنه إخوانه في الإسلام ، وعلى رأسهم . . . المصطفى .

وصاح أبو خيثمة : « رسول الله في الحر ، وأبو خيثمة في ظل بارد ، وطعام مهياً ، ونساء حسان ، ما هذا بالنصف ! ! » ثم قال لزوجتيه : « لأدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله ، فهيتا لى زاداً » . ففعلتا ، ثم قدم ناضحه فارتحلته ، وأخذ سيفه ورمحه وترسه ، وخرج غير نادم على ما خلفه وراءه من ماء سلسبيل رقراق ، وظل ظليل ، وجمال ليس فوقه جمال ، ليلقى بنفسه في صحراء كالحجيم ، متتبعاً آثار الجند ، فلحق بهم عند تبوك .

بلاد ثمود :

- وكانت القافلة قد وصلت إلى تخوم الصحراء المحرقة المحيطة بمدائن صالح : بلاد ثمود ، بعد أن اجتازت وادى القرى ، وهو واد متسع ، يتقابل فيه لون الواحات الخضراء المحيطة بالكثير من القرى أو القلاع ، بلون المنظر الصحراوي المقفر ؛ فيلقى عليه شعاعاً من جمال . وانقبضت قلوب المؤمنين لرؤية تلك البلاد الموحشة فقد كانت بحيرتها المثقفة ، التى خرج لبيب إلهي ، فصبغها بصبغة الرماد والفحم الرهيب ، تعرض للعين صورة أخاذة من صور غضب الله القدير .
- فقد أشرك أهل ثمود في غابر الزمن ، وفسقوا واعتزوا بمناعة ديارهم المنحوتة

من الصخور ، وبغنى مدنهم السبع ، فقابلوا نبيهم صالحاً بالسخرية وقد أرسله الله إليهم ليهديهم الطريق المستقيم . وليثبت لهم النبي صحة نبوته لجأ إلى دعاء العلى القدير ، لينجده بمعجزة ، فلم يكذب يلفظ بالدعاء حتى انشقت صخرة في طنين كطين أمواج البحر الهائج ، وخرجت من الشق ناقة عجيبة هائلة كثيرة الشعر ، وحامل من عشرة شهور ، فوضعت فصيلاً عظيماً يشبهها تمام الشبه .

والمعجزات كثيراً ما تعجز عن إقناع الملحد العنيد ، ولم تكن تلك المعجزة إلا لتزيد من طغيان أهل ثمود ، ولكي يبين هؤلاء الزنادقة الأشرار عدم اكترائهم بها ، عزموا على قتل الناقة ، فنثروا الأشواك والصفائح الحادة على الجانبيين الرئيسيين للممر الضيق الذى اعتادت أن تسلكه كل صباح لترعى فى الحلاء ؛ فلما كان المساء ، رجعت الناقة وألقت بنفسها فى ذلك الممر ، فزقت الصفائح جنبها تمزيقاً شديداً . فأرسلت الناقة اللاهثة أنات يقال : إن صداها ما زال يتردد فى الوادى — ثم وقعت محتضرة على فوهة الممر ، التى عرفت منذ ذلك اليوم بمبرك الناقة .

أما الفصيل فقد جرح أيضاً ، وسال الدم من جبينه ، فابتعد عن أمه قليلاً ، ليموت بمكان يعرف الآن بالحويرية^(١) ويمتاز بصخرة اتخذت شكل ذلك الفصيل وتشبهه تمام الشبه .

ورأى صالح ، بعد ذلك الإثم العظيم ، أن جهوده كانت عبثاً ، فدعا بغضب الله على أهل ثمود ، فلم يطل انتظار العقاب :

« وَكَانُوا يَنْجِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ * » [١٥ : ٨٣] . . . « فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ * فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ » [٥١ : ٤٤ ، ٤٥] . . . « إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمٍ الْمُحْتَظِرِ * » [٥٤ : ٣١] .

وظلت بلاد ثمود مقفرة منذ أن نزل بها العقاب الإلهى فأباد أهلها ، وبقيت آثار بيوت الطغاة إلى يومنا هذا بأبوابها الفاغرة التى تشبه حديق عيون عظيمة

(١) الحوار بين الناقة الذى يفصل عنها .

قد اتسعت رعباً من هول المنظر الذى شاهده . أما الشقوق التى تصدع البنيان فإنها لتبدو أفواهاً مضطربة من الهلع ، تصبح بمن يجرؤ على المخاطرة بنفسه فى هذا المكان الموحش : « تأملوا فينا غرور الإنسان وعجبه ثم عجزه ، أى جهد تكبده أصحابنا لينحتونا ، فى قلب الصخر ، ثم ليزينونا بالأعمدة الرشيقة ، والرسومات البديعة ؟ ألم يكن يحق لهم بعد هذا أن يطمثوا كل الاطمثان بين أحضاننا ، وهى أشد منعة من الدروع ؟

« ما أعظم ما كان من ضلالهم ! مر عليهم غضب الله ، فاقتلع أيديهم القابضة قبضة اليأس على حيطانها . . . فاخففوا إلى الأبد . حتى نحن كنا نرتجف ارتجافاً جنونياً على قواعدنا كأعضاء المحموم الذى تصطك أسنانه اصطكاكاً ذا ضجيج . وإن كنا قد نجونا ، فلنكون عبدة لمن يحول فى أرضنا الحزينة من المسافرين التائهين ! »

. . . مر جند المؤمنين وسط تلك الكتل الصخرية ، ذات الأشكال الغريبة ، التى تعلو المحيط الرملى كأنها الجزر الصغيرة ، وتعرض بين جوانبها الملساء أبواب أهل ثمود المظلمة ، فسجى الرسول ثوبه على رأسه ، كى لا يرى آثار الطغيان ، وغطى أنفه وفاه كى لا يشم الريح النجس المتصاعد من الأطلال ، ثم استحث راحلته ليلبتعد عن المكان مسرعاً . وخشى الرسول أن يدفع الفضول الشديد جند الإسلام إلى التباطؤ فى السير ، فأوصاهم أن لا يدخلوا بيوت الذين ظلموا إلا وهم باكون ، خوفاً أن يصيبهم ما أصاب من قبلهم ، فإنه كان يعلم أن تلك العيسرات التى تسيل فى مثل تلك الذكريات ، تجعل خشية الله تحل محل الفضول . غير أن المسلمين لم يفكروا ، وقد تأثروا بغرابة تلك الديار التى بدت كأنها ديار أحياء يفوقون البشر قوة وقدرة ، وبذلك السكون الشامل الرهيب السائد على تلك الأرجاء ، حيث عاشت أمة فى غابر الزمان عيشة الفسق والغرور ، لم يفكروا أمام هذا كله فى الاستطلاع ، ولم يدفعهم الفضول إلى التباطؤ ، بل كان جل همهم تتبع النبي الملهم والابتعاد عن تلك الأطلال التى حل بها غضب الله .

وكان العطش يستحثهم من جانب آخر على المسير . فلما ظهر لهم ، وسط السهل الرملى ، بئر ثمود الشهير حيث كانت تستقى الناقة الغريبة ، تشتتوا متنافسين

كل يريد البئر ليكون أول من ارتوى ، ولم يقدر الرسول على إيقافهم أول الأمر ، فاستحث ناقته حتى لحق بهم ، وقال لهم بصوت صارم : « لا تشربوا من مائها شيئاً ، ولا تتوضئوا منه للصلاة ، وما كان من عجين عجنتموه فاعلفوه الإبل ، ولا تأكلوا منه شيئاً ، ولا يخرجن أحد منكم الليلة إلا ومعه صاحبه » .
ثم أمر بالرحيل غير عاجئ بإعياء جنده ولا بعطشهم ، كي يزيل كل وسواس من نفوسهم .

وما زال الرسول مسجياً ثوبه على وجهه حتى وصل فوهة ممر « مبرك الناقة » الضيق المخيف ، وجنده يتبعونه دون تردد أو شكوى رغم ما ألم بهم من أوجاع وخيبة أمل .

وكان هذا الممر يلتقي في النفس إحساساً بالحزن شديداً ، ويبعث التشاؤم بما يعرضه من مرتفعات صخرية محيطة بجنبه ، يربو ارتفاعها على مائة وخمسين ذراعاً . فشعر المؤمنون بصدورهم تضيق ، كأن قد سحقتهما الجوانب الشاهقة الارتفاع ، المهيمنة عليهم ، وكانوا يخشون سماع صدى أنات الناقة الغريبة . وما من قوة بشرية تستطيع قمع الرعب الجذوى الذى يستولى على الدواب ، فتتخلص من الراكبين ومتاعهم وسلاحهم بقفزات شديدة ، ثم تولى هاربة بعد أن ترى بمن يحاولون وقفها وتسحقهم تحت كلالها ، وتترك الباقين وسط بيداء جدداء مترامية الأطراف . وكان أقل صوت يردده صدى الصخور مكبراً ، بحيث يبعث رعدة خفية ، فاتبعوا سكوتاً شاملاً ، لا شاغل لهم إلا استحثاث دوابهم - وأخيراً خرجوا من الممر المخيف ، فتنفّس الناس الصعداء ، واطمأنت قلوبهم ، وظهر لعيونهم مكان خال صالح لحط الرجال .

فلما انتهى المؤمنون من تهيئة مخيمهم ، أخبر الرسول : أن ريحاً شديدة سوف تهب عليهم الليلة ، وأوصاهم قائلاً : « من كان له بعير فليشد عقاله ، ولا يخرجن أحد منكم الليلة إلا ومعه صاحبه » .

وما كادوا يمشون على دوابهم يستوثقون من عقالها ، حتى تحققت نبوءة الرسول ، فاحتجب الشمس الغاربة بحجاب باهت ، يناقض الحمرة البهية التى تكسوها عادة ، فكان بهوتها وانعدام أشعتها مؤذناً بهبوب عاصفة هوجاء .

وفجأة وثب من الأفق ستار قاتم ، لف الشمس في ثناياه المتماوجة . واصطبغ الأفق بلون القار ، وتكاثفت الظلمات ، حتى حق لكل حي أن يحسب عينيه قد غشيها العمى ، وانبعثت من أعماق الصحراء جلبة غريبة تقترب بسرعة فائقة ، وتستحيل طنيناً يصم الآذان ، فكأنه صفير حيات هائلة ، يصحبه صياح المردة الشريرة ، وارتدى في الآونة نفسها على الخيم إعصار عنيف ، اقتلع في مسيره كل ما لم يكن محكم الشد، وحلت محل الظلمات السوداء ظلمات أخرى صفراء أقم وأمنع للنظر .

واحتسى المؤمنون بجمالم التي جعلت ظهورها للعاصفة مرتعدة تئن خوفاً ، وسجى كل منهم أطراف ثوبه على وجهه وذراعيه وساقيه ، ليتقى الرمال الثائرة التي تنغرس قاسية في جسده ، وكأنها الآلاف من لدغات النحل ، فكان الجندي يلتصق بالأرض وينشب أظفاره فيها ، أو يتعلق بحسم بعيره خشية أن تحمله الرياح كما تحمل مندوف الصوف .

وبالرغم من هول تلك الساعة ، تناسى جنديان أوامر النبي المشددة . فخرج أحدهما من الخيم ولم يكذب يخطو خطوتين حتى وقع ، أما الثاني فقد خرج في طلب بعير له ذعر فقطع عقاله وهرب ، فاحتملت الرياح صاحبه في ثناياها وكأنه الحجر قد قذف من التل ، حتى طرحته على قمة جبل طيئ ، فلما أخبر بذلك الرسول صاح : « ألم أنهيكم أن يخرج أحد منكم إلا ومعه صاحبه ؟ » .

ثم دعا الرحمن للذي أصيب فشفي ، وأما الآخر الذي وقع بجبل طيئ فلإن طيئاً أهده لرسول الله حين قدم المدينة .

وأخيراً هدأت العاصفة ، بعد أن صبت ، عبثاً ، جام غضبها على جند الله ، فهجرتهم إلى أرجاء أخرى من الأرض ، ولم يعودوا يشكون منها ، بيد أن المراحل السابقة كانت قد أنهكتهم ، وجاء لهم الليل بمزيد من التعب بدلا من الراحة الشافية وقد امتصت ريح السموم كل ما تبقى في أجسامهم من رطب ، فتكثف الدم في أجسادهم ، وتعرس سريانه في شرايينهم ، وأحدثت ضربات قلوبهم دقا لا يطاق في آذانهم . فإذا كان عساهم أن يصيروا فيما تبقى عليهم قطعه من طريق طويل قبل الوصول إلى أول بئر ؟ .

... لم يكن منظر المكان يشجعهم أو يثبت من عزيمتهم ، فهم يحسون بأرجلهم وكأنها تطأ أطلال عالم غريب خربه حريق هائل : وهناك على بعد عظيم كان يحد الأفق خط أسود هو الصحراء المترامية الأطراف ، التي تبدو كأنها مكسوة تارة بحل من الفحم والسنج^(١) والرماد ، أو بلباس من حديد تجمهر في انصهاره ، فكأن فقايع عظيمة تكسرت فكشفت عن شقوق عميقة ذات حواف معدنية حادة كشظايا الزجاج هناك على الأقل كان يبدو أن الحريق قد أطفئ ، أما على طريقهم فقد حسبوا أنه ما زال مشتعلًا : إذ كانت الكتل الصخرية ترتفع من كل جانب كأنها ، بأشكالها وألوانها ، غابة ذات جذوع ضخمة ، تنفخ جزء منها ، وما زال الجزء الباقي مشتعلًا ، وقد اعوج بعض تلك الأشجار ، متخذًا أشكالًا غاية في الغرابة حتى حسبها المؤمنون شياطين عابسة ، هربت من الجمع ، ووقفت على طريق جند الله تلهو بعذابهم .

كانت الألواح الحجرية الملساء ، والصحور الحادة البركانية السوداء ، تكسو الأرض ، إذ انكشف عنها ستار الرمال الناصعة البياض التي تعكس الأشعة عكسًا قويًا فتشعل تحت كل صخرة ، وفي جوف كل فجوة من فجوات التلال الصخرية آلاف النيران الحامية ، وحتى في أرجاء السماء اللازوردية ، تلون الصقر المحلق ، والغمام النادر المار ، بلون برتقالي زاه ، كأنه انعكاس وهيج لطيب عظيم . وكانت أعمدة الرمال الشاخمة تجول وسط كل تلك الأطلال كأنها أعمدة الدخان المتصاعدة من حريق لم يتم لإطفائه .

وأصبحت عيون المؤمنين وكأنها مشعل متقد بين الجفون بعد أن حرقتها ريح السموم ، وحمرتها انكسارات الأشعة الساقطة على التلال ، أما أرجلهم التي خرقها حصي الصحراء ، فلم تكن تستقر على الأرض الملتهبة إلا في ألم مبرح ، وأضحى الرضاب وقد اختلط بذرات الغبار الدقيقة كأنه العجين الكثيف تأبى الخنجرة ابتلاعه ؛ وتوتر الجلد وتوتر الطبل يحدث ألمًا كلما مسه شيء ويتشقق شقوقًا بليغة أما الشفاه المتورمة فلم تعد تقوى على الكلام . وقد انتاب بعض الجند الهذيان بسبب العطش ، وكان ذلك مؤذنًا بالموت ، ولكي يرجعهم إلى الحياة ، لم ير أصحابهم

(١) أثر دخان السراج في الحائط مثلاً .

بدءاً من أن ينحروا لإبلهم ، ويعصروا أكراشها ، ثم يصبوا السائل الناتج في أفواههم ، ويجعلوا أوراثنها الرطبة على صدورهم الجافة ، وكان الرسول يتألم لآلام أتباعه ، لكنه لم يتزعزع أبداً في إيمانه ، إذ اعتقد اعتقاداً راسخاً في أن الله لا يتخلى عن عباده أبداً ، وإن أحب الإكثار من امتحانهم ، فلم يكف لحظة عن الدعاء .

... . كم كان النهار طويلاً وأخيراً بدأت الشمس في الهبوط ، وقد كانت ، من قبل ، كأنها مشدودة إلى السماء بخيوط خفية . . . واحتجبت في ذلك اليوم كما احتجبت بالأمس ، فابتلعت قرصها الأحمر تلك السحابة السوداء التي كانت تنتظره وراء الأفق والتي ارتفعت على زرقة السماء ، فبسطت على المعسكر قبة سوداء مهدبة بالماء المتجمد ذى البريق النحاسي . . . ولم يطل الانتظار حتى انقضت سلسلة البرق متوالية على جوانب تلك القبة ، فثرتها قطعاً انسابت من بينها قطرات الماء الكبيرة التي أخذت تتزايد وتتزاخم حتى تحولت غيثاً هطالاً

... . كم كان لذيذاً ذلك الشعور العظيم بالسعادة الذي أحس به المؤمنون حينما نزل ذلك المطر المبارك عليهم فاخترق ثيابهم ، وكان على أجسامهم برداً وسلاماً فأسرعوا إلى الغدران الكثيرة التي كونتها مياه السماء في كل فجوة من فجوات الأرض ، حينما وقعت على تلك السفوح الجرداء ، يرتوون . واستراح المؤمنون وتزودوا بالماء فنشطوا للسفر ، واحتملوا مغتربين أتعابه ، فخرجوا في النهاية سالمين من تلك البلاد التي حل بها غضب الله ! ! .

وصول الرسول إلى تبوك وإقامته بها :

ظهر لأعين الرسول وجنده سهل واسع منبسط ، من الرمال البراقة ، يقطعه خط رفيع أزرق اللون ، ولم يطل الانتظار حتى اتضح ذلك الخط الذي أصبح الغاية المنشودة للقافلة ، فبانت منه ، منتصبة دقيقة ، فروع نخيل تبوك . فقد كانت تلك واحة تبوك . . . كيف نصف فرحة الواصل إلى واحة نخيل ، بعد أن عانى آلام العطش ؟ ! كيف نصور سروره عندما يتأمل في الماء البراق المتواج في الغدير ، بعد أن يتوضأ منه ويرتوى ؟ ! ثم كيف نصور انشراح صدره وهو يضطجع في ظل النخيل ؟ ذلك شيء فوق قدرة القلم !

. . . كان جند الرسول قد تغلبوا على أشق مرحلة من مراحل مهمتهم إذ انتصروا على العوائق الطبيعية ، فنظروا بعين الاستخفاف إلى أسلحة المشركين وإلى ما يمكن أن تقيمه في سبيلهم من عقبات . على أنه بفضل الوسائل العجيبة التي تنتشر بها الأخبار في الصحراء ، علم روم الناصرية ، وعرب الشام ، الذين اتحدوا لمحاربة المسلمين سريعاً ، بقدوم الرسول ، ونزوله بنبوك . وكانت دهشتهم لذلك شديدة . . .

لقد اعتقدوا اعتقاداً راسخاً في أن الرسول إن أقدم على تلك المجازفة فسوف تكون قفار الحجاز مأوى لعظام جنده . ومن أجل ذلك فإنهم رغم تفوقهم في العدد ، رأوا أن كل ثبات أمام هؤلاء الأربعين ألفاً من المؤمنين الذين نجحوا في مغامرتهم الهائلة ، يكون جنوناً وينتهي بالهزيمة المنكرة . وحل الخلاف في صفوف جيشهم العظيم ، ففت فيها : وولى كل فريق هارباً إلى بلاده ، دون أن يجسر على ملاقة الرسول ، فدعم تشتت الحلفاء المخزى سلطة الإسلام أكثر مما كان يدعمها أعظم الانتصارات . ولولا أن شغل محمد بوجوب إتمام رسالته في الحجاز قبل كل شيء لفتح الشام بغير عناء ، ولوصل بجنده إلى قلب فلسطين دون مشقة شاقة .

وأقام الرسول بنبوك ، فجاءه أمراء العرب خاضعين أفولجاً ، لا من البلاد المجاورة فحسب ، بل من أنأى الممالك أيضاً ، مثل سيناء وسوريا . ولم يشذ عن هذا إلا أمير دومة الجندل ، وهي بلد كبير على حدود نفود (صحراء حمراء الرمال) إذ اغتر هذا الأمير بنفسه ، فأبى الاستسلام ، فبعث إليه الرسول بخلد الجبار ، فأخضعه في أيام معدودة .

وفي الأسابيع القلائل ، التي أراح فيها محمد جيشه ، واصل اهتمامه بتنظيم شئون البلاد المفتوحة ، وتعليم المسلمين الجدد دينهم الكريم .

ولم يكدر صفو انتصاره ذلك إلا حادث واحد وهو : موت أحد صحبائه الأوفياء وكان يلقب بنذى النجادين . وأراد الرسول أن يبين للناس مقدار إجلاله لذلك المؤمن المخلص ، فساعد بيده حامل الجثة ، وأنزلهما معه في القبر ، حتى إن ابن مسعود ، وكان حاضراً ، حسد الميت على ذلك الشرف العظيم ، فصاح : « يا ليتني كنت صاحب الحفرة » .

الرجوع إلى المدينة :

وعاد الرسول بجنده إلى المدينة دون أن يحدث ما يستحق الذكر . فلم يشك الجند من العطش : إذ كان فصل الحر قد مضى ، فوصلوا إلى المدينة في أوائل شهر رمضان .

... أيها المناقون الأشرار ، أين تخفون خزيكم في مثل هذا اليوم بين الهتافات التي تستقبل الجند الأشداء ؟ ... عبثاً حاولتم أن تأتوا بالحجج ، لتقللوا من شأن مآثمكم ! إن الرسول لا يتنزل فيشرفكم بغضبه ، فما أنتم له بأهل ، وإنما يستحقه أولئك المؤمنون الثلاثة الذين تخلفوا من غير شك ولا نفاق . وبالرغم من تذللهم وندمهم ، قضى عليهم بأقصى حكم ، إذ أمر المؤمنين بمقاطعتهم ، فوجد المذنبون أنفسهم طوال خمسين يوماً معزولين تمام العزل عن المؤمنين ، الذين هجروهم كهجرهم للمصاب بالطاعون ، حتى عفا الله عنهم بعد ما رأى من إخلاصهم في طلب المغفرة :

« وعلى الثلاثة الذين خَلَّفُوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم ، وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ، ثم تاب عليهم ليتوبوا ، إن الله هو التواب الرحيم * »

كانت غزوة تبوك آخر الغزوات التي قادها الرسول بنفسه . فقد اكتفى في سبيل إخضاع ما تبقى من بلاد العرب — بيعت قواده في عدد من السرايا ، كالت جميعها بالنجاح ، وإن المقام ليضيق عن سردها :

أما الرسول ، فقد أقام بالمدينة حيث شغل بتلقى الاستسلامات الكثيرة التي أثارها انتصارات الإسلام ، وأهم هذه الاستسلامات استسلام أمراء دومة الجندل واليمن، وعمان ، وكذا أمراء الحيرة واليمامة والطائف ونجران إلخ . . . وكان فوق ذلك يصرف جهوده في تلك الحكومة الشاقة ، حكومة العرب الذين اتحدوا لأول مرة في تاريخهم ، فكونوا دولة متآخية الأفراد . فأبان الرسول في عمله هذا ، كمشروع ومصلح ، عن براعة توازى على أدنى تقدير براعته كفائد على رأس جنده .

وفي هذه الفترة ، مات عبد الله بن أبي بن سلول رئيس المنافقين الشهير وكان قد تاب وندم في آخر أيامه ، فضرع إلى محمد يطلب المغفرة ، فعفا محمد عفواً كريماً . وبالرغم من اعتراضات عمر العنيد ، تمسك الرسول بالصلاة على عدوه الغادر وبدفنه بيديه الشريفتين . ولم يبق في المدينة منافق واحد بعد ذلك الدليل الساطع على تسامح الرسول وتناسيه للخيانة .

أما كعب بن زهير ذلك الشاعر الذي صرف حياته في نظم قصائد لاذعة ، يهجو بها الرسول ، فقد أتاه وأسلم بين يديه ، وتلا عليه قصيدة يمدحه فيها ، فلما وصل إلى البيت الحادى والخمسين وهو :

إن الرسول لنور يستضاء به مهند من سيوف الله مسلول
عفا عنه محمد ، ورمى ببرده على كتفيه ، هبة منه له .

وبعد رجوع قواده المنتصرين من سرياتهم ، بعث النبي بالمبشرين إلى القبائل التي كانت حديثة عهد بالإسلام ، ليمنع أهلها من أن يضلوا الدين الصحيح بتسرب خرافاتهم القديمة إليه .

ومن أهم هؤلاء المبشرين ، معاذ بن جبل ، الذى بعث إلى اليمن . وقد اراد الرسول أن يبين للناس اهتمامه ببعثة معاذ ، فألبسه عمامة ، وساعده على ركوب بعيره ، وشيعه ماشياً ليدل إليه بتوصياته الأخيرة ، فارتبك معاذ وأراد النزول عن دابته ؛ لكن محمداً منعه ، ثم أوصاه وحثه على السير ، وودعه وهو يتألم لفراقه .

وفي شهر ذى القعدة بعث الرسول — وكان لا يزال على اهتمامه بما للحج من شأن دينى وسياسى — بأبى بكر إلى مكة لتأدية الحج على رأس ثلثة مسلم . فلم يكذبوا بكر يصل إلى ذى الحليفة حتى نزلت على الرسول سورة براءة :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ، فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا ، وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيَكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ، إِنْ شَاءَ ؛ إِنْ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * »

وكان لتلك السورة — وهى الوحيدة فى القرآن التى لا تبدأ ببسم الله الرحمن الرحيم — شأن خطير فى الحج ، إذ أغلقت باب الحرم دون من كان غير مسلم ، وما زال

ذلك الحظر الشديد إلى الآن يحمى حجاج الإسلام من تعجس الأعداء والأدعياء ومن فضول الأجانب .

وكانت تلك السورة أيضاً الضربة القاضية على الإشراك عند العرب : إذ لم يعد أحد منهم يستطيع دخول مكة إلا وقد تبرأ من أصنامهم . لذلك كله بعث الرسول بعلى في آثار قافلة الحجاج ليدركها بأقصى سرعة ، ويتلو على المؤمنين السورة الحازمة بعد نحر الهدى في وادي منى .

حجة الوداع (ذو الحجة سنة ١٠ هـ ، مارس ٦٣٢ م) :

عزم الرسول في السنة التالية على قيادة الحج إلى مكة بنفسه — فنذ هجرته إلى المدينة ، لم يكن قصد مكة إلا للعمرة ، إذ كانت مكة لا تزال مشركة ، غير أن الحج الأكبر ، وهو من فروض الإسلام الخمس ، يحتم زيارة بيت الله كما يحتم زيارة جبل عرفات (وقد سمي هكذا لأن جدينا آدم وحواء ، تعارفا عليه بعد طردهما من الجنة) .

وكانت رغبة محمد ملحة في أن يكحل عينيه للمرة الأخيرة برؤية مسقط رأسه ، إذ أحس ببقايا السم التي استوطنت شرايينه ، تنخر خفية في جسمه ، فأيقن بدنو أجله . وأعلن على الناس مشروعه ، فأثارت فكرة رؤية رسول الله ، وقضاء الحج معه ، حماس العرب في جميع أرجاء جزيرتهم ، وبلغ عدد الحجاج الذين خرجوا معه من المدينة ، أو التقوا به في الطريق ، حوالى مائة ألف حاج .

ووصل المؤمنون إلى ذى الحليفة ، فأحرم النبي ، كما سبق شرحه في فصل الخديبية ، وتبعه في ذلك المؤمنون ، فارتدوا ثوب الإحرام المكون من قطعتي قماش غير مصبوغ ، لا خياطة فيهما ، تلف إحداهما على الصدر ، وتستر الأخرى العورة ، أما الرأس والرجلان والذراعان فتبقى عارية ، وفادى الرسول مليئاً فرد المؤمنون بصوت واحد من بعده التلبية : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك .

وقد حدث في هذه الرحلة حادثان بسيطان ، لا نذكرهما إلا لأنهما يبينان ما يجب على الحاج من إخضاع ثورات الغضب والبصير في نفسه : كان يعير صفة زوجة الرسول ثقل الحمل ، بطيء السير ، يتأخر عن الركب رغم جهود

سائقه ، بينما يعير عائشة خفيف الحمل مع خفة مشيه : فلما رأى الرسول ذلك ، أتى عائشة يحاول إقناعها بإبدال الحملين ، وأمر أن يجعل حمل صفية على حمل عائشة ، وحمل عائشة على حمل صفية ، فلم ترض بذلك عائشة ، وصاحت غاضبة : « إنك تزعم أنك رسول ، فما لك لا تعدل ! ». ولم تكذب تلفظ تلك الكلمات حتى لطمها أبو بكر ، فلامه محمد فقال : « أما سمعت ما قالت ؟ » ، قال : « دعها فإن المرأة الغيرة لا تعرف أعلى الوادى من أسفله ! »

ووصل الركب إلى محل يقال له : العرج ، ففقد البعير الذى يحمل زاد الرسول وزاد أبى بكر ، فأنب هذا الأخير سائق البعير قائلاً : « بعير واحد تضله ! » واعتدته حدة شديدة ، فأخذ يضربه بالسوط .

فقال الرسول ساخراً : « انظروا إلى المحرم ما يصنع ! هون عليك يا أبا بكر ، فإن الأمر ليس إليك ولا إلينا ، وقد كان الغلام حريصاً على ألا يضل بعيره » .

وسلك الرسول فى حجه هذا ، عين الطريق الذى سلكه فى عمرته ، فدخل مكة فى وضح النهار ، وأناخ ناقته أمام باب الحرم ، المعروف بباب السلام ، وأبصر بالبيت ، فقال : « اللهم زد هذا البيت تشريقاً وتكريماً وتعظيماً ، ومهابة وبراً ، وزد من شرفه وكرمه من حجه أو اعتمره تشريقاً وتكريماً وتعظيماً وبراً » . وبعد أن توضأ ثلاثاً بدأ بالحجر الأسود فقبله ، بينما فاضت عيناه بالبكاء ، ثم قضى الطواف والسعى مثلما قضاها فى عمرته .

فى اليوم الثامن من ذى الحجة ، قام إلى وادى منى ، حيث نصبت له خيمة من صوف ، فصلى هناك صلاة العصر ، وصلاة المغرب ، ثم صلاة العشاء . وفى اليوم التالى ، اعتلى ناقته القصواء وسار إلى جبل عرفات بعد صلاة الفجر .

احتشد الناس على سفوح الجبل الصخرية ، كما احتشدوا فى السهل والشعاب المجاورة ، فخطب فيهم الرسول من فوق ناقته التى قادها بنفسه إلى قمة الجبل ، ووقف أسفل الرسول ربيعة بن أمية الذى كان يردد كلماته بصوته الجهورى أثناء فترات السكوت المتعمدة لهذا الغرض .

بدأ الرسول بحمد الله والثناء عليه والتعظيم له ثم قال :

« أيها الناس . اسمعوا قولي فإني لا أدرى لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً .

أيها الناس ، إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا ، وكحرمة شهركم هذا .

وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم ، وقد بلغت .

فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها .

وإن كل ربا موضوع ^(١) ، ولكن لكم رموس أموالكم ، لا تظلمون ولا تظلمون .

وقضى الله أنه لا ربا ، وأن ربا العباس بن عبد المطلب موضوع كله .

وأن كل دم كان في الجاهلية موضوع ، وأن أول دماءكم أضع دم ابن عمي ربيعة ابن الحارث بن عبد المطلب . . .

أما بعد أيها الناس ، فإن الشيطان قد يش من أن يعبد بأرضكم هذه أبداً ، ولكنه إن يطمع فيما سوى ذلك فقد رضى به مما تحقرون من أعمالكم ، فاحذروه على دينكم .

أيها الناس ، إن النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ، ليواطئوا عدة ما حرم الله ، فيحلوا ما حرم الله ويحرموا ما أحل الله .

وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم ، ثلاثة متوالية ، ورجب مفرد الذي بين جمادى وشعبان .

أما بعد ، أيها الناس ، فإن لكم على نساءكم حقاً . ولهن عليكم حقاً . لكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه ، وعليهن ألا يأتين بفاحشة مبينة . فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن في المضاجع ، وتضربوهن ضرباً غير مبرح . فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، واستوصوا بالنساء خيراً ، فإنهن عندكم عوان ^(٢) . لا يملكن لأنفسهن شيئاً . وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة

(١) موضوع : مهمل .

(٢) أسرى أو كالأسرى ، والواحدة عانية .

الله ، واستحلتم فروجهن بكلمات الله .

فاعقلوا أيها الناس قولي ، فإنني قد بلغت ، وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً ، أمراً بيناً : كتاب الله وسنة رسوله .

أيها الناس ، اسمعوا قولي واعقلوه . تعلمون : أن كل مسلم أخ للمسلم ، وأن المسلمين إخوة ، فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه ، فلا تظلمن أنفسكم .

اللهم هل بلغت ! »

فأجاب المائة ألف حاج بصوت واحد يفيض إخلاصاً وإيماناً صادقاً :

اللهم نعم !

فقال الرسول : اللهم فاشهد !

وفي موضع آخر من عرفات يقال له الصخرات ، ويتميز بألواح صخرية كبيرة نزل على الرسول الوحي على حين غرة . فكاد عضد ناقته يندق من ثقل الوحي الذي نفذ إلى قلب صاحبها ، فوقعت على ركبتيها .

وها هي ذى كلمات العلي القدير التي نزلت في ذلك اليوم :

« اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتي ، ورضيت لكم

الإسلام ديناً * »

... جاء ذلك الوحي ختاماً لخطبة الرسول التي أثارت عواطف المؤمنين

فأيقظ في الناس التحمس المخلص والإخلاص الحار .

بيد أن أبا بكر لم يشارك الناس في فرحهم ، بل تملكه حزن شديد ، ولم يقدر على كبت عبراته ، إذ رأى أنه ما دامت نعمة الله قد تمت ، فإنها — على مجرى السنن الإلهية — ستأخذ في النقصان ، وعرف أن رسالة محمد قد انتهت ، فخش أنه عن قريب ، يتساقى عن هذه الدنيا فيتركها ويختار الرفيق الأعلى .

... انتشرت أجنحة المساء الزرقاء على الوادي ، وعلى سفوح جبل عرفات ،

وبقي الرسول مشرفاً على جموع الحجاج من فوق ناقته العالية ، فكانت أشعة الشمس الغاربة الذهبية تضيئه وحده — وكانت عيناه اللتان أفغمتهما حرارة الإيمان يخرج منهما بريق إلهي ، ولكن وجهه الذي هزله المرض ، كان يبعث في النفس

شعوراً بأنه رؤيا رائعة ليست من عالمنا توشك أن تزول . . . ووصل إليه الظلام الصاعد فطواه في ثناياه .

عندئذ انتاب أصحاب الرسول ، بعد أن كانوا يهللون لإعلان إكمال الله دينهم ، نفس شعور الحزن الذى انتاب أبا بكر . . . وسرى القلق قليلا قليلا من قلوبهم إلى قلوب المؤمنين ، فغمر صدر المائة ألف حاج جزع شديد .

وأذن الرسول بالرحيل ، غير أنه خاف أن يقضى تراحم تلك الجموع المحتشدة إلى اختلال النظام ، فشد على زمام ناقته السريعة العدو ، ولوى عنقه حتى جعل منخرها يمس جنبها ، بينما كان هو نفسه يتدحرج على الغارب .

ولم يفتأ يردد : « اطمئنوا فى سيركم أيها الناس » .

فلما وصل الركب إلى المزدلفة ، صلى بها الرسول العشاء ثم الفجر فى اليوم التالى ، ثم ركب ناقته وبلال يقودها ، وأسامة على عجزها رافعاً ثوباً يظله به من الحر . واتجه الرسول شطر وادى منى ، ليرى بحصيات سبع كلا من الأعمدة الثلاثة القائمة هناك والمعروفة بالجمرات ، تذكرة للحصيات التى رى بها إبراهيم الشيطان الذى حاول ثلاثاً أن يقفه فى هذا المكان .

ثم أعتق محمداً ثلاثة وستين عبداً ، ونحر بيده ثلاثة وستين بعبيراً ، وأمر علياً أن يفرق لحومها وجلودها على الحجاج صدقة وشكراً لله الذى من عليه بثلاث وستين سنة عمراً ، وبعد ذلك خلق رسول الله رأسه الشريف ، حلقه معمر بن عبد ، بادئاً بالشق الأيمن منتهياً بالشق الأيسر . وأخيراً ، وبعد أن قام مرة أخرى بالطواف حول الكعبة ، وشرب للمرة الأخيرة من ماء زمزم الذى ناوله إياه السقاء عمه العباس فى إناء ، قفل راجعاً إلى المدينة .

وهكذا أديت الحجة التى عرفت بحجة الوداع ، والتى تركت فى نفوس المؤمنين أعمق الأثر ، إذ علموا أن رسالة محمد قد انتهت . وأصبح ذلك الحج قدوة للحججات التالية ، التى تجلب للحرم كل سنة منذ ثلاثة عشر قرناً ما بين مائة وخمسين ألفاً ، ومائتى ألف من الحجاج ، الوافدين من كل فج من فجج الأرض .

إن كل حج ، أيّاً كان الدين الذى ينتمى إليه ، بما فيه من الإيمان الذى

ينير كل الوجوه ، ليثير في نفس أشد الناس ارتياباً ، شعوراً بالروعة لا يوصف ولا يتخلص منه إلا بالجهد الجهد ؛ غير أنه في أكثر هاتيك الحججات قد دخلت عادات منكرة ، محت الشعور بالروعة هذه ، وحولته إلى شعور بالكراهية والاشمئزاز . لا شك في أن الحجاج في مكة شأنهم شأن الحجاج في سائر المواطن الأخرى ، عرضة لاستغلال جشع — غير أن لأهل مكة في ذلك العذر : إذ يعيشون وسط أشد الصحراوات جدياً ، وليس لهم وسيلة الارتزاق إلا هذه .

والميزة الخاصة التي يمتاز بها حج المسلمين هي عدم وجود تلك المعابد الكثيرة ذوات القباب الضيقة التي تعبس الأرواح ، وتقفها في وثبتها إلى الخالق ، فتبقيها على الأرض رهن رحمة القسيس .

ويمتاز أيضاً بانعدام جيش القديسين العرمرم ، الذي تشغل عبادته عن عبادة « الإله الخالد » الذي ينسى عادة في مثل تلك الأوقات — وأخيراً ، فالذي يمتاز به الإسلام ، انعدام القسس ، ورجال الدين على اختلاف درجاتهم ، الذين يتحاسدون ويتنافسون في اجتذاب الحجاج ، والاستيلاء على أمكنة الحج لإرضاء وتمجيد طوائفهم ، أو درجات كهنوتهم .

وفي مكة تقام الصلاة بالفضاء الرباعي الفسيح : المحيط بالكعبة ، وتحل فيه قبة السماء الأثرية محل قبة المعابد الحجرية ، فتظهر : متطهرة من كل غيورها ، مفصحة عن وجهها الأزرق المهيّب ، للأرواح الملتاعة المشوقة إلى المثل العليا . في مكة لا يعبد إلا الله الواحد الصمد ، فإن كان الحجاج يحاولون بعث ذكريات إبراهيم ومحمد ، فإنما يكون ذلك ليقوا شعلة إيمانهم ، متبعين سنة نبيهم ، ولا يصلي المؤمنون أبداً لأولئك الأنبياء كما يصلي المسيحيون لقديسيهم ، بل إنهم ايدعون لهم برحمة الله .

وتفتح أبواب الكعبة ليل نهار ، فيسارع الحاج إليها يغشى مكة ، فإذا ظهرت له الكعبة المكسوة بستر أسود ، والتي كان لا يفتأ يذكرها عند اجتياز أهوال الطريق بين الرمال الثائرة ، أو الأمواج المتلاطمة أيقظتها العاصفة . . . عندئذ يشتد انفعاله ، وتثور عواطفه ، حتى يود لو خرجت روحه من إهابها في تلك الدقائق من الوجد الروحاني . . . ولا يقترب الحاج من الحجر الأسود ليقبله إلا وعيناه

تذرفان الدموع ، وصدره يختلج ندمًا ، ووجهه يضطرب حياءً ، ونفسه تضرع إلى الله : « اللهم اغفر لى ذنوبى ، واشرح لى صدرى ، وطهر لى قلبى يا أرحم الراحمين ! » .

... وعندما ينادى المؤذنون بالصلاة ، يسرع المؤمنون إلى الفضاء الرباعى الفسيح ، فيملأونه وكأنهم البحر تتضارب أمواجه ، فلا تترك فيما بينها متسعًا إلا ما يكفى للسجود ، ويكبر الإمام ، فيردد المؤمنون تكبيره فى زفرة تخرج من كافة الصدور فى آن واحد ، وتغترى الجموع المحتشدة حركة تموجية ، فيحنون رؤوسهم مثل المياه المناسبة على الشاطئ .

ثم يكبر الإمام تكبيرة ثانية ، فيخر المؤمنون ساجدين ، وكأن الأرض قد مادت تحت أرجلهم ، جباههم بالأرض ، حيث تصبح الأجسام ، وكأنها سحقّت تحت ثقل الخشوع والشكر والعبادة ، كالأشعة تتجه نحو مركز واحد ، هو الحرم الذى يبدو كأنه ارتفع بمقدار انخفاض سجدة الحجاج ، والكساء الحريرى الأسود يخفق بأنفاس ربيع خفية ، يعتقد بعض الناس أنها رفرفة أجنحة الملائكة . . .

وليس احتشاد الناس على عرفات بأقل روعة من ذلك .

فجبل عرفات المخروطى الشكل ، ذو الجوانب الخالية من كل نبت ، والذى تبرز فيها الصخور الهائلة ، يرتفع وسط واد مقفر ، ليس على سفوحه ولا فى جواره أى أثر للحياة ، بل فى كل مكان صورة الخراب ، وسكون الموت . غير أنه فى كل سنة فى التاسع من شهر ذى الحجة ، يبدو هذا المكان الكثيب فى منظر رائع ، يبعث فى النفس صورة يوم البعث .

فالأرض والرمال والصخور ، تختفى كلها تحت ثوب من الأدميين المرتدين لباس الإحرام الأبيض ، حتى يحسبهم الناظر أمواتًا بعثوا ، فبدأوا فى خلع أكفانهم بعد أن دفعوا الصخور التى كانت غطاء أضرحتهم .

موقف من مواقف الحشر حقًا ، إن جميع أجناس الإنس على تباينها تحتشد فى ذلك المكان الذى اعتاد الإقفار ، فهناك العرب ذوو العيون النفاذة البصر ، والبشرة النحاسية الحمراء ، والعثمانيون ذوو الوجوه الصارمة الحازمة ، والهنود كالتماثيل المنحوتة ذات البشرة الزيتونية ، والبربر ذوو البشرة الوردية والشعر الأشقر ،

ثم هناك الصوماليون ، والسودانيون ذوو البشرة السوداء التي تلمع في ضوء الشمس ، فتعكس أشعة قمرية . وهناك الفرس المترفون ، والشراكسة ذوو الجرأة والإقدام ، والصينيون ذوو العيون المشدودة ، وأهل جاوة ذوو الوجنت البارزة ، إلى آخر ما هنالك ؛ فلن ترى في العالم جمعاً اجتمع ، فعرض في آن واحد كل تلك الوجوه الآدمية المختلفة الشبه ، وكل تلك اللهجات واللغات المتباينة .

وبعد صلاة العصر ، يقوم الخطيب على ناقته المزينة بأحسن زينة . ويعتلى جبل عرفات ، فيلقى على الناس خطبة كثيراً ما تقطعها التلبيات : « لبيك اللهم لبيك » .

وعندما يهتفون بالتلبية ، يحرك الحجاج أطراف ثيابهم البيضاء فوق رؤوسهم ، فيبدو الجبل وكأنه يضطرب باضطراب الآلاف المؤلفة من الأجنحة الموشكة على الطيران ، بينما تسمو إلى السماء وتردد صداها في الصحراء صيحة قوية ترتفع من جنبات الوادي ، صيحة يرددها مائتا ألف حاج قد وضعوا جانباً لغاتهم الخاصة ، لينحدوا في لغة واحدة ، لغة العرب ، لغة الله التي اتخذها لينزل بها على نبيه الكتاب :

« لبيك اللهم لبيك » .

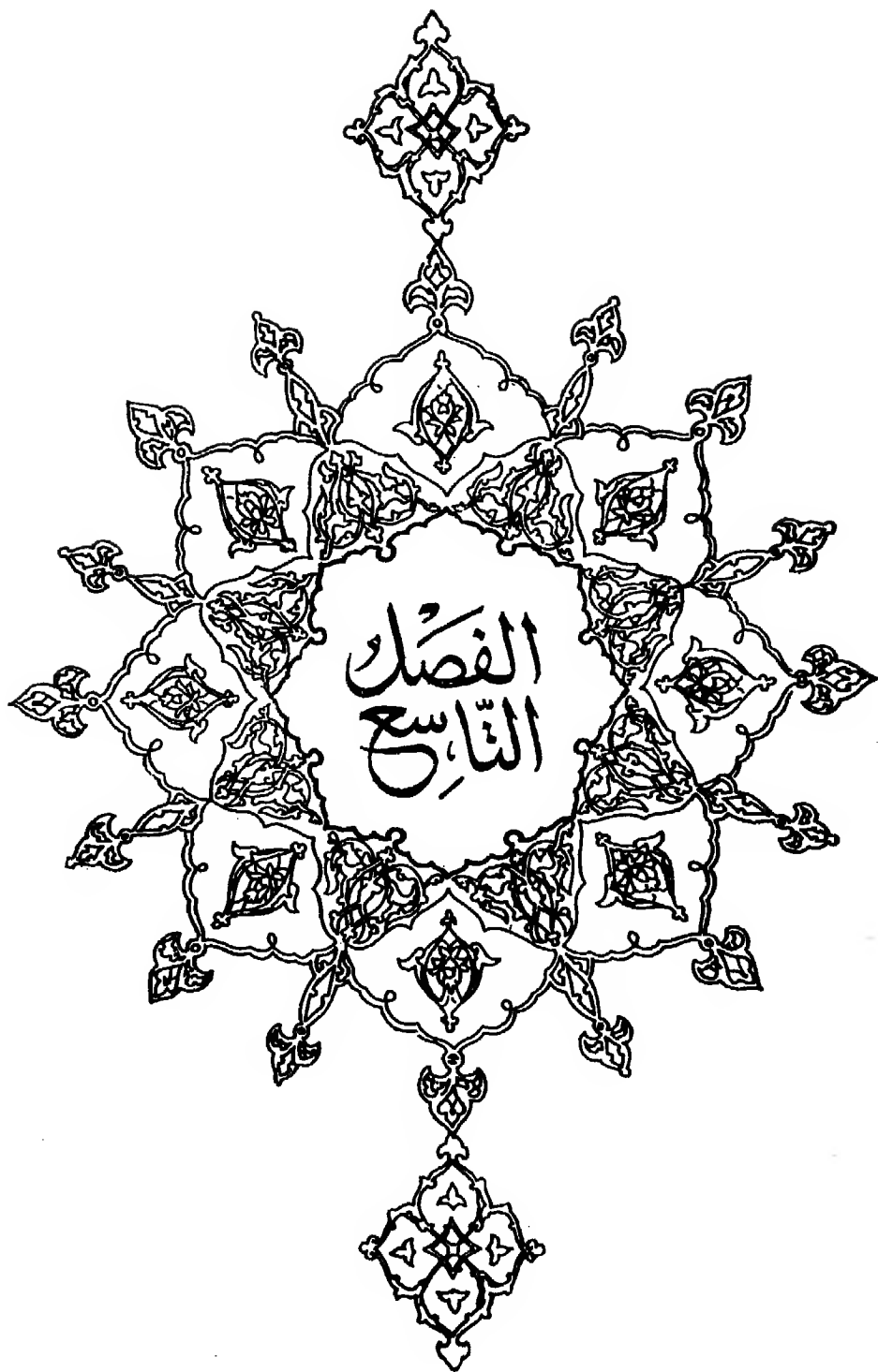
لقد تأخى هؤلاء جميعاً في تلك الساعة العظيمة ، تأخوا لغة وقلباً ، ونسوا فروق الأجناس ، والدرجات والطبقات ، نسوا أحقادهم : مذهبية كانت أم سياسية . . . في عرفات يرجع الإسلام إلى اتحاده الشامل ، وحماسه القوية كما كان في أيامه الأولى .

ألا ما أجمله من دواء لجروح أبناء الإسلام . . . قال الرسول : « مثل المؤمنين في توادهم وتعارفهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » .

وفي عرفات لا يخشى الإسلام شيئاً من فضول أعدائه ، فيستطيع لم شعثه وإصلاح حاله وتدبير مستقبله . وبالرغم مما عاناه الإسلام ، فهو اليوم أقوى

وأشد حيوية مما كان . هذا هو الشعور الذى يرجع به الحاج إلى بلاده ، بعد أن يرى ذلك اليوم العظيم ، فضلا عن لقب « حاج » الذى يغطه عليه الكثيرون .

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّكَ هَيَّتْ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ

مرض النبي وموته (ربيع الأول سنة ١١ هـ ، يونية سنة ٦٣٢ م) :

قال أبو موييبة مولى رسول الله : « بعث إلى رسول الله من جوف ليلة من آخر ليالى صفر ، فقال : ” يا أبا موييبة ، إني قد أمرت أن أستغفر لأهل هذا البقيع ، فانطلق معي “ . فانطلقت معه فلما وقف بين أظهرهم قال : ” السلام عليكم يا أهل المقابر ، ليهن لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه ، لو تعلمون ما نجاكم الله منه ؟ ! أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم ، يتبع آخرها أولها ، الأخيرة شر من الأولى “ .

ولم يكد ينتهى حتى أخذته رعدة المحموم ، وابتدأته أوجاع الصداع ، فرجع متثاقلا إلى أهله . »

وقالت عائشة : « لما رجع رسول الله من البقيع ، وجدني وأنا أجعد صداعاً في رأسي ، وأنا أقول : ” واراأساه “ ، فقال : ” بل أنا واراأساه “ ، ثم قال : ” وما يضرك لو مت فقممت عليك وكفنتك وصليت عليك ودفنتك ؟ ! “ . فقلت : ” والله لكأنى بك لو قد فعلت ذلك لقد رجعت إلى بيتي فمأعزست فيه ببعض نسائك ! “ فتبسم رسول الله ونسى للحظة ما به من ألم . »

ولم يلبث المرض أن ازداد ، فلم يترك له راحة ، غير أن الرسول تغلب على آلامه ولم يكف عن تدبير شئون الإسلام ، ومستقبله ، إذ أحس أن الإسلام سيفقد قائده في القريب العاجل . ورأى محمد أن من شأن الشام أن يكون بمثابة أحد الأبواب الذى ينطلق منه جند الله لفتح العالم ، فلم يصرف نظره عنه أبداً ، وعزم على تجهيز حملة ثلاثة لقتال روم الناصرية ، الذين يسيطرون على الشام . وكان

الإسلام إذ ذاك غنيًا بالأبطال والقواد الحربيين ، فظهر بينهم في الحال التنافس جليًا في سبيل نيل قيادة تلك الحملة ، وانتظر أشهرهم ، سواء كانوا من الأنصار أو المهاجرين ، في قلق ، اليوم الذي يختار فيه الرسول من بينهم . فاختار الرسول على دهشة من الجميع ، شابًا صغيراً لا تتجاوز سنه العشرين يدعى أسامة . لكن ذلك الشاب الصغير ، كان ابن زيد بن حارثة شهيد مؤتة ، وكان الرسول لا يعتمد على براعته وتجاربه ، بل على ما كان أسامة يبديه من حماسة وحمية ، في سبيل الأخذ بالثأر من أعداء أبيه في نفس المكان الذي مات فيه ميتته العظيمة .

وأخلف هذا الاختيار ظن القوم الذين كانوا يطمعون في قيادة الحملة ، ودار بينهم القيل والقال ، وترددوا في مبايعة أسامة تلك المبايعة المطلقة التي هي مفتاح الفوز ، إذ رأوا فيه صغر سن وقلة تجارب . وبلغ الرسول الأمر ، فقام إليهم وقطع دابر ترددهم بقوله :

« أيها الناس ، أنفذوا بعث أسامة . فلعمري لئن قُلتُم في إمارته لقد قُلتُم في إماره أبيه من قبله ، وإنه لخليق للإمارة ، وإن كان أبوه لخليقًا بها » .

جاءت تلك الكلمات الصريحة الواضحة التي ألقاها الرسول بصوت الإيمان الملهم بمثابة دواء للتردد والتحاسد ، فما كان من أعظم القواد وأشدهم — مثلهم في ذلك مثل أحقر الجنود وأصغرهم — إلا أن انتظموا تحت لواء القائد الفقي . وتوارى الجند في ثنية الوداع ، فجاشت نفس الرسول بالعواطف : لقد رأى في ساعة الرحيل ، من إيمان جنده العظيم ، ما حمّله على الاعتقاد أن سوف لا يعوقهم في طريق النصر عائق ، وأن سيل الإسلام الجارف سوف يفيض على العالم فيضان النهر المبارك ، فيلتي فيه البذور المثمرة لحضارته الفتية الناشئة . غير أن أسامة لم يلبث أن توقف سيره ورجع على أعقابهِ إلى المدينة إذ أتته الأخبار المؤلمة عن صحة الرسول .

وفي تلك الأيام ، تلقى الرسول رسالة من مسيلمة أمير اليمامة ، يدعى فيها الرسالة والنبوة ، ويعرض على محمد أن يشاركه في الأمر مناصفة .

وكان صاحب هذه الرسالة حديث عهد بالإسلام ، فلما رأى ما يتمتع به

النبي من سلطة وشهرة ، أراد في غروره العظيم ، أن يقلده بدوره .

فقال الرسول للذين يحملون رسالة مسيلمة : إنه لولا أن السفراء لا يقتلون لقطع رموسهم . . . ثم سلم لهم رسالة باسم محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب يرد فيها عليه بأن الأرض لله ، يورثها من يشاء من عباده وأن العاقبة للمتقين .

ولم يطل الانتظار بمسيلمة ، والأسود ، وهو كذاب آخر ، حتى نالا جزاءهما الصارم ، فرأيا خطر ادعاء النبوة لمن لم بيعثهم الله بها . غير أن مرض الرسول كان يشتد عليه يوماً فيوماً ، فيضعفه ، حتى لم يعد يقدر على التنقل إلا بجهود أليم - وكانت عادة الرسول أن يقسم لياليه بين بيوت زوجاته ، فلما كان بيت ميمونة ، أحس بالآلام تعاوده ، وبمرضه يشتد عليه ، فدعا بزوجاته ، واستأذنه في أن يمرض ببيت عائشة ، فأذن له . قالت عائشة : « فخرج رسول الله من بيت ميمونة بين الفضل وعلى ، عاصباً رأسه ، تخط قدماه ، حتى دخل بيتي » ، ثم غمر رسول الله واشتد عليه وجعه ، فقال : « هريقوا على من سبع قرب ، لم تحل أوكيتهن ، لعلى أعهد إلى الناس » . فأجلسناه ، ثم طفقنا نصب عليه من تلك القرب ، حتى طفق يقول : « حسبكم » . . . وقد شعر الرسول بالنشاط والقوة يدبان فيه ، بعد الاستحمام ، فخرج من باب عائشة المطل على المسجد ، يستند الفضل وعلى ابنا عمه ، فصعد على المنبر ، وألقى على المؤمنين خطبته المشهورة التي يطلب فيها من كل من آذاه محمد أو أضر به أن يقول ما في نفسه فيعوضه محمد خيراً . ثم هبط من المنبر ليصلي بالناس صلاة الظهر ، ثم صعد إليه ثانية فأعاد ما قال . فقام رجل يطلب رد دين له ثلاثة دراهم على النبي ، فأعطاه محمد له وهو يشكر ربه أن أتاح له فرصة التخلص من عار الدين في الدنيا قبل أن يلقاه في الآخرة .

ثم ذكر شهداء أحد فأكثر من ذكرهم ، واستغفر لهم ، واختتم خطبته قائلا : « إن عبداً من عباد الله ، خيره الله بين الدنيا وبين ما عنده ، فاختار ذلك العبد ما عند الله » . ففهمها أبو بكر وعلم أن الرسول يتكلم عن نفسه ، ويشير إلى صحته فبكى وصاح : « نفديك بأنفسنا وأبنائنا ! » . فأجاب محمد : « أيها الناس بلغني أنكم تخافون من موت نبيكم ، هل خلد نبي قبلي فيمن بعث إليهم ، فأخلد فيكم ؟

ألا إني لاحق برى ، وإنكم لاحقون به .

دخل الرسول بيت عائشة بعد ذلك الجهد المضنى ، فأغمى عليه ، فلما نادى المؤذن للصلاة ، اعتدل وطلب ماء ليتوضأ ، وليقوم إلى الصلاة ، فيؤم القوم . ولكن إغماءه عاوده ثلاث مرات فلم يستطع قياماً - وأخبر أن المؤمنين ينتظرونه في المسجد ، فبعث ببلال إلى أبي بكر ليؤم القوم مكانه ، فلما علم الناس بالخبر بكوا بكاء شديداً .

كانت الحمى كثيراً ما تعتري الرسول ، فلما كان يوم الخميس والصحابة حول مرقده ، قال لهم : « ائتوني بدواة وصحيفة ، أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده أبداً » . فقال عمر : « إن الرسول قد غلبه الوجع وعندكم القرآن ، حسبنا كتاب الله . . . »

وكان من بين الحضور فريق لم يتعودوا مراجعة الرسول ، فأرادوا تلبية طلبه إذ علموا أنه أمي ، فاعتقدوا أن ستحصل معجزة في تلك الساعة الأخيرة . غير أن أشياخ عمر عارضوهم ، فاختلفوا واختصموا ، ولغظوا ، فتاب الرسول إلى رشده ، وقال لهم معاتباً : « قوموا عني ، لا يختصم الناس في حضرة النبي » . وقد اشتد به الأمر ، وكان عنده قلدح فيه ماء ، فصار يدخل يده في القلدح ، ثم يمسح وجهه الشريف بالماء ويقول : « اللهم أعني على سكرات الموت » .

قالت عائشة : « ثم دعا فاطمة ابنته ، فسارها بشيء فيكت ، ثم دعاها فسارها فضحككت ، فسألته عن ذلك فقالت : « أخبرني رسول الله أنه سيقبض في وجهه هذا ، فيكيت ، ثم أخبرني أني أول أهله لحاقاً به فضحككت » .

فلما كان يوم الاثنين في اليوم الثاني عشر من شهر ربيع الأول ، بينما أبو بكر يصلي بالناس ، انفتح باب عائشة المطل على المسجد ، وخرج منه الرسول بين علي والفضل ، معصوب الرأس تخط قدماه الأرض ، فبدر من الناس عند رؤيته هزة أمل ، وفهم أبو بكر أن تلك الحركة أثناء الصلاة لا تحصل إلا لحجى الرسول ، فتراجع ليخلى مكان الإمام ، فأمسك الرسول بثوبه ، ودفعه إلى مكانه الأول قائلاً : « صل بالناس » ، ثم جلس إلى يمين أبي بكر أسفل المنبر ، وأضاء وجهه فرحاً

وجوراً ، إذ رأى تقوى الناس وخشوعهم . فلما انتهى المؤمنون من الصلاة ، قام فيهم الرسول لآخر مرة خطيباً فقال :

« أيها الناس ؛ سعرت النار وأقبلت الفتن كقطع الليل المظلم ؛ وإني ، والله ما تَمَسَّكُونَ على شيء ؛ إني والله لم أحل إلا ما أحل القرآن ، ولم أحرم إلا ما حرم القرآن » .

قال ذلك في صوت لم يوهنه المرض ، بل كان من قوته أن سمعه الناس خارج المسجد ، ثم اعتمد الرسول على جذع من جذوع المسجد ، وصار يحدث أصحابه حديثاً مألوفاً ، ورجع بعد ذلك إلى حجراته ، حيث عاوده ألمه عقب ذلك الجهد الأخير ، فكان عليه أشد من ذي قبل ؛ فسجى على وجهه ثوباً أسود ، ولكنه لم يقلد خلاله على التنفس فرى به .

قالت عائشة : « دخل على عبد الرحمن بن أبي بكر ومعه قضيب من الأراك الأخضر يستن به ، فنظر إليه الرسول ، فعرفت أنه يريد به ، فتناولته فقضمته ، ثم مضغته ، فاستن به كأشد ما رأيته يستن بسواك ، ثم وضعه ، ووجدت رسول الله يثقل في حجرى ، فذهبت أنظر في وجهه فإذا بصره قد شخص وهو يقول : « بل الرفيق الأعلى من الجنة ! » ، فقلت : « خيرت فاخترت والذي بعثك بالحق ! » ثم وضعت رأسه على وسادة وقمت ألتئم^(١) مع النساء وأضرب وجهى » .

فلما سمع المؤمنون الصراخ ، هرعوا إلى المسجد وقد نال منهم القلق كل مثال ، كالقطيع التائه في ليلة مظلمة من ليالى الشتاء . ولم يصلقوا موت الرسول ، إذ أن موت الرسول ، دليلهم ومرشدهم الأعظم في كل أمر وخطب ، بدا لهم ضرباً من المستحيل : كيف يموت من كانوا يعتمدون عليه ليكون شهيداً لهم يوم الحساب ؟ إنه في ظنهم لم يموت ، بل صعد إلى السماء كما صعد عيسى من قبله . وصاحوا خلال الباب لمن في البيت محذرين من دفنه وشجعهم عمر بقوله : إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله قد مات . وإن رسول الله ، والله ، ما مات ، ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران ، فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ، ثم رجع إليهم بعد أن قيل : قد مات . والله ليرجعن رسول الله كما رجع موسى ، فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم زعموا أن رسول الله قد مات ! » .

(١) ألتئم : أضرب وجهى بيدي .

وفي هذه الأثناء أقبل أبو بكر على جواده مسرعاً ، وكان في السنج فبعث إليه بمن يناديه ، فنزل على باب المسجد ، فلم يلتفت إلى شيء ، بل شق الجموع المحتشدة ، ودخل المسجد ، فحجرة ابنته عائشة ليرى رسول الله ، وكان مسجى في ناحية من البيت ، عليه برد حبيرة ، فأقبل حتى كشف عن وجهه ، ثم أقبل عليه فقبله وقد ناء تحت حمل آلام عظيمة . . . ثم بكى قائلاً : « بأبي أنت وأمي ؛ أما المودة التي كتب الله عليك ، فقد ذقتها ، ولن تصيبك بعدها مودة أبداً . . . » ثم رد البرد على وجهه وابتعد عن ذلك المنظر الأليم ، وخرج وعمر يكلم الناس فقال له : « على رسلك يا عمر ، أنصت ! فأبى عمر إلا أن يتكلم ، فلما رأى الناس أبا بكر أقبلوا عليه ، وتركوا عمر ، فخطب فيهم أبو بكر فقال : « أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله ، فإن الله حي لا يموت » ، ثم تلى عليهم :

« وما مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ، أَفَلَنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ؟ ۚ » وتلا عليهم أيضاً : « إِنَّكَ مَيِّتٌ وَلَهُمْ مَيِّتُونَ » . قال عمر : « فوالله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها ، فبهت حتى وقعت على الأرض ما تحملى قدماي ، وعرفت أن رسول الله قد مات ! » .

مبايعة أبو بكر :

كان على المؤمنين قبل التفكير في دفن الرسول أن يفكروا في صد الخطر المحدق بالإسلام الذي فقد زعيمه الملهم ، فغمرتهم الحيرة : لقد مات ذلك الذي ضم تحت لواء التآخي في الدين أسراً وقبائل فرقت بينها قرون من العداء ، فما عسى أن يكون مصير هذا التآخي ؟ لم يكن هناك لمقاومة تشتت الشمل إلا حل واحد ألا وهو تعيين خليفة ، أي قائد من قواد النبي يخلفه ، فيراصل مهمته .

لكن ذلك كان من شأنه أن يثير الغيرة بين القبائل ، والتنافس بين المهاجرين والأنصار ، وقد أعلن كل من الفريقين حقه في تولي الخلافة . وكان القتال الدموي أقرب من جبل الوريد ، فلم يتجنبه المسلمون إلا بفضل حزم عمر ونشاطه ، إذ أسكت الناس وأبان لهم أن محمداً في أواخر أيامه كان يعين أبا بكر ،

رفيقه في الهجرة ، ليصلى بالناس بدله ، ولو كان عين أحداً للخلافة لما عين إلا أبا بكر ، فغلب ذلك الرأي آراءهم .

وفي اليوم التالي نسي المؤمنون ضغائنهم ، وأتوا أبا بكر مبايعين .

تشجيع الرسول إلى مقره الأخير :

فلما حلت تلك المشكلة الخطيرة ، تفرغ المؤمنون إلى رسولهم وآلامهم المبرحة لموته . وكانت السنن تحتم عليهم أن يجردوا النبي من ثيابه لغسله ، ولكن احترامهم الشديد لشخصية النبي كان يوعز إليهم بأن كشف عورته أمر يتنافى والإسلام ، فكثرت الكلام والمراجعة بينهم ، حتى أثقل جفونهم نوم لا يقهر ، ولم يبق رجل إلا وذقنه في صدره . وفجأة أيقظهم صوت من ناحية حجرة المتوفى ، لا يدرون ما هو ، فحل المشكلة التي كانوا بها منشغلين إذ قال : « اغسلوا النبي وعليه ثيابه » . وكان ذلك هو الحل الذي عنه يبحثون فنفذوه في الحال . ونصب العباس في الغرفة خيمة من النسيج البمنى ، كى يمنع الناس من رؤية جثة الرسول الكريم ، ثم دخل عليه على وأسامة وعباس وابناه وشقران مولى الرسول ، وغسلوه بسبعة قرب ، من ماء يثر بقباء ، وكان محمد يفضل ماءها على كل ماء ، فكان العباس وابناه الفضل وقم يقلبان جسم الرسول الكريم وكان أسامة بن زيد وشقران هما اللذان يصبان الماء ، بينما على قد أسنده إلى صدره يملكه من فوق قميصه . وغسل الرسول ثلاث غسلات ، واحدة بالماء القراح ، واحدة بالماء والسدر ، واحدة بالماء والكافور ، ثم طيبه على والعباس في مواضع سجوده ، أى الجبهة والأنف واليدنين والركبتين والقدمين وعلى يقول : « بأبى وأمى ، ما أطيبك حياً وميتاً » ، والكل في عجب من عدم وجود أية علامة من علامات التحلل الكريه الذى يتبع الموت على جثة الرسول ، سوى زرقعة خفيفة أظافره .

وبدلاً من أن يكفن النبي لف في ثيابه التي كان يرتديها ساعة الموت ، أى في قميصه الذى عصر بعد الغسل وفي ثوب له مزدوج من نسيج تجران . وعندئذ سمح على والعباس للملأ بالدخول بعد أن وضعوا محمداً على فراشه . وامتلاأت الغرفة بالمؤمنين الذين حيوا الرسول بقولهم : « السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته » .

ثم اصطفوا للصلاة صفوفاً لا يؤمهم أحد ، إذ أن الإمام كان أمامهم ، رغم دهاب روحه إلى جوار ربه العلى القدير .

وكان أبو بكر وعمر في الصف الأول من المصلين ، فختما الصلاة بقولهما :

« اللهم إنا نشهد أنه قد بلغ ما أنزل إليه ، ونصح لأمته ، وجاهد في سبيل الله حتى أعز الله دينه ، وتمت كلمته ، فاجعلنا إلهنا ممن اتبع القول الذي أنزل معه ، واجمع بينا وبينه . . . آمين » وردد الناس ، من ورائهما في خشوع وتأثر : آمين آمين .

وما إن انتهى تجهيز الرسول حتى ظهرت مشكلة جديدة خاصة بدفنه ، إذ اختلف الناس على المكان الذي يدفن به ، فقال بعضهم بدفنه في المسجد ، وقال آخرون بدفنه في البقيع بين قبور أهله ، وقال البعض الآخر بدفنه في مكة مسقط رأسه ، فأنهى أبو بكر هذا الاختلاف بقوله : « إني سمعت رسول الله يقول : « الأنبياء يدفنون حيث يقبضون » . فرفع الفراش لحفر القبر في نفس المكان الذي كان به الرسول . وقول الحفر طلحة حفر المدينة ، فعمد إلى جوانب الحفرة ، وقواها بتسعة قوالب من اللبن ، ثم فرش قاعها بثوب أحمر ، كان الرسول يغطى به ناقته في أسفاره ، فلم يكن لأحد أن يستعمله من بعده . وأخيراً ، رفع على وشقران والفضل وقم ، الجنة ، وأنزلوها في مقرها الأخير . . .

ويدعى المغيرة بن شعبه أنه أحدث الناس عهداً برسول الله إذ يقول : « أخذت خاتمي فألقيته في القبر ، وقلت إن خاتمي سقط مني ، وإنما طرحته لأمس رسول الله فأكون أحدث الناس عهداً به » .

وانتهى المؤمنون من دفن نبيهم في منتصف الليلة الفاصلة بين يومى الثلاثاء والأربعاء . فلما نادى بلال في فجر اليوم التالى بالمؤمنين إلى الصلاة ، وأراد أن يقول : « لا إله إلا الله محمد رسول الله ! » ، اختنق صوته بالعبرات ، فلم يقدر على لفظ اسم محمد ، وجاوبته المدينة بأسرها كأنها الصدى ، بأنة أسي طويلة ، ارتفعت إلى السماء من نوافذ الديار . . .

ولأنه منذ اليوم الثاني عشر من ربيع الأول ، للعام الحادى عشر الهجرى ،
 ٨ يوليو سنة ٦٣٢ م ، يرقد فى هذا المكان الذى فاضت به روحه الشريفة ،
 جثمان ذلك الإنسان السامى ، الذى كان على الأقل ، لا ينزل قدره عن قدر
 أعظم الأنبياء والملوك ، والقواد والمتكلمين والفقهاء والخطباء والفلاسفة ؛ والذى
 أصبح دينه الآخذ فى الانتشار باطراد ، يضم اليوم ثلثمائة مليون من الأتباع
 وغرضاً عن قبره المتواضع ، يقوم له الآن مسجد رائع فخم يضم حجرته التى
 توفى بها .

إن زيارة قبر الرسول ليست من فروض الإسلام ، ومع ذلك فقليل من
 الحجاج الذين وصلوا إلى مكة متحملين المشقة والأخطار الخطيرة فى سفرهم ،
 من يترددون فى تحمل المشقات طيلة اثنى عشر يوماً ، كلها تعب وعناء ،
 تفصل مكة عن المدينة ، حتى يصلوا إلى صاحب القبر العظيم ، يحملون إليه
 تحياتهم الحارة النقية .

والعلماء الغربيون أنفسهم قد بدءوا يتحررون من ضلالاتهم العتيقة وراحوا
 ينصفون مؤسس الإسلام ؛ ومن ذلك ما يقوله جوستاف لوبون : « إذا كانت قيمة
 الرجال تقدر بعظمة أعمالهم فإنه يكون من المستطاع أن نقول : إن محمداً كان من
 أعظم الشخصيات التى عرفها التاريخ . . . »

”وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ،
 أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ؟!“

مَوْلَايَ صَلِّ وَسَلِّمْ دَائِمًا أَبَدًا عَلَى حَبِيبِكَ خَيْرِ الْخَلْقِ كُلِّهِمْ

صورة وصفية للرسول

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسطًا بين الطول والقصر « ليس بالطويل البائن ولا بالقصير المتطامن » ، قوى الجسم ، ضخم الرأس ، أبيض مشربًا بحمرة ، سهل الخلد ، « ذا وفرة إلى شحمة أذنيه » ، « ليس بالجعد القطط ولا السبط » ، إذا غضب رُئِيَ في جبهته عرق ينتفخ ، أزج الحاجبين ، عظيم العينين ، أدعج ، أهدب ، كبير الفم كما ينبغي للخطيب المفوه ، أسنانه كالبرد ، ولس يديه الكبيرتين ذاتي الأصابع الطويلة كلمس الحرير الرقيق ، بين كتفيه خاتم النبوة (الذي اكتشفه الراهب بحيرا) ، بيضاوى الشكل ، أحمر اللون ، تحيط به شعرات ، يمشى في تودة وقورة جليلة ، حاضر البديهة دائمًا ، إذا التفت التفت جميعًا ، لا كالحمقى الذين يدورون برقابهم ويهزون رؤوسهم فوق أكتافهم ، إذا أشار إلى شيء أشار إليه بجميع يده لا بإصبع أو إصبعين ، إذا عجب لشيء حمد الله وأدار كف يده إلى السماء ، وهز رأسه وعض على شفتيه ، إذا أراد تأكيد شيء قاله ضرب بإبهام يده اليمنى على يده اليسرى المبسوطة ، فإذا غضب احمر وجهه ومر بيده على لحيته ووجهه وتنفس الصعداء طويلا ، ثم يقول : « توكلت على الله خير وكيل » .

وكانت المعاني تندفق غزيرة من ألفاظه المحكمة الموجزة ، التي تعبر عن مراده خير تعبير . أما سحر بيانه فكان شيئًا إلهيًا ، يغزو القلب ويأسر اللب ولا يقوى أحد على مقاومته . وكان الرسول لا يفرق أبدًا في الضحك ، فإذا ما اشتد به المرح حجب وجهه بيده .

وكان هادئ الخلق حلیم الطبع ، لا تكبر فيه ولا خشونة ، لا يدعو أحد إلا أجابه في الحال . يحب الأطفال ويلاعبهم ويضمهم إلى صدره الكريم . وقد رُئِيَ

مراراً يصفّ أولاد عمه العباس ليتسابقوا ويعد الفائز منهم بجائزة ، فيتنافسون في اللحاق بأحضانه والجلوس في حجره .

وكان يرعى شئون الجميع ، سواء في ذلك الأشراف والعبيد ، بعطفه ، وقد روى : أن الناس أغفلوا ، مرة ، إخباره بموت خادم فقيرة تعمل في المسجد ، فغضب لذلك غضباً شديداً ، وسأل عن المكان الذي دفنت فيه حتى وجده ، فجلس يصلى على الميت .

وكان إذا رفع سائل شفّته إلى أذنه ليكلّمه سرّاً ، يميل برأسه إليه حتى ينتهي من حديثه ، وإذا صافح زائراً لا يسحب يده من يده حتى يردها الرجل إليه ، ومن كلامه صلى الله عليه وسلم : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » .

ولم يرفع يده أبداً على امرأة أو على عبد . روى أنس ، الذي خدم الرسول عشر سنين ، أن سيده لم يلمه أبداً على شئ ولم يراجعه في أمر . وروى أبو ذر : أنه سمع الرسول يوصي بالخدم والعبيد ويدعو إلى معاملتهم كماخوة في الدين وعدم الإجحاف بهم في المأكل والملبس .

وروى أعرابي ممن كانوا يحنين أنه كان يلبس نعلين غليظين ، فداَس عفوّاً في هرج المعركة ، على قدم الرسول فضربه بسوطه من الألم . فبات الأعرابي ليلته مهموماً لما بدر منه من إيذاء الرسول . ولما كان الصباح أرسل محمد في استدعائه فأتاه خائفاً حائراً . ولكن النبي طمأنه ووهب له ثمانين نعجة فدية لغضبه وضربه إنساناً ، ومنذ ذلك اليوم ، وحلم الرسول يسبق دائماً ثورته .

وكانت طبيعته محبة وحناناً ، إذ تألم صغيراً من افتقاره إلى عطف الأم ، وشغل كبيراً بمسائل التربية ، وعلاقة الأبناء بالأمهات ، وكان يؤكد دائماً أن الجنة تحت أقدام الأمهات ؛ وكان إذا سمع بكاء طفل ، وهو في صلاة الجماعة ، أسرع في صلاته من أجل أن يسمح للأم بإسكات طفلها ، فقد كان يعلم مقدار تألم الأمهات لبكاء أطفالهن .

ولم تكن فطنته العجيبة ، ومعرفته بخفايا النفوس وجواهر الأشياء ، لتمنعها

من مشاورة أصحابه في كل الشئون ، ويذكر عن عائشة في هذا الشأن أنها لم تر إنساناً قط يحب المشاورة كما يحبها محمد .

وكانت أخلاق الكرم تحول بين الرسول والسخرية المبتدلة أو القاسية ولكنه كان مرحاً يحب المداعبات التي لا يجرمها الله والتي فيها شيء كبير من الحق إن لم تكن الحق بعينه . قال يوماً لعمته صفية على سبيل المزاح : لا يدخل الجنة عجزوز . فبكت السيدة الكريمة ، وكانت قد بلغت من العمر سنّاً كبيرة . عندئذ أضاف الرسول إلى حديثه : إنهن إنما يدخلنها أبكاراً أتراباً^(١) في الثالثة والثلاثين .

وكان ، صلوات الله عليه وسلامه ، يقول : حجب إلى ثلاث : النساء ، والطيب وجعلت قرّة عيني في الصلاة .

وقد بلغ من حبه للصلاة أن تورمت قدماءه من طول الوقوف لها . لكنه كان يعتبر الإكثار من الصلاة من خصوصياته كرسول لا يسمح لأحد بأن يتبعه في ذلك . وكان يلوم عبد الله بن عامر ، إذ بلغه أنه يقوم الليل مصلياً ويقضي النهار صائماً ، وينصحه بعدم الإكثار من ذلك لكي لا يضعف بصره وتذهب قوته ، فضلا عن أن لأهله عليه حقاً ، وأمره أن يصوم ويفطر ، وأن يقوم من الليل مصلياً ، وأن ينام ٥

وكان محمد يحب النساء . وقد عاب عليه الكثير من الأعداء ذلك . وحقاً كان محمد رجلاً بكل ما في الكلمة من معان خلقية ومادية ، ورجولته امتازت بالعفة التي لا تتعارض مع أسباب اللذة البريئة المجردة من الدنس ، وعلى منواله سلك العرب الذين يمتازون حتى أيامنا هذه بالحياء والعفة الخاليتين من كل تكلف ورياء ، لأكحياء المغالين في الدين وعفتهم المصطنعة المدعاة .

وإذا كان محمد قد عقد على ثلاث وعشرين زوجة فإنه لم يتصل إلا باثنتي عشرة منهن . أما الأخريات فتزوجهن لأسباب سياسية محضة ، إذ كانت كل القبائل ترغب في شرف مصاهرتة . وقد كثرت عليه الطلبات في شأن ذلك . ويرى أن عزة أخت دحية الكلبي ماتت من شدة الفرحة عند ما نبئت أن الرسول قبل الزواج بها .

(١) الترب : الشبيه والتظير .

وكان من حبه للنساء، فضلاً عن حبه للإنسانية والعدالة، أن عطف عليهن جميعاً وحاول في كل مناسبة إنصافهن. فحرم أول ما حرم وأد البنات، تلك العادة القبيحة القاسية التي تحدثنا عنها فيما سبق. ثم وضع حداً لتعدد الزوجات، فجعل العدد الأقصى منهن أربعاً، وزاد على ذلك أن نصح المؤمنين بالتفكير في الآية.

«... فانكِحُوا ما طابَ لكم من النساءِ، مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ، فإنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً...»

ومن أحاديثه: «أبغض الحلال إلى الله الطلاق». . . وأتبع ذلك بأن منح المرأة حق المطالبة بالطلاق إن لم يوف الرجل بواجبات الزوجية.

وبفضل تشريعاته الحكيمة أصبحت البنت البالغ تستشار قبل زواجها، وأصبح المهر لا يعطى للأب بل للعروس نفسها، وقد وصف أعداء الإسلام تلك السنة الحكيمة بأنها: «شراء للمرأة». وهم لم يسمعو، فيما أظن، ذلك الجواب المفحم الذي يمكن أن يرد به المسلمون عليهم حينما يقولون لهم: إن المهر في بعض الأقطار الغربية يدفعه والد البنت إلى رجلها! . . . وفوق ذلك، فالمسلم مكلف بسائر حاجات البيت دون أن يكون له أى حق في التصرف في مال امرأته.

ومنح الرسول أيضاً المرأة حقاً في الميراث. وحققها فيه: نصف حق الذكر، وذلك لأن المرأة لا تدفع مهرأ كالرجل وليست مكلفة بحاجات البيت.

وكان الرسول يحب الطيب، لأن الطيب يكمل طهارة المؤمن، ولأن رجال طيب الريح أولى بالاحترام والتكريم من رجل تفوح منه رائحة منفرة، وكان محمد يتطيب بالمسك، ويحرق في بيته الصندل والكافور والمسك: ويدهن شعره بالدهون ثم يرسله على أذنيه في أربع خصل، اثنتين من كل ناحية؛ ويقص لحيته وشاربه بمقص، ويمشطهما بمشط من العاج أو من قشر السلحفاة، ويتكحل، لأن الكحل يقوى البصر وينمى شعر العين؛ ويستاك كثيراً بسواك من شجرة الأراك يمزج طرفه فيصبح كفرشة الأسنان.

أما كساؤه فكان عادة يتألف من قميص من القطن قصير الكمين غير

سابع الطول ، ومن بردة من نسج عمان طولها أربع أذرع وعرضها اثنتان ، وكان له كذلك بردة يمانية طولها ست أذرع وعرضها ثلاث ، كان يرتديها أيام الجمع والأعياد ، وكانت له بردة ثالثة خضراء توارثها الخلفاء من بعده ، وعمامة سميت بالسجائب آلت إلى صهره على بن أبي طالب .

وكان النبي يعنى بنفسه عناية تامة ، إلى حد أن عرف له نمط من الثأني على غاية من البساطة ، ولكن على جانب كبير من الذوق والجمال ؛ وكان ينظر نفسه في المرأة ، فإن لم تتيسر نظر في إنا مملوء بالماء الرائق ليتمشط أو ليسوى طيات عمامته التي كان يترك طرفاً منها يتدلى بين كتفيه . وهو في كل ذلك يريد من حسن منظره البشري أن يروق الخالق سبحانه وتعالى .

ومع هذا كان يحرم بشدة التغالى في الملبس ، وعلى الخصوص لبس الحرير ، حتى لا يتيح للأغنياء فرصة التغالى على الفقراء ، اللهم إلا إذا دعا لذلك داعي الضرورة .

وكان عدله ورحمته من الشمول بحيث تناولا الحيوان الأعجم ، حتى لقد قال يوماً : « بينما رجل يمشى في يوم شديد الحر ، إذا هو بكلب يلهث الثرى من العطش ، فنزع خفه ، ثم نزل إلى البئر ، فلاءه ماء ، ثم رقى فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له ! » .

إن هذه الرحمة ، وهذا النور العجيب الذي كان يفيض من شخصية محمد ، كانا يجذبان إليه الحيوان ، بل حتى الجماد فضلاً عن الإنسان ، ومن ذلك : أنه عندما رقى المنبر الذي أقيم له في مسجد المدينة ليخطب ، كان هناك الجذع الذي كان يخطب فوقه من قبل ، فسمع له حنين إليه ، ولم يسكت إلا بعد أن مسته أصابعه المباركة .

كان النبي صلى الله عليه وسلم ، يقوم بأعماله الخاصة بنفسه : فكان يحلب شاته ، ويخصف نعله ، ويرقع ثوبه ، ويطعم إبله ، وينصب خيمته ، ويمارس هذه وسواها من الأعمال دون الاستعانة بأحد . وكان يحمل بنفسه ما يشتره من السوق ، وأراد يوماً بعض المؤمنين أن يحمل عنه متاعاً فقال له : « صاحب الشيء أحق بحمله » ، وبهذه القدوة أراد أن يقضى على تلك العادة التي كان يسير عليها

أولئك الأغنياء الذين يشترون مع السلع ما يوقرون به ظهور خلعهم دون أن يبذلوا عطفاً عليهم .

وكان يتباعد ، إلى أقصى حدود التباعد ، عن عرض الدنيا وزينتها ، وهذا بعض ما قاله في هذا الشأن ، رواية عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إني عرض على أن تجعل لى بطحاء مكة ذهباً ، فقلت : لا يا رب ، أجوع يوماً وأشبع يوماً ، فأما اليوم الذى أجوع فيه فأضرع إليك وأدعوك ، وأما اليوم الذى أشبع فيه فأحمدك وأثنى عليك » ، وقال : « مالى والدنيا ، إنما أنا فى الدنيا كرجل سار فى يوم صائف فاستظل تحت شجرة حتى مال النىء فتركها ولم يرجع إليها » ، وقال : « اللهم أحيى مسكيناً وأميتى مسكيناً واحشرنى فى زمرة المساكين » .

أما قناعته ، صلى الله عليه وسلم ، فكانت مضرب الأمثال ، روى : أنه لم يجمع بين صنفين من الطعام فى أكلة واحدة إلا نادراً ، فإذا أكل من اللحم لم يأكل من التمر ، وإذا أكل من التمر لم يأكل معه لحمًا ، وكان يحب اللبن لجمعه بين الرى والإشباع ، وكثيراً ما كان الشهر يتلو الشهر دون أن توقد نار فى بيوت النبي لحبز أو طبخ ، لا طعام له ولأهله ولا شراب خلالها إلا التمر والماء .

وكان عندما ينال الجوع منه ، يشد على بطنه حجراً لتخفيف ألم الجوع ، ولقد فارق الدنيا دون أن يشبع من طعام قط حتى من خبز الشعير .

وكان يتأى بجسمه ، الذى كان أبداً موضع عنايته بالطهارة الدائمة ، عن الرقة والترف : فكان ينام غالباً على حصير خشنة ، كثيراً ما ترى آثارها الغائرة على جسده ، كما كانت وسادته حشية من ليف النخل ، وكان سريره عباءة تطوى طيتين ، ويروى : أن عائشة طوتها ذات ليلة أربع طيات ، فغضب النبي إذ أحس بوثارتها ، وأمر بإعادتها سيرتها الأولى .

وقبل مماته أعتق كل عبده ، وتصدق بما كان له من المال القليل ، حيث رأى أنه لا يليق به أن يلقى ربه وفى حوزته شيء من الذهب . ولما لحق بربه لم يوجد فى بيته سوى ثلاثين وزناً من الشعير ، كان قد رهن فيها درعه لأحد التجار .

هذه هي أظهر نواحي صورة النبي التي حفظتها الآثار والسنن .
 وإن المسلمين ليعتقدون أنها حق لا ريب فيه ، بل هم يرونها أشبه ما تكون
 بما عناه الشاعر :

إنما مثلوا صفاتك لنا س كما مثل النجوم الماءُ
 وقد دنا هذا اللألاء السماوى المتماوج حتى أصبح فى متناول اليد ، ولكنه بقى
 عزيز المنال على من يريد أن يقبض عليه ، وكم يبدو هذا اللألاء باهتاً إذا
 ما قورن بالكوكب الأصيل الذى يرسل وهو يلمع فى قمم السماء بوميضه المتأنق .

لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ

وثبة الإسلام :

عندما رفع الله إليه مؤسس الإسلام العبقري ، كان هذا الدين القويم قد تم تنظيمه نهائياً ، وبكل دقة ، حتى في أقل تفاصيله شأنًا .

وكانت جنود الله قد أخضعت بلاد العرب كلها ، وبدأت في مهاجمة إمبراطورية القياصرة الضخمة بالشام . وقد أثار القلق الطبيعي المؤقت ، عقب موت القائد الملهم ، بعض الفتن العارضة ، إلا أن الإسلام كان قد بلغ من تماسك بنائه ، ومن حرارة إيمان أهله ، ما جعله يبهز العالم بوثبته الهائلة التي لا نظن أن لها في سجلات التاريخ مثيلاً .

ففي أقل من مائة عام ، ورغم قلة عددهم ، استطاع العرب الأعجاء ، وقد اندفعوا ، لأول مرة في تاريخهم ، خارج حدود جزييرتهم المحرومة من مواهب النعم ، أن يستولوا على أغلب بقاع العالم المتحضر القديم : من الهند إلى الأندلس .

وقد شغلت ، في قوة ، هذه القصة المجيدة تفكير أعظم عباقرة عصرنا هذا ، أعنى نابليون ، الذي كان ينظر دائماً إلى الإسلام باهتمام ومودة ، فيقول عن نفسه في إحدى خطبه المشهورة بمصر : إنه « مسلم موحد ! ! »^(١) ؛ ويذكر الإسلام في أواخر أيامه « فيرى أنه ، إذا طرحنا جانباً الظروف العرضية التي تأتي بالعجائب ، فلا بد أن يكون في نشأة الإسلام سر لا نعلمه ، وأن هناك علة أولى مجهولة جعلت الإسلام ينتصر بشكل عجيب على المسيحية ، وربما كانت هذه العلة الأولى المجهولة : أن هؤلاء القوم ، الذين وثبوا فجأة من أعماق الصحارى ،

(١) عن : ش : شريف (بونا بارت والإسلام) .

قد صهرتهم ، قبل ذلك : حروب داخلية عنيفة طويلة ، تكونت خلالها أخلاق قوية ومواهب عبقرية وحماس لا يقهر ؛ أو ربما كانت هذه العلة شيئاً آخر من هذا القبيل ،^(١) .

ولذلك كان نابليون يعلم أن وراء خمول العالم الإسلامي ، في فترة الانحطاط ، خزان لا مثيل لها من القوة الفعالة الكامنة ، فحاول ، في مناسبات متعددة ، أن يستميل المسلمين إلى جانبه ببعض المعاهدات . وكان يؤمن بأنه إذا وفق في ذلك يستطيع أن يوقظ الإسلام من سباته ، وأن يغير بمعونته وجه الأرض قاطبة .

ولم يكن نابليون مخطئاً في ظنه ، فقد كانت الحروب الداخلية ، حقاً ، سبباً في إظهار سجايا البطولة عند العرب . ولكنّها ، إلى جانب ذلك ، كانت حجر عثرة في سبيل كل تقدم وكل نظام ، ولولا نبوة محمد لظل هؤلاء الجنود اليواصل إلى آخر الزمن في صحاريهم لا يشغلهم شاغل سوى الفتن المتوارثة .

جاء الإسلام فوضع حدّاً للتفاخر بالألقاب والنسب أو الجنس ، وجعل من المؤمنين إخوة حقاً ، ونفخ فيهم روحاً جديدة كلها مساواة^(٢) وتقوى وشاعرية . فما أروع أعمال البطولة التي استطاع هؤلاء القوم ، ذوو النفوس الحماسية والقلوب المتينة ، أن يقوموا بها بعد ذلك ! . . . ولم تكن هذه الكنوز من القوة والحياة المدخرة ، خلال عصور تقضت في الحروب الأهلية الطويلة ، هي الذخيرة الوحيدة التي بفضلها دوخ العرب كل هذه الشعوب التي تختلف عنهم كل الاختلاف وتفوقهم — في هذه الفترة — حضارة . فقد تراكمت في مخيلاتهم ، طوال قرون التأمل بين أحضان الصحارى الشاسعة القاحلة ، كنوز أخرى من الأحلام والآمال : أحلام أمة شابة فتية — وإن كانت غير متمدينة — وآمالها . وسوف نرى هذه الأحلام والآمال تفرض فرضاً على سائر تلك الشعوب التي كانت ثقافتها شائعة منهوكة .

ولإنا لننصح لمن قد يستريون في عبقرية العرب بتصفح مجموعة من الرسوم

(١) عن : لاس كانزاس (مذكرات سانت هيلين ، ج ٣ . ص ١٨٣) .
(٢) في الآثار الإسلامية : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » . « لا فضل لعرب على عجمي إلا بالتقوى » . « كلكم لآدم وآدم من تراب » . « رب أشعث أغبر . . . لو أقسم على الله لأبرأ » .
« يا فاطمة بنت محمد لا أغنى عنك من الله شيئاً » . إلخ .

التي تمثل المباني التي خلفوها منثورة في جميع أنحاء البلاد الخاضعة لهم ، لا شيء يستلفت النظر مثلما تستلفته وحدة الأسلوب المعماري التي تميز هذه الآثار عن غيرها من آثار العالم . ومع ذلك فهذه المباني المتشابهة تجدها قائمة في الهند والتركستان وفارس وتركيا ومصر وشمال إفريقيا وإسبانيا ، إلخ . . . أى في بلاد يختلف بعضها عن بعض تمام الاختلاف ، ولها حضاراتها ذات الطابع الخاص المتميز الذي لم تستطع حضارة أثينا أو روما ، أن تؤثر فيه بشكل جدى .

ولقد أخذ العرب كثيراً عن كل تلك الدول المنهزمة ولجئوا في أحوال متعددة إلى استخدام فنييها ، بل عمالها ، لإنشاء قصورهم ومساجدهم ، ولكنهم كانوا دائماً لا يحققون بما أخذوا عنها إلا أحلاماً وأفكاراً عربية صحيحة . . .

والأسلوب المعماري العربي نجد طابعه العبقري المبتكر ، في أنه دائماً يسترشد بفن جديد نشأ مع الإسلام ، فن لم يكن له مثيل في الفنون السابقة وكان تحقيقاً مادياً لمثل العرب العليا ، إذا صح هذا التعبير . ذلك هو فن الزخرفة الخطية الذي استخدم لتمجيد كلام الله ، أى آيات القرآن .

وإن هذا الفن الخطى العربي ، حتى في حالة اقتصره على وسائله الخاصة وحدها ، لم يكن من أروع الفنون الزخرفية التي تمخضت عنها مخيلة الإنسان ، ولعله الفن الأوحى الذي نستطيع أن نقول عنه دون مغالاة : إن له روحاً . فهو كصوت الإنسان يعبر عما في النفس من أفكار . وهو لا يستوحى العالم الخارجى — مهما بلغ ذلك العالم من التنظيم والتنميق — في شيء ، وهو بذلك ينتسب إلى الموسيقى ، ويبدو وكأنه رمز لمعان تجيش في أعماق القلوب .

انظر إلى هذه الحروف التي تثب من اليمين والشمال ، في خطوط أفقية سريعة ، ثم تدور حول نفسها في تموجات هادئة أو عنيفة ، وكأنها في ذلك تسير وفق هوى روح داخلية خفية ، ثم ترتفع ثم تتوقف فجأة وتثبت ، فخورة ، في أشكال مستقيمة متقاطعة . . . ثم إذا بها تعود إلى الاندفاع في جموح ، وتحل ما انعقد من أشكائها ، ويداعب بعضها البعض في مرح للذيد ، فيندفع معها الخيال في أحلام لا نهاية لها .

وليس من الضروري أن يكون الإنسان مستشرقاً ممتازاً أو خطاطاً بارعاً

ليدرك عمق الدوافع التي أدت بالقلم إلى رسم هذه الخطوط ، وليتمتع بالنظر إلى أشكالها المجردة أو بالتأمل في العاطفة القوية التي تظهر في انحناءاتها ؛ فكل روح فنانة لا بد أن تتصل الأسباب - دون جهد - بينها وبين أسرار هذا الفن .

ولقد سعى فن الزخرفة الخطية العربية - بعد أن أصبح تعبيراً صادقاً لمثل الأمة العربية - إلى أن يخضع لاتجاهاته ، التي يغلب عليها الطابع الديني ، كل ما من شأنه أن يعين على استكمال ووضعه في الإطار المناسب ، مرغماً فن العمارة والنظم الزخرفية الأخرى على رسم أساليبه وأشكاله . ولقد خضعت لسيطرته وسلطانه قبة بيزنطة الكروية الثقبلة ، فاتخذت هيئة أشبه ما تكون ببيئة الخوذة العربية ، وتحولت انحناءات رواقها الذي لم يكن فيه شيء من العبقرية ، إلى أشكال عربية بالغة الروعة ؛ بينما اتخذت الطوايى الوضيعة صور المآذن الأنيقة التي ترتفع إلى قسم التجلي .

وأخيراً ، فإن النظام الزخرفي الوحيد الذي يشابه الزخرفة الخطية العربية في كونه لا يستوحى الطبيعة ، وهو الزخرفة الهندسية - ذلك الفن الذي لم يستطع الإغريق واللاتينيون استخدامه إلا في أشكال ضئيلة لا روح فيها - قد دبت فيه بين أيدي العرب حياة جديدة حقاً . وقد أطلق على هذا الفن الزخرفي منذ ذلك الحين اسم له دلالة ، أرابسك (Arabesque)

وراح يتأذى بفن الزخرفة الخطية العربية ، في البحث عن أعجب ما يبهو الفكر من أشكال عبقرية يحاز العقل في تشابكها الذي لا نهاية له ، وفي تحولاتها المفاجئة .

يا لها من آيات غاليات خلفها لنا الفن الإسلامي ! إن الهواة الغربيين يتنازعون اليوم آثار هذا الفن غير مباين بما ينفقونه في سبيلها ، وهم يأملون من وراء ذلك أن تدخل معها في بيوتهم المظلمة بعض انعكاسات الأحلام التي استوحاها الفنانون العرب . وإنه لمجد الإسلام ، يتغنى به في هذه الديار ما نشهده فيها من تحف تبلغ الغاية من الدقة والجمال والإشراق . وإنا لنرى الذوق الغربي يتجه الآن إلى اقتناء آيات فن الخط العربي الذي - بنقله لكلام الله - ينفخ روحاً قوية في زخارف المصاحف أو صدف الآنية . والغربيون في ذلك يترسمون خطى الأمراء

العرب أيام عصر الإسلام الذهبى حيث كانوا ، فى سبيل الحصول على صحيفة مخطوطة بقلم أحد الخطاطين المشهورين ، يبذلون مجهودات جنونية نستطيع مقارنتها بتلك التى تبذل فى أيامنا هذه ، لاقتناء تحف فن التصوير .
ولكن ، أيتها الآيات المقدسة ، التى تبهرين أصحابك الجدد وتبهرين إعجابهم العميق بأشكالك المتأنقة الرقيقة ، ألا تكشفين لهم يوماً القناع عن سمو جمال روحك الإسلامية ؟

أثر الحضارة الإسلامية فى أوروبا ، خلال القرون الوسطى وعصر النهضة :
لقد أدهشت كل تلك العجائب عقول أهل أوروبا ، حتى فى أعنف أيام عداوتهم للإسلام . وقد نقلوا كثيراً من العرب فى ميدان الزخرفة والمعمار . ولا شك أن دراسة أكثر عمقاً لهذا الموضوع ، من شأنها أن تبرهن على أن أوروبا قد تأثرت بالفنون العربية أكثر مما تأثرت بالفنون الإغريقية واللاتينية . ولكن مثل هذه الدراسة قد تبعدنا عن الغرض الأساسى من هذا الكتاب . ونكتفى هنا — على سبيل التلميح — بالإشارة إلى المؤرخ « دولور Dulaure » الذى يقول إن مهندسى العرب قد عملوا فى بناء كنيسة نوتردام بباريس .
أما فى ميدان العلوم ، فإن أثر المسلمين لم يكن بأقل خصباً ، ولا نرى من وسيلة لتوضيح هذا أفضل من نقل رأى الدكتور «جوستاف لوبون Gustave Lebon» فى ذلك ، ونجده فى كتابه القيم : « حضارة العرب » :
« ويعزى إلى بيكون ، على العموم ، أنه أول من أقام التجربة والملاحظة ، اللتين هما أساس المناهج العلمية الحديثة ، مقام الأستاذ . ولكنه يجب أن نعترف ، قبل كل شئ ، بأن ذلك كله من عمل العرب وحدهم .
« ويقول العلامة الشهير همبولد ، بعد أن يذكر أن ما قام على التجربة والملاحظة هو أرفع درجة فى العلوم : إن العرب ارتقوا فى علومهم إلى هذه الدرجة (١) التى كان يجهلها القدماء تقريباً . . .

(١) يقول الدكتور هيكل فى كتابه عن سيدنا محمد :

« لست مع ذلك أحسب أنى أوفيت على الغاية من البحث فى حياة محمد ، بل لعل أكون أدنى إلى الحق إذا ذكرت أنى بدأت هذا البحث بالعربية على الطريقة الحديثة وقد تأخذ القارئ الدهشة إذا ذكرت ما بين دعوة محمد والطريقة الحديثة العلمية من شبه قوى . فهذه الطريقة العلمية تقتضيك إذا أردت بحثاً ، أن —

« وكانت دراسة العلوم الرياضية من الدراسات الذائعة لديهم ، وقد تقدم علم الجبر بفضلهم حتى إنه قيل إنهم مخترعوه . ولقد كان لهم أيضاً قصب السبق في تطبيق الجبر على الهندسة ، وهم الذين أدخلوا التماس في حساب المثلثات .

« وكان علم الفلك يدرس في حماس في مدارس بغداد ودمشق وسمرقند والقاهرة وفاس وطليلة وقرطبة وغيرها . . . تلك المدارس التي وصلت إلى اكتشافات عديدة يمكن إيجازها في القائمة التالية : إدخال خطط التماس في الحسابات الفلكية ، ووضع جداول لحركة الكواكب ، وتحديد سمت الشمس تحديداً دقيقاً وتدرجه

تمحو من نفسك كل رأى وكل عقيدة سابقة في هذا البحث ، وأن تبدأ بالملاحظة والتجربة ثم بالموازنة والترتيب ثم بالاستنباط القائم على هذه المقدمات العلمية . فإذا وصلت إلى نتيجة من ذلك كله كانت نتيجة علمية خاضعة بطبيعة الحال للبحث والتحقيق ، ولكنها تظل علمية ما لم يثبت البحث العلمي تسرب الخطأ إلى ناحية من نواحيها ، وهذه الطريقة العلمية هي أسمى ما وصلت إليه الإنسانية في سبيل تحرير الفكر ، وهى هى فنى مع ذلك طريقة محمد وأساس دعوته .

ويعقب فضيلة الأستاذ الأكبر المرحوم الشيخ المراغى على هذا الرأى فيقول :

أما أن هذه الطريقة طريقة القرآن فذلك حق لا ريب فيه ، فقد جعل العقل حكماً والبرهان أساس العلم ، وحاب التقليد وضم المقلدين ، وأنب من يتبع الظن وقال : « إن الظن لا يبنى من الحق شيئاً » وعاب تقدس ما عليه الآباء ، وفرض الدعوة بالحكمة لمن يقمها . ولم تكن معجزة محمد صلى الله عليه وسلم القاهرة إلا في القرآن . وهى معجزة عقلية . وما أبدع قول البوصيرى :

لم يمتحننا بما تعيا القلوب به حرصاً علينا فلم ترتب ولم نهم

وأما أن هذه الطريقة حديثة فهذا ما يعتذر عنه . وقد ماير الدكتور غيره من العلماء في هذا : ذلك لأنها طريقة القرآن كما اعترف هو ، ولأنها طريقة علماء سلف المسلمين . أنظر إلى كتب الكلام تراه يقررون أن أول واجب على المكلف معرفة الله . فيقول آخرون : لا ! إن أول واجب هو الشك . ثم إنه لا طريقة للمعرفة إلا البرهان . وهو وإن كان نوعاً من أنواع القياس إلا أنه يجب أن تكون مقدماته قطعية حسية ، أو منتبهة إلى الحس ؛ أو مدركة بالبداهة أو معتمدة على التجربة الكاملة أو الاستقراء التام ، هل ما هو معروف في المنطق . وكل خطأ يتسرب إلى إحدى المقدمات أو إلى شكل التأليف مفسد للبرهان . وقد جرى الإمام الغزالي على الطريقة نفسها ، وقد قرر في أحد كتبه أنه جرد نفسه من جميع الآراء ، ثم فكر وقدر ، ورتب ووازن ، وقرب وباعد ، وعرض الأدلة وهذبها وحللها ، ثم اهتدى بعد ذلك كله إلى أن الإسلام حق وإلى ما اهتدى إليه من الآراء . وقد فعل هذا ليجانى التقليد ، وليكون إيمانه إيمان المستيقن المعتمد على الدليل والبرهان ؛ ذلك الإيمان الذى لا يختلف المسلمون في صحته ونجاة صاحبه .

وأنت واجد في كتب الكلام في مواضع كثيرة حكاية تجريد النفس عما ألفتته من العقائد ، ثم البحث والنظر ، فطريق التجريد طريق قديم ، وطريق التجربة والاستقراء طريق قديم ، والتجربة والاستقراء التام وليداً للملاحظة فليس هناك جديد عندنا . ولكن هذه الطريقة القديمة بعد أن نسبت في التطبيق العلمى والعمل في الشرق ، وبعد أن تفشى التقليد وأهدر العقل ، وبعد أن أبرزها الغريزون في ثوب قاصع وأفادوا منها في العلم والعمل ، رجعتنا نأخذ عنهم ونراها طريقة في العلم جديدة .

هذا القانون العلمى في البحث معروف قديماً وحديثاً . والمعرفة سهلة ولكن العمل صير . ولا يتفاوت الناس كثيراً في معرفة القانون ، ولكنهم يتفاوتون جد التفاوت في تطبيق القانون .

من مقدمة فضيلة الأستاذ المرحوم الشيخ محمد مصطفى المراغى لكتاب « حياة محمد » للدكتور هيكل .

وتقدير تقدم الاعتدالين تقديرًا صحيحًا ، وأول تحديد صحيح لمدة السنة . ثم إننا مدينون لهم أيضًا بإثبات ما في أكبر خط عرض للقمر من ضروب عدم الانتظام ، واستكشاف عدم التساوى القمري الثالث المعبر عنه اليوم بالتغير .

« وكان النصيب الذى أسهم به هؤلاء الرواد الذين يمتازون بالجرأة والإقدام نصيبًا ضخماً : فن الناحية العلمية كانت لهم هذه التحديدات الفلكية الصادقة التى هى أول أساس للخرائط ، كما عملوا على تصحيح الأخطاء الفاحشة التى وقع فيها الإغريق .

« أما من ناحية كشف بقاع العالم المجهولة فقد نشرنا رسائل فى الرحلات تعرف الناس بأقطار العالم المختلفة التى كانت شبه مجهولة من قبل ، وآت لم يسبق للأوروبيين ارتيادها .

« وإننا نجد فى خريطة من خرائط الإدريسى ترجع إلى عام ١١٦٠ ، منابع النيل بين البحيرات الاستوائية الكبرى مرسومة رسمًا دقيقًا ، وهى تلك المنابع التى لم يكشفها الأوروبيون إلا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر .

« وسجل مكتشفاتهم فى ميدان العلوم الطبيعية أعظم من ذلك . والبيان التالى يوضح أهمية هذه المكتشفات .

« معلومات عالية فى نظريات علم الطبيعة ، وخاصة فيما يتعلق بالمسائل الفيزيائية — اختراع أجهزة آلية من أبداع ما يكون — اكتشاف أعلق الأجسام بأصل علم الكيمياء ، مثل الكحول والحامض الكبريتى ، وأهم العمليات الأساسية فى هذا العلم ، كالتقطير — تطبيق الكيمياء فى ميدانى الصيدلة والصناعات ، وخاصة فيما يتعلق باستخراج المعادن وصناعة الفولاذ ، والصباغة وغير ذلك . . . — صناعة الورق من الخرق ، والاستعاضة به عن رق الغزال وورق البردى والحرير الصينى — ومن المحتمل أنهم أول من استخدم البوصلة فى الملاحة ، ومن المحقق أنهم أدخلوا هذا الاختراع الأساسى فى أوروبا — وأخيراً ، فهم قد اكتشفوا الأسلحة النارية : ففى عام ١٢٠٥ استخدم الأمير يعقوب المدفعية فى حصار مدينة المهديّة ، وفى عام ١٢٧٣ استخدمها السلطان أبو سيف فى حصار مدينة سجلماسة . وقد حضر

كونت دربي وكونت سالسبرى الإنجليز يان فى حصار مدينة الجزيرة التى دافع عنها العرب بالمدافع ، فشاهدوا نتائج استخدام البارود ، فنقل ذلك الاختراع إلى بلادهم فاستخدمه الإنجليز فى معركة كريس بعد ذلك بأربع سنرات .

«أما فيما يتعلق بالطب ، فقد استوحى العرب ، أولاً ، كتب الإغريق ، ثم ساروا بهذا الفن خطوات هامة إلى الأمام .

«وتكاد تكون سائر المعارف الطبية فى أوروبا ، خلال عصر النهضة ، مأخوذة عن العرب . وأهم ما حققه العرب فى ميدان الطب يتعلق بالجراحة ووصف الأمراض ، وبالأدوية والصيدلة . وقد ابتكروا وسائل علاجية متعددة ، ظهر بعضها فى العالم الطبى حديثاً بعد أن قضت عليها قرون من النسيان ؛ مثال ذلك استخدام الماء البارد للطب للحمى التيفودية .

«والطب مدين لهم بكثير من المواد الطبية مثل خيار الشنبر والسنى المكى والراوند والتمر هندى والكافور والكحول والقل ، وغير ذلك وإننا مدينون لهم بكثير من المستحضرات المستعملة اليوم ، مثل الأشربة وصنوف اللعوق والازرق والمرام والماء المقطر ، وغير ذلك

« كذلك الجراحة ، كان للعرب الفضل فى تقدمها الأول : فكانت مؤلفاتهم هى المراجع الأساسية التى تدرس بالمعاهد الطبية إلى عهد قريب جداً . لقد كانوا - فى القرن الحادى عشر الميلادى - يعرفون علاج الماء الذى ينصب فى العين (الكاتاركتا) بالتحويل أو استخراج البلورية ، ويعرفون كيفية تفتيت الحصاة وعلاج النزيف بصبب الماء البارد ، كما كانت لهم خبرة باستخدام الكاويات والأحزمة والكى بالنار لتطهير الجراح . وإن التخدير الذى يظن الناس أنه اكتشف حديث يبدو أن العرب لم يجهلوه ، فقد كانوا يوصون باستعمال نبات الزوان - قبل العمليات المثلثة - لتنويم المريض حتى يفقد الوعى والحساسية .

« وكانت لهم أيضاً ثقة عظمت فى الوسائل الصحية لعلاج الأمراض ، وكانوا يعتمدون كثيراً على القوى الطبيعية . والطب النظرى ، الذى يبدو اليوم وكأنه الكلمة الأخيرة للعلم الحديث ، يوافق هذه الفكرة فى استدلالاته

أثر المسلمين في ميدان الفكر :

ولعل أثر المسلمين في ميدان الفكر كان أخطر شأنًا ، فقد دعا عيسى إلى المساواة والأخوة ، أما محمد فوفق إلى « تحقيق » المساواة والأخوة بين المؤمنين أثناء حياته .

وإنه يكون من الحمق أن نزع أن الإسلام أثر ، مباشرة ، في خطط الثورة الفرنسية التي كان رجالها يجهلون معظم ما قام به محمد في سبيل المساواة بين الناس . ولكننا نستطيع أن نبرهن على أن المحاولات الأولى في السعي إلى تحرير الفكر كانت أثرًا منطقيًا للمبادئ التي جاء بها محمد : فإلى الفيلسوف المسلم ابن رشد — الذي عاش في إسبانيا من سنة ١١٢٠ إلى سنة ١١٩٨ — يرجع الفضل في إدخال حرية الرأي (التي يجب أن لا نخلط بينها وبين الإلحاد) في أوروبا .

وقد عارض ابن رشد وحدة الوجود القديمة والتجسيم المسيحي بعقيدة الإيمان بالله وحده في الإسلام ، وتحمس أحرار الفكر في العصر الوسيط الأوربي لشرح لأرسطو ، وإن كانت هذه الشروح مصبوغة بصبغة إسلامية قوية . ويمكن أن نعتبر ، بحق ، أن التيار الفكري الذي نشأ عن هذا التحمس لابن رشد كان أصل التفكير المنطقي الحديث ، فضلًا عن كونه من أصول الإصلاح الديني .

أثر الأخلاق الإسلامية :

ولم يكن أثر الأخلاق الإسلامية بأقل من ذلك شأنًا في أوروبا ، فقد كان العرب يمتازون ، إلى جانب روح التسامح الديني (التي سوف نتحدث عنها فيما بعد) بأخلاق « الفروسية » القوية ، وفي ذلك يقول الكاتب الإسباني الكبير « بلاسكو إيبانيز » في قصته « في ظل الكنيسة » :

« لقد نشأت روح (الفروسية) بين عرب إسبانيا . وأخذها عنهم فيما بعد ، أهل الشمال زاعمين أنها طبيعة من طبائع الأمم المسيحية » .

ولنذكر في هذا الصدد مرة أخرى ملاحظات الدكتور جوستاف لوبون ، إذ يقول :

« لقد كانت للفروسية العربية أصولها ، كما للفروسية المسيحية التي جاءت

بعدها ؛ فلم يكن المرء فارساً إلا إذا تحلى بالخصال العشر التالية : الصلاح ، والكرامة ، ورقة الشماثل ، والقريحة الشعرية ، والفصاحة ، والقوة ، والمهارة في ركوب الخيل ، والقدرة على استعمال السيف والرمح والنشاب . . .

« وقد حاصر والى قرطبة ، في سنة ١١٣٩ ، مدينة طليطلة التي كانت بيد النصارى ، فأرسلت إليه الملكة بيرانجير التي كانت فيها ، رسولا يبلغه أنه ليس من مروءة فارس كريم رقيق الشماثل أن يحارب امرأة ، فارتد القائد العربي من فوره ، ولم يطلب مقابل ذلك سوى أن يشرف بتحية الملكة^(١) . . .

« وسجلات تاريخ العرب بإسبانيا حافلة بمثل هذه النوادر التي تبين كيف كانت أخلاق الفروسية هذه ذائعة بينهم . ويعترف عالم قوى الإيمان هو « بارتليمي سانت هيلير » ، في صدق وصراحة ، بما تدين به الأخلاق الأوروبية للعرب ، إذ يقول في كتابه عن القرآن : « عندما اتصل الأوروبيون بالعرب واقتدوا بهم ، لانت العوائد الخشنة لدى أشرف القرون الوسطى القساسة ، وتطلع أهل الفروسية — دون أن يفقدوا لذلك طبائع الشجاعة والنخوة — إلى عواطف أرق من عواطفهم وأشرف وأليق بالإنسانية . ومن المشكوك فيه أن تكون المسيحية ، مهما بلغت تعاليمها من سمو ، هي وحدها التي أوحى إليهم بكل هذا » .

السبب في إنكار علماء الغرب آثار الإسلام في الحضارة الغربية .

ولعل القارئ يتساءل ، والظروف كما ذكرنا ، عن السبب في إنكار كل أثر للإسلام لدى علماء يبدو أن روحهم العلمية تخرج بهم عن كل تعصب ديني .

(١) يقول المؤلف في رسالته « أشعة خاصة بنور الإسلام » ما يلي :
وقد حفظ لنا التاريخ في سجلاته عن فروسية العرب وروحها العالية جميع أدلة العظمة الموشاة بالرقعة والتهديب ، وقد ذكر منها الكثير واصف باشا بطرس غالي في كتابه « فروسية العرب المتوارثة » وهو إن كان قبطياً مسيحياً فإن لأقواله قيمة عظيمة وهي الرد الصحيح على ما جاء به (بيرون Perron) من الادعاءات والتعصب .

يقول واصف باشا : « كان محمد يحب النساء ويفهمهن ، وقد عمل جهد طاقته لتحريرهن . وربما كان ذلك بالقدرة الحسنة التي استنها فوق ما هو بالقواعد والتعاليم التي وضعها . وهو يعد بحق من أكبر أنصار المرأة العاملين إن لم يكن عظيم الاحترام والتكريم لمن ؛ لم يكن ذلك خاصاً منه بزوجاته ، بل كان ذلك شأنه مع جميع النساء على السواء » .

فهل نستطيع أن نقول شيئاً من هذا عن الكثيرين من رجال الكنيسة ؟ وقد كان أحدهم سان بوناڤتور St Bona venture يقول إلى تلاميذه « إذا رأيتم امرأة فلا تحسبوا أنكم ترون كائناً بشرياً ، ولا كائناً وحشياً ، وإنما الذي ترون هو الشيطان بذاته والذي تسمعون هو صفيح الثعالب » .

وتفسير ذلك : أن الواقع يشهد بأن حرية الرأي مسألة ظاهرية أكثر منها حقيقية ، وأن الإنسان ليس حر التفكير على الإطلاق كما يشاء في مسائل معينة ، ثم إن التعصب الموروث لدى المسيحيين ضد الإسلام وأتباعه ، قد عاش فيهم دهوراً طويلة ، حتى أصبح جزءاً من كياناتهم .

فإذا أضفنا إلى هذا التعصب الديني تعصباً آخر هو أيضاً موروث تزيده الأجيال المتتالية تمكناً من النفوس بفضل مناهج الدراسات القديمة التي تسير عليها مدارسنا ، وهو أن كل العلوم والآداب الماضية يرجع الفضل فيها إلى الإغريق واللاتينيين وحدهم ، أدركنا ، في يسر ، كيف ينكر الناس ، عامة ، ذلك الأثر العظيم الذي كان للعرب في تاريخ الحضارة الأوروبية .

وسوف يبدو دائماً لبعض العقول أنه من المهانة أن تدين أوروبا المسيحية للمسلمين بإخراجها من ظلمات البربرية والتوحش . . .

سبب تدهور المسلمين :

ولعلنا بعد هذا نتساءل : لماذا ، إذن ، وقع المسلمون في مثل هذا التدهور السريع بعد أن ظل الإسلام طوال قرون ثمانية يجعل من إسبانيا الخاضعة له أرفع الأمم الغربية حضارة ، ويرسل نوره الذي لا يخفت ، في أرجاء العالم ، من دلهى وبخارى إلى القسطنطينية وفاس ؟

السبب الأول نجده في الخروج عن مبادئ المساواة التامة الشاملة التي بذل الرسول كل جهده خلال سني حياته في فرضها ، والتي كانت سبب انتصاراته وانتصارات الخلفاء الأول . ولنضرب لذلك مثلاً يوضح كيف كانت هذه المبادئ تطبق في شدة بالغة في الصدر الأول للإسلام :

لطم جبلة ، أحد الأمراء الأقوياء المعتدين بأنفسهم ، عقب إسلامه ، رجلاً من البدو ، زاحمه في الكعبة ، لكمة عنيفة ، فأمر الخليفة عمر أن يضرب البدوي الفقير ، الأمير جبلة مثلما ضربه . ولم يأبه عمر في حكمه بمكانة المذنب ولا بخطورة إغضاب رجل له من الشأن ما لجبلة ، بل رأى أن إكرامه الإسلام ومستقبله يقتضيان تطبيق مبادئ المساواة أمام القانون قبل أي اعتبار آخر .

وبفضل هذه المبادئ القوية التي لا تلين لم يكن لأحد أن يفخر إلا بما

عمل ، وأدى التنافس بين المسلمين في سبيل إعلاء كلمة الإسلام إلى ضروب من المعجزات . ولم يرق إلى مناصب القيادة سوى الجديريين بها ، وكان الناس يطيعون قادتهم في كل صغيرة وكبيرة ، لأنهم كانوا يحترمونهم ويحلمونهم مخلصين .

ولكن ، للأسف ، لم يحافظ المسلمون محافظة كاملة على هذه المبادئ الأساسية لدين محمد إلا لفترة قصيرة . ولقد رأينا التناحر بالانساب والقبائل يظهر من جديد بآثاره الهدامة في عهد عثمان ثالث الخلفاء . وأضاع الناس حكمة محمد التي تجلت في وصيته لابنته المحببة فاطمة الزهراء : « يا فاطمة بنت محمد أنقذى نفسك من النار فإنى لا أغنى عنك من الله شيئاً » . فقد ذهب أناس ، هم دون ذلك شأنًا ، إلى الفخر بآبائهم ، وإلى احتقار إخوانهم في الإسلام الذين ينتسبون إلى الطبقات المغمورة ، وظنوا أنهم معفون ، لعراقة أصلهم ، من الجهاد في سبيل الإسلام وفي سبيل الرزق ، ذلك الجهاد الذى بدونه لا يمكن تحقيق أى تقدم . وبالإضافة إلى ذلك ثارت المنافسات بين الذين يعتمدون في حياتهم على مكانة أجدادهم أكثر مما يعتمدون على أعمالهم الشخصية ، وكانت نتيجة ذلك قيام الفتن الأهلية التي تكاد تكون ، في عنفها واتصالها ، مشابهة لما كان منها في الجاهلية . وقرتب على ذلك أن تفكك النظام ، وظهرت من جديد تلك الفوضى العامة الشاملة ، التي كانت تشل أيدي العرب عن كل عمل مجد في عصور ما قبل الإسلام . وقعد المسلمون حب الاستطلاع ، وفرقت بينهم وأنهكت قواهم الحروب الداخلية ، فلم يستطيعوا ، إلا قليلا ، أن يقاوموا المسيحيين الذين انتهزوا فرصة هذه الفوضى بين المسلمين ، لينظموا أنفسهم وليحلموا بالأخذ بثأرهم .

ولم يكن الإسلام ، سواء في ماضيه أو في حاضره ، ليصاب بتلك النكبات لو أن المسلمين عملوا دائماً بتلك الوصية الأخيرة التي أوصاهم بها الرسول في خطبته : « أيها الناس إنما المؤمنون إخوة » .

أما السبب الثاني في تدهور العالم الإسلامى فهو ناتج عن التخلي عن إحدى المميزات الأساسية للإسلام ، وهي التوافق التام بين العقيدة — التي تكاد تكون خالية من كل ما هو غير طبعى — وبين ضرورات المنطق . وكان لتلك الميزة في العهد الأول أثر بعيد في تقدم العلوم التي لم تعقها أية معتقدات خرافية ، وهذا

يكفى لتفسير التطور السريع الذى تطوَّرت الحضارة الإسلامية . لكن الروح الإسلامية العلمية خمد حماسها شيئاً فشيئاً مكتفية بالنتائج الباهرة التى حصل عليها المسلمون فى حمية النشاط الذى كان فى القرون الأولى للهجرة . ومنذ ذلك العهد والإسلام وقع تحت رحمة النزعات الخرافية والإشراكية فى الأقطار الحديثة العهد به ، فقد حلت عبادة القديسين والشفعاء من « الأولياء » و « الوسطاء » ، و « المرابطين » ، تلك العبادة المأخوذة عن المسيحية ، التى حرّمها القرآن تحريماً قطعياً ، محل عبادة العلم ، وشلت بخرافاتها الكثيرة التى لا منطق فيها ، كل تقدم . وقد حاول الفلاسفة من أمثال ابن رشد أن يقاوموا هذا التيار ، ولكن الفرصة كانت قد فاتتهم . ثم انغمس هذا الداء واستفحل فى الناس بقوة ، حتى رموا كل مصلح بالخروج عن الدين وطالبوا بتكفيره .

وهذان السببان لتدهور العالم الإسلامى يعتبران من الأسباب القديمة ، وتظهر فيهما جلياً المخالفة الصريحة لتعاليم الدين الصحيح . لكن هنالك على عكس ذلك ، سبب يرجع إلى القرن التاسع عشر فقط ، وقد يبدو أنه ليس فيه خروج عن نص الكتاب المقدس — إن لم يكن عن روحه — ذلك هو الأثر الناتج عن تحريم أخذ الفائدة عن أى مال يقرض لأى سبب كان ذلك^(١) :

« الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا ، لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا : إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا ، وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ... »

وإننا لا نناقش هنا صحة المبدأ ، فذلك شيء لا يقبل المناقشة ، وإنه ، حتى أوائل القرن المنصرم ، لم تكن الآثار الضئيلة ، بالنسبة إلى المسلمين ، المترتبة على استعمال اليهود والمسيحيين للفائدة فى البلاد الإسلامية ، لتقارن بفوائد هذا

(١) يحاول كثير من الكتاب فى العصر الحاضر — مخلصين — أن يوجِّهوا فى التشريع الإسلامى ثغرة يدخلون منها إلى تحليل التعامل مع البنوك زاعمين أن هذا ليس هو الربا الذى حرّمه الإسلام ، ذلك أن الربا الذى حرّمه الإسلام فى نظرهم هو الذى حذره القرآن نفسه بأنه « أضعافاً مضاعفة » أما التعامل مع البنوك فإنه نظام اقتصادى سليم .

ولكن الأئمة السابقين جميعاً قد حرّموا الفائدة مهما مؤثرت قيمتها ، ففرق بين النظام الإسلامى : نظام الأخوة والتعاون والعطف ، وبين النظام المادى الذى لا يعرف أخوة ولا تعاوناً ولا عطفاً .

المبدأ القرآني الجملة . ولكن القرض أصبح اليوم من المقومات الأساسية في كل المشاريع الضخمة ، وأصبحت « البنوك » صاحبة السلطة الحقيقية في العالم ، ولذا وجد المسلمون أنفسهم ، مؤقتاً ، يسرون إلى الإفلاس الاقتصادي والسياسي ، بسبب تفسيرهم المبالغ فيه لهذه الآيات .

مستقبل الإسلام :

هذه هي ، في رأينا ، الأسباب الثلاثة الأولى للتدهور الإسلامي ، فهل هذا التدهور لا علاج له ؟ وهل حكم على الثلاثة مليون من المسلمين المنتشرين على سطح الكرة الأرضية بأن يظلوا إلى الأبد على هذه الحالة المحزنة التي قسمت لهم بعلمين عن الحضارة الحديثة ؟

إننا لا نرى ذلك .

فبالنسبة إلى السببين الأولين نجد العلاج غير معقد : إنه في الرجوع إلى المبادئ الصحيحة التي جاء بها الرسول .

أما فيما يتعلق بالمسألة الثالثة فتحلها في تفسير نص الآيات المقدسة تفسيراً قد يكون أقل تمسكاً بالحرفية ، ولكنه لا شك يتمشى مع روح الكتاب في أمانة . وقد فهم ذلك المسلمون المستنيرون جيداً ، فحرصوا على عدم الخلط بين الإجراءات المالية في « البنوك » ، وبين أعمال الربا الحظيرة التي حرمها النبي .

وأخيراً ، فإن الجراح التي أصابت الإسلام ، خلال نصف القرن الأخير ، قد أيقظته من سباته ، وأقنعتة هزيمته الأخيرة نفسها بضرورة تبنى الوسائل العلمية التي يستخدمها أنصاره . وتذكر المسلمون أحاديث الرسول :

• « اطلبوا العلم ولو بالصين » .

• « العلم خير من العبادة » .

• « يوزن يوم القيامة مداد العلماء ودم الشهداء ، فيرجح مداد العلماء » .

على دم الشهداء .

ولقد قام مصلحون عابرة من أمثال الشيخ محمد عبده برسم السبيل الذي يجب على المسلمين أن يسيروا فيه ، مبهرنين على أنه يمكن التوفيق بين محمد وبين مقتضيات الحضارة الحديثة . ولم يمض طویل وقت حتى ذهب الكثير من الشباب

في سائر البلاد الإسلامية إلى التعلم على الطريقة الأوربية في سهولة تكيف عجيبة ، دون أن يفقدوا شيئاً من عناصر قوميتهم الأصيلة . وسوف نرى عما قريب العدد العديد من المسلمين يحتلون مكانهم الثابت في العالم الحديث ، ولا يهابون أن ينافسوا رجال الغرب في ميدان الحضارة العصرية ^(١) .

لقد اعترض على إمكانية هذه النهضة الإسلامية بأنه يقف في سبيلها عقبات قوية هي :

عقيدة القضاء والقدر .

والتعصب .

وتعدد الزوجات ..

عقيدة القضاء والقدر :

فلنعرض سريعاً لهذه المسائل : هل عقيدة القضاء والقدر الإسلامية يمكن أن تتفق مع الجهاد الصحيح في سبيل التقدم ؟

إذا كنا ن نجد بعض الواجهة في شيء من النقد الموجه إلى المسلمين في هذا المجال ، فلأن بعض المسلمين من أمثال أتباع « المرابطين » ، يسيثون فهم التوكل ، وعلى أي حال فلم يكن لهذا التوكل الأثر المبالغ فيه الذي يراد إلصاقه به . والإسلام ليس فيه من التوكل أكثر مما في مذهب إنكار فعل العزيمة الشخصية والقول بالأسباب الخارجية (determinisme) . بل القضاء والقدر فيه يكون أقل خطورة منه في المسيحية لو اتبع المسيحيون حرفية تعاليم الإنجيل الذي يقول :

« ولذا أقول لكم : لا يقلقنكم أن تبحثوا عن الجهة التي تجدون فيها ما تأكلون وما تشربون لاستبقاء حياتكم ، ولا الجهة التي تجدون فيها الثياب لكساء أجسادكم » (إنجيل متى : ٥ ، ١٨ و ٦ : ٢٥) .

كيف نقول : إن عقيدة القضاء والقدر تشل كل عمل عند المسلمين ، والرسول كان أنشط الناس وأكثرهم مثابرة وجهاداً ، والإسلام هو الدين الوحيد الذي جاء ، عقب نشأته مباشرة ، بالفتوح الواسعة العجيبة والحضارة السامية العظيمة ؟ . . إن

(١) سألنا من هنا بضعة سطور تاريخية لم تعد لها قيمة تذكر بعد مرور كل هذه السنين على تأليف الكتاب .

كلمة «إسلام» تعني الرضاء بأوامر الله ، أى بما لا يمكن لأى قوة إنسانية أن تحول دونهُ ، ولكن ليس من معانيها الخضوع للأمور التى يبدو أنها يمكن أن يغير مجراها العمل والإقدام «قل يا قوم اعملُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ . . .» فهذه العقيدة إذن بعيدة كل البعد عن أن تكون مصدر ضعف . إنها على العكس من ذلك مصدر قوة نفسية لا تضارع بالنسبة إلى المسلم تعينه على احتمال المحن والشدائد (١) .

التعصب :

ونعرض بعد ذلك لموضوع التعصب ، فتساءل : ألا يعوق تقدم المسلمين وعلاقاتهم بالمتحضرين من أبناء الأديان الأخرى ، تعصب هؤلاء المتحضرين العنيف الذى لا هوادة فيه ، والذى هم يرمون به المسلمين ؟
والسألة هنا ، هى قبل كل شئ : أن نعرف ما إذا لم يكن هذا التعصب عند المسلمين أسطورة من تلك الأساطير التى لا تحصى ، والتى أذاعها بين الناس أعداء الإسلام فى القرون الوسطى .

وفيما يلى بعض الوقائع ، اخترناها من بين عدد كبير من أمثالها ، نسردها هنا لينتمكن القارئ من الحكم فى هذا حكماً صحيحاً .

يروى ابن جرير نقلاً عن ابن عباس : أن رجلاً من بنى سالم بن عوف يقال له الحصين ، وله ولدان مسيحيان ، وهو مسلم ، سأل الرسول فيما إذا كان يجب عليه إكراه ولديه على اعتناق الإسلام ، وهما يرفضان كل دين غير المسيحية ، فأُنزل الله تعالى الآية الكريمة : « لا إكراه فى الدين » .

وعندما جاء رسل فجران المسيحيون المدينة ليفاوضوا النبى منحهم نصف مسجده ليؤدوا صلاتهم فيه .

وقام محمد يوماً لجنائزة ، فقيل له . . . إنها جنائزة يهودى ، فقال : « أليست هى نسمة ؟ » .

وهو القائل : « من آذى ظلماً يهودياً أو نصرانياً كنت خصمه يوم القيامة .

(١) فإذا قضيت الصلاة . . . الآية « يا أيها النبى حرض المؤمنين على القتال . . . » « يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين » الآية . « فإذا تثقفتم فى الحرب » . وفى الحديث « اليد العليا خير من اليد السفلى » ، « لأن يأخذ أحدكم حبلًا » .

قد يدوم الملك على الكفر ولكنه لا يدوم على الظلم .
والمسلمون على عكس ما يعتقد الكثيرون ، لم يستخذموا القوة أبداً ، خارج حدود الحجاز - أى الأرض الحرام والمنطقة المحيطة بها - لإكراه غيرهم على الإسلام .
وإن وجود المسيحيين في إسبانيا للدليل واضح على ذلك ، فقد ظلوا آمنين على دينهم طوال القرون الثمانية التي ملك فيها المسلمون بلادهم ، وكان لبعضهم مناصب رفيعة في بلاط خلفاء قرطبة .

ثم إذا بهؤلاء المسيحيين أنفسهم يصبحون أصحاب السلطان في هذه البلاد ، فكان أول هم لهم أن يقضوا قضاء تاماً على المسلمين ، وقد ألحقوا بهم أيضاً اليهود الذين عاشوا فترة آمنة هادئة تحت حكم المسلمين .

وفي كتابه . . . « رحلة دينية في الشرق » يشيد الأب « ميشون » بالحقيقة في صيحته الصادقة : « إنه لمن الحزن بالنسبة إلى الدول المسيحية أن يكون المسلمون هم الذين علموها مبادئ التسامح الديني الذي هو الناموس الأكبر للرحمة والإحسان بين الأمم » (١) .

وقد يعارض قوم فيذكرون مذابح الأرمن ، ويتساءلون : ما القول فيها ؟ والرد على ذلك أن المسلمين الحقيقيين يستنكرون كل شيء من هذا القبيل ما لم تدع إليه الفتن والمؤامرات ، تماماً كما يستنكر المسيحيون الحقيقيون اليوم مذبة جميع المسلمين في إسبانيا .

والواقع أن مذابح الأرمن لم تكن قط لأسباب دينية ، ذلك لأن أتباع دين محمد لم يدر بخلداهم قط أن يقتلوا بأنصار « توركويمادا » ، فيخبرون الأرمن بين ترك المسيحية إلى الإسلام ، وبين أن يحرقوا أحياء . وعلى أى حال ، فالمسلمون لا يأنسون في أنفسهم أى ميل لرد الناس عن دينهم . وليس لهم مبشرون حقيقيون . وإذا كان الإسلام هو الدين الذي يجذب إليه أكثر الناس في إفريقيا وآسيا في عصرنا هذا ، فذلك - كما لاحظته ملاحظة صحيحة المسير أ . بوردو - يرجع إلى نوع من الامتناع المعنوي (٢) .

(١) فقلا عن « الكونت دي كاستري » في كتابه عن الإسلام .

(٢) من : أ . بوردو (المرب في إفريقيا الوسطى) .

وإن القدوة الحسنة التي لا تقترن بمحاولة التبشير المتعصبة ، لمى أقوى أثراً في النفوس التقية من مضايقات القسس المبشرين . ولقد اضطر العالم « دوزى » - رغم تعصبه ضد الإسلام - إلى الاعتراف بأن الكثير من المسيحيين الذين كانوا في إسبانيا « اعتنقوا الإسلام عن عقيدة » .

والقاعدة التي يجري عليها المسلم ، في علاقاته بأصحاب الديانات الأخرى ، هي تلك التي حددها القرآن في الآية التالية : « لكم دينكم ولى دين » . وكيف لا يكون المسلم متسامحاً ، وهو يحل الأنبياء الذين يجلبهم اليهود والنصارى ! فوسى بالنسبة إليه « كلم الله » وعيسى « روح الله » يجب تبجيلهما كما يبجل محمد « حبيب الله » : « لا نفرق بين أحد من رسله » .

ولن يجرؤ مسلم قط على التفوه بأقل بادرة في حق عيسى . وكذلك لن يقبل أن يدع أحداً يتفوه بمثل هذا في حضرته ، حتى وإن كان من يحدته من هؤلاء المسيحيين الأصيلين الذين يريدون أن يجعلوا من عيسى المستول عن الأخطاء الكهنوتية ، وسب المسيح لا شك يعتبر سباً للإسلام الذى يأمر باحترامه . ولقد أتبع لنا أن نشهد حادثاً عجيباً هو أن قاضياً مسيحياً حكّم على رجل مسلم لضربه يهودياً بدرت منه أمامه أقوال بالغة الأسف في شأن ولادة عيسى .

ولنتقارن الآن بين موقف الإجلال هذا الذى يقفه المسلمون من عيسى وبين ما صنعه الأوروبيون من سيرة محمد :

فى العصور الوسطى كان الرهبان يصورونه تارة فى صورة صنم بشع ، وتارة فى صورة سكير مدمن . . . إلخ .

ولو أننا أردنا أن نثبت هنا كل ما تمخضت عنه قديمًا مخيلات أعداء محمد الخصب لما انتهينا إلى حد .

لم يكن المستشرقون الأول بأقل عنفاً فى مهاجمته من هؤلاء :

والعالم جانييه ، فى القرن الثامن عشر ، يعيب على القسس المراكشى والدكتور بريدو ، إسفافهما المتحيز ضد محمد ، ولكنه فيما بعد يسف أكثر من إسفافهما ، ويصف محمدأ بأبعد الأوصاف عن سيرته . ومع هذا فالعالم جانييه يزعم أنه معتدل كل الاعتدال فى حكمه .

ومنى زمن بعيد وأعداء الإسلام يباحقون الأذى بأصحاب محمد أيضاً . وقد ألف بعضهم تلك الأسطورة الذائعة التي تقول بأن الخليفة عمر أحرق الإسكندرية ، ولم يكن غرضهم من ذلك إلا أن يجعلوا الناس تنسى العمل الوحشى الذى قام به الكاردينال كسيمينيس من إحراق دور الكتب البديعة التي كانت للمسلمين بإسبانيا . وهم فى زعمهم هذا يبدون استخفافاً لا حد له بوقائع التاريخ : ذلك أن مكاتب الإسكندرية قد خربت قبل مجيء الإسلام بقرون متعددة ؛ وأولى هذه المكاتب هى مكتبة البروخيوم التي كانت تحتوى على أربعمئة ألف مجلد ، وقد أحرقت أثناء الحرب التي نشبت بين قيصر والإسكندريين ؛ وثانى المكاتب هى مكتبة السرابيوم التي ضمت فى يوم من الأيام مائتي ألف مجلد أوصى بها لها أنطونيوس ، وقد نهبت هذه المكتبة وخربت تماماً فى عهد ثيودوزيوس .

وقد أنشأت هذه الخرافات السخيفة تتلاشى فى أيامنا هذه ، على أننا نفضل ما فيها من تعصب صريح على تلك الدسائس الخبيثة التي يريد بعض الكتاب الذين لم يتخلصوا بعد من طبائع القرون الوسطى المسيحية ، أن يذيعوها - تحت ستار من العلم الاستشراقى الظاهرى - فى حق رجل من الرجال الذين يشرف بهم أكثر من غيرهم تاريخ الإنسانية نفسه .

وقد يسأل سائل : ألا ينتهى الأمر بالمسلمين ، بعد أن تبنا حضارة المسيحيين إلى أن يتدينوا كذلك بالمسيحية ؟ ويكفيينا للإجابة عن هذا السؤال أن نورد رأى كاتب صريح فى اعترافه بالواقع رغم تمسكه الشديد بدينه ، ذلك الكاتب هو « الكونت دى كاستر » ، الذى يقول فى مؤلف له ممتاز عن الإسلام :

« الإسلام هو الدين الوحيد الذى لا تجد فيه مرتدين . . . ومن العسير ، بل من المحال أن نتصور صورة دقيقة للحال النفسية التي يكون عليها المسلم إذا ما حاول أحد المسيحيين أن يقنعه باعتناق المسيحية . لعلنا نجد صورة مقاربة شيئاً ما لهذا ، إذا ما تخيلنا إحساسات وشعور رجل مسيحي مستنير يحاول أحد الوثنيين أن يجتذبه إلى اعتناق خرافاته المزدولة (١) . . . »

(١) عن الكونت هنرى دى كاستر (الإسلام) ..

العلة في بغض المسيحيين للإسلام :

فما عسى أن تكون علة ذلك البغض الذى يلاحق به المسيحيون الإسلام ، حتى في عصرنا هذا ، عصر التسامح - ولا نريد أن نقول : عصر عدم المبالاة بالدين - في حين أن الإسلام يقدم لهم كثيراً من الأدلة التى تؤكد احترام عيسى وتبجيله ؟ !

هل يكون ذلك لأن الإسلام كانت نشأته في آسيا ؟

ولكن ، ألم تكن المسيحية ، في جوهرها ، ديانة آسيوية قبل أن يخلصها بولس القديس من اليهودية ؟ وقد قال عيسى نفسه : « لم أرسل إلا إلى خراف إسرائيل الضالة » (إنجيل متى ١٥ - ٢٤) .

وهل العلة في العقيدة Dogme نفسها ؟ ولكن عقيدة الإسلام تكاد تكون مماثلة لعقائد بعض الفرق البروتستانتية التى تأثرت بالإسلام فاحتذت حذوه . . . أو هل سبب ذلك يرجع إلى الآثار التى خلفتها الحروب الصليبية في النفوس ؟

ذلك أمر لا شك فيه ؛ فرغم مضي زمن طويل على هذه الحروب ، نجدها لا تزال تفعل فعلها المشثوم في نفوس الكثير من الجهلاء . ولكن هذا الأمر وحده ، ليس بكاف لتفسير ما حكم به على الإسلام في أوروبا من نفي وتحريم .

فعلينا إذن أن نبحث عن تعليل آخر . وسوف نتبين جلية الأمر ، إذا ما تأملنا المثل الذى تقدمه لنا ديانة أخرى ، تقابل حقاً في أوروبا بمثل ما يقابل به الإسلام ، من النفور والاضطهاد .

تلك هى ديانة فرقة « المورمون » ، وهى من الفرق البروتستانتية . وقد أظهر أصحابها العجب العجائب من قوة العزيمة والذكاء والمثابرة ، فأحالت الصحراء ، ذات الأرض الملحة الكثيبة التى قطنت بها ، إلى بلد خصب زاهر ، وكان على أهل أوروبا وأمريكا جميعاً أن يشيدوا بهذا العمل النافع لحضارة الإنسانية ويبدأوا استحسانهم له . ولكن سافر شيع المسيحية ، على العكس من هذا ، تناست

أحقادها وخلافاتها الخاصة لتتألب على المورمون ، يجمعها في هذا شعور متماثل من الكره لهم .

فماذا كان الجرم الذي اقترفه هؤلاء المورمون ؟

لم يكن لهم من جرم إلا أنهم - كالمسلمين - يستحلون تعدد الزوجات .

ومفتاح هذا السر إذن هو : تعدد الزوجات !

وإن في ذلك إنذاراً للأمم الإسلامية بأنها لن تحصل قط ، على حق الدخول

في زمرة الأمم المتحضرة ، ما لم تتنكر لمبدأ تعدد الزوجات ! . . .

تعدد الزوجات :

ولن نخاطر هنا بمحاولين الدفاع^(١) عن عادة يحمل عليها الناس بمثل هذه

(١) لقد دافع المؤلف دفاعاً مجيداً عن مبدأ تعدد الزوجات في رسالته القيمة « أشعة خاصة بنور الإسلام » ونحن ننقل دفاعه الرائع فيما يلي :
مسيرة الطبيعة :

لا يتمرد الإسلام على الطبيعة التي لا تغلب ، وإنما هو يساير قوانينها ويزامل أزمائها ، بخلاف ما تفعل الكنيسة من مغالطة الطبيعة وصيادتها في كثير من شؤون الحياة : مثل ذلك القرض الذي تفرضه على أبنائها الذين يتخذون الرهبنة ، فهم لا يتزوجون ، وإنما يعيشون أعزاباً .

وعلى إن الإسلام لا يكفيه أن يساير الطبيعة ، وأن لا يتمرد عليها ، وإنما هو يدخل على قوانينها ما يجعلها أكثر قبولاً وأسهل تطبيقاً ، في إصلاح ونظام ورضا ميسور مشكور ، حتى لقد سمى القرآن لذلك : « بالهدى » لأنه المرشد إلى أقوم مسالك الحياة ، ولأنه الدال على أحسن مقاصد الخير .

والأمثلة العديدة لا تعوزنا ، ولكننا لنقصر نأخذ بأشهرها ، وهو التساهل في سبيل تعدد الزوجات : وهو الموضوع الذي صادف النقد الواسع ، والذي جلب للإسلام في نظر أهل الغرب مثالب جمة ، ومطاعن كثيرة .

وما لا شك فيه أن التوحيد في الزوجة هو المثل الأعلى ، ولكن ما العمل ؛ وهذا الأمر يعارض الطبيعة ، ويصادم الحقائق ؛ بل هو الحال الذي يستحيل تنفيذه . لم يكن الإسلام أمام الأمر الواقع ، وهو دين اليسر ، إلا أنه يستبين أقرب أنواع العلاج ، فلا يحكم فيه حكماً قاطعاً ولا يأمر به أمراً باتاً .
والذي فعله الإسلام أول كل شيء أنه أنقص عدد الزوجات الشرعيات ، وقد كان عند العرب الأقدمين مباحاً دون قيد ، ثم أشار بعد ذلك بالتوحيد في الزوجة في قوله تعالى :

« وَإِنْ خِفْتُمْ أَنْ لَا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً » .

وأى رجل في الوجود يستطيع أن يعدل بين زوجاته المتعددات ! ولذا كان التعدد بهذا الشرط مستحيل التنفيذ ، ولكن انظر كيف وضعه الإسلام وضعاً هو غاية في الرقة والدقة واللفظ مع الحكمة .
ثم انظر هل حقق أن الديانة المسيحية بتقريرها الجبري لفردية الزوجة والتوحيد فيها وتشديدها في تطبيق ذلك ، قد منعت تعدد الزوجات ؟ وهل يستطيع شخص أن يقول ذلك دون أن يأخذ منه الضحك مأخذه ؟
ولاً فهؤلاء ملوك فرنسا .

— دع عنك الأفراد — الذين كانت لهم الزوجات المتعددات والنساء الكثيرات ؛ وفي الوقت نفسه ، لم من الكنيسة كل تعظيم وإكرام .

الشدة ، لكننا نقتصر على عرض بعض الملاحظات :

فالواقع يشهد بأن تعدد الزوجات شيء ذائع في سائر أرجاء العالم ، وسوف يظل موجوداً ما وجد العالم ، مهما تشددت القوانين في تحريمه .

ولكن المسألة الوحيدة هي معرفة ما إذا كان من الأفضل أن يشرع هذا المبدأ ويحدد ، أم أن يظل نوعاً من النفاق المتستر ، لا شيء يقف أمامه ويحد من جماحه .

وقد لاحظ جميع الرحالة الغربيين - ونخص منهم بالذكر «جيرار دى نيرفال» و «الليدى مورجان» - أن تعدد الزوجات عند المسلمين ، وهم يعترفون بهذا

== إن تعدد الزوجات قانون طبيعي ، وسبق ما بق العالم ، ولذلك فإن ما فعلته المسيحية لم يأت بالفرض الذى أرادته فانعكست الآية معها ، وصرنا نشهد الإغراء بجميع أنواعه ، وكان مثلها في ذلك مثل الشجرة الملعونة التى حرمت ثمارها فكان التحريم إغراء .
على أن نظرية التوحيد في الزوجة ، وهي النظرية الآخذة بها المسيحية ظاهراً تنطوي تحتها مبريات متعددة ظهرت على الأخص في ثلاث نتائج واقعية شديدة الخطر جسيمة البلاء - تلك هي : (الدعارة ، والموانس من النساء ، والأبناء غير الشرعيين) .

وإن هذه الأمراض الاجتماعية ذات السيئات الأخلاقية لم تكن تعرف في البلاد التى طبقت فيها الشريعة الإسلامية تمام التطبيق . وإنما دخلتها وانتشرت فيها بعد الاحتكاك بالمدنية الغربية . ومن الأمثلة القائمة على ذلك : ما كان من أمر وادى (ميزاب) حيث تسكن القبيلة التى بهذا الاسم في بلاد الجزائر ، إذ لم تدخلها الدعارة إلا بعد ضمها إلى فرنسا عام ١٨٨٣ . وقد وصل بها الحال اليوم أن أربع بلدان من مجموع كله سبع بلدان قد ابتليت بهذا الداء الويل .

وما فرويه من هذا القبيل : ما جاء في كتاب «الإسلام» تأليف «شتمز دومولان» أنه عند ما غادر الدكتور «مافروكو رداو» الأستاذة ١٨٠٧ إلى برلين لدراسة الطب لم يكن في العاصمة العثمانية كلها بيت واحد للدعارة ، كما لم يعرف فيها داء الزهري (وهو السفليس المعروف في الشرق بالمرض الإفرنكي) ، فلما عاد الدكتور بعد أربع سنين أى سنة ١٨٣١ تبدل الحال غير الحال ، وفي ذلك يقول الصدر الأعظم الكبير رشيد باشا في حسرة موجعة : «إننا فرسل أبناءنا إلى أوروبا ليتعلموا المدنية الإفرنكية . فيعودون إلينا مرضى بالداء الإفرنكي» .

على أنه من جهة أخرى نرى أن الطلاق قد يخفف بعض الشيء من أضرار هذا التمتع في القصر حل زوجية واحدة ولكن من جهة ثانية نرى أن الطلاق سيئة من السيئات . إذن ، ماذا ؟ إذن أى الأدوية قد خلا تماماً من بعض السميات ؟

على أن الكنيسة قد أساءت كذلك في مسألة الطلاق بمثل ما أساءت في أمر التوحيد في الزوجة . وذلك بمخالفتها أيضاً لقوانين الطبيعة .

انظر هل أشد من الحكم على زوجين شاوين لم يستطعا لبعضهما صبراً ، وقد خاب ظنهما في الزواج ، ولم يدركا السعادة التى طلباها من وراء ذلك ، هل أشد من الحكم عليهما بأن يخلدا يقضيان بقية أيامهما في عذاب وتكد وشقاء ! ! كذلك إذا كان أحدهما عاقراً ، أو كان غير كفء لزميله ، هل يحرم الآخر من أن يبني لنفسه بآخر ، وأن يقيم له عائلة من جديد ! !

وإننا نحن في صدد الطلاق لا تفوتنا حكمة التشريع الإسلامى ، وهو يرى السوء في فوضى الطلاق ، فيسمع النبي الكريم يقول : «أبغض الحلال إلى الله الطلاق» .

المبدأ ، أقل انتشاراً منه عند المسيحيين الذين يزعمون أنهم يحرمون الزواج بأكثر من واحدة . وليس ذلك بالأمر الغريب على الفطرة البشرية : فالمسيحيون يحملون لذة الشرة المحرمة عند خروجهم على مبدئهم في هذا .

/ ولكن هل تعدد الزوجات ، حقيقة ، أمر يصح أن نعلق عليه كبير اهتمام في عصرنا هذا ؟ إن مقتضيات الحياة الحديثة - ولندع جانباً كل الظروف الأخرى - تجعل من العسير جداً وجود تعدد الزوجات في المدن الكبيرة : وسوف يزول هذا الأمر بين المسلمين الذين يأخذون بأسباب الحضارة الحديثة خلال فترة قصيرة ؛ وإذا كان مبدأ التعدد سوف يبقى ، فلن نجده مطبقاً إلا في قلب البادية حيث تضطر الناس إليه ظروف الحياة التي لا مفر منها .

ومع ذلك فإننا نتساءل : هل في زوال تعدد الزوجات فائدة أخلاقية ؟ إن هذا أمر مشكوك فيه : فاللدعاة التي تنذر في أكثر الأقطار الإسلامية سوف تنتفي فيها وتنتشر آثارها الخربة . وكذلك سوف يظهر في بلاد الإسلام داء لم تعرفه من قبل ، ذلك هو عزوبة النساء التي تنتشر بآثارها المفسدة في البلاد المقصور فيها الزواج على واحدة ، وقد ظهر ذلك فيها بنسبة مفرغة ، وخاصة عقب فترات الحروب .

كتب شارل دوماس عن المسلمين ، في إحدى دراساته حول مستقبل المستعمرات الفرنسية : « إن جنساً لا يمكن أن يتحرر قط إذا قضى على نصفه (يعني النساء) بالرق الأبدى » .

الحجاب :

فهل المسلمات حقيقة قد قلر لمن حال من الذلة يرثى لها إلى هذه الدرجة ؟ لا شك أن الحجاب وشبه الحبس في البيت المفروضين على المرأة المسلمة ، يبدو لعين المرأة الأوروبية المغالية في التحرر ، أنه من مظاهر الرق البالغ القسوة ، فتظهر عطفها على المسلمات وترثي لحالهن ، ولكنها لو علمت بما تسره هاتيك المسلمات من مشاعر وأفكار ، لعجبت أن رأت نفسها هي الأخرى محل عطف من جانبهن ورتاء ، لا موضوع حسد كما كانت تظن . ومن ناحية أخرى فإن التحجب وازوم البيت ليسا على أى حال من الفروض الدينية بالنسبة إلى المسلمات : فنصوص

القرآن (سورة الأحزاب : ٥٣ - ٥٥) التي تتخذ حجة في ذلك تنطبق فقط على نساء النبي ولا تتعلق بسائر نساء المسلمين ، كما قد توحى بذلك ترجمة كازيميرسكى الحاطة للآية ٥٥ من سورة الأحزاب .

لذلك فإن مثل هذه التقاليد التي دخلت على الإسلام بعد موت محمد بسنين عديدة ، كانت محل نقد شديد من جانب المدافعين عن حقوق المرأة .

وانذكر من بين هؤلاء :

قاسم (بك) أمين بكتابه « تحرير المرأة » .

والزهاوى شاعر بغداد برسالته المتهورة عن الحجاب ، التي يشيد فيها بفضل المرأة ويعتمد على الآية « . . . وطن مثل الذى عليهن بالمعروف . . . » في مطالبته بالتحرير الكامل للنساء .

وأخيراً السيدة ملك حفنى ناصف التي نشرت ، بعد استئذان أبيها - أحد علماء الأزهر القدماء - قصيدة تحتج فيها بأن رفع الحجاب ، إذا كانت المرأة فاضلة ، ليس بشيء ذى ضرر ؛ أما إذا كانت نيتها سيئة فلن يجدى معها أى حجاب .

ومن المحتمل أن نشهد عاجلاً أو آجلاً زوال عادة التحجب في الشرق في الوقت نفسه الذى تحاول فيه بعض الأوربيات المتأنقات إدخال « مودة » النقاب التركى في المجتمع الغربى . وبهذا تخلع زهرة الجمال الإسلامى ذلك الثوب اللطيف الذى كان يحفظها من الأعين . ولكن ألن تأسف النساء الشرقيات على السحر الخفى الذى كان يسبغه عليهن النقاب ؟ وهل يجدن فيما يجنيه من الازدهار تحت أضواء المدنية القاسية ما يوضهن عن ذلك ؟ إننا نخشى أن تخرج الشرقية إلى الحياة العصرية ، وعيناها مبهورتان بأحلام الحرير فينتابها الرعب لما تشهده لدى أخواتها الغربيات ، اللاتي يسعين للعيش وينافسن في ذلك الرجل ، من أمثلة الشقاء والبؤس الكثيرة . ولكننا لا نريد أن نصدر حكماً في مثل هذه المسألة الشائكة^(١) وعلى أى حال فإن أهمية مثل هذه الإصلاحات وإمكانها يختلفان

(١) لم يصدر المؤلف حقاً حكماً في هذه المسألة وكل ما أراده إنما كان إظهار مرونة الإسلام ومسايرته لمختلف الأزمان ، ولقد قال مرة أحد كبار المفكرين : إن معنى الحجاب في الإسلام هو أن تحتجب المرأة عن مواطن الريب .

اختلافًا كاملاً ، حسب البلاد التي نهمنا ، ولذلك فإنه من المحال أن تؤدي بنا مناقشة المسألة إلى وضع قاعدة شاملة .

ولكننا ، مع ترددنا في إصدار حكم في الإصلاحات التي عرضناها ، نعترف صراحة ودون قيد ، بأن تعليم المرأة ضرورة بالغة الأهمية بالنسبة إلى مستقبل الإسلام .

والتعليم ليس له علاقة بالتقاليد والعادات التي تعرضنا لها آنفًا ، وهو يساير كل المسيرة جميع تعاليم الدين ، وقد كان في عصر ازدهار الإسلام يفاض فيضاً على المسلمات ، وكانت ثقافتهن حينذاك أرفع من ثقافة الأوربيات دون جدال .

والواقع أن التعليم في الشرق لم يندثر كلية مثلما اندثر في بعض أقطار المغرب . ومنذ بضع سنين ، والكثير من المسلمات يشغلن أوقات فراغهن في خدورهن بالتعلم وقد بدأ مستواهن الثقافي يرتفع عامة .

وعلى التعليم وحده يجب أن يعتمد التطور الاجتماعي ، في الميادين التي يكون فيها ضرورياً ، على أن يقلر ويوجه بحيث لا تكون له آثار غير محمودة في نظام الأسرة (١) .

خاتمة

الإسلام والعصر الحديث :

فلإذا ما فصل في مسألتى تعدد الزوجات وتحرير المرأة ، (وهما المسألتان الوحيدتان اللتان نجد لنقد الناقلين فيهما ظاهراً من الحق) ، بدا الإسلام على حقيقته : ديناً يتمشى في روحه تماماً مع أحدث الاحتياجات والأفكار العصرية ، حتى إن رجلاً من الإنجليز هو « أوزوالد ويرث » كتب يقول : « إنني تبينت أنني أدين بدين الإسلام دون شعور مني بذلك ، كما تبين المسيو چوردان ، أنه يتحدث "النثر" دون علم منه بذلك ، أما جرت ، فإنه بعد أن درس أصول الإسلام أعلن : إذا كان الإسلام هو هذا ، أفلا نكون جميعاً مسلمين ١٩ »

(١) وكثيراً ما يخطئ الكتاب بين الحديث عن تعليم المرأة والحديث عن مسألة الحجاب ، وقد بين المؤلف أن لا صلة بين الحديث في هذه وتلك .

وبعد مدة يسيرة من الزمن سيكون من حق الإسلام المطالبة بحقه في الحضارة الحديثة ، لأن الأساطير الصبائية المقترة عليه من عهد الحروب الصليبية إلى الآن لم يبق أحد يجرؤ على التسليم بها .

المسلمون ومساعدة فرنسا :

وبينما نحن نصل في كتابتنا إلى هذا الحد . إذا بأوروبا تفاجأ بأعظم حرب عرفها التاريخ منفجرة في قلبها ، وتشاهد ألوفاً من جنود المسلمين من سلالة غزاة مدينة بواتيه ، قد أغاروا من جديد على فرنسا كلها .

ولكنهم لم يأتوا هذه المرة فاتحين كما جاء آباؤهم الغزاة . بل جاءوا أصدقاء وإخوان سلام ، دعاهم حلفاؤهم إلى مشاركتهم في الجهاد الذي يتوقف عليه مصير الحضارة فأخلصوا في الدفاع عن الحضارة إخلاصاً أثار إعجاب حلفائهم وكل من وصلته أخبار بسالتهم ، وبهذا غرسوا الإسلام إلى الأبد في قلب أوروبا بأعجى طريقة وأشرفها ، أعنى بذلك قبورهم : الكثيرة التي تغطي أرض فرنسا .

وأوروبا اليوم أرضها تحوى عدداً من أتباع النبي محمد ، وهم بعد أن أدوا مثل هذه الخدمات للحضارة يشق عليهم أن يجرموا من شيء استشهد الكثير منهم في سبيل الدفاع عنه .

وليس من المعقول أن تكون خدائهم الجلييلة للحضارة والمحافظة عليها ، وأسوتهم الحسنة التي انتهت بتفهم الناس لحقيقة الإسلام وبساطته البديعة وبإزالة الكثير من الاتهامات التي كانت للناس فيما مضى — لا تحدث في بعض نفوس الأوروبيين أفكاراً جديدة عن الإسلام ليس فيها افتراءهم السابق .

تطلع أوروبا إلى الروحانية :

وكثير من ذوى العقول المستنيرة بعد أن أفاقوا من غفلتهم ، وبعد أن عرفوا إخفاق المذهب القائل بأن العقل يستقل بالمعرفة ، يسعى جاهداً لتعرف الهداية . وإن مذهب الحدس الذي يتهافنون عليه ، خلف حامل لوائه المسيو برجسون الشهير ، وهو عبارة عن رد فعل واضح لمذهب استقلال العقل بالمعرفة ، أو بتعبير أدق : هو رد فعل لعجز مذهب استقلال العقل بالمعرفة .

وقد جدد هذا المفكر ، في قلوب الناس النهمين في الإيمان ، آمالاً كان يبدو أنها انتهت إلى غير ما رجعة ، فهو يؤملهم في خلود الروح . وبذلك تكون الحياة الدنيا ليست مشتبكاً عظيماً لقوى عمياء ، وأن العقل وسيلة فقط من وسائل المعرفة . ومع تأكيد بطلان هذا لم يزد على أن بعث أفكاراً طال عليها العهد وأبرزها بطريقة يسهل فهمها ، واختار الوقت المناسب الذي يساعدها على أن تهبط عناصر دين جديد ، يشعر كثير من الناس بشدة حاجتهم إليه . (انظر كتاب حقائق الحياة لجوستاف لوبون) . إن حركة هذا الفيلسوف لا تقاوم ، وخصوصاً بعد دماء كثيرة سفكت بعد فتن عظيمة ، وسنشهد إذن مجهود الديانات القديمة والحديثة وهي تعمل جاهدة لاحتكار هذه الحركة لفائدتها ، ولكن المذهب القائل باستقلال العقل بالمعرفة ، حتى في حال انهزامه ، لن تكون ثمرته أقل : وسوف يقيم عقبة كأداء بين العقل والعقائد التي تتصادم معه تصادمًا عنيفًا .

ومن جهة أخرى ، ألا ينبغي لنا أن نحسب حساب النزعات الصوفية العاطفية الشاعرية ؟ أليست تلك النزعات عللاً جوهرية في وجود كل دين ؟ وإذا أردنا تلخيص الأمر في جملة واحدة ، أفلا نستطيع أن نقول : إن ألزم لزميات الدين العصري هي تلك التي يتميز بها الإصلاح الديني المتطرف من توحيد يكسوه ثوب رائع من الشاعرية ؟

وحيث أن يكون الإسلام قد توافرت فيه شروط الدين الحنيف الذي يتوقون إليه ، إذا تجرد من الزبد الذي طغى خلال جريانه . وقد نشأت جماعات صغيرة من الأوروبيين الداخلين في الإسلام في إنجلترا وأمريكا ، إحداها ، وهي التي يديرها المستر كويلم ، تقيم في ليفربول ، منذ عدة سنوات ، واشتهرت بأن معظم من دخلوا الإسلام فيها من النساء . ولقد كان لإسلام عضو بارز في إنجلترا ، وهو اللورد هدى الذي تبعه في الإسلام بعض وجهاء لوندرة وأعيانها وقع في النفوس ، وتشر الجماعة الإسلامية مجلة شهرية تدعى « المجلة الإسلامية » التي أسسها هذا الرجل العالى القدر ، نفتبس منها ردها على السؤال الذي كثيراً ما يرد وهو : لماذا أسلم بعض الإنكليز وغيرهم من الأوروبيين ؟

« ذلك لأنهم كانوا يلتمسون عقيدة سهلة معقولة عملية في جوهرها ، لأننا نتبجح

معاشر الإنجليز ، بأننا أكثر أهل الأرض تشبهاً بالعمل . عقيدة تكون ملائمة لأحوال الشعوب جميعاً وأعمالهم وعاداتهم . عقيدة دينية صحيحة يقف المخلوق بها أمام الخالق بدون أن يكون بينهما وسيط « (شلدريك) .

من مميزات الإسلام :

وهناك شيء مهم ، وهو انتفاء الوسطة بين العبد وربّه ، وهذا هو الذى وجدته العقول العملية فى الإسلام ، خلوه من الأسرار وعبادة القديسين ، ولا حاجة به إلى الهياكل والمعابد لأن الأرض كلها مسجد لله ، وفوق ذلك قد يجد بعض أهل مذهب الاعتقاد بالله دون غيره من العصريين المتحيرين فى التعبير عما يخالج نفوسهم من التطمع ، قد يجدون فى الإسلام المذهب النقي للاعتقاد بالله فيجدون فيه أبدع وأسمى أعمال العبادة وما يمكن أن يتخيله من معنى ألفاظ الدعاء . ثم نزيدك شاهداً آخر ، وهو قول شرفيس : « الإسلام يحقق أبلغ معنى لفضيلة الإيثار على النفس بأقل بحث فيها من الوجهة النظرية » . وقد حصل فى فرنسا وفى بلاد أخرى من أوروبا وأفريقيا وآسيا دخول أشخاص فى الإسلام فرادى ، وربما كان ذلك مصداقاً لهذا الحدث النبوى الذى معناه « قد يؤيد الله هذا الدين بالغرباء منه »^(١) .

ومن مميزات الإسلام الأصيله ملائمته لجميع الأجناس البشرية ، فلم يكن العرب وحدهم هم الذين اتبعوا الإسلام ، بل كان من ضمنهم من هو من فارس كسلمان الفارسى ، وبعضهم من النصارى كورقة^(٢) ، وبعضهم من اليهود كمخبريق وعبد الله بن سلام ، وبعضهم من الأحباش كبلال وغيرهم ، وجاء فى القرآن الكريم : « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً » (السورة ٢٤ آية ٢٧) .

فدين الرسول محمد عليه السلام ، قد أكد ، من الساعة الأولى لظهوره ، وفى حياة النبي عليه السلام ، أنه دين عام صالح لكل زمان ومكان ، وإذا كان

(١) يعلق الأستاذ عيد المزيـز محمد على هذا بقوله : لا يعرف حديث بهذا المعنى ، بل الإسلام صلة ولحمة بين جميع المسلمين مهما اختلفت أجناسهم وتباعدت أوطانهم (إنما المؤمنون إخوة) .
(٢) ورقة كان على أتم استعداد للإسلام لو أمر الرسول بالدعوة حال وجوده .

صالحاً بالضرورة لكل جنس كان صالحاً بالضرورة لكل عقل ، إذ هو دين الفطرة ، والفطرة لا تختلف في إنسان عن آخر . وهو لكل هذا صالح لكل درجة من درجات الحضارة ، وهو على ما فيه من تسامح وبساطة ، سواء بالنظر لمذهب المعتزلة ، أو بالنظر للمذهب الصوفية ، يؤدي للعالم هداية وتوفيقاً ، سواء في ذلك الأوربي المتحضر والزنجي الأسود ، من غير أن يعوق جرية الفكر عن أحدهما ، ثم يزيد على ذلك بالنسبة للزنجي انتشاله من عبادة الأوثان .

ثم هو لا يعوق الرجل العمل الذي يرى حياته في العمل ويعتبر الوقت من ذهب ، كالرجل الإنجليزي ، وكذلك لا يعوق الرجل الصوفى والشرقى المتأمل في بدائع الصنع ، ويأخذ بيد الغربى المأخوذ بسحر الفن والخيال . وليس هذا فحسب ، بل هو يستولى على لب الطبيب العصرى أيضاً ، بما فيه من الطهارة المتكررة في اليوم والليلة ، وتناسق حركات المصلى في الركوع والسجود ، وما فيها من نماء للجسم وإفادة للصحة الجسمية والنفسية .

وعلى هذا فليس من الجراءة إذن ، أن نظن أنه إذا هدأت الزوابع المروعة القائمة ضد الإسلام ، وضمن هو الاحترام لكل الشعوب والديانات ، أنه سيرى مستقبلاً حافلاً بأعظم الآمال وأعلاها شأنًا .

فإذا ما دخل في الحضارة الأوربية بفضل اشتراكه العظيم في الحوادث فسيتمتع سناه الحقيقى ، وستعرف الأمم المختلفة حقيقته التى حجبته عنهم زمناً ، وسيجد الكل يده لمخالفته ، متنافسين في ذلك ، لأن قيمته قد خبروها ، وعرفوا ما يستكن فيه من وسائل القوة التى لا حد لها ولا نقاد . . . ولو نهض أتباع محمد عليه السلام وأفاقوا من سباتهم العميق لرجع لهم عزهم السالف وتاريخهم المجيد وصاروا أمة لا تعرف الجور في معاملتها لكل رعاياها ، لا فرق بين مسلم ومسيحى ويهودى ، وتبوءوا مكانهم الذى يليق بمجدهم إن شاء الله .

«عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ
مِنْهُمْ مَوَدَّةً، وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ»

تم تأليف هذا الكتاب في بلدة بوسعادة ، في اليوم السابع والعشرين من شهر رمضان عام ١٣٣٤ للهجرة (٢٨ يوليو سنة ١٩١٦ مسيحية) .

اللهم كن رءوفاً بمؤلفيه . ولا تؤاخذهما على تلك الجرأة الطائشة التي دفعتهما - في سعيهما إلى الخير - إلى محاولة تناول موضوع واسع كهذا ، مع ضآلة معلوماتهما .

ويا عليم اغفر لهما ما عسى أن يكونا قد وقعنا فيه - بسبب جهلهما - من أخطاء في سيرة جليلة كسيرة رسولك سيدنا محمد خاتم النبيين .

صلوات الله عليه وبركاته . . .

وعلى آله وصحبه . . .

آمين .

لأيتين دينيه ، سلجان بن إبراهيم

فهرس الكتاب

الصفحة	الموضوع
٧	مقدمة عن حياة ناصر الدين وآرائه
٦١	مقدمة المؤلف
	الفصل الأول
٦٩	الأذان . أداء الصلاة . أوقات الصلاة . وصف مكة . الكعبة والحجر الأسود . عين زمزم . زواج عبد الله أبي النبي .
	الفصل الثاني
٨١	مولد النبي . طفولته في بادية بني سعد . محمد والمكان . موت آمنة . أول سفره إلى سوريا . محمد والراهب . الرحلة الثانية إلى سوريا . حديث بنيان الكعبة ووضع الحجر الأسود .
	الفصل الثالث
١٠٣	عزلة محمد . محمد لم يؤلف القرآن . الرؤيا الصادقة . الوحي . المسلمون الأول . الجهر بالدعوة . القيامة . المناوشات الأولى . الاعمى . إسلام حمزة . عروض المشركين على الرسول . معجزة القرآن . الصد عن سماع القرآن
	الفصل الرابع
١٤٣	هجرة المسلمين . إسلام عمر بن الخطاب . نفي بني هاشم إلى الشعب . أكل الأرضة الصغيرة . وفاة أبي طالب وخديجة . خروج الرسول إلى الطائف . الإسراء والمعراج . إسلام ستة من أهل يثرب . بيعتا العقبة . المؤامرة ضد الرسول

الموضوع

الفصل الخامس

هجرة الرسول إلى المدينة . قصة سراقة . وصول الرسول إلى
 قباء . التاريخ الهجرى . الرسول يصل إلى يثرب . بناء مسجد
 المدينة . القبلة . الأذان . صوم رمضان . الزكاة وتحريم الخمر .
 زواج الرسول بعائشة . عودة اليهود والمشركين . الجهاد . غزوة بدر
 الإقامة ببدر ثم العودة إلى المدينة ١٧٣

الفصل السادس

زواج على . زواج الرسول بحفصة وبأم المساكين . معركة
 أحد . زواج محمد بزینب . غزوة ذات الرقاع . غزوة بنى
 المصطلق . التيمم . حرب الخندق . معاهدة الحديبية ٢١٥

الفصل السابع

غزوة يهود بنى قينقاع . غزوة يهود بنى النضير . غزوة
 يهود بنى قريظة . غزوة يهود خيبر . اهتمام الرسول بالخیل .
 الشاة المسومة . عمرة القضاء . رسل النبي إلى الملوك . غزوة
 مؤتة . فتح مكة . دخول الرسول مكة . الرسول بالصفاء .
 غزوة حنين ٢٥٣

الفصل الثامن

خبر الإفك . غزوة تبوك . بلاد ثمود . وصول الرسول إلى
 تبوك وإقامته بها . الرجوع إلى المدينة . حجة الوداع ٢٨٩

الفصل التاسع

مرض النبي وموته . مبايعة أبى بكر . تشييع الرسول إلى مقره
 الأخير . صورة وصفية للرسول ٣١٧

الفصل العاشر

- وثبة الإسلام . أثر الحضارة الإسلامية في أوروبا . أثر المسلمين في ميدان الفكر . أثر الأخلاق الإسلامية . السبب في إنكار علماء الغرب آثار الإسلام في الحضارة الغربية . سبب تدهور المسلمين . مستقبل الإسلام . عقيدة القضاء والقدر . التعصب . العلة في بغض المسيحيين للإسلام . تعدد الزوجات . الحجاب ٣٣٥
- خاتمة : الإسلام والعصر الحديث . المسلمون ومساعدة فرنسا . تطلع أوروبا إلى الروحانية . من مميزات الإسلام ٣٥٩

رقم الإيداع	١٩٨٦ / ٥٣٨٤
الترقيم الدولي	ISBN ٩٧٧-٠٢-١٨٠٠-٠٦

١ / ٨٦ / ١٨٥

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

هذا الكتاب

تحليل دقيق ، وعرض صادق للسيرة العطرة ، يجلو جواز جديدة
من حياة رسول الإسلام ، وجهاده في سبيل نشر الدعوة وتثبيت مفاهيم
العقيدة الإسلامية .

والمؤلف فنان ذو شعور ديني ، ومتدين غمره شعور فني ، فكان
مثالاً للمسلم الملهم الذي جند مواهبه وطاقاته للدفاع عن الإسلام ورسوله ،
وتبيان سماحة الشريعة ، وعالميتها وصلاحياتها للبشرية ، كما أوضح المناخ
العقدي الإسلامي ، والمنهج السلوكي الذي اختطه الإسلام لعتنقيه ،
وفعالية الحضارة الإسلامية في أوروبا ، وموقف بعض علماء الغرب
والمستشرقين من سيرة محمد ، ورسالته صلى الله عليه وسلم .

١٢٦٧ / ٠٣

Bibliotheca Alexandrina



0402352

